موت أرتيميو كروث

رواية

145

المشروع القومى للترجمة

تأليف : كارلوس فوينتس

ترجمة : أحمد حسان

المشروع القومى للترجمة

كارلوس فوينتس

موت أرتيميو كروث

رواية

ترجمة

أحمد حسان

المجلس الأعلى للثقافة
٢٠٠٠

هذه ترجمة كاملة عن الإسبانية لرواية:

LA MUERTE DE ARTEMIO CRUZ

تأليف: CARLOS FUENTES

نشر:

FONDO DE CULTURA ECONÓMICA

OCTAVA reimpresión, 1978.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠٠٠/١٥٥٩

تقديم

كارلوس فوينتس واحدٌ من أهم الأقطاب البارزين والمحرِّكين النشطين لموجة التجديد السردى الأمريكى اللاتينى فى الستينات التى أطلق عليها اسم "الرواج" boom، والتى كان من بين فرسانها جارثيا ماركث، وبارجاس يوسا، وخوليو كورتاثار، وخوسيه دونوسو، وكثيرون غيرهم.

وهو من أغزر كتاب هذه الكوكبة إنتاجاً رغم أنه أقلهم حظاً من الترجمة إلى العربية. وقد أصبح عدد كبير من كتبه علامات بارزة فى مسيرة هذه الكتابة الجديدة.

كتب نحواً من عشرين رواية وعدداً من المجموعات القصصية أدرجها فى سجل أعطاه عنوان "عمر الزمن"، فى طموح ملحمى لإعادة الخلق الشعرِية لمختلف مراحل الزمن المكسيكى واللاتينى.

من بين رواياته "الإقليم الأشد شفافية" و"موت أرتيميو كروث" و "منطقة مقدسة" و "تغيير الجلد" و "أرضنا" و "الجرينجو العجوز" و "كريستوبال نوناتو" علاوة على رائعته القصيرة "آورا".

ومن مجموعاته القصصية "الأيام المقنَّعة" و "نشيد العميان" و"شجرة البرتقال".

كتب النقد الأدبى وساهم فى التنظير للكتابة الجديدة، كما كتب الدراما وسيناريوهات عدد من الأفلام التجريبية بالإضافة إلى نشاطه الصحفى الضخم فى المكسيك والولايات المتحدة وأوروبا.

نال العديد من الجوائز توجتها جائزة ثربانتس ـ نوبل الآداب المكتوبة بالإسبانية ـ عام ١٩٨٧.

ولد فوينتس عام ١٩٢٨، نفس عام ميلاد جارثيا ماركث. كان والده ديبلوماسياً. ولذا قضى شطراً من طفولته فى الأرجنتين

وتشيلى، وتعلم الإنجليزية فى إحدى مدارس واشنطن، ودرس القانون فى سانتياجو دى تشيلى وفى چنيف حيث نال درجة الدكتوراه.

أكسبته فترات إقامته الطويلة خارج بلاده وجولاته التالية فى عواصم العالم إتساع أفق نادر ومعرفةً واسعة باللغات الأوروبية الحديثة وإنشغالاً يقارب الهوسَ بتاريخ المكسيك والقارة اللاتينية. أما ولعه بالسينما فبارز بحيث يجبر النقاد على البحث عن منابع المؤثرات التى تركت طابعها عليه ليس فقط لدى الكتّاب السابقين عليه (بلزاك، كافكا، فوكنر، بورخس، أستورياس، رولفو، كاربنتييه... بين عديدين غيرهم) بل كذلك لدى فنانى السينما الكبار من أمثال بونيويل وأورسون ويلز. وأعماله لا تقتصر الاستفادة من السينما بل هى سينمائية فى بنيتها على نحوٍ عميق كما يظهر بوضوح فى الرواية الحالية.

وبمثابة تقديم للرواية الحالية التى حققت لمؤلفها شهرةً عالمية فور صدورها، سأحاول إلقاء الضوء على الإطار الفكرى الذى نتجت عنه الرواية وذلك بالتركيز على إيراد مقتطفات على لسان فوينتس ذاته.

يرى فوينتس أن كل ثقافة وأدب القارة اللاتينية قد مرّا بثلاث مراحل. هذه الحلقات الثلاث، هذه الدوائر الثلاث، المتماسّة أحياناً، هى اليوتوبيا، والملحمة، والأسطورة.

فقد تم اكتشاف القارة والتفكير فيها على أنها يوتوبيا. لكن هذه اليوتوبيا سرعان ما تم نفيها ودمّرتها الممارسة العملية للاكتشاف والاستعمار. وجه كورتيس ضربةً قاصمة لتوماس مور وجعلت الضرورةُ التاريخيةُ اليوتوبيا تتدرجُ فى الملحمة.

"وقد عشنا تحت علامة الملحمة طوال حياتنا تقريباً، كانت رواياتنا ملحمية وفننا ملحمياً. لكن فى اللحظة التى تنضب فيها هذه الطاقة الملحمية، يبدو أنه لا يتبقى لنا سوى إمكانية أسطورية".

والملحمة تعنى أن يكون للقارة تاريخٌ مقدس، أى أن تحيا خارج التاريخ. بينما تتيح الأسطورة إمكانية إعادة إلتقاط ذلك الماضى، "الخروج من ذلك الماضى، الذى هو تاريخٌ خالص، تاريخٌ ليس ملكاً لأحد، كى ندخل فى الديالكتيك. الخروج من كتابة التاريخ (...) للدخول فى الديالكتيك، الذى هو صُنع التاريخ وصنعه بالأساطير التى تمنحنا خيوط (...) كل ذلك الماضى الطوباوى والملحمى من أجل تحويله إلى شىء آخر. فعن طريق الأسطورة نعيد تفعيل الماضى".

طوال ذلك الماضى، كان الكاتب الأمريكى اللاتينى يعمل إنطلاقاً من امتياز مجموعة نخبة تقدمية قرأت، منذ زمن حروب الاستقلال، مونتسكيو وروسوه، وأرادت نقل العالم المتحضر الذى تمثله الدساتير الفرنسية والأمريكية والبريطانية إلى القارة الهمجية. وحين تم فرض تراكب العالم الرأسمالى الأمريكى الشمالى فوق البنيات الإقطاعية وشبه الإقطاعية للقارة، فقد الكاتب موقعه ضمن النخبة وسقط فى غمرة البورچوازية الصغيرة. تحوَّل إلى موضوع، لكل تناقضات، وكل استلابات، وكذلك كل حداثات ذلك المجتمع الاستهلاكى المتراكب فوق عالم القرن السادس عشر. تحوّل الكاتب من واعظ إلى كاتب حقيقى يشارك فى الخطيئة والذنب وينغمس فى وضع مشترك مع البشر الآخرين.

"وأعتقد أن الرواية الأمريكية اللاتينية الجديدة قد وُلدت، إلى حدٍ كبير، من هذا الوضع الجديد للكاتب فى أمريكا اللاتينية ومن وعىٍ جديد، بمعاصرته، إذا عدنا دوماً إلى هذه الفكرة لأوكتابيو پاث، وإلى وعىٍ بأن الواقع ليس هو تلك الثنائية البسيطة، المانوية، التى

يقدمها لنا ثيرو أليجرّيا، وخورخى إيكاثا، وروموِلو جاييجوس، بل إنه واقعٌ ملتفٌ إلى ما لا نهاية يوجد فيه مصير تراچيدى معين، لأننا ننتبه إلى أن العادلين والظالمين مذنبون، ومن هنا ينشأ التوتر التراچيدى".

"أعتقد، كذلك، أن المشكلة اليوم، هذه المشكلة التى تضفى ثراءً على الرواية الراهنة فى أمريكا اللاتينية، هى أننا نحيا فى بلدان مازال علينا فيها أن نقول كلَّ شىء، لكن مازال يجب فيها إكتشافٌ كيف يقال هذا الكل شىء".

المشهد هو نفسه؛ وما تغيّر هو القدرة التخيلية التى تضيؤه.

المشهد هو نفسه، لكنه، بعد كل هذا التاريخ الشديد الاضطراب، يثير الخوف "من كل القاع الكامن للبلد، من ذلك القاع التعبيرى، العنيف، والباروكى الذى هو، أكرر، رابطتنا الحقيقية مع عالم أصبح عنيفاً، وتعبيرياً، وباروكياً وتناظراته حالياً هى **البوب آرت والكامب**؛ هم جونترجراس ونورمان ميلر، وأندى وارهول وسوزان سونتاج، وچوان بايز وبوب ديلان".

الواقع، خصوصاً الواقع الحضرى، فى المكسيك ينطوى، فى رأى فوينتس، على **البوب، والكامب، والبيت** Beat. ويتذكر أن بريتون سمى المكسيك باسم الأرض المختارة للسوريالية، و"إذا كان مؤكداً أن السوريالية هى دوماً هذا التوتر بين الرغبة والشىء المرغوب، فإن التوتر فى المكسيك أقوى بكثير، لأن الفجوة بين الرغبة وموضوعها ضخمة. إنها هاوية حقيقية: وكل إلتقاء للرغبة بالواقع فى المكسيك عليه أن يكون فوق - واقعى بالضرورة".

كما أن فى الواقع المكّسيكى وجودية قبل التسمية. فالمكسيك هو بلد اللحظة الراهنة. فالغد غير محتمل تماماً، وخطر.

و"ثمة عالم كامل من الإدراكات المتجاوزة ـ للحواس مضى آرتو وميشوه وهكسلى بغية إكتشافها فى المكسيك".

وإضاءة هذا الواقع لا يمكن أن تكون بالتسجيل النصى الممل، ولا بالوصف الفوتوغرافى، ولا بالرسالة المنقولة بالصراخ.

فمع نهاية الملحمية ماتت الثنائيات التبسيطية السهلة: الحضارة ضد الهمجية؛ الإنسان فى مواجهة الطبيعة؛ الطيب فى مواجهة الشرير؛ الغنى فى مواجهة الفقير... إلخ. وأصبح الواقع ملتبساً وظَنِّياً. لم يعد ما هو موجودٌ خارج الوعى، بل كذلك إنطباعه فى الوعى واللاوعى. أصبح وقائعاً منعكسة فى مرآة خيالات وأحلام وكوابيس وشكوك وهلاوس الكاتب. وأصبح الأمر المهم فى الروايات الجديدة هو ذلك الجوهر التخيلى. ذلك الخيال الخاص بالأدب. مما دفع النقاد للحديث عن "واقعية سحرية" بعد أن كان أليخو كاربنتييه قد تحدث عن "واقع عجائبى". والتسميتان كلتاهما لا تحيلان إلى عالم فوق ـ واقعى، مثل الصور السوريالية، ولا إلى عالم خارج الواقع، مثل عالم الأدب الفانتازى، بل تشيران إلى البحث عن ما هو عجائبى فى الواقع اليومى وفى وعى الكاتب به.

ويرى الكاتب والناقد ماريو بنيديتى أن روايات فوينتس نموذجيةٌ فى أكثر من جانب لأنها قدَّمت روايةً اجتماعية بأفضل المعانى الأدبية للكلمة. "فقبل أن توجد بوصفها نقداً إجتماعياً، بوصفها نزعاً لأقنعة النفاق، توجد هذه الروايات بوصفها أدباً. وكلها ذات بنيةٍ قصديةٍ وصلبة. ومثلما لدى العديد من الوحوش المقدَّسة للفن الروائىِّ المعاصر (فى ذهنى چويس، وفوكنر، ودوس باسوس)، ليس ثمة ذرة من الفوضى

لا تعتمد على تنظيم ملليمترى".

يقول فوينتس: "فجأة" ننتبه إلى أن اللغة هى أحد العوامل الموضوعية للواقع وإلى أن الكاتب الذى يتحكم فى اللغة يصبح هو الإجابة الوحيدة الممكنة على النزاع اللفظى للسلطة. إنها الإمكانية الوحيدة لإعطاء الواقع **معنىً آخر**، بإفتراض أن الواقع فى أيامنا هو كلمة".

"إذ نشهد صراعاً محتدماً بين لغتين: لغة السلطة الكاذبة ولغة الفنان الأصيلة".

"والاستخدام الحقيقى للغة يُخضعِنُا لنزعة ثورية يومية، دائمة، تتمثل (...) فى وضع كل شىءٍ موضع التساؤل، حالةً بحالةٍ ولحظةً بلحظة؛ وهذه هى الطريقة الوحيدة للمشاركة فى **التاريخ**".

فاللغة "إمّا أن تكون حريةً أو لا تكون؛ والحرية بالنسبة لى هى الإبقاء على هامش الهرطقة، الإبقاء على الحد الأدنى من الانشقاق حتى لا تنغلق تماماً أبداً أبواب الطموحات العينية للبشر العينيين".

" بالنسبة لى هناك حقيقة جوهرية: فى كل الروايات الجديدة لأمريكا اللاتينية ثمة، بداهةً، بحثٌ لغوى. ثمة رجوعٌ إلى منابع اللغة. وإذا لم تكن هناك إرادةٌ لغوية فى رواية من أمريكا اللاتينية، فهذه الرواية بالنسبة لى غير موجودة".

وعند جارثيا ماركث، وعند بارجاس يوسا، وعند دونوسو، وعند بيثنتى لينييرو، هناك، بداهةً، إرادةٌ للعثور على لغةٍ هى، فى نهاية المطاف، إجابة الكاتب على متطلبات فنه وكذلك على متطلبات مجتمعه. وأعتقد أن إمكانية المعاصرة تكمن هنا.

هذه الإجابة المزدوجة على متطلبات الفن ومتطلبات المجتمع تتضمّن مُركّباً، نوعاً من الأخلاق اللعبية أو من تسييس اللعب مهماً بشكل استثنائى.

"... وبعبارة سوزان سونتاج، هناك توترٌ نمطى فى الثقافة والفن المعاصرين بين القطب الأخلاقى المُستَّمد من العبرانية، ومن الأناجيل، ومن ماركس وما شابه ذلك، وبين القطب اللعبى لذى الجنسية المثلية، ولعناصر التزيين، ولرؤية الأشياء بوصفها ليست ما هى عليه، لنزع طبيعتها: أى إرادة الأسلوب. وعند بونيويل هناك مركَّبٌ عبقرى من اللعب ومن الجدية، يكون المرءُ فيه جاداً وهو طائش، وطائشاً وهو جاد. جدلٌ أصيل من أجل قول أشياء تضىء واقعنا بطريقةٍ رائعة"... "الرقة فى العنف وَالبحث بإعتباره تحقُّقاً للتعارضات المتنافرة، شذوذ البراءة". وهذا المركب ينطبق تماماً على الأعمال الروائية لفوينتس ذاته.

ضمن هذا الإطار يمكننا فهم طموح رواية "موت أرتيميو كروث" التى يصفها فوينتس بأنها "حوار مرايا" بين جوانب شخصية كروث المحتضر. إذ يقول فى حديث لإيمانويل كاربايّو: "ثمة عنصر ثالث، هو الوعى الباطن، وهو نوعٌ من فيرچيل يقوده عبر الدوائر الاثنتى عشرة لجحيمه، وهو الوجه الآخر لمرآته، النصف الآخر من أرتيميو كروث: هو الـ أنت الذى يتحدث بصيغة المستقبل. إنه الوعى الباطن الذى يتشبَّث بمستقبل لن يبلغ الـ أنا - العجوز المحتضر - درجة معرفته. والـ أنا العجوز هوَ الحاضر، بينما ينقذ الـ هو ماضى أرتيميو كروث. الأمر يتعلّق بحوار مرايا بين الضمائر الثلاثة، بين الأزمنة الثلاثة التى تُشَكِّل حياة هذه الشخصية الفظَّة والمستَلَبة. فى إحتضاره، يحاول أرتيميو، من خلال الذاكرة، إعادة الإستيلاء على أيامه الإثنى عشر الحاسمة، الأيام التى هى، فى الحقيقة، إثنى عشر خياراً"، ويضيف:

"فى الزمن الحاضر للرواية، فإن أرتيميو هو رجلٌ بلا حرية: فقد إستنفدها بقوة إختياره. وعلى القارئ أن يحدِّد إن كان هذا الاختيار حسناً أم سيئاً".

ويعلق بنيديتى قائلاً أن فوينتس يدير حوار المرايا هذا ببراعة تثير الإعجاب. فقليلةٌ هى الروايات التى قرأها وتتمتع ببناءٍ على هذه الدرجة من الصرامة والمخاطرة. "إن كروث مزيجٌ غريب من الواقعية والفانتازيا، من الذاكرة والاختلاق. وربما كانت واقعية فى درجةٍ صوتيةٍ أعلى، كافيةٍ لإكتساب دافع غنائى، صوت مثير للمشاعر أحياناً. وقرب نهاية الرواية، يُعدِّدُ الوعْىُ الباطن كل الأشياء التى كان يمكن أن يكونها أرتيميو كروث، لو كان بساطةٍ قد إختار، فى كل خيار، طرقاً مختلفةً عن تلك التى إنتهجها فى الواقع. وكريشيندو التعدادً مؤثرٌ حقاً؛ والنتيجة الحتمية هى أن يراجع كلُّ قارىءٍ قائمته الخاصة والمتواضعة وأن يصل، ربما، إلى نتيجة أنه هو أيضاً، بقوة إختياره، قد استنفد حريته.. (...) إنها رواية لا يعادلها فى إصرارها إلاّ قلةٌ من الروايات، وتصلُ إلى حيث تريد الوصول؛ وهذا لا شك فيه".

بالطبع، يمكن الحديث طويلاً عن الرواية التى كُتب عنها الكثير منذ ظهورها عام ١٩٦٢، لكن الصعوبة البارزة فيها بالنسبة للقارىء تظل هى بنيتها غير المألوفة، وترتيب أجزائها ومغزى هذا الترتيب. ولتفسير هذا الجانب الذى يمكن أن يربك القارىء أرفق فيما يلى جزءاً من مقال ممتاز للناقد نلسون أوسوريو يفسر فيه هذا الجانب من بنية الرواية.

جزء من مقال:
أحد جوانب البنية فى
"موت أرتيميو كروث"

II

على المستوى الشكلى الخالص، وللوهلة الأولى، ليست **موت أرتيميو كروث** مقسّمة على الطريقة التقليدية، إلى فصول، أو أجزاء أو حلقات. ولا تظهر إلاّ كفسيفساء من ٣٨ شذرةٍ متفاوتة الطول.

ورغم ذلك، فإن قراءةً إولى تكشف لنا أن البنية الشكلية والداخلية لهذه الشذرات تتيح ترتيبها فى ١٢ جزءاً يضمُّ كلُّ واحدٍ منها ثلاث شذرات، يُضاف إليها شذرتان أخيرتان، على سبيل المقطع الختامى أو الخاتمة. وتشكِّل هذه الأجزاء الإثنى عشر فصولاً حقيقية ذات تنظيم شكلى متواز، يتكون كلُّ واحدٍ منها من ثلاثة مواضع تتمايز بالتحديد اًلثلاثى لـ **الزّمن** (مضارع، ومستقبل، وماضى)، و**الفاعل** (أنا، وأنت، وهو)، و**حامل المنظور** (الوعى، والوعى الباطن، والذاكرة).

والشذرات التى تحتل المرتبة الأولى فى كل واحدٍ من هذه الأجزاء، والتى تُستَهَلُّ جميعها بالضمير الشخصى **أنا**، تنقلُ حاضر وعى أرتيميو كروث فى إحتضاره. وتمتزج فيها أصوات الحاضرين لديه، وأفكاره الخاصة، وتداعياتٌ معينة متواترة، تعكس، عن طريق إزاحة سياقية متزايدة، تحلُّلَ هذا الوعى أمام تقدُّم الموت.

والثانية، التى يتصدّرها الضمير الشخصى **أنت**، تكشف صوتاً لا زمنياً يقوم، عن طريق إلتقاطه لبعض عناصر الوعى، برسم تخطيط فى المستقبل، لإمكانية إنتقاء، إمكانية إختيار، مستمدَّة من لحظاتٍ محورية معينة وفاصلة فى وجود الشخصية.

وأخيراً، فإن الشذرات التى تأتى فى المرتبة الثالثة، والتى

يتصدّرها الضمير الشخصى هو، تستقذ من الماضى، عن طريق الذاكرة، ١٢ حلقة من حياة أرتيميو كروث، ١٢ لحظة مثّلت إحتمالات إختيار أخرى شكّلت عند حلها الكينونة النهائية لتلك الشخصية التى تحتضر الآن. وهذه الشذرات، التى تكوّن ثلثى الرواية، تحدّد التاريخ الدقيق لليوم، والشهر، والسنة التى جرت فيها الأحداث التى ترويها.

وأخيراً، فى المقطعين الختاميين (٣٧ و ٣٨)، فإن أنا الوعى والحاضر هما بالكاد شهقة حياةٍ أخيرة تتحلّل فى حلم المخدِّر والموت، وبعدها يتمكن الوعى الباطن بشكل ضبابى من تسجيل اللحظة الأخيرة للتحلّل النهائى. ولا توجد هنا شذرة الماضى التى كانت ستكمل التوازى من وجهة النظر الشكلية، لأن هذا التوازى يقيمه على نحو ما العملُ برمته، ذلك اليومُ الأخير لأرتيميو كروث، الذى يغلق الدوّرة الكلية للميلاد والموت، الآن حيث "حياته ومصيره هما نفس الشىء". (ص ٢٠٩).

ويمكننا أن نرى بوضوح أكبر كل هذا النسق فى شكل تخطيطى بالغ البساطة:

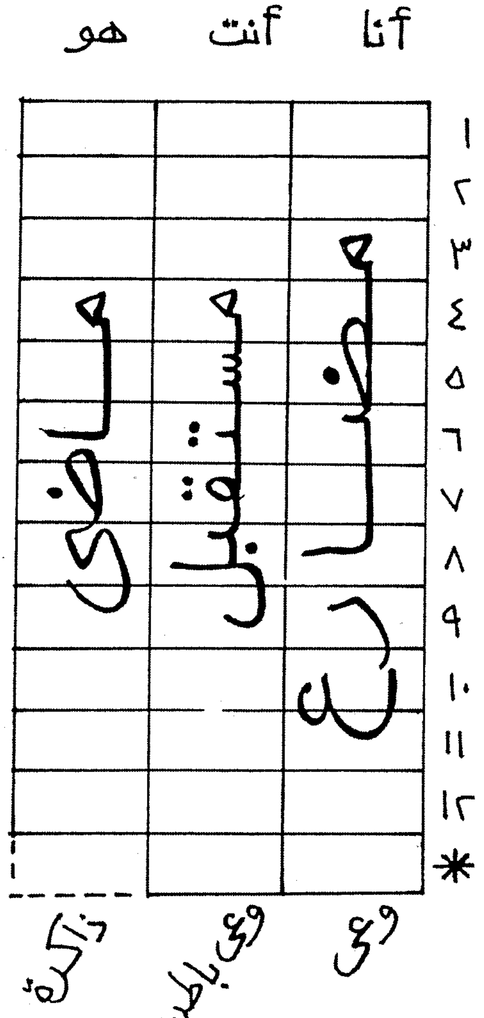

أنا أنت هو
١
٢
٣
٤
٥
٦
٧
٨
٩
١٠
١١
١٢
*
مضارع
مستقبل
ماضي
وعي
وعي باطن
ذاكرة

هذه اللوحة وما قلناه سلفاً يبين لنا أن الرواية فى شكلها الأكثر خارجيةً تتمتع بتماسك بنيةٍ وظيفية وواعية. إن عمل هذا المؤلف ـ كما يشير بنيديتّى ـ له "بنيةً قصدية وصلبة. ومثلما لدى العديد من الوحوش المقدَّسة للفن الروائى المعاصر (فى ذهنى چويس، وفوكنر، ودوس باسوس)، ليس ثمة ذرة من الفوضى لا تعتمد على تنظيم ملليمترى"(٦) فى كل لحظة من لحظات إحتضار أرتيميو كروث، نجد أن كلمةً، أو إحالةً جرى تخطيطها بالكاد مرَّات عديدة، أو تداعياً لا واعياً، يحفز أداء الوعى الباطن الذى يُحلِّق بتلك الذكرى إلى بُعدٍ متسام، ثم تستنقذه الذاكرة وترويه إنطلاقاً من الماضى. وهذه الحلقات الإثنتى عشرة للماضى هى إثنى عشر يوماً و١٢ خياراً حدَّد إستخدامها البعد الراهن والعينى لأرتيميو كروث المحتضر الذى يواجه ذلك الماضى غير القابل للإستعادة إنطلاقاً من وجوده النهائى، من الـ "فى ـ ذاته" كما كان يمكن أن يقول سارتر، الواقف على عتبة الموت. لهذا كله، فإن الوعى الباطن، كما يشير المؤلف ذاته، هو "من قبيل ڤيرچيل الذى يقوده عبر الدوائر الإثنتى عشرة لجحيمه"(٧). "فى الحاضر ـ يضيف فوينتس ذاته ـ فإن أرتيميو كروث هو رجلٌ بلا حرية: فقد إستنفدها بفعل إختياره".

كل واحدٍ من التتابعات الثلاثة التى أشرنا إليها هنا له إيقاعه السردى الخاص وصياغته اللغوية الخاصة، بما يتناسب وظيفياً مع مستوى الواقع الذى يسعى إلى إدراكه والتعبير عنه من المنظور الذى يتبناه. وكل موضع يكتسب على هذا النحو صياغة لفظية مختلفة، مناسبة لتشكيل المادة السردية التى تتفتح أمام القارىء.

لذا لا يمكن إلاّ أن تبدو غريبةً ملاحظات بعض النقاد الذين يتحدثون عن لغة فوضوية ومشوَّشة، مشيرين بوجه خاص إلى الشذرات التى تناظر المنظورين الأول والثانى. وعلى النقيض، فإننا إذا

إنطلقنا من الشكل التنظيمى الكلىّ ومن وظيفة كل شذرة داخله، نجد أن هذه اللغة مهما بدت غريبة إذا أخذناها بشكل منعزل، تتبدى داخل السياق مناسبةً ووظيفيةً تماماً. ليس ثمة، إذن مُثل تلك "التقنية المتنوعة إلى درجة التعقيد المتشنّج"، كما يقول الناقد التشيلى ألونى، ولا يمكن كذلك التأكيد على أن "الأشياء تحدث كما لو أن فيروساً قد تسلّل إلى الكيان العضوى للروائى وأحدث فيه نوبات لها شكل صرع من أشد الأنواع جدباً وكأنها محسوبة كى تثير الفزع، وتوحى للقراءً بفكرة أن المؤلف قد أصابه الجنون"(٨). والشىء الوحيد الذى يمكن استخلاصه من تأكيدات من هذا القبيل هو نزاعٌ بين لغة وظيفية وبين ناقد يُعلِّق على أعمال لا يقرؤها(٩). وفى دروب مماثلة يمضى أيضاً الناقدُ مانويل پدرو جونثالث، الذى يُضيف علاوةً على ذلك أن هذا كله ليس سوى "نتاج هجين... تهجين أو تطعيم تجتمع فيه نماذج چويس، ولورى، وفوكنر وتضفى عليه أصالة(١٠)".

III

رغم أننا توقفنا عند بعض الملاحظات الشديدة العمومية حول التنظيم الشكلى للسرد فى العمل، فإننا لا نعتزم، فى هذه المناسبة، عمل تحليل كامل له. ولا يهمنا إلاّ التوقف عند جانب واحد، يظهر عادةً إما عرضةً لتركيز سىءٍ وإما يتم تجنبه.

ويتعلق الأمر بالتوزيع الزمنى للإثنتى عشرة حلقة التى تشكل ماضى أرتيميو كروث. وهذه الشذرات الإثنتى عشرة تمثل، كما قلنا، ثلثى الرواية(١١). وهى تتطور فى مساحة تواريخ تشمل منذ مولد الشخصية (٩ أبريل عام ١٨٨٩) وحتى إحتفال سان سيلڤسترى فى كويواكان (٣١ ديسمبر عام ١٩٥٥)، بعد ذلك بستة وستين عاماً. ورغم

ذلك، فإن العرض الزمنى لهذه اللحظات فى الرواية لا يحكمه التتابع الزمنى للأحداث:

١) ٩ يوليو عام ١٩٤١
٢) ٢٠ مايو عام ١٩١٩
٣) ٤ ديسمبر عام ١٩١٣
٤) ٣ يونيو عام ١٩٢٤
٥) ٢٣ نوفمبر عام ١٩٢٧
٦) ١١ سبتمبر عام ١٩٤٧
٧) ٢٢ أكتوبر عام ١٩١٥
٨) ١٢ أغسطس عام ١٩٣٤
٩) ٣ فبراير عام ١٩٣٩
١٠) ٣١ ديسمبر عام ١٩٥٥
١١) ١٨ يناير عام ١٩٠٣
١٢) ٩ أبريل عام ١٨٨٩

للوهلة الأولى، لن يبدو أن لهذا التوزيع أى منطق سوى ذلك المنبعث من التداعيات التى يُقيمُها الوعى الباطن، مرتبطّةً باللحظة الراهنة للشخصية. هذا، على الأقل، هو رأى ماريو بنيديتى(١٢). أما مانويل پدرو جونثالث فإن "تصفحاً بسيطاً لهذا المخطط يكشف عن إصطناع وزيف المونتاج"(١٣). وهذا الرأى لا يدهشنا، لكن حتى بالنسبة لشخص مثل ثيدوميل جويك، الذى يتخذ موقفاً أكثر موضوعيةً بكثير، فإن هذا التوزيع يبدو له كذلك تعسفياً: "هذا السرد بالذات (المكتوب بضمير الغائب المفرد)، خاضعٍ لتوزيع تعسفى ومضطرب"(١٤). وفى واحد من الأعمال الأكثر نفاذاً التى نعرفها على المستوى التفسيرى لهذا العمل، فإن الناقد التشيلى رينيه خارا، رغم أنه يضع مخططاً كاملاً بدرجةٍ كبيرة لبنية الدوافع، لا يتوقف عند

مشكلة الدلالة المحتملة للتوزيع الزمنى للحلقات.

إلاّ أننا نعتقد بإمكان إقتراح منظور يتيح فهم هذا التوزيع باعتباره ذا دلالة وجزءاً متكاملاً ووظيفياً من البنية الكلية، متكاملاً معها على نحو أعمق من مجرد الخضوع البسيط لدوافع تداعيات الوعى الباطن.

ولتسهيل هذه البؤرة يمكننا أن نرتب، فى رسم بيانى، الإحداثيات التى تمثلها الفصول التى ميّزناها والحلقات موضع البحث. وهذا ما يتضح فى اللوحة رقم ٢.

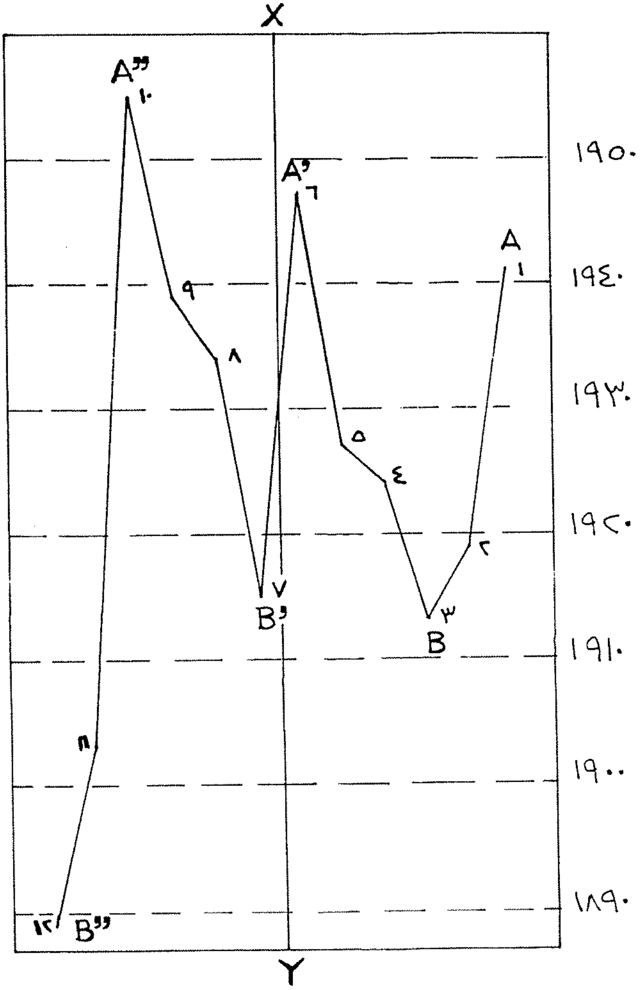
X
Y
A
A'
A''
B
B'
B''
١
٢
٣
٤
٥
٦
٧
٨
٩
١٠
١١
١٢
١٩٥٠
١٩٤٠
١٩٣٠
١٩٢٠
١٩١٠
١٩٠٠
١٨٩٠

فى شكل بيانى كهذا، ينظم فى نسق الحلقات الإثنتى عشرة، يمكننا أن نميز ثلاثة قطاعات. أولها (A", Ā', A) يشير إلى اللحظات الأعلى فى المنزلة الاجتماعية لأرتيميو كروث؛ وثانيها (B", B', B)، يشير إلى اللحظات الأشد حرجاً فى حياته؛ وأخيراً، منطقة وسطية (٢، ٤، ٥، ٨، ٩، ١١). وهذه القطاعات تناظر الشرائح التى تقيمها الشخصية ذاتها فى الحاضر فى علاقتها بالكبرياء: "**إلى أسفل**، من خرجتُ؛ أو **إلى أعلى**، حيث أنا: هنالك فقط، أقول لكما، يوجد كبرياء، وليس **فى المنتصف**، ليس فى الحسد، والرتابة، والطوابير. (ص ١٢٠. التشديد لنا).

لكن اللحظات الأعلى إجتماعياً لأرتيميو كروث هى، فى الوقت نفسه، الأدنى على المقياس الأخلاقى: ففى أولاها يبيع نفسه حرفياً بإعتباره **رجلاً - واجهة**. للأمريكيين الشماليين، المهتمين ببعض إمتيازات استغلال الكبريت؛ وفى الثانية، فإنه هو، بنقوده، من يشترى امرأة (ليليا)، لفترة إجازة أولاً، ثم - عند اكتشافه بغتةً الإندفاع العنيف للشيخوخة - طوال الحياة؛ وفى الثالثة يظهر فى ضيعته فى كويواكان وهو يحتفل بعيد سان سيلفسترى بجانب تلك المرأة ومحاطاً بأشخاص يقدّمون الضراعة لنقوده وسلطته. كل شىء زائف ومصطنع، بدءاً من أسنانه وحتى الكلمات الطقسية التى يوجهها إليه المجتمع الراقى، بينما يطلقون عليه من وراء ظهره لقب "مومياء كويواكان". موكب أقنعة حقيقى، طقس هائل وعبثى ينظمه هو نفسه ويتلقاه كتكريم لوضعه الإجتماعى، وسلطته، ونقوده(١٦).

وإذا فحصنا هذه اللحظات لرأينا أنها تتميز بالغياب شبه الكامل للتردُّد من جانب أرتيميو كروث فى إختيار طريقه. ورغم ذلك، علينا ألاّ ننخدع به. فرغم وعيه بأنه يختار الشر - وربما بسبب ذلك الوعى ذاته - فإنه يضفى كبرياءً معيناً لا يخلو من الكلبية على أفعاله. ويشعر

المرء بالميل إلى ربط موقفه بكلمات شخصية أخرى فى إحدى روايات الثورة المكسيكية، وهى شخصية الوزير إجناثيو أجيرّى، فى رواية **ظل الزعيم**، والذى عند تلقيه شيكاً من شركة أمريكية شمالية، يقاطع الوسيط الذى يحاول تمويه الطابع الحقيقى لهذه المكافأة: "بالنسبة لقياساتك المنطقية، فإنها لا يمكن أن تقنعنى؛ إنها تصلح للأشخاص لينى العريكة والخائرى الهمة، وأنا، رغم أنى عديم الحياء، لا أحطّ من قدر نفسى إلى هذا الحد. أنا عديم الحياء، لكننى عديم الحياء أتميز بالشجاعة والإرادة"(١٧).

والحلقات المقابلة فى المقياس الاجتماعى، بالمقابل، هى تلك التى يجد نفسه فيها أقرب إلى أصالته، هى اللحظات التى تكون حياته ذاتها فيها فى خطر ويتم تبادلها رمزياً بحيوات أخرى، هى تلك التى ستحيط به فى فراش موته كأشباح. وفى أولاها تظهر علاقته بريخينا، حبه الأشد عمقاً وتفرداً، التى إغتالتها القوات الفيدرالية فى نفس اللحظات التى كان هو فيها يهرب من معركة ويترك جندياً جريحاً ينزف حتى ينقذ حياته هو. وفى الثانية يتم إعدام جونثالو برنال والهندى من قبيلة الياكى الذى سهّل له قبلها بقليل محاولة هرب فاشلة، بينما يؤجل هو إعدامه عن طريق حيلة، مما يتيح له النجاة بوصول القوات الصديقة. وفى الثالثة يظهر مولد أرتيميو. وفى نفس ذلك اليوم يتم طرد إيسابيل كروث أو كروث إيسابيل، أمه، من الضيعة حين ينهال عليها بالضرب أتاناسيو منشاكا، والد أرتيميو (ص ص ٢٨٦ و ٣٠٦)، الذى تغتاله فى نفس تلك الليلة قوات الحكومة (ص ٢٩٩).

هذه اللحظات الثلاث تعرض لنا شخصاً هو أرتيميو كروث يحيا لأن آخرين قد ماتوا من أجله: "أنا نجوت. يا ريخينا. ماذا كان اسمك؟ لا. أنت ريخينا. ماذا كان اسمكَ أنت، أيها الجندى بلا إسم؟ جونثالو.

جونثالو برنال. هنديٌّ ياكي. ياكي بائس. نجوت. وأنتم متّم"(١٨). "نعم، أنا حي (...) لأنني تركت آخرين يموتون من أجلي. يمكنني أن أحدثك عمن ماتوا لأنني غسلتُ يديّ وهززتُ كتفيّ" (ص ١١٤).

واللحظات الوسيطة هي، كما قلنا، تلك التي تحمل في اللوحة أرقام ٢، ٤، ٥، ٨، ٩، ١١.

واللحظتان اللتان تناظران رقمي ٢ و ١١ تعان على أطراف هذا القطاع وتتحولان إلى لحظتين حاسمتين في الحياة العامة للشخصية، لأنهما لحظتان إستهلاليتان في مرحلتين من مراحل وجوده. في الحلقة رقم ١١، يحيا، ومازال طفلاً، مع الخلاسي لونيرو في ضيعة كوكويا، إبن سِفاح للإبن البكر المقتول، أتاناسيو منشاكا، آخر ذرية عائلةٍ في حالة تدهور كامل. ومن هناك يجب أن يهرب ويبدأ حياته الحقيقية: "ستكون أنت ذلك الطفل الذي يخرج إلى الأرض، ليلاقي الأرض، يخرج من أصله، ليلاقي مصيره، اليوم حيث يساوي الموتُ بين الأصل والمصير ويغرس بين الإثنين، رغم كل شيءٍ، نصلَ الحرية". (ص ٢٧٩). وفي الحلقة رقم ٢، بعد ذلك بستة عشرَ عاماً، يصل إلى منزل دون جماليل برنال، في بويبلا، متخذاً الخطوة التي ستصل به إلى إمتلاك ضيعة هذا الأخير. باللحظة الأولى تُستهل الحياة في النضال والثورة، وباللحظة الثانية، الحياة في الغنى والسلطة. ومن وجهة النظر الزمنية، تقع بين اللحظتين أعوام حياة الجندية لـ "الثورة" المكسيكية. وتتسع القيمة الرمزية لهاتين اللحظتين، فضلاً عن ذلك، عن طريق سلسلة من الظروف الأخرى. فضيعة كوكويا أسسها إيرينيو منشاكا، جدٌّ أرتيميو، بعد أن "إنضمّ إلى حياة ومصير الجنرال أنطونيو لوبث دي سانتا آنا وحصل بإرادته على الأراضي الخصبة بجوار النهر، وهي أراضٍ سوداء وشاسعة، ملاصقة للجبل

والبحر" (ص ٢٩٠). أما ضيعة دون جماليل برنال، الذى يتزوج أرتيميو بإبنته كاتالينا، فقد تم الحصول عليها "هنالك حين عرض خوارث فى المزاد ممتلكات الإكليروس، وكان بمقدور أى تاجر لديه بعض المدخرات إمتلاك قطعة أرض شاسعة". وبينما يدمر حكم بورفيريو ويحطِّم حياة وأملاك آل منشاكا، تنمو فى ظله ضيعة برنال. وحين يتواجه الجيلان، يتم تحليل اللحظة على النحو التالى، من منظور العجوز دون جماليل: "أرتيميو كروث، هكذا يُدعى، إذن، العالمُ الجديد المنبعث من الحرب الأهلية؛ هكذا يُدعى من وصلوا ليحلوّا محله. بلد تعيس - قال العجوز لنفسه (...) بلدٌ تعيس عليه فى كل جيل أن يُدمِّر المالكين القدامى ويُحِلَّ محلهم سادةً جدداً، جشعين وطموحين مثل سابقيهم". (ص ٥٠).

وبوضعنا توزيع الحلقات فى رسم بيانى يمكن لنا أن نبين فى صورة بصرية الطابع المحورى داخل البنية الكلية لهاتين اللحظتين، اللتين تظهران موضوعتين فى نقطتى تناظر يكاد يكون تماثلياً.

والحلقات الأربع الأخرى الوسيطة التى يشكلها هذا القطاع هى بعض اللحظات ذات الأهمية الكبرى فى الخيارات التى تواجهها الشخصية؛ وتحدد، من جهة، صعوده الإجتماعى، ومن جهة أخرى، تحلُّله الأخلاقى المتزايد، المتسم بـ "سوء النية" الذى يحكم قراراته. والحلقة رقم ٤ بالغة الإيحاء. ففى نفس الوقت الذى يُظهر فيه قوته وقدرته على الانتصار فى الحياة العامة وعلى فرض نفسه على أعدائه فإنه يُظهر أيضاً، فى نغمةٍ مضادة، جبنه الأخلاقى من مواجهة مخلصة مع كاتالينا ومع ذاته.

والحلقة الأخرى (رقم ٥) تضعه فى مواجهة قرار فى المجال السياسى. كان قد أصبح نائباً وعليه أن يختار بين البقاء فى معسكر، ومع، الزعيم الذى كان يتبعه حينذاك وبين الإنتقال إلى الجماعة التى

تبدو أنها منتصرة: "تبادلا الأنخاب وقال البدين أن هذا العالم ينقسم إلى ناكحين وحمقى وأن الوقت حان للإختيار. وقال أيضاً أنها ستكون خسارةً أن لا يعرف النائب ـ هو ـ كيف يختار فى الوقت المناسب، (...) بينما من السهل جداً تغيير المرء لموقعه كأنه لا يرغب فى ذلك ليصبح فى الجانب الصحيح" (ص ١٢٩). ويقرر أرتيميو كروث، مع بعض رفاق سلاحه القدامى، الذين هم الآن **الجنرال** خيمينث و**المقدم** جابيلان(١٩) أن يصيروا "ناكحين" وليس "حمقى".

والحلقة التالية من هذه السلسلة تُبيِّن لنا علاقته بـ لاورا، وهى إمرأة كانت قادرة على منحه نفسها ومنحه كل ما لم يجده فى زوجته وفى علاقاته الغرامية الأخرى (باستثناء ريخينا)، مقيمةً على هذا النحو رابطةً كان يمكن أن تفتح له أفقاً جديداً ومختلفاً. لابد له أن يختار بين ذلك الحب وبين المواضعات التى يُقيِّده بها وضعه الإجتماعى، والمظاهر. ومن جديد ينتصر خوفه وضعفه، وتبتعد عنه لاورا إلى الأبد.

والحلقة التى يموت فيها لورنثو، إبنه، فى إسبانيا وهو يدافع عن القضية الجمهورية (رقم ٩) مُتضمَّنٌ أيضاً بإعتباره جزءاً من ماضى أرتيميو كروث. وتحمل علامةً خاصة، لأنها موضوعةٌ فى نهاية سُلَّم من الاختيارات "بنيةٍ سيئة" أخذت تحدِّدُ صعوده الإجتماعى وهبوطه الأخلاقى، ومباشرةً ـ فى اللوحة وفى العمل ـ قبل اللحظة التى تبيِّن تمجيده الاجتماعى: الحفلة التنكرية لعيد سان سيلڤسترى فى كويواكان. وهى تمثِّل نوعاً من التأصيل بالنيابة لأرتيميو. فهو الذى يحمل لورنثو إلى ضيعة كوكويا، مكان خروجه إلى العالم، ومن هناك يرحل الإبن ليقاتل فى إسبانيا، دفاعاً عن الجمهورية، حيث يموت. وهو يحمله إلى ذلك الموضع لأنه: "تودُّ فقط أن تشرح له أنه فى السنوات المنصرمة، منذ أربعين سنة، إنكسر شىءٌ هنا، كى يبدأ شىء

أو كى لا يبدأ أبداً شىء، أكثر جدَّة." (ص ٢٢٧). ولذا فإنه لدى تذكُّره لهذه الميتة يمكنه أن يقول فى الحاضر: "آى، شكراً، على أنك علّمتنى ما كان يمكن أن تكونه حياتى، / آى، شكراً لأنك عشتَ ذلك اليوم بدلاً منى" (ص ٢٤٤). وهذه الشخصية الرمزية للإمكانية الشاملة التى كان يمكن أن تكونها حياة أرتيميو كروث، والتى نفتها الخيارات التى يحققِّها، تشِفُّ بإصرار: "رغبة لم أُعبِّر عنها أبداً، هى التى أجبرتنى على أن أقوده ـ آى، لا أدرى، لا أنتبه ـ، نعم، على أن أُجبره على العثور على طرف الخيط الذى قطعته أنا، على مواصلة حياتى، على إكمال مصيرى الآخر، الجزءَ الثانى الذى لم أستطع أنا إكماله". (ص ٢٤٢).

والتماهى مع لورنثو لا يتحقق فحسب على المستوى الرمزى المعروض هنا، بل يتم التعبير عنه أيضاً من خلال العملية اللغوية. ففى كل تلك الحلقات نجد أن الضمير الشخصى للمفرد الغائب الذى يتصدرها يحدِّد هوية أرتيميو كروث. والحلقة التى يتم فيها حكى موت لورنثو تبدأ بنفس الطريقة: "هو من كان فوق السقيفة، وبين يديه بندقية، وتذكَّر حين كان الإثنان يخرجان للصيد إلى البحيرة... إلخ". (ص ٢٢٨). والتشويش مُتعمَّد ويقصد إلى أن يبعث فى ذهن القارىء طوال كل المقاطع الأولى صورةَ أرتيميو كروث. وهذا نفسه هو ما يتيح بعدها التلميح إلى التوازى بين إثنين من أزواج الشخصيات: أرتيميو ـ ريخينا، ولورنثو ـ دولورس: "لن تُجبره على فعل ما لم تفعله أنت، على إنقاذ حياتك الضائعة: لن تسمح، هذه المرة، بأن **تموت أنت فى درب صخرى وتنجو هى**". (ص ٢٤٤. التشديد لنا).

إنّ توزيع الحلقات، وفق تحليلنا، يتيح لنا أن نقيم بينها سلسلةً من الإرتباطات الدلالية التى تُثرى بعمق معنى العمل وتوضِّح وجودَ نسق واع يحكم توزيعها. ويتضح على هذا النحو أن هذا التوزيع ليس عشوائياً ولا مختلطاً، كما يمكن الظن لأول وهلة، بل إنه، كما يمكن أن

نستنتج من اللوحة ومن تحليلها، عضوىٌّ، ووظيفىٌّ، ودالٌّ.

ومن الضرورى أن نضيف أن تنظيم الحلقات فى رسم بيانى لا يسمح لنا فحسب برؤية بصرية لهذه السلسلة من الإرتباطاتٍ التى تتم إقامتها وتتضمن إلى أى حدٍ يكون توزيع هذه الحلقات فى العمل هو ما يتيح التسلسلات الدلالية التى ذكرناها، بل إنه يتيح أيضاً رؤية أن هذه الحلقات يتبدّى فيها نوعٌ من السيمترية الشكلية التى ليس من العدل أن نعزوها إلى مجرد الصدفة. وإذا رسمنا محوراً رأسياً يمر بمركز اللوحة (Y- X) لأمكننا أن ننتبه بوضوح أكبر لهذه السيمترية التى تنظِّم التوزيعات الزمنية، حيث يقطع هذا المُحور الخط ٦ ـ ٧ إلى جزئين ويُقيم نسقين متوازيين: نسق السلسلتين ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦ و ٧ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠ ونسق السلسلتين ١ ـ ٢ ـ ٣ و ١٠ ـ ١١ ـ ١٢.

ويزوِّدنا هذا كله ببرهان إضافى يدعم تأكيد بنيديتّى المذكور آنفاً: لدى كارلوس فوينتس "مثلماً لدى العديد من الوحوش المقدسة للفن الروائى المعاصر (...) ليست ثمة ذرة من الفوضى لا تعتمد على تنظيم ملليمترى".

جزءٌ من مقال:

Un aspecto de la estructura de

“La muerte de Artemio Cruz”.

por Nelson Osorio.

المراجع

1 - **Carlos Fuentes**: "Situación del escritor en América Latina" (entrevista de **Emir Rodríguez Monegal**). Mundo Nuevo, número1, París, julio 1966.

2 - **Mario Benedetti**: Carlos Fuentes: del signo barroco al espejismo.

وقد إعتمدت عليهما بشكل رئيسي.

3 - **Nelson Osorio**: Un aspecto de la estructura de "La muerte de Artemio Cruz"

وأوردت جزءاً منه.

4 - **René Jara C.**: El mito y la nueva novela hispanoamericana. A propósito de "La muerte de Artemio Cruz".

5 - **Juan Loveluck**: Intención y forma en "La muerte de Artemio Cruz".

6 - **Carlos Fuentes**: Muerte y resurrección de la novela.

موت أرتيميو كروث

إن تَبَصُّرَ الموتِ هو تبصُّرٌ للحرية.

مونتانى، **المقالات**

أيها البشر الذين إلى الدنيا تخرجون
فى مهدٍ من ثلج
ثم قبراً تدخلونً،
إنظروا كيف تُودّون...

كالديرون، **مسرح العالم الكبير**

أنا وحدى، أعرف ما كان باستطاعتى أن أفعله...
لكننى بالنسبة للآخرين، لست أكثر من مجرد "ربما".

ستندال، **الأحمر والأسود**

... عنًّى وعنه وعنّا نحن الثلاثة،
دائماً ثلاثة!...

جوروستيثا، **موت بلا نهاية**

لا تساوى الحياة شيئاً: الحياة لا تساوى شيئاً.

أغنية شعبية مكسيكية

إلى
س. رايت ميللز*،
الصوت الحقيقى لأمريكا الشمالية،
الصديق والرفيق فى نضال أمريكا اللاتينية.

---

* عالم إجتماع أمريكى من اليسار الجديد. ساهم فى حركات الشباب وفى الاحتجاج ضد حرب ڤيتنام وضد سياسة الولايات المتحدة فى أمريكا اللاتينية. له كتاب بعنوان: "الماركسيون" تحدث فيه عن كاسترو وجيڤارا . م.

أنا أستيقظ... يُوقظنى ملمس ذلك الشىء البارد على عضوى. لم أكن أعرفُ أن من الممكن أحياناً أن يتبوّل المرء لا إرادياً. أظلُّ مُغمض العينين. أقرَبُ الأصوات إلىّ لا أسمعها. هل سيمكننى سماعها لو فتحتُ عينىّ؟... لكن جفنىّ ثقيلان: قطعتا رصاص، قطع نحاس فوق اللسان ومطارق فى الأذنين وشىء... شىء كأنه فضةٌ صدئةٌ فى النَفَس. كل هذا معدنىٌّ. معدنٌ مرة أخرى. أتبولُ دون أن أدرى. وربما ـ أتذكر بفزع أننى كنت فى غيبوبة ـ أكلتُ دون أن أدرى خلال تلك الساعات. لأن النهار كان قد إنبلج بالكاد حين مددتُ يدى وألقيتُ التليفون ـ على غير إرادتى أيضاً ـ على الأرض وبقيتُ ممدداً على بطنى على الفراش، وذراعاى مُعلقتان، ودبيبٌ فى شرايين معصمى. الآن أستيقظ، لكننى لا أريدُ أن أفتح عينىّ. ورغم أننى لا أريد، فإن شيئاً يلمعُ بإصرار قُرب وجهى. شىءٌ يتوالد خلف جفنىّ المغمضين فى دفق من الأضواء السوداء والدوائر الزرقاء. أقلصُ عضلات وجهى، أفتحُ عينى اليمنى وأراها منعكسةً فى القشور الزجاجية لحقيبة يد نسائية. أنا هذا. أنا هذا. أنا هذا العجوز ذو التقاطيع الممزقة فى المربعات الزجاجية غير المتساوية. أنا هذه العين. أنا هذه العين. أنا هذه العين التى تُجعِّدها جذورُ حنق متراكم، قديم، منسىّ، وحاضر دوماً. أنا هذه العينُ الجاحظة والخُضراء بين الجُفنين. الجفنان. الجفنان. الجفنان الزيتيّان. أنا هذه الأنف. هذه الأنف. هذه الأنف. المهشّمة. ذات المنخارين الواسعين. أنا هاتان الوجنتان. الوجنتان. حيث تنبتُ اللحيةُ الشيباء. تنبت. التقطيبة. التقطيبة. التقطيبة. أنا هذه التقطيبة التى لا علاقة لها بالشيخوخة أو الألم. التقطيبة. بالأنياب التى سوّدها التبغ. التبغ. التبغ. تنفسى هوف هاهوف هاهوف ها يُضبّبُ قطع الزجاج وتسحبُ يدٌ الحقيبة من على الطاولة الصغيرة.

ـ أنظر، يا دكتور: إنه يتظاهر...

ـ سنيور كروث...

ـ حتى فى ساعة الموت يجب أن يخدعنا!

لا أريد أن أتكلم. فمى ملىء بدراهم قديمة، بذلك الطعم. لكننى أفتح عينىّ قليلاً ومن بين رموشى أميِّزُ المرآتين، والطبيب الذى يفوح برائحة المطهِّرات: من يديه اللتين تنضحان عرقاً، واللتين تتحسّسان الآن صدرى من تحت القميص، تتصاعد لفحةٌ من الكحول الفاغم. أحاول سحب تلك اليد.

ـ صبراً، يا سنيور كروث، صبراً...

لا، لا لن أفتح شِفتىّ: أو ذلك الخط المجعَّد، دون شفتين، فى إنعكاس الزجاج. سأبقى ذراعىّ مُمدّدتين فوق الملاءات. الأغطية تكسونى حتى البطن. المعدة... آه... والساقان تظلاّن منفرجتين، وذلك الشىء البارد بين فخذىّ. والصدر يبقى خاملاً، بنفس الدبيب الأصم الذى أُحسُّه... الذى... كنت أحسُّه حين أقضى وقتاً طويلاً فى دار للسينما. دورةٌ دموية سيئة، هذا هو الأمر. لا أكثر. لا أكثر. ليس شيئاً خطيراً. ليس شيئاً أكثر خطورة. يجب التفكير فى الجسد. التفكير فى الجسد يُنهك. جسد المرء. الجسد المُتَّحِد. يَتْعَب. لا يفكر فى نفسه، بل يوجد. أُفكِّر، أشهد. أنا، جسد. يبقى. يمضى... يمضى... يتحلَّل فى هذا الهروب للأعصاب والقشور، للخلايا وكرات الدم المتناثرة. جسدى، الذى يضع فيه هذا الطبيب أصابعه. خوف. أحسُّ بالخوف من التفكير فى جسدى أنا. والوجه؟ سحبت تيريسا الحقيبة التى كانت تعكسه. أحاول تذكُّرَه فى إنعكاسه: كان وجهاً ممزقاً فى قطع زجاج غير متماثلة، العين قريبةٌ جداً من الأذن وبعيدةٌ جداً عن أختها، والتقطيبة مُوزَّعة على ثلاث مرايا دوَّارة. يسيل العرق على جبهتى. أغلق عينىَّ مرة أخرى وأطلبُ، أطلبُ أن يُعادَ إلىَّ وجهى وجسدى. أطلب، لكننى أحس تلك اليد التى تُربِّت علىّ وأودُّ لو تخلَّصتُ من

ملمسها، لكننى لا أجد القوة.

ـ هل تشعر بتحسُّن؟

لا أراها. لا أرى كاتالينا. أرى ما هو أبعد. تيريسا جالسة على الكرسى. بين يديها صحيفة مفتوحة. صحيفتى. إنها تيريسا، لكن وجهها مختبىء خلف الصفحات المفتوحة.

ـ إفتحوا النافذة.

ـ لا، لا. قد تُصاب بالبرد وتُعقِّدَ الأمور.

ـ دعيه، يا ماما. ألا ترين أنه يتظاهر؟

آه. أشمُّ ذلك البخور. آه. الهمهمات عند الباب. يصلُ برائحة البخور تلك وبذيول ردائه السوداء، تسبقه المنضحة*، ليودِّعنى بكل حماسةِ إنذار. هأ، وقعوا فى الفخ.

ـ ألم يصل پادييا؟

ـ بلى. إنه بالخارج.

ـ فليدخل.

ـ لكن...

ـ فليدخل پادييا أولاً.

آه، پادييا، إقترب. هل أحضرت جهاز التسجيل؟ لو عرفت ما يجب أن تفعله، لكنت أحضرته إلى هنا كما كنت تحمله كلّ مساء إلى منزلى فى كويواكان. لوددتَ اليوم، أكثر من أى وقت مضى، أن تعطينى الإنطباع بأن كل شىء يظلّ على حاله. لا تفسد الطقوس، يا پادييا. آه نعم، إنك تقترب. وهما لا تريدان.

ـ إقتربى يا بُنيَّتى، حتى يتعرف عليك. قولى له إسمك.

ـ أنا... أنا جلوريا...

---

* وعاء لرش الماء المقدّس فى الطقوس الكنسية ـ م.

فقط لو أتبيّن وجهها على نحو أفضل. فقط لو أتبيَّن تقطيبتها على نحو أفضل. لابد أنها تشمُّ رائحَة القشور الميِّتة هذه؛ لابد أنها تنظر إلى هذا الصدر الغائر، إلى هذه الذقن الرمادية المشعثة، وهذا الرشح الأنفى الذى لا سبيل إلى إيقافه، وهذه...

يبعدونها عنى.

الطبيب يجس نبضى.

- يجب أن أستشير زملائى.

تمسح كاتالينا يدى بيدها. يا لها من تربيتة بلا جدوى. لا أراها جيداً، لكنّى أحاول تثبيت نظرتى فى نظرتها. ألتقطها. أمسك يدها المثلَّجة.

- إنتظرتك هذا الصباح بابتهاج. لنعبُر النهر على صهوة الجياد.

- ماذا تقول؟ لا تتكلم. لا تجهد نفسك. لا أفهمك.

- وددتُ لو أعود إلى هناك، يا كاتالينا. يا للعبث.

نعم: القس يركع بجوارى، يُتمتم بكلماته. يُدير پاديا جهاز التسجيل. أستمعُ إلى صوتى، إلى كلماتى. آهٍ تخرج بصرخة. آه، صرخة. آه، لقد نجوتُ. طبيبان يظهران عند الباب. لقد نجوت. ريخينا، أتألم، أتألم، يا ريخينا، أنتبه إلى أننى أتألم. ريخينا. أيها الجندى. ضُمُّونى؛ إننى أتألم. غرسوا خنجراً طويلاً وبارداً فى معدتى، هناك شخص، هناك آخر غرس قطعة صُلب فى أحشائى: أشم ذلك البخور وأحس بالتعب. أتركهم يفعلون. أتركهم يُنهضوننى بتثاقل، وأنا أئن. لا أدين بحياتى لكم. لا أستطيع، لا أستطيع، فلم أختر، الألم يطوى خصرى، ألمس قدمىّ المثلَّجتين، لا أريد تلك الأظافر الزرقاء، أظافرى الجديدة الزرقاء، آآآه - آآآى، لقد نجوت: ماذا فعلتُ بالأمس؟ لو فكرتُ فيما فعلت بالأمس فلن أعود أفكرُ فيما يجرى. هذا تفكيرٌ واضح. واضحٌ جداً. فكر فى الأمس. لست بهذا الجنون؛ لا

تتعذب إلى هذا الحد؛ إستطعت أن تفكر فى ذلك. الأمس الأمس الأمس. بالأمس طار أرتيميو كروث من هرموسييو إلى مكسيكو. نعم. بالأمس أرتيميو كروث... قبل أن يمرض، بالأمس أرتيميو كروث... لا، لم يمرض. بالأمس كان أرتيميو كروث فى مكتبه وأحس بأنه مريض جداً. بالأمس لا. هذا الصباح. أرتيميو كروث. لا ليس مريضاً. ليس أرتيميو كروث لا. بل آخر. فى مرآة موضوعة أمام فراش المريض. الآخر. أرتيميو كروث. توأمه. أرتيميو كروث مريض. الآخر. أرتيميو كروث مريض: لا يحيا: لا، يحيا. أرتيميو كروث عاش. عاش لبضعة أعوام... لم يتألم أعواماً: أعواماً لا لا. عاش لبضعة أيام. توأمه. أرتيميو كروث. بديله. بالأمس أرتيميو كروث، الذى لم يعش سوى بضعة أيام قبل أن يموت بالأمس أرتيميو كروث... الذى هو أنا... والذى هو الآخر... بالأمس.

أنت، بالأمس، فعلت ما تفعله كل يوم. لا تدرى هل يستحق الأمر عناء تذكُّره. وَددْتَ فقط، مستلقياً هناك، فى عتمة مخدعك، لو تتذكر ما سوف يحدث: لا تريدُ أن تتنبأ بما حدث فعلاً. فى عتمتك، ترى عيناك إلى الأمام؛ لا تعرفان كيف تحدسان الماضى. نعم؛ بالأمس ستطير من هرموسييو، أمس التاسع من أبريل عام ١٩٥٩، على الرحلة العادية لشركة الطيران المكسيكية التى ستغادر عاصمة ولاية سونورا،

حيث ستكون الحرارة جهنمية، فى الساعة ٥٥ : ٩ صباحاً وستصل إلى مكسيكو، العاصمة، فى الساعة ٣٠: ١٦ تماماً. من مقعد الطائرة ذات الأربعة محركات، سترى مدينةً مستويةً ورمادية، حزاماً من الطين النىء والأسقف الصفيح. ستقدم لك المضيفة قطعة لبان ملفوفة بالسيلوفان ـ ستتذكر ذلك بالذات، لأنها ستكون (لابد أن تكون، لا تفكر فى كل شىء بصيغة المستقبل منذ الآن) فتاةً فائقة الجمال وسوف تنظر أنت إلى ذلك دائماً بعين الرضى، رغم أن سنك يحكم عليك بأن تتخيَّل الأشياء أكثر مما تفعلها (إنك تسىء إستخدام الكلمات: بالطبع، لن تشعر أبداً أنك محكومٌ عليك بذلك، رغم أنك لا تستطيع سوى تخيُّله): الإعلان المضىء ـ No Smoking, Fâsten Seat Belts ـ سيظهر فى اللحظة التى تهوى فيها الطائرة فجأةً، عند دخولها وادى مكسيكو، وكأنها فقدت القدرة على البقاء فى الهواء الخفيف وستميل على الفور ناحية اليمين فتتساقط لفافات، وشُنط، وحقائب يد وتتصاعد صرخة جماعية، تتخللها شهقةٌ خافتة وستبدأ ألسنة اللهب فى الطقطقة حتى يتعطَّل المحرك الرابع، على الجناح الأيمن، ويظل الجميع يصرخون بينما ستظل أنت وحدك هادئاً، ساكناً، تمضغ قطعة لبانك وتراقب ساقى المضيفة التى ستهرع عبر الممر مهدئةً الركاب. سيعمل النظام الداخلى الذى يقاومُ به المحركُ الحريق وستهبط الطائرة دون صعوبة، لكن أحداً لن يكون قد إنتبه إلى أنك أنت وحدك، العجوز ذا الأعوام الإحدى والسبعين، قد بقيت رابط الجأش. ستشعر أنك فخورٌ بنفسك، دون أن تُبدى ذلك. ستفكر فى أنك قد فعلت الكثير من الأشياء الجبانة بحيث تصبح الشجاعة سهلة عليك. ستبتسم وتقول لنفسك أن لا، لا، ليس ذلك تناقضاً: إنه الحقيقة، وربما كانت حتى حقيقةً عامة. ستكون قد قطعت الرحلة إلى سونورا بالسيارة ـ ڤولڤو موديل ١٩٥٩، برقم ٧١٢ العاصمة ـ لأن

بعض شخصيات الحكومة ستكون قد فكرت فى أن تصبح ثقيلة الظل جداً وسيكون عليك أن تقطع كل ذلك الطريق بهدف التأكُّد من ولاء تلك السلسلة من الموظفين الذين إشتريتهم - إشتريتهم، نعم، لن تخدع نفسك بكلمات عيد ميلادك: سأقنعهم، سأستميلهم: لا، بل ستشتريهم - حتى يفرضوا جبايات - كلمة قبيحة أخرى - على ناقلى الأسماك بين سونورا، وسينالوا وبين العاصمة: ستمنح أنت عشرة بالمائة للمفتشين ويصل السمك إلى المدينة وقد إرتفع سعره بسبب تلك السلسلة من الوسطاء وستنال أنت ربحاً يفوق القيمة الأصلية للمُنْتَج عشرين مرة. ستجتهدُ فى تذكُّر ذلك وستحقِّق رغبتك، رغم أن ذلك كله يبدو لك مادةً لخبر مثير فى صحيفتك وتعتقد أنك، فى الحقيقة، تُضيِّعُ الوقت فى تذكُّره. لكنكَ ستصرُّ، وستمضى قُدُماً. ستُصِرُّ. تودُّ لو تتذكر أشياء أخرى، لكنك قبل كل شىء، تودُّ نسيان الحالة التى أنت فيها. ستغفر لنفسك. لا تجد نفسك. ستجد نفسك. سيُحضِرونك مغشيّاً عليك إلى منزلك؛ ستتهاوى فى مكتبك؛ سيأتى الطبيب ويقول أنه يجب الإنتظار بضع ساعات قبل أن يستطيع التشخيص. سيأتى أطباءٌ آخرون. ولن يعرفوا شيئاً، لن يفهموا شيئاً. سيتفوَّهون بكلمات صعبة. وستودُّ أن تتخيل نفسك. مثل قِربةٍ فارغةٍ ومجعَّدة. سترتجفُ ذقنك، ستصبح رائحة فمك كريهة، ستصبح رائحة إبطيك كريهة، سيتعطَّن كل ما بين ساقيك. ستكون ملقى هنالك، دون إستحمام، دون حلاقة: ستكون مستودعاً للعرق والأعصاب المرهقة والوظائف الفسيولوچية اللاإرادية. لكنك ستصرُّ على تذكر ما سيحدث بالأمس. ستنتقل من المطار إلى مكتبك وستعبر مدينةً مشبَّعةً بغازات الخردل، لأن الشرطة ستكون قد فرغت لتوها من تفريق تلك المظاهرة فى ميدان الكابابيتو Caballito ستناقش مع رئيس تحرير صحيفتك عناوين الصفحة الأولى، والإفتتاحيات، والرسوم الكاريكاتورية وستشعر بالرضى.

ستستقبل شريكك الأمريكى الشمالى، وستجعله يرى مخاطر حركات التطهير النقابى المزعومة تلك. بعدها سيدخل إلى المكتب مدير أعمالك، پادييا، وسيخبرك بأن الهنود قد بدأوا فى الهياج وستبعث أنت، من خلال پادييا، إلى مفوض الشرطة المحلى لتُبلغه بأن يُطوِّقهم، لأنك تدفع له من أجل ذلك فى نهاية المطاف. ستعمل كثيراً صباح أمس. سيأتى لرؤيتك ممثل ذلك المُحسِن الأمريكى اللاتينى وستجح فى جعلهم يزيدون الدعم لصحيفتك. ستستدعى محررة باب المجتمع وستأمرها بأن تضع فى عمودها تشهيراً بذلك المدعو كووتو الذى يشن عليك الحرب فى أعمال سونورا. ستفعل أشياء كثيرة! وبعدها ستجلس مع پادييا لتحصى ممتلكاتك. سيُسلِّيك ذلك كثيراً. سيكون حائطٌ كاملٌ فى مكتبك مكسواً بتلك اللوحة التى تبيِّن مدى إتساع الأعمال التى تديرها والعلاقات بينها: الصحيفة، الإستثمارات فى العقارات - فى مكسيكو، وپويبلا، وجوادالاخارا، ومونتيرّى، وكولياكان، وهرموسييو، وجوايماس، وأكاپولكو -، منابع الكبريت فى خالتيپان، مناجم هيدالجو، إمتيازات الأخشاب فى تاراهومارا، المشاركة فى سلسلة الفنادق، شركة المواسير، تجارة الأسماك، شركات التمويل التى تموِّل شركات التمويل، شبكة عمليات البورصة، مكاتب التمثيل القانونية للشركات الأمريكية الشمالية، إدارة قرض السكك الحديدية، مناصب المستشار فى مؤسسات إدارة الأموال، الأسهم فى الشركات الأجنبية - الأصباغ، الصلب، المنظفات - وبندٌ لا يظهر فى اللوحة: خمسة عشر مليوناً من الدولارات مودعة فى بنوك زيوريخ، ولندن، ونيويورك. ستشعل سيجارةً رغم تحذيرات الطبيب، وتعيد على مسامع پادييا الخطوات التى كوَّنت تلك الثروة. قروضٌ قصيرة الأجل بفائدة مرتفعة لفلاحى ولاية پويبلا، عند إنتهاء الثورة؛ إمتلاك أراض قريبة من مدينة پويبلا، متوقعاً نمو المدينة؛ إمتلاك أراضٍ للتقسيم فى مدينة مكسيكو، بفضل تدخلٍ ودِّى

للرئيس فى ذلك الحين؛ إمتلاك الصحيفة اليومية للعاصمة؛ شراء أسهم فى صناعة التعدين وإقامة شركات مكسيكية - أمريكية شمالية مشتركة قمت فيها بدور الرجل - الواجهة تمشياً مع القانون؛ الرجل موضع الثقة بالنسبة للمستثمرين الأمريكيين الشماليين؛ القيام بدور الوسيط بين شيكاجو، ونيويورك وبين حكومة المكسيك؛ التلاعب فى بورصة الأوراق المالية لتضخيم قيمتها، وخفضها، لتبيع، وتشترى وفق هواك ومصلحتك؛ البُلهنية والرسوخ الحاسمان مع قدوم الرئيس أليمان: إمتلاك أراض مشاعية منتزعةٍ من الفلاحين لطرح تقسيمات أراض جديدة فى المدنً الداخلية، إمتيازاتٍ إستغلال الأخشاب. نعم - ستتنهَّد وتطلب من باديبا ثقاباً -، عشرون عاماً من الثقة، من السلام الإجتماعى، من تعاون الطبقات؛ عشرون عاماً من التقدم، بعد ديماجوجيا لاثارو كارديناس، عشرون عاماً من حماية مصالح الشركات، من القادة الخانعين، من الإضرابات المكسورة. عندئذ سترفع يديك إلى بطنك وستصطدم رأسك ذات الشعر الأشيب المجعَّد، والوجه الزيتونى، صدمةً مدوية بزجاج الطاولة، ومرة أخرى سترى، الآن عن قرب شديد، ذلك الإنعكاس لتوأمك المريض، بينما تهرب كل الأصوات من رأسك، ضاحكةً، ويطوِّقك عرق كل هؤلاء الناس، يخنقك لحم كل هؤلاء الناس، ويجعلك تفقد الوعى. سيندمج التوأم المنعكس فى الآخر، الذى هو أنت، فى العجوز ذى الإحدى وسبعين سنة الذى سيتمدَّد، غائباً عن الوعى، بين الكرسىّ الدوَّار وطاولة الكتابة الحديدية الضخمة: ستكون هنا ولن تدرى أى بياناتٍ ستظهر فى سيرة حياتك وأيها سيتم إخراسها، وإخفاؤها. لن تدرى. إنها بيانات عادية ولن تكون الأول ولا الوحيد الذى لديه ملفٌّ خدمةً كهذا. لابد أن ذلك سيروقك. ستكون قد تذكرت ذلك. ولكنك ستتذكر أشياء أخرى، أياماً أخرى، سيكون عليك أن تتذكرها. إنها أيامٌ مهما

تكن بعيدةً، أو قريبة، مدفوعةً نحو النسيان، أو مطبوعةً فى الذاكرة ـ لقاءٌ ورفض، حبٌ عابر، حريةٌ، حنقٌ، إخفاقٌ، رغبةٌ ـ كانت وستكون شيئاً أكثر من أية أسماء قد تسميها بها: أيامٌ سيتعقبك فيها قدرك بتشمُّم كلب صيد، ويعثر عليك، ويجعلك تدفع الثمن، ويجسِّدُك فى كلمات وأفعال، فى مادةٍ مُركَّبة، داكنة، كثيفة، منسوجةٍ إلى الأبد مع الأخرى، غير المحسوسة، مادةً روحك التى إمتصتها المادة: حب السفرجل الطازج، طموح الأظافر التى تنمو، سأم الصلعة المتزايدة، سوداوية الشمس والصحراء، رخاوة الأطباق القذرة، شرود الأنهار الإستوائية، خوف السيوف والبارود، ضياع الملاءات المنشورة فى الهواء، فتوَّة الخيول السوداء، شيخوخة الشاطىء المهجور، إلتقاء المظروف وطابع البريد الأجنبى، نفور البخور، مرض النيكوتين، ألم التربة الحمراء، رقة الفِناء عند الأصيل، روح كل الأشياء، مادة كل النفوس: نَصْلُ ذاكرتك، الذى يفصل النصفين: لحام الحياة، الذى يعيد توحيدهما، يذيبهما، يتعقبهما، يعثر عليهما: للثمرة نصفان: اليوم سيعاودان التوحُّد: ستتذكر النصف الذى خلَّفته وراءك: سيعثر عليك القدر: ستتثاءب: لا يجب أن تتذكَّر: ستتثاءب: الأشياء ومشاعرها إنحلَّت، تساقطت مُمزَّقةً على طول الطريق: هناك، إلى الوراء، كان ثمة حديقة: لو استطعت العودة إليها، لو استطعت العثور عليها مرة أخرى فى النهاية: ستتثاءب: لم تغيِّر مكانك: ستتثاءب: إنك فوق أرض الحديقة، لكن الأغصان الشاحبة تَضنّ بالثمار، المجرى المترب يضنّ بالمياه: ستتثاءب: ستصير الأيامُ متمايزةً، متماثلةً، نائيةً، راهنَة: إنها سرعان ما ستنسى الضرورة، والإلحاح، والدهشة: ستتثاءب: ستفتح عينيك وتراهما هناك، بجوارك، بتلك الضراعة الزائفة: ستُتَمتِم باسميهما: كاتالينا، تيريسا: لن تكونا قد فرغتا من إخفاء ذلك الشعور بالخديعة والانتهاك، بالاستنكار المنزعج، الذى يجب أن يتحوّل الآن،

بالضرورة، إلى تظاهر بالقلق، والإعزاز، والألم: قناع الضراعة سيكون أول علامةٍ على ذلك التحوّل الذى يفرضه عليهما مرضك، وحالتك، والياقة، ونظرة الغرباء، والعادة الموروثة: ستتثاءب: ستغمض عينيك: أنت، أرتيميو كروث، هو: ستفكر فى أيامك وعيناك مُغمضتان:

(١٩٤١: ٦ يوليو)

هو من مرّ فى السيارة متجهاً إلى المكتب. كان السائق يقودها بينما يقرأ هو الصحيفة، لكنه فى تلك اللحظة رفع عينيه، بالصدفة، ورآهما تدخلان المتجر. نظر إليهما وزرَّ عينيه وعندئذ إنطلقت السيارة وواصل هو قراءة الأخبار الواردة من سيدى برّانى والعلمين، ناظراً إلى صور روميل ومونتجومرى: كان السائق يتصبَّب عرقاً فى حرارة القيظ ولا يستطيع تشغيل الراديو ليتسلّى وفكّر هو فى أنه أحسن صنعاً بارتباطه بمنتجى البن الكولومبيين حين بدأت الحرب فى أفريقيا ودخلتا هما إلى المتجر ورجتهُما العاملةُ أن تتفضّلا بالجلوس حتى تُخطِر صاحبة المحل (لأنها كانت تعرف من هما المرأتان، الأم والإبنة، وكانت صاحبةُ المحل قد أمرت بأن يُخطروها دائماً حين تجيئان): سارت العاملةُ فى صمت فوق السجاجيد حتى الغرفة الخلفية حيث كانت صاحبة المحل تُوقِّع دعواتٍ متكئةً على المائدة ذات الجلد الأخضر؛ تركت العويناتِ المتدلية من سلسلة فضية تسقط حين

دخلت العاملة وأخبرتها بأن السيدة وإبنتها قد حضرتا وتنهدت صاحبة المحل وقالت: "آه نعم، آه نعم، آه نعم، لقد إقترب الموعد" وشكرتها لإخطارها وسوّت شعرها البنفسجى وزمّت شفتيها وأطفأت السيجارة بطعم النعناع وفى صالة المحل كانت المرأتان قد جلستا ولم تتكلما مطلقاً مطلقاً حتى رأتا صاحبة المحل تظهر وحينئذ تظاهرت الأم، التى كانت لديها هذه الفكرة عن اللياقة، بأنها تواصل حديثاً لم تبدأه قطّ وقالت بصوتٍ عالٍ: "ـ ... لكن هذا الموديل يبدو أجمل بكثير. لا أدرى ماذا تظنين، لكنّ لو كنت أنا لأخترت هذا الموديل؛ حقاً إنه أنيق جداً، جميل جداً جداً". وافقت الفتاة، فقد كانت معتادةً على تلك المحادثات التى لا توجهها الأم إليها بل إلى المرأة التى دخلت الآن، وصافحت الإبنة لكنها لم تصافح الأم، بل حيّتها بابتسامةٍ واسعة ورأسها البنفسجية مائلة. بدأت الإبنة فى التزحزح نحو يمين الأريكة، حتى يتسع المكان لصاحبة المحل، لكن الأم أوقفتها بنظرةٍ وبإصبع يُلوِّح قريباً من صدرها؛ كفت الإبنة عن التحرك ونظرت بتعاطف إلى المرأة ذات الشعر المصبوغ التى ظلت واقفة وسألتهما إن كانتا قد قرَّرتا أى موديل ستختاران. قالت الأم لا، لا، لم تحزما أمرهما بعد ولذا تودّان رؤية كل الموديلات مرة أخرى، فعلى ذلك أيضاً سيعتمد كل ما عداه، تعنى، تفاصيل من قبيل لون الأزهار، وفساتين الوصيفات، وكل تلك الأشياء.

- يؤلمنى كثيراً أن أُثقِلك بكل هذا العمل؛ كان بودّى...
- من فضلك، يا سيدتى. يسعدنا إرضاؤك.
- نعم. نودّ أن نكون متأكدتين.
- بالطبع.
- لا نريد أن نخطىء وبعدها، فى آخر لحظة...
- معك حق. الأفضل أن تختارا بهدوء وليس، فيما بعد...

ـ نعم. نودّ أن نكون متأكدتين.

ـ سأقول للفتيات أن يجهّزن أنفسهن.

بقيتا وحدهما ومدَّت الإبنة ساقيها؛ نظرت إليها الأم منزعجةً وحركت كلّ أصابعها فى وقتٍ واحد، لأنها رأت أربطة جورب الفتاة كما أشارت إليها أن تضع قليلاً من اللعاب على جورب الساق اليسرى؛ بحثت الفتاة ووجدت الموضع الذى كان الحرير فيه قد تمزّق وبللت سبّابتها باللعاب ومسحت بها الموضع. وأوضحت للأم على الفور "ـ أنا نعسانة بعض الشىء". إبتسمت السيدة وربّتت على يدها وظلت الإثنتان جالستين على المقعدين ذوى التطريز الوردى، دون كلام، حتى قال الإبنة أنها جائعة وردّت الأم أنهما ستذهبان فيما بعد لتناول الإفطار عند سانبورنز Sanborn's رغم أنها سترافقها فقط لأن وزنها قد زاد أكثر مما يجب مؤخراً.

ـ لا داعى لأن تقلقى أنت.

ـ حقاً.

ـ إن قوامك شبابىٌّ جداً. لكن فيما بعد، خذى بالك من نفسك. فى أسرتى كنا جميعنا نتمتع بقوام رشيق فى شبابنا وبعد سن الأربعين فقدنا رشاقتنا.

ـ أنت على أفضل ما يرام.

ـ لم تعودى تتذكرين، هذا هو الأمر، لم تعودى تتذكرين. وفوق ذلك...

ـ اليوم استيقظت جائعة. وأفطرت جيداً جداً.

ـ لا تقلقى الآن. فيما بعد، نعم، خذى بالك من نفسك.

ـ هل تزيد الولادة الوزن كثيراً؟

ـ لا، ليست هذه هى المشكلة؛ هذه حقاً ليست هى المشكلة. فعشرة أيام من الرجيم تعيدك مثلما كنتِ. المشكلة بعد سن الأربعين.

فى الداخل، كانت صاحبة المحل تُعدُّ العارضتين، وهى منحنية، والدبابيس فى فمها، تُلوِّح بيديها بعصبية وتؤنب الفتاتين على سيقانهما البالغة القصر؛ كيف تتألق جيداً نساءٌ بهذه السيقان البالغة القصر؟ قالت إنهما بحاجة إلى ممارسة التدريبات، تنس، أو فروسية، كل ما يفيد فى تحسين النوع وقالتا هما أنهما تلاحظان أنها بالغة الإنزعاج فردت صاحبة المحل أن نعم، أن هاتين المرأتين تزعجانها كثيراً. قالت أن السيدة تعوّدت ألا تصافح أحداً أبداً؛ أن الإبنة ألطف، لكنها شاردة الذهن نوعاً ما، وكأنها موجودةٌ فقط؛ أنها فى النهاية، لا تعرفهما جيداً ولا تستطيع أن تحكم وكما يقول الأمريكيون the cos- tumer is always right وأنهما يجب أن تخرجا إلى الصالون مبتسمتين، وهما تقولان تشيز، تشى - بييز وتشييى - بييز. أنها مضطرة للعمل، رغم أنها لم تولد لتعمل، وأنها معتادة على نسوة هذا الزمن الثريات هؤلاء. ولحسن الحظ، يمكنها أيام الآحاد أن تلتقى بأصدقائها القدامى، الذين تربَّت معهم، وأن تشعر بأنها إنسانة مرةً واحدة فى الأسبوع على الأقل. قالت للفتاتين أنهم يلعبون **البريدج**، وصفَّقت حين رأتهما جاهزتين. خسارة أن سيقانهما قصيرة. غرست بعناية الدبابيس التى تبقّت فى فمها فى الوسادة المخملية الصغيرة.

- هل سيأتى إلى الـ shower*.
- من؟ خطيبك أم أبوك؟
- هو، بابا.
- وما أدرانى أنا!

رأى القبة البرتقالية والأعمدة البيضاء، الممتلئة، لقصر الفنون الجميلة تمرّ لكنه نظر إلى أعلى، حيث كانت أسلاك الكهرباء تتجمّع،

* shower : (فى اللهجة الأمريكية)حفل لتقديم الهدايا لعروسٍ على وشك الزواج. م.

وتتفرق، وتجرى ـ ليست هى، بل هو ورأسه متكئةٌ على صوف المقعد الرمادى ـ متوازيةً أو تنتهى إلى مُحوِّلات الضغط العالى: البوابةُ الداكنة، الإيطالية، لمبنى البريد والحليات المنحوتة على شكل أوراق الشجر، والضروع الممتلئة** وقرون الوفرة ** المسكوبة لبنك المكسيك: ربَّت على الشريط الحريرى لقبَّعة الجوخ البُنِّية وبأخمص قدمه أدار حزام المقعد المتحرك للسيارة الليموزين، فى مواجهته: مربعات القيشانى الزرقاء لمحل سانبورنز والأحجار المشغولة والمسوَّدة لدير سان فرنسيسكو. توقفت السيارة عند ناصية شارع الملكة إيسابل الكاثوليكية وفتح له السائق بابها وخلع القلنسوة وبالمقابل، إرتدى هو قبعة الجوخ، ممشطاً بأصابعه فوديه اللذين ظلاّ خارج القبعة وأحاط به ذلك الحشد من باعة اليانصيب وماسحى الأحذية والنسوة المُتلفِّعات والأطفال الذين يبلِّل المخاط شفتهم العليا حتى عبر الأبواب الدوَّارة وسوَّى رباط عنقه أمام زجاج الرواق ووراءه، فى الزجاج الآخر، المؤدى إلى شارع ماديرو، أصلح رجلٌ مماثل له، لكنه بعيد، عقدة رباط عنقه كذلك، بنفس الأصابع التى يصبغها النيكوتين، وبنفس البدلة ذات الخطوط المتقاطعة، لكنها لا لون، محاطاً بالمتسوِّلين وترك يده تسقط فى نفس الوقت الذى فعل فيه هو ذلك، ثم أدار له ظهره وسار حتى منتصف الشارع، بينما بحث هو عن المصعد، مرتبكاً للحظة.

مرة أخرى أتعستها الأيدى الممدودة فضغطت على ذراع إبنتها لتُدخِلها بسرعة فى هذا الدفء غير الواقعى، دفء الصوبة الزجاجية، فى رائحة الصابون والكولونيا والورق الناعم المطبوع حديثاً. توقفت برهةً لتتفقّد أدوات التجميل المرتَّبة خلف الزجاج ونظرت إلى نفسها، وهى تُضيِّق عينيها لترى جيداً أدوات الماكياج المعروضة فوق قطعة

** أنواع من الحليات المعمارية ـ م.

حرير حمراء. طلبت برطماناً صغيراً من الكولد كريم ماركة Theat-rical وإصبعى شفاه من نفس اللون، لون قطعة الحرير تلك وبحثت دون جدوى عن أوراق البنكنوت فى حقيبة يدها المصنوعة من جلد التمساح: "ـ خذى، إبحثى لى عن ورقة من فئة عشرين بيسو". أخذت اللفافة والباقى ودلفتا إلى المطعم ووجدتا مائدةً لشخصين. طلبت الفتاة عصير برتقال وكعكة بالبندق من الجرسونة المرتدية زى هندية حمراء ولم تستطع الأم أن تقاوم فطلبت شطيرة بالزبيب مغطاةً بالزبد ونظرت الإثنتان حولهما محاولتين التعرف على وجوهٍ أليفة حتى إستأذنت الفتاة فى خلع سترة الرداء الأصفر المصنوع على المقاس لأن القيظ الذى يدخل من خلال الطاقة كان شديداً.

ـ چوان كراوفورد Joan Crawford ـ قالت الإبنة ـ چوان كراوفورد.

ـ لا، لا. لا تُنطق هكذا. هكذا لا. كرو ـ فور Cro - for. كرو ـ فور؛ هم ينطقونه هكذا.

ـ كراو ـ فور Crau - for.

ـ لا، لا. كرو، كرو، كرو. Cro. "الألف" و"الواو" معاً تُنطقان مثل "الواو". أظنهم ينطقونه هكذا.

ـ لم يعجبنى الفيلم كثيراً.

ـ لا، ليس لطيفاً جداً. لكنها تظهر جميلة جداً.

ـ مللتُ جداً.

ـ لكنك ألححت كثيراً فى الذهاب...

ـ قالوا لى أنه فيلم لطيف جداً، لكن لا.

ـ إننا نتسلّى.

ـ كرو ـ فورد.

ـ نعم، أعتقد أنهم ينطقونه هكذا، كرو ـ فور. أظن أنهم لا

ينطلقون "الدال".

ـ كرو ـ فور.

ـ أظن ذلك. إلاّ إذا كنت مخطئة.

نثرت الفتاة العسل على الكعكة وقطعتها إلى قطع صغيرة حين تأكدت أن كل مسامها إمتلأت بالعسل. أخذت تبتسم لأمها كلما ملأت فمها بهذا الدقيق المحمص المشبَّع بالعسل. لم تكن الأم تنظر إليها. كان ثمة يدٌ تداعب أخرى، تربِّت بالإبهام أطراف الأصابع كأنها تودّ أن تنزع أظافرها: نظرت إلى اليدين القريبتين منها، دون رغبةٍ فى النظر إلى الوجهين: كيف كانت إحدى اليدين تعود لتتناول الأخرى وتشرع فى إستكشافها، ببطء، دون أن تُفلتَ أى واحدٍ من مسام الجلد الآخر. لا، لم يكن فى الأصابعٍ أى خواتم؛ لابد أنهما خطيبانٍ أو ما أشبه. حاولت أن تحوِّل نظرتها وتثبِّتها فى بركة العسل التى تغمر صحن إبنتها، لكنها كانت تعود رغماً عنها إلى يدى العاشقين على المائدة المجاورة وأفلحت فى تجنب وجهيهما، لكنها لم تفلت اليدين المربِّتتين. لعبت الإبنة بلسانها فى لثتها، ملتقطةً فتافيت الدقيق والبندق المتناثرة ثم نظفت شفتيها ولطّخت الفوطة بالأحمر، لكنها قبل معاودة صبغ شفتيها فتشت بلسانها عن بقايا الكعكة وطلبت من أمها قطعة من شطيرة الزبيب. قالت أنها لا تريد قهوةً لأنها تجعلها عصبيةً جداً، رغم أنها تحب القهوة، لكن ليس الآن، لأنها عصبيةٌ بما يكفى. ربتت السيدة على يدها وقالت لها أنهما يجب أن تغادرا المكان فمازال أمامهما أن تنجزا أشياء كثيرة. دفعت الحساب وتركت البقشيش ونهضتا كلتاهما.

شرح الأمريكى الشمالى أن الماء المغلى يتم حقنه فى مناجم الخام؛ يُذيبها الماء ويندفع الكبريت إلى السطح بفعل الهواء المضغوط. عاود شرح الطريقة وقال الأمريكى الشمالى الآخر أنهم راضون تماماً عن أعمال التنقيب وقطع الهواءَ بيده عدة مرات، ملوحاً بها قريباً جداً

من وجـهـه المشـدود والمحـمـرّ ومكرراً: "ـ دومـوس، كـويِّس. بيـريتـاس، وحِش. دوموس، كويِّس. بيريتاس، وحِش. دومـوس، كويِّس..." أخـذ هو ينقـر بأصابعه فوق زجاج الطاولة ويَهز رأسـه موافقـاً، وقد تعوَّد أنهم، حين يتكلمـون بالإسبانيـة، يعتقدون أنه لا يفهم، ليس لأنهم يتحدثون إسبانية سيئة، بل لأنه لا يفهم جيداً أى شىء. "بيريتاس وحِش". فـرد الخبيـر الفنى خريطة المنطقة على الطاولة فـأزاح هو مـرفَقيـه بينمـا يبسطان لوحة الرسم. شرح الثانى أن المنطقـة من الثراء بحيث يمكن إستغلالها إلى الحدّ الأقصى حتى مطلع القرن الواحد والعشرين، إلى الحد الأقصى، حتى إستنفاد الإحتيـاطيات؛ إلى الحد الأقصى. كرر ذلك سبع مرات وسحب قبضته التى كان قد تركها تسقط، فى بداية مـوعظتـه، فـوق تلك البـقـعـة الخـضـراء المنقّطة بمثلثـات تشيـر إلى مكتشفات الچيولوچى. غمز الأمريكى الشمالى بعينه وقال أن غابات الصنوبر والماهوجنى بالغـة الضـخـامـة بدورها وأنه هو، الشـريك المكسـيكى، يفـوز بمائة فى المائة من أرباحـهـا؛ وفى هذا الأمـر لا يتدخلون هم، الشركاء الأمريكيون الشماليون، رغم أنهم ينصحونه بأن يعيد تشجير الغابات باستمرار؛ فقد شاهدوا تلك الغابات مُدمَّرةً فى كل مكان: ألا تدركون أن هذه الأشجار تعنى نقوداً؟ لكن هذا من شأنه هو، فـالمناجم موجـودة بالغـابات أو بدونهـا. إبتسم هو ونهض واقـفـاً. شبك إبهاميه بين الحزام وقماش البنطلون وأرجح السيجار المطفأ بين شفتيه حتى نهض أحد الأمريكيين الشمـاليين وبين يديه عـود ثقاب مشتـعل. قرَّبه من السيجـار وأدار هو السيجـار بين شفـتيـه حتى لمعَ طرفه مشتعلاً. طلب منهما مليونين من الدولارات نقداً فسألاه لماذا: لقـد أدخلوه عن طيب خـاطر شـريكاً فى رأس المال بمبلغ ٣٠٠ ألف دولار، لكن أحـداً لن يسـتطيع أن يقـبضْ سنتيـمـاً واحداً حتى يبدأ الاستثمار فى الإنتاج: مسح الچيولوچى عويناته بقطعة شامواه صغيرة

كانت فى جيب قميصه وبدأ الآخر يذرع المكان من المنضدة إلى النافذة ومن النافذة إلى المنضدة، حتى كرَّر لهما هو أن تلك هى شروطه: فليس الأمر متعلقاً حتى بمقدَّم، أو بقرض، أو بشىءٍ من هذا القبيل: إنه المبلغ الذى يدينون له به مقابل محاولة الحصول على حق الإمتياز؛ وربما، بدون هذا المبلغ المقدَّم، لن يكون هناك حق إمتياز: أما هم فسوف يستعيدون مع الزمن الهدية التى سيقدمونها له الآن؛ لكن بدونه، بدون الرجل ـ الواجهة، بدون الـ Front - man ـ ورجاهما أن يغفرا له ألفاظه ـ لن يستطيعا الحصول على حق الإمتياز واستغلال المناجم. دقّ الجرس ونادى سكرتيره وقرأ السكرتير بسرعة قائمةً من الأرقام الدقيقة فقال الأمريكيان أو. كى. عدة مرات، أو. كى، أو. كى، أو. كى، وابتسم هو وقدم لهما كأسين من الويسكى وقال لهما أن بإمكانهما إستغلال الكبريت حتى مطلع القرن الواحد والعشرين، لكنهما لن يستغلانه هو ولا دقيقة واحدة من القرن العشرين وتبادلوا الأنخاب وضحك الآخران وهما يغمغمان. s. o. b* مرةً واحدة.

سارت الإثنتان وذراعاهما مشتبكتان. سارتا على مهل ورأساهما خفيضتان وهما تتوقفان أمام كل واجهة وتقولان ما أجمله، ما أغلاه، هناك واحدة أفضل إلى الأمام، إنظرى إلى هذا، ما أجمله، حتى تعبتا فدلفتا إلى مقهى وبحثتا عن موضع جيدٍ بعيدٍ عن المدخل حيث يُطلُّ باعة اليانصيب ويثور الغبار الجاف الكثيف، وبعيدٍ كذلك عن المباول وطلبتا زجاجتى كندا دراى بطعم البرتقال. وضعت الأم البودرة على وجهها ونظرت إلى عينيها العنبريتين فى مرآة علبة البودرة، نظرت إلى البروز الذى يصنعه الكيسان الجلديان اللذان بدءا يحيطان بهما وسارعت بإغلاق الغطاء. راقبت الإثنتان فقاقيعٍ مُرطِّبَ الصودا

---

* s. o. b. إبن القحبة ـ م.

والأينلين وإنتظرتا أن يتسرّب الغاز لتشريانه فى رشفات صغيرة. خلعت الفتاة الحذاء، خلسةً، وربتت على أصابع قدمها المحشورة وتذكرت السيدة، وهى جالسة أمام مشروب البرتقال، الغرفتين المنفصلتين فى المنزل، منفصلتين لكنهما متجاورتان، والأصوات التى تُفلح كلَّ صباح وكل مساء فى إختراق الباب المغلق: النحنحة العارضة، سقوط الحذاء فوق الأرضية، إصطدام سلسلة المفاتيح برف المدفأة، مفصّلات صوان الملابس التى تُصِرُّ، وأحياناً حتى إيقاع التنفس أثناء النوم. أحسّت ببرودة فى ظهرها. كانت قد إقتربت هذا الصباح ذاته، سائرةً على أطراف أصابعها، من الباب المغلق وأحسَّت ببرودة فى ظهرها. أدهشها التفكير فى أن كل تلك الأصوات الخافتة والمعتادة هى أصواتٌ سرِّية. عادت إلى فراشها ولفَّت نفسها بالأغطية وثبَّتت بصرها فى السقف، حيث تناثرت مروحةٌ من الأضواء المستديرة، الهاربة: إلتماعات ظل أشجار القسطل. شربت بقايا شاى مُثلَّج ونامت حتى جاءت الفتاة لتوقظها، لتذكِّرها أن أمامهما يومٌ ملىءٌ بالمشاغل. والآن فقط، والكوب البارد بين أصابعها، تذكرت تلك السويعات الباكرة من النهار.

مال فى كرسيه الدوار حتى صرّ الزنبرك وسأل السكرتير: "هل ثمة مصرف يريد المخاطرة؟ هل كان ثمة مكسيكى يثق فىَّ؟". تناول القلم الرصاص الأصفر وأشار به إلى وجه السكرتير: فليكن ثمة دليل على ذلك؛ فليكن پادييا شاهداً: لم يُرِد أحد المخاطرة ولم يكن هو ليترك تلك الثروة تتعفّن فى غابات الجنَوب؛ إذا كان الجرينجو* هم الوحيدون المستعدّون لمنح النقود من أجل عمليات التنقيب فماذا كان

* gringos (هنا بالجمع): تطلق فى أمريكا اللاتينية على الأمريكيين الشماليين وتحمل معنى الإحتقار أو الكراهية ـ م.

بإمكانه أن يفعل؟ أشار السكرتير إلى الساعة فزفر هو وقال حسناً. دعاه إلى الغداء. يمكنهما أن يأكلا سوياً. هل تعرف مكاناً جديداً؟ أجاب السكرتير بنعم، مكان مُحبَّب جديد وظريف جداً؛ فطائر جبن شهية جداً، بدقيق القمح، والجبن، ولحم القنفذ؛ وهو على الناصية. يمكنهما الذهاب سوياً. أحسّ بالتعب؛ لم يكن يريد العودة إلى المكتب ذلك المساء. يجب أن يحتفلا، على نحو ما. كيف لا. وعلاوةً على ذلك، فإنهما لم يأكلا معاً أبداً. هبطا فيً صمت وسارا باتجاه طريق الخامس من مايو.

ـ أنت صغير السن جداً. ما عمرك؟

ـ سبعة وعشرون عاماً.

ـ متى تخرَّجت؟

ـ منذ ثلاث سنوات. لكن...

ـ لكن ماذا؟

ـ النظرية مختلفة تماماً عن الممارسة.

ـ وهذا يضحكك؟ ماذا علّموك؟

ـ الكثير من الماركسية. حتى أننى قدمت أطروحتى فى موضوع فائض القيمة.

ـ لابد أنها مذهب جيد، يا پادييا.

ـ لكن الممارسة مختلفة جداً.

ـ وهل أنت ماركسى؟

ـ حسناً، كان كل أصدقائى ماركسيين. لابد أنه أمر مرتبط بالسن.

ـ أين هو المطعم؟

ـ أمامنا مباشرة، على الناصية.

ـ لا أحب المشى.

ـ إنه قريب جداً.

تقاسمتا اللفافات وسارتا بإتجاه الفنون الجميلة، حيث كان السائق فى إنتظارهما: واصلتا السير ورأساهما خفيضتان، موجهتان إلى الواجهات مثل هوائيات وفجأة أمسكت الأم بذراع الإبنة وهى ترتجف وأسقطت لفافة، فأمامهما، بجوارهما، كان كلبان يزمجران بحنق بارد، يتباعدان، يزمجران، ويعضّان رقبتى بعضهما حتى تدميان، جريا إلى الأسفلت، وعاودا الإلتحام بعضعضات مسنونة وزمجرات: كلبان ضالاّن، أجربان، مُزبدان، ذكر وأنثى. إلتقطت الفتاة اللفافة وقادت أمها إلى مكان الإنتظار. إتخذا مكانيهما فى السيارة وسأل السائق هل تعودان إلى لاس لوماس فأجابت الإبنة بنعم، قائلةً أن بعض الكلاب قد أفزعت أمها. قالت السيدة أن ذلك لا شىء، وأنه قد إنقضى: كان أمراً مباغتاً وقريباً جداً منها، لكن بإمكانهما العودة إلى وسط البلد ذلك المساء، فمازالت تنقصهما مشتروات كثيرة، من محال كثيرة. قالت الفتاة أن هناك متسعاً من الوقت؛ فمازال أمامهما أكثر من شهر. نعم، قالت الأم، لكن الزمن يطير، وأبوكِ لا يشغل نفسه بالعُرس، ويترك لنا كل العمل. إضافة إلى ذلك، يجب أن تتعلّمى الحفاظ على مركزك؛ لا يجب أن تصافحى الجميع. إضافة إلى ذلك، أريد أن يمر العرس بسلام، لأننى أعتقد أنه سيفيد أبيكِ فى الإنتباه إلى أنه قد أصبح رجلاً ناضجاً. أتمنى أن يفيد. إنه لا ينتبه إلى أنه قد بلغ الثانية والخمسين. أتمنى أن تتجبى أطفالاً بسرعة. على أية حال، سيفيد أبيك أن يكون إلى جانبى فى الزواج المدنى والدينى، أن يتلقى التهانى ويرى أن الكلَّ يعاملونه كرجلٍ محترم وناضج. ربما أثرّ فيه كل ذلك، ربما.

أنـا أحسّ بهذه اليدّ التى تُربِّت علىّ وأود التخلّص من ملمسها، لكننى خائر القوى. يا لها من تربيتةٍ لا جدوى. يا كاتالينا. يا للعبث. ماذا ستقولين لى؟ أتظنين أنك وجدتِ أخيراً الكلمات التى لم تجرؤى أبداً على التفوّه بها؟ اليوم؟ يا للعبث. أمسكى لسانك. لا تسمحى له بترف التفسير. كونى مخلصةً لما تظاهرت به دوماً؛ كونى مخلصةً حتى النهاية. إنظرى: تعلّمى من إبنتك. تيريسا. إبنتنا. يا للصعوبة. يا له من إسم بلا جدوى. إبنتنا. إنها لا تتظاهر. ليس لديها ما تقوله. إنظرى إليها. جالسةً ويداها مضمومتان بالرداء الأسود، تنتظر. لا تتظاهر. قبلها، بعيداً عن مسامعى، ستكون قد قالت لك: "أتمنى أن ينتهى كل شىء بسرعة. لأنه قادر على التظاهر بأنه مريض، حتى يميتنا نحن". لابد أنها قالت لك شيئاً من هذا القبيل. سمعت شيئاً كهذا حين أفقت هذا الصباح من ذلك النوم الطويل الهانىء. أتذكر على نحو غامض المنوِّم، مهدىء الليلة الماضية. ولابد أنك أجبتِها: "يا إلهى، عَسى ألاّ يتعذب أكثر مما يحتمل" : لابد أنكِ أردت إضفاء معنىً مختلف على كلمات إبنتك. ولا تدرين أى معنى تُضفين على الكلمات التى أغمغمها:

- إنتظرتك هذا الصباح بابتهاج. لنعبُر النهر على صهوة الجياد.

آه، پادييا، إقترب. هل أحضرت جهاز التسجيل؟ لو عرفت ما يجب أن تفعله، لكنت أحضرته إلى هنا كما كنت تحمله كلّ مساءٍ إلى منزلى فى كويواكان. لوددتَ اليوم، أكثر من أى وقتٍ مضى، أن تعطينى

الإنطباع بأن كل شىء يظلّ على حاله. لا تفسد الطقوس، يا پادييا. آه نعم، إنك تقترب. وهما لا تريدان.

- لا، يا أستاذ، لا يمكننا أن نسمح بذلك.

- إنها عادةٌ منذ سنواتٍ طويلة، يا سيدتى.

- ألا ترى وجهه؟

- دعينى أجرِّب. كل شىء جاهز. يكفى توصيل جهاز التسجيل.

- على مسئوليتك؟

- دون أرتيميو... دون أرتيميو... أحضرت لك ما سجّلناه هذا الصباح...

أومىء بالموافقة. أحاول الإبتسام. مثل كل يوم. موضع ثقة، پادييا هذا. بالطبع يستحق ثقتى. بالطبع يستحق جزءاً طيباً من ميراثى والإدارة الدائمة لكل ممتلكاتى. من سواه. إنه يعرف كل شىء. آه، يا پادييا. هل تواصل جمع كل تسجيلات محادثاتى فى المكتب؟ آه، يا پادييا، إنك تعرف كل شىء. يجب أن أكافئك جيداً. أورثُكَ سمعتى.

تيريسا جالسة، بالصحيفة المفتوحة التى تخفى وجهها.

وأحسُّ به يصل، برائحة البخور تلك وبذيول ردائه السوداء والمِنْضَحَة تسبقه ليودِّعنى بحماسة إنذار؛ هأ، وقعوا فى الفخ؛ وتيريسا تلك تتباكى هناك والآن تُخرج علبة البودرة من الحقيبة وتُصلحُ هيئة أنفها لتعاودَ النهنهة من جديد. أتخيّلُنى فى اللحظة الأخيرة، لو سقط التابوت فى تلك الحفرة بينما جمعٌ من النسوة يُنَهنِهن ويُصلحن هيئة أنوفهن فوق قبرى. حسناً: أحسُّ أننى أفضل. وكنت سأحسُّ بأننى فى خير حال لو أن هذه الرائحة، رائحتى، لا تتصاعد من طيَّات الملاءات، لو لم أنتبه لتلك البقع الكبيرة المضحكة التى لطَّختُها بها... هل أتنفَّس أنا بهذا الشخير التشنُّجى؟ هل هكذا سأتلقىّ هذا الهُلام الأسود وأواجه طقسه الدينى؟ آآآخ. آآآخ. يجب

أن أنظم شخيرى... أضم قبضتىّ، آآآخ، وعضلات وجهى وأجد إلى جوارى ذلك الوجه من الدقيق الذى يأتى للتأكّد من الصيغة التى ستظهر غداً، أو بعد غد - ولن تظهر أبداً؟، أبداً - فى كل الصحف، "مع كل بركات الكنيسةِ الأم المقدسة..." ويُقرِّب وجهه الحليق من خدّىّ المشتعلين بالمشيب. يرسم علامة الصليب. يتمتم بصلاة "أنا الخاطىء" ولا يمكننى إلاّ الإشاحة بوجهى وإطلاق الأنين بينما أملأ رأسى بتلك التخيّلات التى أود أن أقذفها فى وجهه: الليلة التى منح فيها ذلك النجّار الفقير والقذر نفسه تَرَف إمتطاء العذراء الوَجلة التى كانت قد صدَّقت حكايات وخداع عائلتها وكانت تُبقى الحمَامات البيضاء بين فخديها معتقدةً أنها بذلك ستلد، الحمامات المخبوءة بين الساقين، فى الحديقة، تحت التنورة، والآن إمتطاها النجّار تملؤه رغبةٌ مُبرَّرة، لأنها لابد كانت مليحةً جداً، مليحةً جداً، وامتطاها بينما تتصاعد النهنهات المُهانة لتيريسا التى لا تُطاق، تلك المرأة الشاحبة التى تتمنى، هانئةً، تمردى النهائى، لأنه الدافع لمهانتها النهائية. يبدو لى غير معقول أن أراهما هناك، جالستين، دون أن تحتدّا، دون أن تكيلا الإتهامات. كم سيدوم هذا؟ لا أحس أننى الآن فى حالة بالغة السوء. ربما أتعافى. يا لها من صدمة! أليس ذلك مؤكداً؟ سأحاول أن أبدو بحالةٍ طيبة، لأرى هل ستنتهزان الفرصة وتنسيان إيماءات الإعزاز المُغتصبة تلك وتُفرغان صدريكما لآخر مرة من الحجج والشتائم التى تسدُّ حلقكما، وعيونكما، وتلك الإنسانية دون طعم التى إنقلبتما إليها. دورة دموية سيئة، هذا هو الأمر، لا شىء أكثر خطورة. أوف. يضجرنى أن أراهما هناك. يجب أن يوجد شىء أشد إثارة للإهتمام فى متناول عينين شبه مغمضتين تريان الأشياء لآخر مرة. آه. أحضرونى إلى هذا المنزل وليس إلى الآخر. يا سلام. يا له من تكتُّم. سيكون علىّ أو أوبِّخ پاديپا لآخر مرة. پاديپا يعرف أيهما هو

منزلى الحقيقى. هنالك كان يمكننى أن أستمتع برؤية تلك الأشياء التى أحبها كثيراً. كنت سأفتح عينى لأنظر إلى سقفٍ ذى دعامات عتيقة ودافئة؛ وتكون فى متناول يدى العباءة الذهبية التى تزيِّن رأس الفراش، وشمعدانات المنضدة الليلية، ومخمّل مساند الظهر، وكريستال بوهيميا الذى صنعت منه أكوابى. سيكون سيرافين بقربى يدخِّن، وأشم الدخان. وستكون هى أنيقةً، كما أمرتُ. بالغة الأناقة، دون دموع، ودون ثياب سوداء. هنالك، لن أشعر أننى عجوز ومُنهَك. سيكون كل شىء معدّاً ليذكِّرنى بأننى رجل حىٌّ، رجلٌ يحب، تماماً تماماً تماماً مثلما كان الأمر من قبل. لماذا تجلسان هنا، أيتها العجوزتان القبيحتان المُهمَلَتان الزائفتان لتذكِّراننى بأننى لستُ نفسَ الرجل الذى كنتهُ من قبل. كل شىء معدٌّ. هنالك فى منزلى كلُّ شىءٍ معدٌّ. يعرفون ما يجب أن يفعلوه فى هذه الحالات. ويمنعوننى من التذكر. يقولون لى أننى أوجد، الآن، ولم أكن أبداً. لا أحد يحاول توضيح أى شىء قبل أن يكون الوقت قد فات. أوف. كيف سأتسلّى هنا؟ نعم، إننى أرى أنهم قد أعدّوا كل شىء ليبدو أننى آتى إلى هذا المخدع كل ليلة وأنام هنا. أرى الصوان شبه المفتوح وأرى المنظر الجانبى لبعض السترات التى لم أستخدمها أبداً، وبعض ربطات العنق دون كرمشات، وبعض الأحذية الجديدة. أرى طاولة كتابة كوّموا فوقها كتباً لم يقرأها أحد، وأوراقاً لم يوقِّعها أحد. وهذا الأثاث الأنيق المبتذل: متى نزعوا عنه الأغطية المليئة بالتراب؟ آه... ثمة نافذة. ثمة عالمٌ بالخارج. ثمة هذه الريح العالية، ريح الهضبة، التى تُحرِّك أشجاراً سوداء ونحيلة. يجب أن أتنفس...

- إفتحوا النافذة...
- لا، لا. قد تُصاب بالبرد وتُعقِّد الأمور.
- تيريسا، أبوك لا يسمعك...

ـ إنه يتظاهر. يغمض عينيه ويتظاهر.

ـ إسكتى.

ـ إسكتى.

ستسكتان. ستبتعدان عن مقدمة الفراش. أُبقى عينىَّ مغمضتين. أتذكر أننى خرجت لتناول الغداء مع پاديبا، ذلك الأصيل. تذكرت هذا فعلاً. لقد تغلَّبتُ عليهم فى لعبتهم ذاتها. كل هذا كريه الرائحة، لكنه فاتر. جسدى يولِّد برودة فاترة. يولِّد حرارة فى الملاءات. تغلَّبتُ على كثيرين. تغلَّبتُ على الجميع. نعم، دمى يتدفق جيداً فى شرايينى؛ سأتمالك نفسى قريباً. نعم، يتدفق فاتراً. لكنه مازال يبعث حرارة. إننى أغفر لكم. فلم تجرحونى. حسناً، تكلموا، قولوا. لا يهمنى. أغفر لكم. يا للبرودة الفاترة. قريباً سأكون بخير. آه.

أنــت ستشعر بالرضا لأنك فرضت إحترامك عليهم؛ إعترف: فرضت إحترامك حتى يعترفوا بأنك نِدٌّ لهم: ما أقل المرّات التى بلغت فيها مثل هذه السعادة، لأنك منذ بدأت تصبح ما أنت عليه، منذ تعلّمت أن تُقدِّر ملمسَ الأقمشة الفاخرة، مذاقَ الخمور الفاخرة، رائحة أنواع اللوسيون الفاخرة، كلَّ ما أصبح فى السنوات الأخيرة متعتك الوحيدة والفريدة، منذ ذلك الحين غرست نظرتك هناك إلى أعلى، إلى الشمال، ومنذ ذلك الحين عشت بحنين الخطأ الجغرافى الذى لم

يسمح لك بأن تكون جزءاً منهم فى كل شىء: إنك تُعجبُ بكفاءتهم، بوسائل الراحة لديهم، بعاداتهم الصحية، بسلطتهم، بإرادتهم وتنظر حولك وتبدو لك أموراً لا تطاق عدم كفاءة، وبؤس، وقذارة، ورخاوة، وعُرى هذا البلد البائس الذى لا يملك شيئاً؛ وأكثر ما يؤلمك هو معرفة أنك مهما حاولت، لا يمكنك أن تكون مثلهم، لا يمكن أن تكون سوى نسخة بالكربون، صورة تقريبية، ففى نهاية المطاف، قل لى: هل كانت رؤيتك للأشياء، فى أسوأ لحظاتك أو فى أفضلها، بالغة التبسيطية مثل رؤيتهم؟ أبداً. لم تستطع أبداً التفكير فى الأمور على أنها أبيض وأسود، صالح وطالح، إله وشيطان: إعترف أنك دوماً، حتى عندما بدا الأمر على عكس ذلك، قد وجدت فى الأسود جرثومة، إنعكاس ضده: وقسوتك ذاتها، حين كنتَ قاسياً، ألم تكن مصطبغةً برقةٍ معينة؟ تعرف أن كلَّ ما هو حدِّىٌّ يتضمنُ ضده: القسوة تتضمن الرقةَ، والجُبنُ الشجاعةَ، والحياةُ الموتَ: على نحو ما ـ لا شعورياً تقريباً، لكونك من أنت، ومن أين أنت وما عشته ـ تُعرف هذا ولذا لن يمكنك أبداً أن تشبههم، هم الذين لا يعرفونه. هل يضايقك هذا؟ نعم، ليس مريحاً، بل مزعجاً، ومن المريح أكثر بكثير أن تقول: هذا هو الخير وهذا هو الشر. الشر. لن تستطيع تحديده أبداً. ربما، لأننا منبوذون أكثر، لا نودُّ أن تضيع هذه المنطقة الوسيطة، الملتبسة، بين الضوء والظلمة: هذه المنطقة حيث يمكننا أن نجد الغفران. حيث يمكنك أنت أن تجده. منذا الذى لن يكون قادراً، فى لحظة واحدة من لحظات حياته ـ مثلك ـ على تجسيد الخير والشر فى نفس الوقت، على أن يُسلِم قياده فى نفس الوقت لخيطين غامضين، بلونين مختلفين، ينطلقان من نفس اللفافة حتى يصعد الخيط الأبيض ويهبط الأسود ثم، رغم كل شىء، يُعاود الإثنان الإلتقاء بين أصابعك ذاتها؟ لن تودَّ التفكير فى هذا كله. ستحتقر الأنا لتذكيرك بذلك. ستودُّ أن تكون مثلهم والآن، وأنت عجوز،

تكاد تحقق ذلك. لكنك تكاد. تكاد فقط. فأنت نفسك ستمنع النسيان. ستكون شجاعتك توأم جبنك، ستكون كراهيتك قد وُلِدت من حبك، وستكون حياتك كلها قد إحتوت ووعدت بموتك: لن تكون قد عشت خيِّراً ولا شريراً، كريماً ولا أنانياً، شريفاً ولا خائناً. ستتركُ للآخرين أن يؤكدوا مزاياك وعيوبك؛ لكنك أنت نفسك، كيف سيمكنك إنكار أن كل ما تؤكده سينتفى، أن كل ما تنفيه سيتأكد؟ ولن يدرى أحد، ربما باستثنائك أنت. أن وجودك سيكون منسوجاً من كل الخيوط، مثل حياة كل البشر. أنك لن تتقصك، ولن تفيض عن حاجتك، فرصة واحدة لتجعل من حياتك ما تريدها أن تكون. وإذا كنت ستصير شيئاً، وليس آخر، فذلك لأنك، رغم كل شيء، سيكون عليك أن تختار. ولن تنفى خياراتك بقية حياتك الممكنة، كلَّ ما ستخلِّفه وراءك فى كل مرةٍ تختار: بل ستجعلها هزيلةً، ستجعلها هزيلةً لدرجة أن إختيارك ومصيرك اليوم سيصيران شيئاً واحداً: لن يعود للميدالية وجهان: ستكون رغبتك متطابقةً مع مصيرك. ستموت؟ لن تكون المرة الأولى. ستكونُ قد عشت حيوات كثيرةٍ ميتة، لحظاتٍ كثيرة هى مجرد إيماءات. حين تلصق كاتالينا أذنها بالباب الذى يفصلُ بينكما وتتسمع حركاتك؛ حين تتحرك أنت، على الجانب الآخر من الباب، دون أن تدرِى أن هناك من يتنصَّتُ عليك، دون أن تدرى أن حياة شخص متوقفةٌ على أصوات وسكون حياتك خلف الباب، منذا سيحيا فى هذا الإنفصال؟ حين يعرف كلاكما أن كلمة واحدة تكفى ورغم ذلك تصمتانِ، منذا سيحيا فى هذا الصمت؟ لا، هذا ما لا تود تذكُّره. تودّ تذكُّر شيء آخر: ذلك الإسم، ذلك الوجه الذى سيمحوه مرور الزمن. لكنك ستعرف أنك لو تذكرتَ ذلك لوجدت خلاصك، لوجدت خلاصك بسهولة مفرطة. ستتذكر أولاً ما يمثِّل عقوبتك، وحين تجد خلاصك فيه، ستعرف أن ذلك الشيء الآخر، الذى ستظنه خلاصك، سيكون هو عقوبتك الحقيقية: أن تتذكر

ما تريد. ستتذكر كاتالينا الشابة، حين عرفتها، وستقارنها بإمرأة اليوم المغرورة. ستتذكَّر وستتذكر لماذا. ستجسِّدُ ما ظنته هى، والجميع حينئذ. ولن تدرى. سيتوجب عليك أن تجسده. لن تُصغى أبداً لكلمات الآخرين. سيكون عليك أن تحياها. ستغمض عينيك: ستغمضهما. لن تشُمَّ ذلك البخور. لن تنصت إلى ذلك النحيب. ستتذكر أشياءً أخرى، نهاراتٍ أخرى. إنها نهاراتٌ ستصل ليلاً إلى ليل عينيك المغمضتين ولن تستطيعَ التعرّف عليها إلاّ بالصوت: وليس مطلقاً بالنظر. سيتوجب عليك أن تقدِّر الليل حق قدره وتقبله دون أن تراه، أن تؤمن به دون أن تتعرف عليه، وكأنه إله كلِّ نهاراتك: الليل. الآن ستفكر أن إغماض عينيك سيكفى لحلوله. ستبتسم، رغم الألم الذى يعاود التسلُّل، وتحاول مدَّ ساقيك قليلاً. سيلمس شخصٌ يدك، لكنك لن تُجيب على هذه ـ ما هى، تربيتةٌ، إهتمامٌ، معاناةٌ، حسابٌ؟ ـ لأنك ستكون قد خلقت الليل بعينيك المغمضتين ومن أعماق محيط الحبر ذاك ستبحر نحوك سفينةٌ حجريةٌ عبثاً ستحاول شمسُ الظهيرة، الحارة المتثائبة، أن تضفى عليها البهجة: جدرانٌ سميكة ومسودَّة، مُشيدَّة لتحمى الكنيسة الأم من هجمات الهنود، وكذلك لتوحِّد بين الفتح الدينى والفتح العسكرى. ستتقدم صوب عينيك المغمضتين، بالضجيج المتصاعد للنايات والطبول، إنها القوات الجلفة، الإسبانية، للملكة إيسابل وسوف تعبر أنت تحت الشمس الساحَة الفسيحة وفى وسطها الصليب الحجرى وفى الزوايا المحاريبُ المفتوحة، إمتدادُ عقيدة أهل البلاد، المسرحية، فى الهواء الطلق. وأعلى الكنيسة المقامة فى عمق الساحة، ستستقر قباب الحجر البركانى فوق سيوف المدجنين* المنسيِّة، علامةً على دمٍ

* mudéjares: تشير إلى المسلمين الذين بقوا فى قشتالة بعد إعادة الفتح المسيحى وإلى فنونهم (من القرن ١٢ ـ ١٦) الغنية بالتأثيرات الإسلامية ـ م.

جديد مُتراكب على دم الغزاه. ستتقدمُ حتى أول بوابة من الطراز الباروكى، الذى مًازال قشتالياً، لكنه صار ثرياً بالأعمدة المحلاة بنقوش الكروم الباذخة والعقود المحدَّبة: بوابة الفتح، الصارمة والمرحة، بإحدى قدميها فى العالم القديم، الميت، والقدم الأخرى فى العالم الجديد الذى لم يبدأ هنا، بل على الجانب الآخر من البحر أيضاً: فالعالم الجديد جاء معهم، بجبهة من الأسوار المتقشفة لحماية القلب الحسِّى، المرح، الجشع. ستتقدمُ وتنفذُ إلى صحن السفينة، التى سيكون سطحها الخارجى القشتالى قد هزمه الإمتلاء، الجنائزى والضاحك، لهذه السماء الهندية ذات القديسين، والملائكة، والآلهة الهندية. صحنٌ واحد، هائل، سيمتد صوب المذبح، الذى تزيِّنه نقوشٌ متكاثفة، وفرةٌ متجهمةٌ لوجوهٍ مُقنَّعة، صلاةٌ كئيبةٌ وإحتفالية، متعجِّلةٌ دوماً، لهذه الحرية، الوحيدة الممنوحة، حرية تزيين معبد وملئه بالخوف الهادىء، بالخضوع المنحوت، بالرعب من الفراغ، من الأزمنة الميِّتة، لمن كانوا يُطيلون التباطؤَ المُتعمَّد للعمل الحر، اللحظاتِ الإستثنائية للاستقلال الذاتى، فى اللون وفى الشكل، بعيداً عن ذلك العالم الخارجى ذى السياط، والقيود الحديدية، والجُدرى. ستسير، لفتح عالمك الجديد عبر الصحن الذى ليس فيه مساحة خالية: رؤوس ملائكة، أغصانُ كروم متناثرة، أزهارٌ متعددة الألوان، فاكهة مستديرة، حمراء، مشتبكة فى أُحبولة ذهبية، قديسون بيض منحوتون داخل الجدران، قديسون بنظرات مندهشة، قديسو سماءٍ إخترعها الهندى على صورته وهيئته: ملائكة وقديسون لهم وجه الشمس والقمر، بأيدٍ تحمى الحصاد، لهم سبابةُ كلاب صيد، عيونهم قاسية، غير ضروريةٍ، غريبة عنهم، عيون المعبود، شبيهةٌ شبهاً صارماً بدورات الكواكب. الوجوه الصخرية خلف الأقنعة الوردية، السمحة، الساذجة، لكنها خامدة، ميتة، أقنعة: إخلق الليل، إملأ بالريح الشراع الأسود، أغمض عينيك يا أرتيميو كروث...

(١٩١٩: ٢٠ مايو)

هــو من قصَّ حكاية لحظات جونثالو برنال الأخيرة فى سجن بيرالِس وفتح له ذلك أبواب هذا البيت.

ـ كان بالغ النقاء على الدوام ـ قال دون جماليل برنال الأب ـ؛ ظن على الدوام أن الفعل يُلوِّثُ ويجبرنا على خيانة أنفسنا، حين لا يقوده فكرٌ واضح. أعتقد أنه إنفصل عن المنزل لهذا السبب. حسناً، أعتقد ذلك جزئياً، لأن تلك العاصفة إجتاحتنا جميعاً، بما فى ذلك نحن الذين لم نتحرك من مكاننا. لا، ما أودّ توضيحه هو أن الواجب بالنسبة لإبنى كان يتمثل فى أن يقترب لكى يشرح، لكى يُقدِّم أفكاراً متماسكة، نعم، لكى يحول، فيما أعتقد، دون إنهيار هذه القضية فى إختبار الفعل، مثل كل القضايا. لا أدرى، كان تفكيره بالغ التعقيد. كان يعظُ بالتسامح. يسعدنى أن أعرف أنه مات بشجاعة. ويسعدنى أن أراك هنا.

لم يكن قد أتى هكذا مباشرةً لزيارة العجوز. فقبلها، تردَّد على أماكن معينة فى بويبلا، وتحدث مع أشخاص معينين، وتحقَّق مما كان ضرورياً التحقق منه. ولذا، كان يستمع الآن دون أن تختلج فى وجهه عضلةٌ واحدة إلى حجج العجوز الباهتة بينما يسندُ هذا الأخير جمجمتَه البيضاء إلى ظهر المقعد الجلدى اللامع، وجانب وجهه يغمره

الضوء المصفرّ الذى يكشف حبات الغبار الكثيف لهذه المكتبة المغلقة، التى تتطلب رفوفها العالية أن يتحرك سلَّم صغيرٌ على عجلات، راسماً خطوطاً على الأرضية المدهونة باللون الأصفر المُحَمرّ، للوصول إلى الأسفار السميكة الضحكة المُجلَّدة، وهى مؤلفات فرنسية وإنجليزية فى الجغرافيا، والفنون الجميلة، والعلوم الطبيعية، تستلزم قراءتها، عادةً، إستخدام العدسة التى كان دون جماليل يحتفظ يها، ساكنةً، بين يديه العجوزتين الحريريتين، دون أن ينتبه إلى أن الضوء الباهت يخترق الزجاج ويتركز، حارقاً، فى إحدى طيَّات البنطلون المخطط، المكوىِّ بعناية: لكنه هو لاحظ ذلك. فصل بينهما صمت غير مريح.

- إعذرنى؛ هل أقدِّم لك شيئاً؟ الأفضل أن تبقى للعشاء معنا.

فتح يديه علامةً على الدعوة والسرور فسقطت العدسة فى حِجر هذا الرجل النحيل، ذى الجلد المكرمش فوق العظام المتصلِّبة، وخصلات الشيب الأصفر اللامعة فوق جمجمته، وفكّيه، وشفتيه.

- لا تخيفنى الأزمنة التى تنقضى - كان قد قال قبلها، بصوتٍ مُحدَّدٍ ومؤدب دائماً، مُنَغَّم داخل تلك النبرات، رتيب خارجها -؛ فيم يمكن أن يفيد تعليمى - وأومأ بالعدسة نحو الأرفف المحمَّلة بالكتب - إذا لم يسمح لى بإدراك حتمية التغيرات؟ الأشياء تُبدِّل مظهرها، شئنا أم أبينا؛ فلماذا نُصرُّ على ألاّ نراها، على التنهد على الماضى؟ بينما الأقل إنهاكاً أن نقبل ما هو غير متوقَّع! أم أننا لا يجب أن نسميه هكذا؟ أنت، يا سيدى... عفواً، إننى أنسى رتبتك... نعم، العقيد، العقيد... أقول، إننى أجهل أصولك، ومهنتك... أقدِّرك لأنك شاركت إبنى ساعاته الأخيرة... حسناً: أنت يا من مارست الفعل، هل استطعت أن تتوقع كل شىء؟ أنا لم أمارس الفعل ولم أستطع أنا الآخر. ربما كانت إيجابيتنا وسلبيتنا سواءً بسواء تتماثلان فى هذا، فى أنهما كلتيهما شديدتا العمى والعجز. رغم أنه لابد من وجود فَرْقٍ ما... ألا

تظن؟ فى النهاية...

لم تغب عن بصره عينا العجوز العنبريّتان، المُصمِّمتان تصميماً مفرطاً على خلق جو من المودَّة، الواثقتان ثقةً مفرطة خلف قناع العذوبة الأبوية. ربما كأنت طبيعيةً حركات اليدين المُتسيِّدة تلك، وتلك النبالة المؤكَّدة لجانب الوجه وللذقن الملتحية، وذلك الميل المنتبه للرأس. لكنه فكر، رغم ذلك، فى أن الطبيعية يمكن التظاهر بها هىَ الأخرى؛ فأحياناً، يتصنَّعُ القناعُ على نحو مفرط الجودة ملامح وجهٍ لا يوجد خارجه ولا تحته. وكان قناع دون جُماليل يشبه بشدة وجهه الحقيقى، بحيث يُقلِقُ التفكير فى الخط الفاصل، فى الظل غير المحسوس الذى يمكن أن يفصل بينهما: فكر فى ذلك وفكر أيضاً فى أنه ذات يوم سيمكنه أن يقول ذلك للعجوز دون مواربة.

رنَّت كل ساعات المنزل فى وقت واحد فنهض العجوز ليُشعل مصباح الأستيلين الموضوع فوق منضدة الكتابة ذات الحاجز المنزلق. ببطء، رفع الحاجز وقلَّب فى بعض الأوراق. تناول إحداها بين يديه واستدار نصف دورة نحو مقعد الزائر الحديث الوصول. إبتسم، قطَّب جبينه وعاود الإبتسام وهو يضع تلك الورقة فوق الأخريات. رفع، بظُرف، سبابته إلى أذنه: كان كلبٌ ينبح ويخمش بأقدامه الجانب الآخر من الباب.

إنتهز هو فرصة إدارة العجوز ظهره له ليُفرغ تساؤله الخفى. ولا حتى ملمح واحدٍ من ملامح السنيور برنال كان يكسر النبالة المتناغمة للمجموع: منظوراً إليه من الخلف، كان يمشى بأناقة واعتدال: كان الشعر الأبيض، المشعث قليلاً، يتوِّج العجوز الذى يتجه نحو الباب. كان مقلقاً - شعر هو بالقلق حين فكر فى الأمر مرةً أخرى -؛ بالغاً حدّ الكمال بدرجة مفرطة. ربما لم تكن لباقته سوى الرفيقة الطبيعية لسذاجته. ضايقه هذا الخاطر: كان العجوز يمشى بخطوات بطيئة

نحو البـاب، والكلب ينبح: قد يكون الصـراع بالغ السهـولة، لا طعم له. لكن ماذا لو كانت المودة، بالمقابل، تخفى دهاء العجوز؟

حين توقف التـأرجح المنتصب للسُترة وربَّتت اليد البيضـاء على مقبض البـاب النحاسى، نظر إليه دون جماليل من فوق كتفه، بعينيه العنبـريتين، وربَّت على ذقنه بيـده الأخـرى. بدا أن النظرة تـدرك أفكارَ الرجل المجهـول وحـاكت الإبتسـامـة، المزمـومـةُ قليـلاً، إبتسـامـة قـارىءٍ للطالع على وشك إكتشاف الحظ غير المتوقَّع. وإذا كان الرجل المجهولُ قـد إسـتطاع أن يفـهم ويقـبل فـى إيماءة العـجـوز دعـوةً إلـى التـواطؤ الصامت، فإن حركة دون جماليل كانت من الأناقة، من الخفة، بحيث لم تُتِح للمتواطئ أن يرُدَّ النظرة ويُبرم الإتفاق الضمنى.

كان الليل قد حلّ وضوء المصباح الخافت يُبرز بالكاد كُعوب الكتب المذهَّبة وأحزمة النقوش الفضية فى ورق الحائطَ الذى يكسو جدران المكتبة. وعندما فُتح الباب، تذكَّر هو سلسلة القاعات المتتابعة كالأمعاء بدءاً من البـهـو الرئيسـى للمنزل الـريفى العـتيق حتى المكتبـة، والتى تنفتح، واحدةً إثر أخرى، على الفناء المزخـرف بالمينا والقيشانى. قفـز كلب الحـراسـة الضـخم مبتهجاً ولعق يد سيّده. وخلف الكلب، ظهـرت الفتـاة مرتدية رداءً أبيض، بياضاً يتنافـر مع الضوء الليلى الذى يتباطأ خلفها.

توقفت لحظةً عند العتبة، بينما قفـز الكلب نحو الـرجل المجهـول وتشمَّم قدميه ويديه. جذبه السنيور برنال، ضاحكاً، من طوقه الجلدى الأحمر وغمغم بإعتذار. لم يفهمه هـو. وواقفاً، مُزرِّراً سترته بالحركات الدقيقة للحيـاة العسكرية، ومُمَسِّداً لها وكأنه مـازال يـرتدى السـترة العسكرية، ظلّ بلا حـراكٍ أمـام جمـال تلك الشـابة التى لم تتخطّ إطارَ الباب.

ـ إبنتى كاتالينا.

لم تتحرك. الشعر الناعم الكستنائى الذى ينسدل على الرقبة الطويلة، الدافئة ـ من بعيد أمكنه أن يرى إلتماع مؤخر العنق ـ، والعينان الصلبتان والسائلتان فى آن واحد، بنظرةٍ مرتجفة، فقاعةٌ مزدوجة من الزجاج: صفراوان مثل عينى الأب، لكنهما أكثر صراحةً، وأقل تعوُّداً على التصنّع بطبيعية، تتكرّران فى الثنائيات الأخرى لذلك الجسد الممشوق والممتلىء، فى الشفتين النديتين شبه المنفرجتين، فى الثديين الناهدين والمشدودين: عينان، وشفتان، ونهدان صلبان وناعمان، فى إتساق يتراوح بين الوَحشة والحنق. أبقت يديها مشتبكتين أمام فخذها وخصرها النحيل، وحين مشت، تطاير الشريط الأبيض للفستان المزرَّر من الخلف، الواسع حول الإليتين المتماسكتين، والضيّق قُربَ الكاحل النحيل. تقدّمت صوبه كتلةٌ من اللحم بلون الذهب الباهت، كشفت فى الجبهة وفى الخدين عن الإلتماع الداكن المعتدِّ بنفسه للجسدِ كله، ومدَّت له يداً بحث هو فى ملمسها، دون أن يجد، عن النداوة، عن العاطفة التى تنمّ عنها.

ـ كان مع أخيك خلال ساعاته الأخيرة؛ حدّثتكِ عنه.

ـ كنتَ محظوظاً، يا سيدى.

ـ حدثنى عنكم، وطلب منى أن آتى لرؤيتكم. تصرف كرجل شجاع، حتى النهاية.

ـ لم يكن شجاعاً. كان يحب هذا كله... بإفراط.

لمست صدرها وفى الحال أبعدت يدها لتتظاهر بأنها ترسم قوساً فى الهواء.

ـ مثالى، نعم، مثالى جداً ـ غمغم العجوز وتنهَّد ـ. السيد سيتعشى معنا.

أمسكت الفتاة بذراع والدها وتبعهما هو، والكلب إلى جواره، عبر الغرف الضيقة والرطبة، المكتظة بأوانى الخزف والكراسى، بالساعات

والقترينات، بالأثاث العتيق واللوحات الدينية القليلة القيمة الكبيرة الأبعاد: وكانت الأرجُل المذهبة للكراسى والمناضد تستقر على نفس الأرضية من الخشب المدهون، دون أبسطة، وظلت المصابيح مطفأة. فى غرفة الطعام فقط كانت نجفة ضخمة من الزجاج المنحوت تضىء قطع الأثاث الثقيل من خشب الماهوجنى ولوحة الطبيعة الصامتة الممزقة حيث تلمع أوانى الفخار وفواكه خط الاستواء الملتهبة. بالفوطة، طرد دون جماليل الناموس الذى يطير حول إناء الفاكهة الواقعى، الأقل إمتلاءً من ذلك المرسوم. وبإيماءة، دعاه إلى الجلوس.

فى مواجهتها، إستطاع أخيراً أن يثبِّت بصره فى عينى الفتاة الساكنتين. هل تعرف الدافع لزيارته؟ هل كانت تخمِّن فى عينى الرجل ذلك الشعور بالنصر، الطافح نتيجة الوجود الجسدى للمرأة؟ هل كانت تتبيَّن البسمة الخفيفة للحظ والثقة؟ هل كانت تشعر بالتوكيد التملُّكى الذى لا يكاد يخفيه؟ لم تكن عيناها تجيبانه إلاّ بهذه الرسالة الغريبة للقدرية الخشنة، وكأنها تبيِّن أنها على إستعداد لقبول كل شىء، ورغم ذلك، على تحويل إستكانتها إلى فرصةٍ لإنتصارها الخاص على الرجل الذى شرع بتلك الطريقة الصامتة والمبتسمة فى جعلها ملكه.

أدهشتها صلابة إستسلامها، قوة ضعفها. رفعت بصرها لتُلاحظ، دون حياء، الملامح القوية للرجل المجهول. لم تستطع تجنّب الإلتقاء بالعينين الخضراوين. ليس وسيماً، ولا جميلاً. لكن جلدَ الوجهِ الزيتونىَّ ذاك، الذى يكسو جسده بنفس القوة المشدودة، المنحنية، للشفتين الغليظتين وأعصاب الجبهة النافرة، كان يَعِدُ بملمس مُستَحَبٍّ رغم أنه مجهول. وتحت المائدة، مدّ هو قدمه حتى لامستْ طرف الحذاء النسائى. أرخت الفتاة جفنيها ونظرت خلسةً إلى أبيها؛ سحب هو قدمه. كان المضيف البالغ حدّ الكمال يبتسم بأريحيته الدائمة؛ ويُحرِّك كأساً بين أصابعه.

كسر الصمتَ دخولُ الخادمة الهندية العجوز بكسرولة الأرز ولفت دون جماليبل الإنتباه إلى أن موسم الجفاف قد إنتهى متأخراً بعض الشئ هذا العام؛ ولحسن الحظ فإن كتل السحاب قد أخذت تتكاثف حول الجبال وسوف تكون المحاصيل جيدة: ليس مثل العام الماضى، لكن جيدة. ومن الغريب ـ قال ـ أن يحتفظ هذا المنزل العتيق بالرطوبة دائماً، تلك الرطوبة التى تُبقِّع الأركان الظليلة وتمنحُ الحياة للسرخس والنباتات الملوَّنة فى الفناء. ربما كان ذلك رمزاً مناسباً لعائلةٍ نمت وإزدهرت بفضل ثمار الأرض: تضرب بجذورها فى وادى پوپيلا ـ أكل الأرز، إلتقطه فى الملعقة بدقة ـ منذ أوائل القرن التاسع عشر وهى أقوى، نعم، من كل التقلبات العبثية لبلدٍ عاجزٍ عن الهدوء، محبٍ للإضطراب.

ـ أحياناً، يبدو لى أن الإفتقار إلى الدم والموت يبعث فينا اليأس. كما لو أننا لا نشعر أننا أحياء إلاّ إذا أحاطنا الدمار والإعدامات ـ واصل العجوز بصوته الودّى ـ. لكننا نحن سنستمر، سنستمر دوماً، لأننا قد تعلّمنا كيف نبقى على قيد الحياة، دوماً...

تناول كأس الضيف وملأها بنبيذ داكن.

ـ لكن لابد من دفع ثمن للبقاء على قيد الحياة ـ قال الضيف بجفاف.

ـ يمكن دائماً التفاوض على أنسب ثمن...

وحين ملأ دون جماليبل كأس إبنته، ربَّت على يدها. ـ كل شىء يتوقف على التهذيب الذى يتم به ذلك. فلا ضرورة لإزعاج أحد، لجرح الحساسيات... يجب أن يظلّ الشرف سليماً لا يُمسُّ.

عاود هو البحث عن قدم الفتاة. وهذه المرة، لم تسحب هى قدمها إبتعاداً عن ملامسته. رفعت كأسها ونظرت إلى الرجل المجهول دون أن تنفرج شفتاها.

ـ يجب أن نعرف كيف نميِّز بين الأشياء ـ غمغم العجوز وهو يجفِّف شفتيه بالمنشفة ـ. الأعمال التجارية، مثلاً، شيء، والدين شيء آخر.

ـ أتُراك بهذه التقوى، تتلقى البَرَكة المقدسة كل يوم مع إبنتك الصغيرة؟ حسناً إذن، إن كل ما تراه هنا، كل ما تملك تمت سَرقته من الكهنة، هنالك حين عرض خوارث* فى المزاد ممتلكات الإكليروس وكان بمقدور أى تاجر لديه بعض المدخرات إمتلاك قطعة أرض شاسعة...

قضى ستة أيام فى پويبلا قبل أن يتوجه إلى منزل دون جماليل برنال. سرَّح الرئيس كارّانثا القوات وعندها تذكَّر هو محادثته مع جونثالو برنال فى بيرالِس وسار على الطريق إلى پويبلا: مسألة غريزة خالصة، لكنها أيضاً مسألة يقين من أن معرفة هذا ـ معرفة إسم عائلة، عنوان، مدينة ـ تعنى معرفة الكثير فى العالم المحطَّم والمختلِط الذى خلَّفته الثورة. وبعثت فيه التسليةمفارقة كونه هو من يعود إلى پويبلا، وليس برنال الذى أُعدم. كان ذلك، على نحو ما، حفلاً تنكرياً، إحلالاً، دعابةً يمكن لعبها بأقصى جدِّية؛ لكنه كان أيًضاً شهادةَ ميلاد، شهادةً على القدرة على البقاء على قيد الحياة وتدعيم المصير الشخصى بمصائر الآخرين. وحين دخل إلى پويبلا، حين تبيَّن منذ طريق تشولولا نبتات الفطر الحمراء والصفراء ورؤوسها متناثرة فوق

---

* بنيتو خوارث: سياسى ليبرالى مكسيكى من أصل هندى (١٨٠٦-١٨٧٢) تولى رئاسة عام ١٨٥٨. إنتهج سياسة مناهضة للإكليروس وأوقف الديون الخارجية مما دفع نابوليون الثالث إلى التدخل. وحين أصبح مكسميليان إمبراطوراً على المكسيك (فى ١٨٦٤)، شن خوارث حرب عصابات ،قبض على مكسميليان وأعدمه وتولى الرئاسة حتى وفاته ـ روبير الصغير.

الوادى، شعر بأنه يدخل وهو مزدوج، بحياة جونثالو برنال مضافةً إلى حياته، بمصير الميِّت مجموعاً مع مصيره: كأن برنال، عند موته، فوَّض إليه إمكانات حياته غير المتحقِّقة ليضيفها إلى حياته هو. فكَّر أن ميِّتات الآخرين ربما كانت هى التى تطيل حياتنا نحن، فكر. لكنه لم يأت إلى پويبلا ليفكر.

- هذا العام لم يستطع حتى شراء البذور. فقد تراكمت عليه الديون، بالإضافة إلى ما جرى العام الماضى حين أخذ الفلاحون فى التمرد عليه ومضوا ليبذروا الأراضى المتروكة. وجادلوه بأنه إذا لم يمنحهم الأراضى التى لا تُزرع، فلن يُعاودوا البذار فى الأراضى المزروعة. ورفض هو بدافع الكبرياء الخالص وبقى دون حصاد. فيما مضى، كانت الشرطة الريفية ستعيد المتمردين إلى النظام، لكن الآن... تغيرَّت الأمور.

- وليس هذا فقط. فالمدينون نقضوا إلتزامهم؛ ولا يريدون الآن أن يدفعوا له أكثر من ذلك. يقولون أنه بالفوائد التى تقاضاها يكون قد إستوفى نقوده وأكثر. أترى، يا سيدى المقدِّم؟ الجميع يملؤهم الإيمان بأن الأمور ستتغير الآن.

- آه، لكن العجوز ماضٍ فى عناده، ولا يتركهم يلوون ذراعه. يفضل الموت على الاستسلام، كل واحدٍ وشأنه.

خسر فى آخر رميةٍ للنرد وهزَّ كتفيه. أشار إلى صاحب الحانة ليقدم المزيد من الكؤوس فشكر له الجميع هذه البادرة.

- من المدين لهذا الدون جماليل؟

- حسناً... سأقول أنا، من ليس مديناً له؟

- هل له صديقٌ مُقرَّب جداً، شخص يُسرٌّ له بدخيلته؟

- وكيف لا، إنه الأب پايث، هنا عند الناصية.

- ألم ينبذ الإكليروس؟

ـ هوهووه... الأب يمنح دون جماليل الخلاص الأبدى، مقابل أن يمنح دون جماليل للأب الخلاص على الأرض.

أعشت الشمس أبصارهم حين خرجوا إلى الشارع.

ـ ماشاء الله على أولاد الناس، شىء بالعقل!

ـ من هذه المرأة؟

ـ ومن يمكن أن تكون، يا سيدى المقدِّم... إنها إبنة المذكور.

سار، ناظراً إلى طرف حذائه، خلال الشوارع العتيقة، المُخطَّطة مثل رقعة شطرنج. وحين كف عن سماع وقع قدميه على أحجار الرصف وأخذت قدماه تثيران غباراً جافاً ورمادياً، صوَّب بصره إلى الجدران اللوزية اللون للمعبد ـ الحصن العتيق، عبَرَ الساحة الواسعة ودخل إلى صحن الكنيسة الساكن، الطويل والمذَّهب. ومن جديد، رن وقع قدميه. تقدم صوب المذبح.

مكوَّراً، ومكسوَّاً بجلدٍ ميت، لم يكن جسد الأب يلمع إلاّ فى عينين من الفحم، فى عمق الوجنتين المنتفختين. منذ أن رأى الغريب يتقدم عبر صحن الكنيسة أخذ يتجسَّس عليه، مُختبئاً خلف فرجةٍ مرتفعة، كانت موضعاً لإنشاد الراهبات اللائى هربن من المكسيك خلال الجمهورية الليبرالية، وتبيّن القسُّ فى حركات الغريب الروحَ العسكرية غير الواعية للرجل المتعوِّد على حالة الإستنفار، على القيادة، وعلى الهجوم. لم يكن الأمر راجعاً إلى مجرد التشوُّه الطفيف لساقى الفارس: بل كان قوةً عصبيةً معينة للقبضة المُتشكِّلة خلال الملمس اليومى للمسدِّس وأعنَّة الخيل: وحتى حين يمشى ذلك الرجل، مثلما يفعل الآن، بقبضةٍ مضمومة؛ فذلك يكفى لكى يتبّين فيه پايث قوةً مقلقة. عالياً فى الموضع الخفى للراهبات، فكَّر أن رجلاً كهذا لم يأت لأداء طقوس الورع. رفع عباءته وهبط، ببطءٍ، السلم الحلزونى المؤدى إلى الدير القديم المهجور. هبط وهو يطأ بحرصٍ: تنورته مُشَمَّرة،

وكتفاه مرفوعان حتى أذنيه، وجسده أسود ووجهه أبيض ليس فيه دم، وعيناه نفاذتان. كانت درجات السلم بحاجة إلى إصلاح عاجل: فقد إنزلقت قدم سَلَفه سنة ١٠، وكانت العاقبة جنائزية. لكن ريميخيو بايث، الشبيه بخفّاش منتفخ، بدا أنه يخترق بعينيه كل ظلمات بئر السلم الأسود، الرطب والدائرى. وأجبرته الظلمة، والخطر على إيقاظ كل حواسه والتفكير: رجلٌ عسكرى فى كنيسته، بزىٍّ مدنى، ودون صحبةٍ ولا حراسة؟ كان الحدث من الجدَّة بحيث لا يمكن أن يمرّ دون أن يثير الإنتباه. لقد تنبأ بالأمر جيداً. ستتقضى المعارك، والعنف، وتدنيس المقدسات ـ فكر فى عصبة الجنود التى، منذ عامين بالكاد، نهبت كل أردية الكهنة وكل الأشياء المقدسة ـ وستعود الكنيسة الأبدية، المُقامة لتبقى إلى أبد الآبدين، للتفاهم مع سلطات المدينة الأرضية. رجلٌ عسكرى فى ثيابٍ مدنية... دون حراسة...

هبط وهو يلمس بإحدى يديه الجدار المنبعج، حيث تتساقط قطرات خيطٍ داكن. تذكر القس أن موسم الأمطار سرعان ما سيبدأ. وقد أخذ هو على عاتقه، بكل سلطاته، التنبيه إلى ذلك من فوق المنبر وفى كل إعتراف من إعترافاته: إنها خطيئة، خطيئة كبرى ضد الروح القدس أن نمتنع عن تلقىّ عطايا السماء؛ لا يمكن لأحدٍ أن ينتهك تصاريف العناية الإلهية، وقد نظَّمت العناية الإلهية الأمورَ كما هى وهكذا يجب قبولها جميعاً؛ يجب على الجميع أن يخرجوا لفلاحة الأراضى، وجمع المحاصيل، وتسليم ثمار الأرض إلى مالكها الشرعى، فهو مالكٌ مسيحى يدفع إلتزامات إمتيازه مسلِّماً العشور، فى موعدها، للكنيسة الأم المقدسة. فالربُّ يعاقب التمرُّد ودائماً ما ينهزم الشيطان على يد رؤساء الملائكة ـ رفائيل، وجبريل، وميخائيل، وجماليل... جماليل.

ـ والعدالة، يا أبتاه؟

ـ العدالة النهائية يتم توزيعها هناك فى الأعالى، يا بنى. لا تبحث عنها فى وادى الدموع هذا.

الكلمات ـ غمغم الأب حين إستراح، أخيراً، على الأرض الصلبة ونفض الغبار عن عباءته ـ؛ الكلمات، مِسبَحَات المقاطع اللعينة التى تُشعل دماء وآمال من يجب أن يقنعوا بالعبور سريعاً بهذه الحياة القصيرة وبالتمتع، مقابل إختيارهم المُميت، فى الحياة الأبدية. عبر الرواق وسار فى فرجةٍ من البواكى. العدالة! من أجل من، ولأى مدى زمنى؟ بينما يمكن للحياة أن تكون مقبولةً للجميع، إذا أدرك الجميع حتمية مصيرهم ولم يمضوا يتملقون، ويتراجعون عن ديونهم، ويطمحون...

ـ نعم، أظن؛ نعم، أظن... ـ كرّر الأب بصوتٍ خفيض وفتح الباب المشغول لغرفة المقدّسات.

ـ عملٌ رائع، أليس كذلك؟ ـ قال عند إقترابه من الرجل الطويل الواقف أمام المذبح ـ. أطلَع الآباءُ الرهبانُ الفنانين الهنود على تصاوير ولوحات محفورة، فأخذ هؤلاء يحوّلون أذواقهم إلى أشكال مسيحية... يقولون أن هناك معبوداً مختبئاً خلف كل مذبح. ولو كان الأمر كذلك، فإنه معبود خيِّر، لم يعد يطلب دماً مثل الآلهة الوثنية...

ـ حضرتك پايث؟

ـ ريميخيو پايث ـ قالت الإبتسامة المزمومة ـ وحضرتك: لواء، مقدِّم، رائد...؟

ـ أرتيميو كروث فقط.

ـ آه.

حين إفترق العقيد والقس أمام بوابة الكنيسة، عقَدَ پايث كفيه فوق معدته ونظر إلى الزائر الذى يبتعد. كان الصباح الأزرق الرائق يُحددُ ويُقرِّب خطوط البراكين: ثنائى المرأة النائمة وحارسها

المستوحد. زرّ عينيه: لم يكن يتحمل ذلك الضوء الشفاف: لاحظ بإمتنان تقدُّم السحب السوداء التى سرعان ما سترطِّبُ الوادى وتطفىءُ الشمس، كل مساء، بإعصارها الرمادى الدقيق التوقيت.

أدار ظهره إلى الوادى وعاد إلى ظلمة الدير. فرك يديه. لم يكن ليهمه صلف ولا شتائم ذلك الأزعر. لو كانت تلك هى الطريقة لإنقاذ الموقف والسماح لدون جماليل بأن يقضى سنوات عمره الأخيرة مَحْمِيًّاً من كل خطر، فلن يكون ريميخيو پايث، كاهن الرب، هو من سيُفسد كل شىء بإستعراض للمهانة وبغيرة صليبى. على العكس: فهو الآن يلعق شفتيه مفكراً فىً حكمة مسكَنَته. ولو أًراد هذا الرجل أن يُنقذ كبرياءه، فإن الأب پايث سيستمع إليه اليوم وغداً ورأسه منكَّسة، تهتز أحياناً بالموافقة، وكأنه يقبل بألم الذنوبَ التى ينسبها ذلك الجلف القوى للكنيسة. تناول القبَّعة السوداْء المعلّقة، ووضعها بإهمال فوق رأسه ذات الخصلات الكستنائية ووجّه خطواته نحو منزل دون جماليل برنال.

- يمكنه أن يفعل ذلك، ولم لا! - أكد العجوز ذلك المساء، بعد أن تحادث مع القس -. لكننى أتساءل، أى حيلة سيستخدمها للدخول إلى هنا؟ لقد قال للأب أنه سيأتى لرؤيتى اليوم بالذات. لا... لا أفهم جيداً، كاتالينا.

رفعت هى رأسها. وأراحت يدها فوق نسيج الصوف الذى كانت ترسم فوقه، بعناية، منظر أزهار. قبلها بثلاث سنوات، أبلغوهما بالنبأ: مات جونثالو. ومن حينها، أخذ الأب والإبنة يتقاربان حتى حوّلا هذا المرور البطىء للأصائل، وهما جالسان فوق كراسى الفناء الخيزرانية، إلى شىء أكثر من مجرد عزاء: إلى عادةٍ يجب، بحسب الأب، أن تمتد حتى موته. ولم يكن يهمّ كثيراً أن تتمزقً سلطة وثروة الأمس؛ فربما كانت تلك هى الجِزية التى يجب دفعها للزمن وللشيخوخة. وضع دون

جماليل نفسه داخل صراع سلبى. فلن يخرج لإخضاع الفلاحين، لكنه لن يقبل أبداً غزوهم غير المشروع. لن يطالب المدينين بدفع القروض والفوائد، لكن لن يعود باستطاعتهم الحصول على درهم واحد، أبداً.

إنتظر أن يعودوا ذات يوم راكعين، حين تجبرهم الحاجة إلى التخلى عن الكبرياء. لكنه سيظّل راسخاً فى كبريائه. والآن... يصل هذا الغريب ويعدُ بمنح قروض للفلاحين، بفائدة أقل كثيراً من فائدة دون جماليل ويتجرأ، فوق ذلك، بإقتراح أن تنتقل حقوق العجوز مالك الأرض إلى يديه مجاناً، مع الوعد بأن يُسدِّد له ربع ما يستطيع إستعادته. إما هذا أو لا شىء.

ـ أنا أتصوّر الأمر؛ لن تنتهى طلباته عند هذا الحد.

ـ الأرض؟

ـ نعم، هناك مخططٌ ما لإنتزاع الأرض منى، لا تشكّى فى ذلك.

مثل كل الأمسيات، مرَّت على الأقفاص الملوّنة فى الفناء، وأخذت تغطيها بأغطية من القماش بعد أن تراقب الحركات العصبية للطيور المغرِّدة وطيور أبى الحِنَّاء التى تنقر البرغل وتسقسق، للمرة الأخيرة، قبل أن تختفى الشمس.

لم يكن العجوز يتوقع عقبةً بهذا الحجم. آخر رجل رأى جونثالو، رفيق زنزانته، حامل آخر كلمات الحب للأب، والأخت، والزوجة، والإبن.

ـ قال لى أنه فكّر فى لويسا وفى الطفل قبل أن يموت.

ـ بابا. إتفقنا على أن لا...

ـ لم أقل له شيئاً. لا يعرف أنها تزوَّجت من جديد وأن حفيدى يحمل إسماً آخر.

ـ منذ ثلاث سنوات وأنت لا تتحدث عن ذلك. فلماذا الآن؟

ـ معكِ حق. لقد غفرنا له، أليس كذلك؟ فكرتُ أننا يجب أن نغفر

له لأنه إنتقل إلى صف العدو. فكرتُ أننا يجب أن نحاول فهمه...

ـ إعتقدتُ أننا أنت وأنا كنا نغفر له فى صمت، كل مساء، هنا.

ـ نعم، نعم، هذا هو الأمر. إنكِ تفهميننى دون حاجة للكلمات. يا له من أمر مريح! أنت تفهميننى...

ولذا، فعندما وصل هذا الضيف المرهوب، المنتظر ـ لأن أحداً كان يجب أن يصل، ذات يوم، ويقـــول: "لقد رأيته. لقد عرفته. وقد تذكَّـــركم" ـ ووضع فى وجهيهما عقبته الكأداء، دون حتى أن يذكر المشكلات الحقيقية للتمرد الفلاّحى والتوقف عن الدفع، فإن دون جماليل، بعد أن أدخله إلى المكتبة، إعتذر وسار مسرعاً ـ هذا العجوز البطىء الذى يماهى بين التمهل والأناقة ـ نحو مخدع كاتالينا.

ـ أصلحى من شأنك. إنزعى عنك هذا الثوب الأسود؛ وإرتدى شيئاً يجعلك تبدين مشرقة. وتعالى إلى المكتبة حين تدق الساعة السابعة.

لم يقل أكثر من ذلك. وسوف تطيعُه: سيكون هذا هو برهان كل الأصائل السوداوية. ستفهم. بقيت هذه الورقة لإنقاذ الأمور: كان يكفى لدون جماليل أن يشعر بحضور هذا الرجل وأن يخمِّن إرادته كى يفهم ـ أو يقول لنفسه ـ أن أى تلكؤ سيكون إنتحاراً، وأن من الصعب معارضته وأن التضحية المطلوبة ستكون ضئيلة، وليست، على نحو معين، مُنفِّرةً جداً. كان الأب پايث قد حذّره: رجل طويل، مملوء بالقوَّة، له عينان خضروان مغناطيسيتان ولهجة قاطعة. أرتيميو كروث.

أرتيميو كروث. هكذا يُدعى، إذن، العالمُ الجديد المنبعث من الحرب الأهلية؛ هكذا يُدعى من وصلوا ليحلّوا محله. بلدٌ تعيس ـ قال العجوز لنفسه بينما يسير، متمهلاً مرةً أخرى، نحو المكتبة ونحو ذلك الحضور غير المرغوب لكنه مُذهل ـ؛ بلدٌ تعيس عليه فى كل جيل أن يُدمِّر المالكين القدامى ويُحلَّ محلهم سادةً جدداً، جشعين وطموحِّين

مثل سابقيهم. كان العجوز يتخيّل نفسه بإعتباره الناتج النهائى لحضارة كريولية* بشكل فريد: حضارة المستبدّين المستنيرين. وكان يبتهج حين يفكر فى نفسه بوصفه أباً، قاسياً أحياناً، لكنه فى النهاية عائلٌ ومالكٌ دوماً لتقاليد الذوق السليم، واللياقة، والثقافة.

لهذا أدخله إلى المكتبة. فهناك كان أكثر بداهةً ذلك الطابع الموقّر - شبه المقدس - لكل ما كانه ومثّله دون جماليل. لكن الضيف لم يتأثّر. لم يغب عن حدّة ذهن العجوز، بينما يُسند رأسه إلى المسند الجلدى ويكاد يغمض عينيه ليرى خصمه على نحو أفضل، أن هذا الرجل يحمل خبرةً جديدة، شكّلتها المطارق، ومعتادةً على المراهنة بكل شىء لأنها لا تملك شيئاً. لم يذكر حتى الأسباب الحقيقية لزيارته. وقبل دون جماليل فكرة أن الأمر أفضل على هذا النحو: ربما كان الرجلَ الحديث الوصول يدرك الأشياء بنفس الرهافة التى يدركها هو بها، رغم أن دوافعه أشد قوّة: الطموح - إبتسم العجوز حين تذكر تلك العاطفة، التى ليست بالنسبة له سوى كلمة -؛ الدافع الملحّ لتقاضى الحقوق المكتسَبة بالتضحية، والنضال، والجراح: تلك الندبة التى أحدثها سيفٌ فى جبهته. ولم يكن دون جماليل يفكر فى ذلك وحده: ففى الشفاه الصامتة وفى النظرة البليغة للآخر كان مسطوراً ما عرف العجوز، الذى يلعب بالعدسة، كيف يقرأه.

لم يُحرِّك الغريب إصبعاً حين إقترب دون جماليل من منضدة الكتابة وأخرج تلك الورقة: قائمة مدينيه. هذا أفضل. عبر هذا الطريق، سيتفاهمان بشكل أفضل؛ فربما لن يكون ضرورياً ذكر تلك الأمور المحرجة وربما سيتم حلّ كل شىء بطرقٍ أكثر أناقة. لقد تعلم

---

* criolla: الكريول: كانت تطلق على الأمريكيين اللاتين ذوى الآباء الإسبان ثم أصبحت تعنى كل ما هو محلى وخاص ببلاد العالم الجديد.

العسكرى الشاب بسرعة أسلوب السلطة، كرّر دون جماليل ذلك لنفسه، وسهل هذا الشعور بالميراث الإجراءات المُرَّة التى كان الواقع يُجبرُه عليها.

- ألم تر كيف كان ينظر إلى؟ - صرخت الفتاة حين ألقى الضيف تحية المساء -. ألم تنتبه لرغبته... لحيوانية هاتين العينين؟

- نعم، نعم - هدَّأ العجوز إبنته بيديه -. هذا طبيعى. فأنت جميلة جداً، أتعرفين؟، لكنك لم تخرجى من هذا المنزل إلاّ قليلاً. هذا طبيعى.

- ولن أخرج أبداً!

أشعل دون جماليل ببطءٍ السيجار الذى كان يصبغ بالأصفر شاربه الكثيف ومنبت اللحية عندً الذقن - ظننت أنك ستفهمين.

هزّ ببطء كرسى الخيزران ونظر إلى قبة السماء. كانت إحدى آخر الليالى الجافة، بسماءٍ بلغ من صفائها أنك، إذا زرّرت عينك، لاستطعت إدراك لون النجوم الًحقيقى. أخفت الفتاة خديها المشتعلين بين كفيها.

- ماذا قال لك الأب؟ إنه زنديق! إنه رجل بلا ربٍّ، وبلا إحترام... وأنت تصدق الحكاية التى إخترعها؟

- إهدئى، إهدئى. فالثروات لا تُخلق دائماً فى ظل الآلوهية.

- هل تصدق تلك الحكاية؟ لماذا مات جونثالو وليس هذا السيد؟ إذا كان الإثنان محكوماً عليهما فى نفس الزنزانة، فلماذا لم يموتا هما الإثنان؟ أنا أعرف، أنا أعرف: ليس صحيحاً ما جاء يحكيه لنا؛ لقد إخترع هذه الحكاية لكى يُلحق بك المهانة وليجعلنى...

كفّ دون جماليل عن الإهتزاز. بدأت الأمور تجد حلاً بطريقةٍ طيبةٍ جداً، هادئة جداً! والآن، من حدس المرأة، إنبعثت تلك الحًجج التى كان العجوز قد تخيّلها، وقلَّبها، وطرحها جانباً

باعتبارها غير مُجدية.

ـ لديك خيال ذات العشرين عاماً. ـ نهض وأطفأ السيجار ـ. لكن لو شئت الصراحة، فسوف أكون صريحاً. هذا الرجل يمكنه أن ينقذنا. وأى إعتبار آخر سيكون زائداً عن الحاجة...

تنهّد ومدّ ذراعيه ليلمس يدىّ إبنته.

ـ فكرى فى آخر سنوات أبيك. هل تظنين أننى لا أستحق قليلاً من...؟

ـ نعم، يا بابا، لا أعترض...

ـ وفكرى فى نفسك.

خفضت رأسها. ـ نعم، أدرك ذلك. كنت أعرف أن شيئاً كهذا سيحدث منذ أن ترك جونثالو البيت. لو كان حياً...

ـ لكنه ليس حياً.

ـ لم يفكّر فىَّ. من يدرى فيم فكَّرَ.

خلف دائرة الضوء المنبعث من المصباح الزيتى الذى كان دون جماليل يرفعه عالياً، وعلى طول الردهات العتيقة الباردة، أجبرت الفتاة نفسها على إستعادة ذلك الحشد من الصور القديمة والمختلطة: تذكَّرت الوجوه المشدودة والمغمورة بالعرق لأصدقاء دراسة جونثالو، والمناقشات الطويلة فى غرفة آخر الردهة؛ تذكرت النظرة الوضَّاءة، العنيدة، المتلهِّفة، لأخيها، ذلك الجسد العصبى الذى كان يبدو، أحياناً، كأنه موجودٌ خارج الواقع، الذى كان يحب وسائل الراحة، والعشاءات الدسمة، والنبيذ، والكتب والذى كان، فى نوبات سخط دورية، يجحد ذلك الميل الحسِّى والإمتثالى. تذكرت برودة لويسا، زوجة أخيها؛ والمشادّات العنيفة التى كانت تنطفىء عندما تدخل الطفلة إلى القاعة؛ ذلك العويل المختنق بالضحك لإمرأة جونثالو حين عرفت خبر موته؛ وخروجها الصامت، ذات فجرٍ، وهى تعتقد أن الجميع نائمون بينما

الصبية تُطلُّ من خلف زجاج القاعة: واليد القوية لذلك الرجل ذى القبعة المستديرة السوداء والعصا وهى تأخذ بيد لويسا وتساعدها على الصعود، مع الطفل، إلى العربة السوداء المحمَّلة بصناديق الأرملة.

لم يعد بمقدورها الإنتقام لتلك الميّتة ـ قبّل دون جماليل جبهتها وفتح باب المخدع ـ إلاّ بمعانقة هذا الرجل، معانقته لكن مع إنكار الرقة التى يودّ هو أن يجدها لديها. بقتله وهو على قيد الحياة، بتقطير المرارة حتى تُسمِّمُه. نظرت إلى المرآة، باحثةً عبثاً عن التقاطيع الجديدة التى لابد أن التغيير قد طبعها فى وجهها. وهكذا أيضاً سينتقمان هى وأبوها من هجران جونثالو، من مثاليته الحمقاء: بتسليم الفتاة ذات العشرين ربيعاً ـ لماذا تطفر دموع الشفقة من عينها حين تفكر فى نفسها، فى شبابها؟ ـ إلى الرجل الذى رافق جونثالو خلال تلك الساعات الأخيرة التى لا تستطيع هى تذكُّرَها وقد رفضت الشفقة على نفسها، ووجهتها نحو الأخ الميِّت، دون شهقة سخط واحدة، دون تقلُّص واحدٍ فى وجهها: إذا لم يشرح لها أحدٌ الحقيقة، فسوف تتمسك بما تعتقد أنه الحقيقة. خلعت جوربها الأسود. وعند إحتكاك يديها بساقيها، أغمضت عينيها: أصبح من الواجب عليها ألاّ تسمح بعد الآن بذكرى القدم الخشنة والقوية التى ظلت تبحث عن قدمها خلال العشاء وأغرقت صدرها بشعور مجهول، لا يُروَّض. ربما لم يكن جسدها من عمل الرب ـ إنحنت، ضغطت أصابعها المتشابكة على حاجبيها ـ بل من عمل أجسادٍ أخرى، لكن روحها من عمل الرب. لن تسمح بأن يسير هذا الجسد فى طريق لذيذ، عفوى، مُتحرِّق إلى الهدهدات، بينما تملى عليها روحها طريقاً آخر. رفعت الملاءة وانزلقت داخل الفراش وعيناها مغمضتان. مدَّت يدها لتطفىء المصباح. وضعت الوسادة فوق وجهها. لا يجب أن تفكر فى هذا. لا، لا، لا يجب أن تفكر. لم يعد ثمة ما يجب قوله. قول الإسم الآخر، حكى الأمر

لأبيها. لا. لا. ليس من الضرورى أن تَحُطَّ من شأن أبيها. فى الشهر القادم، فى أسرع وقت: فليتمتع ذلك الرجل بفوائد النقود، وبالأراضى، وبجسد كاتالينا برنال... ماذا يهمّ... رامون... لا، هذا الإسم لا، ليس بعد. نامت.

ـ أنت نفسك قلت ذلك، يا دون جماليل ـ قال الضيف حين عاد، صباح اليوم التالى ـ. لا يمكن وقف مسار الأشياء. فلنسلِّم تلك الأراضى للفلاحين، فهى فى نهاية الأمر أراض موسمية ولن تُغِلَّ لهم إلاّ أقلَّ القليل. ولنقسمها إلى قطع صغيرة حتى لا يستطيعوا أن يبذروا إلاّ زراعات قليلة الشأن. وسترى أنهم حين يضطرون إلى شكرنا على ذلك، سيتركون النساء تتولين أمر الأراضى السيئة ويعودون للعمل فى أراضينا الخصبة. تأمل ذلك فقط: إذ يمكنك حتى أن تصبح بمثابة بطل من أبطال الإصلاح الزراعى، دون أن يكلفك ذلك شيئاً.

راقبه العجوز، مُتَسَلِّياً، بابتسامةٍ يخفيها شعر اللحية الكثيف:

ـ هل تحدثتَ معها؟

ـ تحدثتُ...

لم تستطع السيطرة على مشاعرها. إرتجفت ذقنها حين قرَّب يده وحاول أن يرفع وجهها ذى العينين المغمضتين. لمس لأول مرة هذا الجلد الأملس، الذائب فى قشدة، الشبيه بالفاكهة. ورافقتهما الرائحة النفَّاذة لنباتات الفناء، الأعشاب المختنقة من الرطوبة، رائحة التربة المتعفنة. لقد أحبها. عرف، حين لمسها، أنه قد أحبها. كان يجب أن يجعلها تفهم أن حبه حقيقى، رغم أن المظاهر تنفيه. باستطاعته أن يحبها كما أحب ذات مرة، المرة الأولى: عرف أنه يمتلك تلك الرقة المُجرَّبة. عاد ليلمس خدى الفتاة الساخنتين: ولم تكف صلابتها، حين أحسَّت بتلك اليد الغريبة فوق جلدها، للسيطرة على الدموع الحبيسة التى أفلتت من بين جفنيها.

ـ لن تشتكى؛ لن تجدى سبباً للشكوى ـ غمغم الرجل، مقرباً وجهه من الشفتين اللتين راغتا من الملامسة ـ. فأنا أعرف كيف أحبك...

ـ يجب أن نشكر لك... أنك تعطفت علينا ـ جاوبت هى بأخفت صوت لديها ـ.

فتح هو يده ليربت على شعر كاتالينا ـ أنت تفهمين، أليس كذلك؟ سوف تعيشين إلى جانبى؛ عليك نسيان أشياء كثيرة... أعدك أن أحترم أشياءك... وعليك أن تعدينى بألاّ تعودى أبداً...

رفعت نظرتها وأرهقت عينيها بكراهيةٍ لم تشعر بها قط من قبل. جفّ اللعاب فى حلقها. من هذا الوحش؟؛ من هذا الرجل الذى يعرف كل شىء، ويأخذ كل شىء، ويُحطِّم كل شىء؟

ـ أسكت... ـ قالت الفتاة وتخلَّصت من تربيتته.

ـ لقد تحدثت معه. إنه فتى ضعيف. لم يكن يحبك حقاً. فقد استسلم للرعب فى الحال.

نظفت الفتاة بيدها أجزاء وجهها التى لمسها. ـ نعم، ليس قوياً مثلك... ليس حيواناً مثلك...

أرادت أن تصرخ حين أمسكها من ذراعها، وإبتسم وضم قبضته:

ـ هذا الرامونثيتو* سيغادر بويبلا. لن ترينه مرة أخرى أبداً...

أفلتها. خَطَت نحو أقفاص الفناء الملوَّنة: نحو شدو الطيور ذاك. وبينما يتأملها دون أن يتحرك، أخذت تفتح الأقفاص الملوَّنة، واحداً واحداً. أطل أبو الحنّاء وشرع فى الطيران. لكن طائراً مغرِّداً إمتنع، لتعوُّده على الماء وعلى البرغل. وضعته هى فوق خنصرها، وقبَّلت جناحه ودفعته إلى الطيران. أغمضت عينيها حين طار آخر الطيور وتركت هذا الرجل يأخذها، ويسير بها إلى المكتبة

---

* تصغير رامون ـ م.

حيث كان دون جماليل ينتظر، من جديدٍ دون تعجُّل.

أنـــا أحسُّ بيدين تجذبانى من إبطىّ وترفعانى لأستريح أفضل على الوسائد الناعمة ويكون الكتان المنعشُ بلسماً لجسدى الملتهب والبارد؛ أحسُّ بهذا لكننى حين أفتح عينىّ أرى فى مواجهتى تلك الصحيفة المفتوحة التى تخفى وجه من يقرأها: أفكر فى أن **الحياة المكسيكية*** موجودة، وستكون موجودة كل يوم، ستصدر كل يوم ولن توقفها قوةٌ على ظهر الأرض. تُفلتها تيريسا ـ فهى التى تقرأ الصحيفة ـ بإنزعاج.

ـ هل جرى لك شىء؟ هل تحسّ بأن حالتك سيئة؟

علىَّ أن أهدِّئها بيدى فتتناول الصحيفة من جديد. لا؛ أحس بأننى راض، مُحرِّكٌ لخدعةٍ ضخمة. ربما. ربما كانت ضربة معلِّم أن أترك وصيةً خاصة لتنشرها الصحيفة، أقص منها حقيقة مشروعى الشريف للحرية والإعلامية... لا، لو أخذت فى الاستثارة، لعاودتنى الطعنة فى أحشائى. أحاول مدّ يدى صوب تيريسا، طالباً منها التخفيف عنى، لكن إبنتى عاودت الاستغراق فى قراءة الصحيفة. قبلها رأيتُ النهار ينطفىء خلف النوافذ واستمعت إلى الحفيف الضارع للستائر. والآن، فى غبش المخدع ذى السقف من الخشب

* Vida Mexicana: الصحيفة التى يملكها ـ م.

المضغوط والـ closets * من خشب السنديان، لا يمكننى أن أميِّز جيداً المجموعة الأبعد عنى. المخدع بالغ الإتساع، لكنها موجودةٌ هناك. لابد أنها جالسة متصلِّبة، والمنديل المنقوش بين يديها ووجهها دون مساحيق وربما لا تسمعنى حين أغمغم:

ـ إنتظرتك هذا الصباح بابتهاج. لنعبر النهر على صهوة الجياد.

لا يسمعنى إلاَّ ذلك الغريب الذى لم أره أبداً، بخدّيه الحليقين وحاجبيه الأسودين، ويطلب منى التوبة بينما أفكر أنا فى النجّار والعذراء ويعرض علىّ مفاتيح السماء.

ـ ماذا يمكن أن تقول أنت... فى غيبوبةٍ كهذه...؟

فاجأتُه. لكن تيريسا لابد أن تفسد كلً شىء بصرخاتها: ـ دعه، أيها الأب، دعه! ألا ترى أننا لا يمكننا عمل شىء! إذا كانت مشيئته أن يحكم على نفسه بالعذاب، ويموت كما عاش، بارداً وساخراً من كل شىء...

يُبعدها الكاهن بذراعه ويُقرِّب شفتيه من أذنى: يكاد يُقبِّلنى. ـ ليس لهما أن تسمعانا.

وأتمكن أنا من الأنين: ـ إذن لتكن شجاعاً وتطرد كلتا هاتين الشمطاوين.

ينهض على قدميه بين صيحات إستنكار المرأتين ويجرهما من ذراعيهما ويقترب پاديا، لكنهما لا تريدان.

ـ لا، يا أستاذ، لا يمكننا أن نسمح بذلك.

ـ إنها عادةٌ منذ سنواتٍ طويلة، يا سيدتى.

ـ علي مسئوليتك؟

ـ دون أرتيميو... أحضرت لك ما سجّلناه هذا الصباح...

❖ مرحاض أو غرفة صغيرة يخلو فيها المرء إلى نفسه ـ إنجليزية فى النص ـ م.

أومئ بالموافقة. أحاول الإبتسام. مثل كل يوم. رجلٌ جدير بالثقة، پادييا هذا.

ـ فيشة الكهرباء بجوار المكتب.

ـ شكراً.

نعم، كيف لا، إنه صوتى، صوتى بالأمس ـ بالأمس، هذا الصباح؟ لن أميِّز الفرق ـ وأنا أسأل پونس، مدير تحرير صحيفتى ـ آه، الشريط يُصدِرُ صريفاً حاداً، إضبطه جيداً، يا پادييا، إستمعت إلى صوتى بالمقلوب: يُصدِر صريفاً كأنه ببغاء ـ: ها أنذا:

" ـ كيف ترى الأمر، يا پونس؟

" ـ سيء، لكن سهل الحل، حتى الآن.

" ـ الآن نعم، إدفع الصحيفة إلى الأمام، دون عبارات مُخفَّفة. إضربهم بقوة. لا تدّخر شيئاً.

" ـ أمرك. يا أرتيميو.

" ـ على الأقل فإن الجمهور قد تم إعداده جيداً.

" ـ على مدى سنوات طويلة ونحن نكرر.

" ـ أريد أن أرى كل المقالات الافتتاحية والصفحة الأولى... إبحث عنى فى منزلى، فى أى ساعةٍ كانت.

" ـ إنك تعرف، فكل شيء يمضى فى نفس الخط. يتم كشف النقاب عن المؤامرة الحمراء. تسللٌ عجيب غريب عن المبادئ الجوهرية للثورة المكسيكية...

" ـ الثورة المكسيكية المباركة!

" ـ ... زعماء يحركهم عملاء أجانب. تامبرونى يضرب بعنف ويندفع بلانكو بعمود يُماهى فيه الزعيم بالمسيح الدجّال والرسوم الكاريكاتورية مشتعلة... كيف حالك؟

" ـ آى، ليس على ما يرام. توعُّك. سينتهى. كم نتمنى لو كنا كما كنا من قبل! هه؟

" ـ نعم، كم نتمنى...

" ـ قل لمستر كروكرى أن يدخل."

أسعُل فى الشريط المغناطيسى. أستمع إلى مفصّلات ذلك الباب وهو ينفتح وينغلق. أحسُّ أن لا شىء يتحرك فى أحشائى، لا شىء، لا شىء، ولا تخرج الغازات، مهما دفعتها... لكننى أراهما. دخلتا. ينفتح الباب الماهوجنى وينغلق ولا تُصدر الخطوات صوتاً فوق السجادة السميكة. لقد أغلقوا النوافذ.

ـ إفتحوا النافذة.

ـ لا، لا. قد تُصاب بالبرد وتعقِّد الأمور...

ـ إفتحوا...

" ـ Are you worried, Mr. Cruz?

" ـ تماماً. إجلس وسأشرح لك. هل تتناول شيئاً؟ قرِّب منك حاملة المشروبات. فأنا لا أحسّ أننى على ما يرام."

أستمع إلى حركة العجلات الصغيرة، واصطدام الزجاجات فيما بينها.

" ـ You look O. K."

أستمع إلى سقوط الثلج داخل الكوب، وإلى ضغط ماء الصودا المندفع من السيفون.

" ـ إنظر: سأشرح لك اللعبة، إذا لم يكونوا قد فهموا. أبلغ المكتب المركزى أنه إذا إنتصرت حركة التطهير النقابى المزعومة هذه. فبإمكاننا أن نقطع ذيلنا*...

---

* La coleta: كناية عامية عن العضو الذكرى ـ م.

" ـ ذيلنا؟

" ـ نعم، ننكح أنفسنا، بالمكسيك..."

ـ أقطعوا هذا! ـ تصرخ تيريسا، وتقترب من جهاز التسجيل ـ ما قِلَّة الحياء هذه...؟

أتمكن من تحريك يدى، ورسم إيماءةٍ على وجهى. تضيع منىّ بضع كلماتٍ من التسجيل.

" ـ ... ما يطالب به زعماء عمال السكك الحديد هؤلاء؟

يتمخط شخص، بعصبية. أين؟

" ـ إشرح ذلك للشركات، حتى لا يصدِّقوا بسذاجة أن الأمر يتعلّق بحركة ديموقراطية، أتفهمنى، للتخلص من القادة الفاسدين. لا.

" ـ I'm all ears, Mr. Cruz."

نعم، لابد أن الجرينجو هو من يتمخط. آه ـ آخ ـ آخ.

ـ لا، لا. قد تُصابَ بالبرد وتُعقِّد الأمور.

ـ إفتحوا.

أنا ولست أنا وحدى، بل رجال آخرون، يمكننا أن نبحث فى النسيم عن عطر أرض أخرى، عن الشذى الذى ينتزعه الهواء من ظهيراتٍ أخرى: أشمُّ، أشمُّ: بعيداً عنى، بعيداً عن هذا العرق البارد، بعيداً عن هذه الغازات الملتهبة: أجبرتهما على فتح النافذة: يمكننى أن أتنفس ما يروقنى، أن أتسلّى بانتقاء الروائح التى تجلبها الريح: سواء كانت غابات خريفية، أو أوراق محترقة، آه أشجار برقوق ناضجة، أو أو فاكهة مدارية متعفنة، ملاّحات قاسية، أو ثمار أناناس مفتوحة بضربة سكين، أو أوراق تبغ منشورة فى الظل، أو دخان قاطرات، أو موجات بحر مفتوح، أو أشجار صنوبر يكسوها الجليد، آه معدن وماشية، كم من الطعوم تحمل وتجلب تلك الحركة الأبدية: لا، لا، لن تتركانى أعيش: تجلسان من جديد، تنهضان وتسيران ثم تعاودان

الجلوس سوياً، كأنهما ظلٌّ واحد، كأنهما لا تستطيعان التفكير أو التصرف منفصلتين، تجلسان من جديد، فى نفس الوقت، وظهرهما للنافذة، لتمنعا عنى تيار الهواء، لتخنقانى، لتجبرانى على إغماض عينىّ وتذكُّر أشياء طالما لا تدعانى أرى الأشياء، ألمس الأشياء، أشمُّ الأشياء: ثنائى لعين، كم ستستغرقان فى إحضار قسيس، فى تعجُّل موتى، فى إنتزاع إعترافاتٍ منى؟ إنه يظل هناك، راكعاً، ووجهه مغسول. أحاول أن أدير ظهرى له. فيمنعنى ألم جنبى. آآآى. لابد أنه إنتهى الآن. سأنال المغفرة. أريد النوم. ها هى الطعنة تأتى. ها هى تأتى. آآآى - آى. والنساء. لا، ليستا هاتين. النساء. اللائى تعشقن. كيف؟ نعم. لا. لا أدرى. لقد نسيتُ الوجه. بحق الرب، نسيت ذلك الوجه. لا. لا يجب أن أنساه. أين هو. آه، كان جميلاً جداً ذلك الوجه، كيف يمكن أن أنساه. آآآه - آى. لقد أحببتك، فكيف يمكن أن أنساكِ. كنت ملِكى، فكيف يمكن أن أنساكِ. كيف كنتِ، من فضلك، كيف كنتِ؟ يمكننى أن أؤمن بكِ، أنام معكِ، كيف كنتِ؟ كيف يمكن أن أستحضركِ؟ ماذا؟ لماذا؟ الحقنة مرةً أخرى؟ إيه؟ لماذا؟ لا لا لا، شئ آخر، بسرعة، أتذكر شيئاً آخر؛ هذا يؤلم؛ آآآه - آى؛ هذا يؤلم؛ هذا ينام... هذا...

أنت ستغمض عينيك، واعياً بأن جفنيك ليسا مُعتمين، بأنك

على رغم أنك تغمضهما فإن الضوء ينفذ حتى شبَكِيَّتك: ضوء الشمس الذى سيُحجب، مؤطَّراً بالنافذة المفتوحة، على إرتفاع عينيك المغمضتين: العينان المغمضتان اللتان تحذفان تفاصيل الرؤية، تغيِّران البريق واللون لكنهما لا تحذفان الرؤية ذاتَها، ذاتِ ضوءِ ذاك الدرهم النحاسى الذى سينسكب صوب المغيب. ستغمض عينيك وتعتقد أنك ترى أكثر: لن ترى إلاّ ما يودُّ مخُّك أن تراه: أكثر مما يقدِّمه العالم: ستغمض عينيك ولن يعود العالم الخارجى يتنافس مع رؤيتك التخيلية. ستغمض جفنيك وسيخلق ضوءُ الشمس الساكنُ، الثابتُ، المتكرِّرُ ذاك خلف جفنيك عالماً آخر متحركاً: ضوءٌ متَحرك، ضوء يمكن أن يُرهِق، أن يُرعِب، أن يُريك، أن يُبهج، أن يُحزن: خلف جفنيك المغمضين، ستعرف أن كثافةَ ضوءٍ ينفذُ حتى أعماَق تلك اللوحة المختصرة وغير المكتملة سيمكنه أن يثير فيك مشاعر غريبة على إرادتك، وعلى حالتك. ورغم ذلك، سيمكنك أن تغمض عينيك، وتخترع عمىً مؤقتاً. ولن يمكنك أن تسُدَّ سمعك، وتتظاهر بصمم مُتخيَّل؛ أن تكف عن لمس شىء، ولو كان الهواء، بأصابعك، أن تتخيل إنعداماً مطلقاً للحسّ؛ أن توقفَ السيل المتصل للعابك عبر اللسان والفم، أن تتجاوز مذاقك أنت ذاتك؛ أن تمن التنفُّس المحشرج الذى سيواصل ملء الحياة فى رئتيك، ودمك، أن تختار موتاً جزئياً. إنك دوماً سترى، دوماً ستلمس، دوماً ستذوق، دوماً ستشم، دوما ستسمع: ستكون قد صرخت وهم يخترقون جلدك بتلك الإبرة المليئة بسائل مهدىء؛ستصرخ قبل أن تحسَّ بأى ألم. الإنذار بالألم سيسافر إلى مخك قبل أن يحسّ جلدك بالألم ذاتِه: سيسافر ليحذِّرك من الألم الذى ستحسُّه، ليجعلك متأهِّباً حتى تنتبه، حتى تحسّ بالألم بحدَّةٍ أكثر، لأن الإنتباه يُضعِفُ، يُحيلُنا إلى ضحايا حين ننتبه إلى أننا نحن وحدنا سننتبه للقوى التى لن تستشيرنا، لن تنتبه لنا؛

والآن: فـإن أجـهـزة الألم، الأبطأ، سـتـهـزم أجـهـزة الـوقـاية الإنعكاسيـة، وستحسُّ بأنك مُنقسم، رجلٌ سيستقبل ورجل سيفعل، رجل يحسُّ ورجل يُحـرِّكُ، رجلٌ مُكوَّنٌ من أجـهـزةٍ سـتحسّ، وستنقل الإحساس إلى ملايين الألياف الدقيقة التى ستمتد حتى لحائك الحسّى، حتى ذلك السطح فى النصف الأعلى من المخ الذى، طوال واحدٍ وسبعين عاماً، سيتسقبل، ويُراكِم، ويستهلك، ويُعرِّى، ويُعيدُ ألوان العالم، وملامس اللحم، وطعوم الحياة، وروائح الأرض، وأصوات الهواء: مُعيداً إياها إلى المحرِّك الأمامى، إلى الأعصاب، والعضلات، والغُدد التى ستُغيِّر جسدك ذاته وذلكَ الجزءَ من العالم الخارجى الذى سيكون من نصيبك.

لكن فيما يشبه النوم، فإن الألياف العصبية التى ستقود المثير الضوئى لن تتَّصل بمنطقة الرؤية: ستنصتُ إلى اللون، مثلما ستذوق الملامس، ستلمس الأصوات، سترى الروائح، ستشم الطعوم: ستمدُّ ذراعيك كى لا تسقط فى آبار الهيولى، كى تستعيد نظامَ حياتِك كلها، نظام المؤثر الذى يتم إستقباله، ونقله إلى العصب، وإسقاطه على المنطقة الصحيحة من المخ، ليُعادَ إلى العصب وقد تحوَّل إلى تأثير ومرة أخرى إلى مؤثر: ستفرد ذراعيك وسترى خلف عينيك المغمضتينً ألوان ذهنك وستحس فى النهاية، دون أن ترى، بمصدرِ الملمس الذى تُنصتُ إليه: إنها الملاءات، حفيف الملاءات بين أصابعكَ المكرمشة؛ ستفتح يديك وستحس بعرق راحتيك وربما ستتذكر أنك ولدت دون خطوط للحياة أو للحظ، للحياة أو للحب: ولدتَ، ستولد وراحتك ملساء، لكن سيكفى أن تولد حتى يمتلىء هذا السطح الفارغ، خلال ساعاتٍ قليلة، بالعلامات، بالخطوط، بالإنذارات: وستموت وخطوط راحتك كثيفة، مستهلكة، لكن سيكفى أن تموت حتى يكون كل أثرٍ للمصير قد إختفى، بعد ساعات قليلة، من يديك.

الهيولى: ليس لها جمع

نظام، نظام: ستتمسك الملاءات وستكرِّر فى صمت، داخلك، الإحساسات التى يضعها مخُّك فى مكانها، ويوضحها: ستُحدِّدُ ذهنياً، بجهد، المواضع التى تُنبّه إلى العطش والجوع، إلى العرق والرجفة، إلى التوازن والسقوط: ستحدِّدها فى المخ الأدنى، الكادح، الخادم الذى ينجز المهام الفورية ويُحرِّرُ الآخر، الأرقى، للتفكير، للتخيل، للرغبة: إنباً للصنعة، للضرورة أو للصدفة، لن يكون العالمُ بسيطاً: لن تستطيع معرفته فى سلبية، تاركاً الأشياء تحدث لك: سيتوجب عليك أن تفكر حتى لا يهزمك تداعى الأخطار، أن تتخيَّل حتى لا ينفيك التنبؤ الخالص، أن ترغب حتى لا يلتهمك نسيج ما ليس مؤكداً: ستنجو:

ستتعرَّف على نفسك:

ستتعرَّف على الآخرين وستتركهم - ستتركها - يتعرفون عليك: وستعرف أنك ستقف ضد كل فرد، لأن كلَّ فرد سيكون عقبةً أخرى فى سبيل بلوغ أهداف رغبتك؛

سترغب: كم ستودُّ أن تكون رغبتك والشىء المرغوب شيئاً واحداً؛ كم ستحلم بالتحقق الفورى، بالتماهى دون إنفصال بين الرغبة والشىء المرغوب:

ستتمدَّد وعيناك مغمضتان، لكنك لن تكف عن الرؤية، لن تكف عن الرغبة: ستتذكر، لأنك بذلك ستجعل الشىء المرغوب ملكاً لك: إلى الوراء، إلى الوراء، فى الحنين، ستتمكن من جعل كل ما ترغب ملكاً لك: ليس إلى الأمام، بل إلى الوراء:

الذاكرة هى الرغبة المتحققة:

إبق على قيد الحياة مع الذاكرة، قبل أن يفوت الأوان،

قبل أن يمنعك الهيولى من التذكر.

(١٩١٣: ٤ ديسمبر)

هو من أحسّ بتجويف ركبة المرأة، الرطب، بجوار خصره. كانت تعرق دائماً على هذا النحو الخفيف والمنعش: حين فصل ذراعه عن خصر ريخينا، هنالك أيضاً أحسّ برطوبة الزجاج السائل. مدّ يده ليربِّت على الظهر كله، بتمهل، وظن أنه غرق فى النوم: كان يمكنه أن يظل هكذا طوال ساعات، دون شىء يفعله سوى التربيت على ظهر ريخينا. حين أغمض عينيه، إنتبه إلى لا نهائية التولّه بهذا الجسد الفتّى الذى يحتضن جسده: فكر أن الحياة برمّتها لن تكون كافية لإرتياده واكتشافه، لاستكشاف تلك الجغرافيا الناعمة، المتماوجة، ذات النتوءات السوداء، الوردية. كان جسد ريخينا ينتظر وتمطّى هو، دون صوت ودون رؤية، فوق الفراش، لامساً القضبان الحديدية بأطراف يديه وقدميه: تمدَّد نحو طرفى السرير. كانا يعيشان داخل هذا الزجاج الأسود: فالفجر كان لا يزال بعيداً. كانت الناموسية خفيفة وتعزلهما عن كل ما هو خارج الجسدين. فتح عينيه. إقترب خدّ الفتاة من خدّه؛ إحتكَّت اللحية الشعثاء بجلد ريخينا كأن الظلام لم يكن كافياً. فقد كانت عينا ريخينا الواسعتان تلمعان، شبه مغمضتين، مثل ندبةٍ سوداء وبراقة. تنفَّس بعمق. إشتبكت يدا ريخينا حول رقبة الرجل، وعاودت الوجنتان الإقتراب. إنصهرت حرارة الأفخاذ فى لهب واحد. تنفَّس هو: مخدعٌ من البلوزات والتنورات المنشّاة، وثمار

السفرجل المقطوعة فوق المنضدة من خشب الجوز، ولهب البارافين المطفأ. وعلى مسافة أقرب، العبقُ البحرى للمرأة المُنّداة الطرية. أصدرت الأظافرُ صوتَ خربشةِ قطٍ بين الملاءات؛ وعاودت الساقان الارتفاع، بخفة، لتُطَوِّقا خصر الرجل. بحثت الشفتان عن العنق. وارتجفت قمّتا الثديين بمرح حين قرَّب شفتيه، ضاحكاً، مُزيحاً الشعر الطويل المشعث. لو تكلمتْ ريخينا: أحسّ بالنَفَس القريب وكمَّم الشفتين بيده. بلا لسان وبلا عينين: الجسد الأخرس فقط، مستسلماً لمتعته. فهمت هى. والتَّصقت أكثر بجسد الرجل. هبطت يدها إلى عضو الرجل وهبطت يده إلى التلّة الصلبة وشبه الجرداء لهذه الطفلة: تذكَّرها عاريةً، واقفةً، فتيَّةً وصلبة فى سكونها، لكنها متماوجةٌ وناعمة حين تمشى: لتغتسل سراً، لترخى الستائر، لتُذكى الجمر. عاودا النوم، وكلٌّ منهما يتملَّكه مركز الآخر. الأيدى فقط، يدٌ واحدة، هى التى تحركت فى الحلم الباسم.

" ـ سأتبعك.

" ـ وأين ستعيشين؟

" ـ سأتسلّل إلى كل قرية قبل أن تستولوا عليها. وهناك سأنتظرك.

" ـ ستتخلّين عن كل شىء؟

" ـ سأحمل بضعة أردية. وستعطينى أنت ما أشترى به فاكهة وطعاماً وسأنتظرك. وحين تدخل القرية، سأكون هناك. يكفينى رداء واحد."

تلك الجونلة التى تسترخى الآن فوق كرسى الغرفة المستأجرة. حين يصحو، يروق له أن يلمسها وأن يلمس كذلك الأشياء الأخرى: الأمشاط، والحذاء الأسود، والقرط الصغير المتروك فوق المنضدة. كان بودِّه، فى تلك اللحظات، أن يُقدِّم لها شيئاً أكثر من أيام الإنفصال

واللقاءات الصعبة هذه. ففى مناسبات أخرى كان أمرٌ غير متوقَّع، أو ضرورة مطاردة العدو، أو هزيمةٌ ما تجعلهم يتقهقرون إلى الشمال، تفصل بينهما طوال عدة أسابيع. لكنها، مثل طائر نورس، بدا أنها تتبيّن، فوق التقلبات الألف للنضال وللحظ، حركة المدّ الثورى: وإذا لم تظهر فى القرية التى إتفقا عليها، فإنها ستظهر فى أخرى آجلاً أو عاجلاً. ستمضى من قرية إلى قرية، سائلةً عن الكتيبة، ومُنصتةً إلى إجابات العجائز والنساء اللائى بقين فى منازلهن:

" ـ مرّوا من هنا منذ خمسة عشر يوماً.

" ـ يُقال أنه لم يبق منهم أحدٌ حياً.

" ـ من يدرى. قد يعودون. فقد تركوا بعض المدافع منسيَّة.

" ـ حاذرى من الفيدراليين، فهم يمضون مطلقين الرصاص على كل من يساعد المتمردين."

ويتقابلان من جديدٍ فى النهاية، مثلما الآن. تكون هى قد أعدت الغرفةَ، بفاكهةٍ وطعام، وتكون الجونلةُ ملقاةً فوق كرسى. ستنتظره هكذا، مستعدةً كأنها لا تريد أن تُضيّع دقيقةً واحدة فى الأشياء غير الضرورية. لكن لا شىء غير ضرورى. رؤيتها تمشى، وتعدُّ الفراش، وتفك شعرها. تجريدها من آخر ثيابها وتقبيل جسدها كله، بينما تظل هى واقفة ويركع هو، ماراً بشفتيه على جسدها كله، مُتذوقاً الجلد والزغب، رطوبة القوقع: ملتقطاً فى فمه إرتجافات الطفلة المنتصبة التى سينتهى بها الأمر إلى إمساك رأس الرجل بين يديها لتجبره على أن يرتاح، على أنِ يدع شفتيه فى موضع واحد. وتسترسل على قدميها، مُحكمةً قبضتها على رأس الرجل، بشهقة مُختلِجة، حتى يحس بها نظيفةً ويحملها إلى الفراش بين ذراعيه.

" ـ أرتيميو، هل سأراك ثانية؟

" ـ لا تقولى هذا أبداً. ضعى فى إعتبارك أننا نعرف بعضنا مرةً فى العمر."

لم تعاود السؤال أبداً. خجلت من إنها سألته مرة، من كونها فكرت أن حبهما يمكن أن تكون له نهاية أو يُقاسَ كما يُقاسُ زمنُ الأشياء الأخرى. لم تجد مبرراً يجعلها تتذكر أين، أو لماذا، عرفت هذا الشاب ذا الأربع والعشرين عاماً. لم يكن ضرورياً حمل عبء شىء غير الحب واللقاءات خلال أيام الراحة القليلة، حين تستولى القوات على معقل وتتوقف لتستعيد عافيتها، وتؤكد وجودها فى أرض مُنتزعةٍ من الدكتاتورية، وتتزود بالعتاد، وتخطط للهجوم التالى. هكذا قرر الإثنان، دون أن يقولا هذا مطلقاً. لن يفكرا أبداً فى خطر الحرب ولا فى وقت الفراق. وإذا لم يظهر أحدهما فى الموعد التالى، فسوف يواصل كل واحدٍ طريقه دون أن يقول شيئاً: هو صوب الجنوب، حتى العاصمة؛ وهى فى طريق العودة إلى الشمال، إلى شواطئ سينالوا حيث عرفته وانساقت للحب.

" ـ ريخينا... ريخينا...

" ـ هل تتذكر تلك الصخرة التى تنغمس فى البحر مثل زورق حجرى؟ لابد أنها مازالت هناك.

" ـ هناك عرفتكِ. هل كنت تذهبين كثيراً إلى ذلك المكان؟

" ـ كل مساء. هناك تتشكَّل بركة بين الصخور ويمكن للمرء أن ينظر إلى نفسه فى المياه البيضاء. هناك كنت أنظر إلى نفسى وذات يوم ظهر وجهك بجوار وجهى. فى الليل، تنعكس النجوم فى البحر. وفى النهار، تبدو الشمس وهى تلتهب.

" ـ لم أدر ماذا أفعل ذلك المساء. كنا نقاتل وفجأة توقَّف القتال، فقد إستسلم الزُعران وكان المرء قد تعوَّد على حياةٍ أخرى. عندئذ بدأت أتذكر الأشياء الأخرى وصادفتكِ جالسةً فوق تلك الصخرة.

وقدماكِ مُبتلّتان.

" ـ أنا أيضاً أردت ذلك. ظهرت إلى جوارى، بجانبى، منعكساً فى نفس البحر. ألم تتنبه إلى أننى أردت ذلك أنا أيضاً؟"

تأخّر الفجر فى القُدُوم، لكن غلالةً رماديةً كشفت نوم الجسدين، اللذين تُوحِّدُ بينهما الأيدى. إستيقظ هو أولاً وتطلَّع إلى نوم ريخينا. بدا أنه أرق خيوطِ نسيج عنكبوتِ القرونِ: بدا أنه توأمُ الموت: النوم. الساقان مضمومتان، والذراع الحر فوق صدر الرجل، والفم رطب. كان يروق لهما ممارسة الحب فى الفجر: وكانا يعيشانه كعيد للإحتفال باليوم الجديد. كان الضوء الكامد يُظهر بالكاد المنظرَ الجانبى لريخينا. خلال ساعة، سينصتان إلى ضوضاء القرية. أما الآن، فليس سوى تنفُّس الشابة السمراء التى تنام تملؤها السكينة، والتى هى الجزء الحّى من العالم الذى يستريح. شىء واحدٌ فقط يمكن أن يكون له الحق فى إيقاظها، سعادةٌ فقط هى التى يمكن أن يكون لها الحق فى قطع هذه السعادة للجسد المملوء بالسكينة فى نومه، المرسوم على الملاءة، ملتفّاً فى نفسه بنعومةِ قمر مُكتس بالحِداد. هل له الحق؟ قفز خيال الشاب فوق فعل الحب: تأمَّلها نائمةً كأنها تستريح من فعل الحب الجديد الذى سيوقظها خلال ثوان قصيرة. متى تكون السعادة أكبر؟ ربَّت نهد ريخينا. تخيَّلُ ما سيكون إتحاداً جديداً، الإتحاد ذاته؛ البهجة المتعَبة للتذكر ثم الرغبة الكاملة من جديد، يُضاعفها الحب، فعلُ حب جديد: السعادة. قبَّل أذن ريخينا ورأى عن قُرب إبتسامتها الأولى: قَرَّب وجهه حتى لا تفلت منه أول إيماءة للبهجة. أحسَّ بيدها تُعاود مداعبته. أزهرت الرغبة من الداخل، مبذورةً بنقاط حُبلى: عادت ساقا ريخينا تبحثان عن خصر أرتيميو: اليد المليئة تعرف كلَّ شىء: أفلت الإنتصاب من الأصابع واستيقظ معها: تباعد الفخذان مرتجفين، ممتلئين، ووجد اللحمُ المنتصب اللحمَ المفتوح ودَخَل يُهدهده،

يُطوِّقه النبضُ المتشوّق، وتُتوِّجه خصيتان فتيتان، مُنضغِطاً فى هذا الكون من اللحم الطرى والعاشق: إختُزلا إلى لقاء العالَم، إلى بذرة العقل، إلى الصوتين اللذين يُسمِّيان فىَ صمت، اللذين يُعمِّدان فى الداخل كل الأشياء: فى الداخل، حين يُفكر هو فى كلِّ شىء ما عدا هذا، يُفكر، يُعدِّد الأشياء، لا يفكر فى شىء، حتى لا ينتهى هذاً: يحاولُ ملء رأسه ببحار ورمال، برياح وثمار، بدور وحيوانات، بأسماكٍ وبذور، حتى لا ينتهى هذًا: فى الداخَل، حين يرفعً وجهه وعيناه مغمضتان ويتمددَّدُ عنقُه بكل قوة العروقِ المنتفخة، حين تضيع ريخينا وتستسلم وتُجيب بزفرات مختنقة، مُقطِّبةً جبينها وشفتاها باسمتان أنْ نعم، أنْ نعم، أنها تُحبُّ ذلك، أنْ نعم، أن لا يتركها، أن يستمر، أنْ نعم، أن لا ينتهى، أنْ نعم، حتى الإنتباه إلى أن كل شىء قد حَدَث فى نفس الوقت، دون أن يتمكن أحدٌ من تأمُّل الآخر لأن الإثنين كانا نفس الشىء ويقولان نفس الكلمات:

" ـ أنا الآن سعيدة.

" ـ أنا الآن سعيد.

" ـ أحبُّكِ، يا ريخينا.

" ـ أعشقك، يا رَجُلى.

" ـ هل أجعلك سعيدة؟

" ـ لا تنتهِ أبداً؛ كم تدوم؛ كم تملؤنى"

بينما دوَّى فى الشوارع صوت دلو من الماء فوق التراب ومر البط البرى وهو يبطبط بجانب النهر وأعلَن صفيرٌ تلك الأشياء التى لا يستطيع وقفها أحدٌ: جرجرت الأحذية العسكرية خربشة المهاميز، وعاودت الحوافرُ الدوى وسرت روائح الزيت والدهن بين الأبواب والبيوت. مدَّ هو يده وبحث عن السجائر فى جيب القميص. وإقتربت هى من النافذة وفتحتها. بقيت هناك، وهى تتنفس، وذراعاها

مفتوحتان، على أطراف أصابعها. إقتربت دائرة الجبال الداكنة مع الشمس صوب عيون الحبيبين. تصاعدت رائحة مخبز القرية، وعلى مسافة أبعد، مذاق نبات الآس المشتبك بأعشاب السفوح العطِنة. ولم ير هو إلاّ الجسد العارى، ذا الذراعين المفتوحتين اللتين أرادتا، الآن، الإمساك بظهر النهار وجذبه معها إلى الفراش.

ـ هل تريد إفطارك؟

ـ الوقت مبكر. دعينى أُنهى سيجارتى أولاً.

إستندت رأس ريخينا على كتف الشاب. ربَّتت اليد الطويلة المعروقة على مؤخرتها. إبتسم الإثنان.

ـ حين كنت طفلةً، كانت الحياة جميلة. كانت هناك لحظات كثيرة جميلة. الإجازات، أوقات الراحة، أيام الصيف، الألعاب. لا أدرى لماذا حين كبرت بدأت أنتظر أشياء. لم أفعل وأنا طفلة. لهذا بدأت أذهب إلى ذلك الشاطئ. قلت لنفسى أن الإنتظار أفضل. لم أدرِ لماذا تغيَّرتُ إلى هذا الحد خلال ذلك الصيف وكففت عن كونى طفلة.

ـ مازلتِ حتى الآن، أتعرفين؟

ـ معك؟ مع كل ما نفعله؟

ضحك وقبلها فضمَّت ركبتها، فى وضع طائر مطوىّ الجناحين، يتخذ عُشَّه فى صدر الرجل. تعلقت بعنق الرجل، بين الضحكات والنهنهات المصطنعة:

ـ وأنت؟

ـ أنا لا أتذكر. قابلتك وأحبك كثيراً.

ـ قل لى. لماذا عرفتُ، فور أن رأيتك، أننى لن يعود يهمنى شيءٌ أبداً؟ أتعرف: قلت لنفسى أن علىَّ أن أحزم أمرى فى تلك اللحظة ذاتها. أنك إذا تجاهلتنى، سأكون قد فقدت حياتى كلها. ألم يحدث لك ذلك؟

ـ نعم، حدث لى أيضاً. ألم تظنّى أنه جندىٌّ آخر، يبحث عن شىءٍ يُسلِّيه؟

ـ لا، لا. لم أر رداءك العسكرى. لم أر سوى عينيك منعكستين فى الماء وعندها لم أعد أستطيع رؤية إنعكاسى بدون إنعكاسك إلى جوارى.

ـ يا حلوة؛ يا حبّى؛ إنظرى إن كان لدينا قهوة.

حين إفترقا، ذلك الصباح المماثل لكل صباحات حب عمره سبعة شهور فتيَّة، سألته إن كانت القوات ستعاود الخروج سريعاً. فقال أنه لا يعرف فيم يفكر الجنرال. ربما كان عليهم الخروج لتشتيت بضع جماعات من الفيدراليين المهزومين الذين مازالوا باقين فى الناحية، لكن المعسكر سيظل فى هذه القرية على كل حال. فهناك ماء وفير وماشية على مقربة. إنه موقعٌ جيد للبقاء برهة. فقد جاءوا مُنهكين، من سينالوا، ويستحقون راحةً قصيرة. فى الحادية عشرة يجب على جميع القوات الإبلاغ فى قيادة الموقع. وفى كل قرية مرّ بها الجنرال، كان يستفسر عن ظروف العمل ويصدر مراسيم تخفض ساعات العمل اليومية إلى ثمانى ساعات وتوزِّع الأراضى على الفلاحين. وإذا كانت هناك ضيعةٌ فى المكان، كان يأمر بإحراق مخازنها. وإذا كان ثمة مرابين ـ وهناك منهم دائماً، إذا لم يكونوا قد فرّوا مع الفيدراليين ـ كان يُعلن إلغاء جميع الديون. الأمر السىء هو أن أغلب السكان كانوا يحملون السلاح ويحاربون وجميعهم تقريباً من الفلاحين، بحيث لم يكن هناك من يتولىّ تطبيق مراسيم الجنرال. ومن هنا كان من الأفضل إنتزاع الأموال فوراً من الأغنياء الذين يتبقّون فى كل قرية وإنتظار أن تنتصر الثورة لتقنين ما يتعلق بالأراضى وبيوم العمل من

ثمانى ساعات. أما الآن فيجب الوصول إلى مكسيكو لكى يُسقطوا من الرئاسة السكير هويرتا، قاتل دون پانتشيتو ماديرو*. وماذا يتبقى؟ - غمغم بينما يُدخِل القميص الكاكى فى البنطلون الأبيض - ماذا يتبقى؟ من بيراكروث، من الأرض، حتى مدينة مكسيكو ومن هناك حتى سونورا، حين طلب منه الأستاذ سباستيان أن يفعل ما لم يعد العجائز يستطيعون فعله: أن يمضى إلى الشمال، ويحمل السلاح ويُحرِّر البلاد. لقد كان صبياً حينذاك، رغم أنه كان سيكمل الحادية والعشرين. أكيد، فلم يكن حتى قد ضاجع إمرأة. وكيف كان يمكنه أن يخذل الأستاذ سباستيان، الذى علّمه الأشياء الثلاثة التى يعرفها: القراءة، والكتابة، وكراهية القساوسة.

كفَّ عن الكلام حين وضعت ريخينا قدحى القهوة على المنضدة.

- إنها ملتهبة؟

كان الوقت مبكراً. خرجا إلى الطريق متعانقين من خصريهما. هى بجونلتها المُنشَّاة؛ وهو بقبَّعة الجوخ والسُترة البيضاء. كان البيت الذى يعيشان فيه قريباً من جرف الجبل؛ وكانت الأزهار البرية معلَّقةً فى الفراغ وثمة أرنبٌ مزقته أنياب الذئب المكسيكى يتعفن بين الأغصان. وفى العمق، كان ينساب جدول. حاولت ريخينا النظر فيه، كأنها تتوقع أن تجد، مرةً أخرى، الإنعكاس الذى إخترعته فى خيالها. تماسكت اليدان: كان الطريق نحو القرية يمضى مُصعِّداً بجوار المنحدر ومن الجبال تردد صدى صوت طائر صدَّاح. لا: إنه ضجيج حوافر خفيفة، ضائعة بين سحب التراب.

---

* ماديرو (فرانثيسكو إندالثيو) (١٨٧٣-١٩١٣): كان بطل الحريات الديمقراطية والاصلاحات الإجتماعية ضد ديكتاتورية بورفيريو دياث. إنتخب رئيساً عام ١٩١١ واغتيل - م

- أيها الملازم كروث! أيها الملازم كروث!

ذلك الوجه المبتسم دوماً للوريتو، مساعد الجنرال، إختفى، حين توقف الحصان بصهلةٍ واحدة جافة، خلف العرق والتراب الذى يكسوه.

- تعال فوراً - لهث وهو ينظِّف وجهه بمنديل -؛ هناك مُستجدّات: سنخرج خلال برهة قصيرة. هل أفطرت؟ فى المعسكر يقدمون بيضاً.

- لدى ما يخصنى منه - أجاب هو بإبتسامة.

كان عناق ريخينا عناقاً من تراب. وفقط عندما إبتعد حصان لوريتو، وارتاحت الأرض، ظهرت المرأة بكاملها، مُتعلِّقةً بكتفى حبيبها الشاب.

- إنتظرينى هنا.

- ماذا تظن الأمر؟

لابد أن هناك مجموعات مشتتة فيما حولنا. لا شىء خطير.

- هل أنتظرك هنا؟

- نعم. لا تتحركى. سأعود الليلة أو غداً مبكراً على أقصى تقدير.

- أرتيميو... سنعود إلى هناك يوماً ما؟

- من يدرى. من يدرى كم يستمر هذا. لا تفكرى فى ذلك. أتعرفين أننى أحبك جداً؟

- وأنا أحبك. جداً. دائماً فيما أظن.

فى الخارج، فى الفناء المركزى للمعسكر، وفى إسطبلات الخيالة، كانت القوات قد تلقت الأمر الجديد بالتحرُّك وأخذت تُعِدُّ أشياءها بهدوءِ طقس. تدحرجت المدافع فى طابور، تجرها بغالٍ بيضاء تحيط بعيونها دوائرُ سوداء؛ وتبعتها عربات المدافع مُحمَّلةً بالذخيرة فوق القضبانِ الحديدية التى تربط الفناء بالمحطة. وكانت قوات الفرسان تشدُّ أعنَّة الخيول، وتفك أكياس العلف، وتستوثق من إحكام السروج،

وتُريِّت على الأعـراف الخشنة لخيـول الحـرب تلك، البـالغـة الدعـة والبطء فى تعـاملها مع الرجـال: يلطِّخها البـارود، وبطونها تعجُّ بقُراد السـهول، كـان مائتـا حـصـان يتـحـركـون بتثـاقل أمـام المعسكر، بألوان برتقـاليـة، ورقطاء، وسـوداء بلون التـراب. وكـان المشاة يزيِّتون البنادق ويمرون فى صفٍ أمام القـزم المرح الذى يوزع الرصـاص. قـبـعـاتٌ من الشـمـالٍ: قـبّـعـات من الجـوخ الرمـادى، ذات حـافـة مـطوية. ومناديلٌ معـقـودةٌ حـول العنق. وأحـزمـة طلقـات مـعـقـودة حـول الخـصـر. أحذية قليلة: بنطلون من القمـاش الخشن وحـذاء من الجلد الأصـفـر، إن لم يكن صندلاً هنـدياً. قـمـيص مـخطـط، دون رقـبـة. وهنا وهناك ـ فى الشـوارع، والأفنيـة، والمحطة ـ قبـعـات هنود اليـاكى مـزينة بأغـصـان: الموسيقيون وبين أيديهم المزاميـر وعلى أكتافهم الآلات المعدنيـة. آخر رشفات من الخمر. قـروانـاتٌ مملوءة حتى الحافة بطبيخ الفاصوليا. أطباق من البيض المقلى. تصاعد الصياح من المحطة: فقد وصلت إلى القـرية عـربة بضـاعـة مليئـة بالهنود المايو، بقـرع طبـولٍ حـادٍ وتلويحٍ بأقواس ملوّنة وسهام بدائية.

شقَّ لنفسه طريًقاً: فى الداخل، أمـام الخـريطة السيئـة التعليق فوق الحـائـط، شرح الجنرال: ـ شن الفيدراليون هجوماً مضاداً خلف ظهورنا، فى أرض حرّرتها الثورة. يحـاولون فصلنا عن المؤخرة. فجر اليوم، تبين أحد الحُراس سحابة كثيفة من الدخان تتصاعد من الجبل فى إتجـاه القـرى التى يحـتلهـا المقـدِّم خـيـمـينث. نزل ليـحـكى الأمـر، فتذكرت أن المقدِّم، فى كل قـرية، كـان قد أمـر بجمع كـومـة كبيـرة من الأخشـاب وفلنكات السكك الحديدية لإحراقها إذا هوجم حتى ينذرنا. وهذا هو الأمـر. علينا أن نقـسم قـواتنا. نصـف القـوات يتـراجع إلى الجـانب الآخـر من الجـبـل لمعـاونة خـيـمـينث. والنصف الآخـر يخـرج ليضـرب بقـوة المجموعـات التى هزمناها أمس، ولـرؤية إن كنا سنواجه

هجوماً كبيراً آخر من الجنوب. ولن يبقى فى هذه القرية سوى لواءٍ واحد. لكن يبدو أن من الصعب أن يصلوا حتى هنا. الرائد جابيلان... الملازم أباريثيو... الملازم كروث: أنت ستتراجع إلى الشمال.

كانت النيران التى أشعلها خيمينث آخذةً فى الإنطفاء حين عبر هو، نحو منتصف النهار، موقع المراقبة عند حافة الجبل. وهناك إلى أسفل، ظهر القطار الغاصُّ بالبشر: كان يجرى دون صفير حاملاً مدافع الهاون والمدافع، وصناديق الذخيرة والمدافع الرشاشة. هبطت فصيلة الفرسان السفوح المنحدرة بصعوبة وبدأت المدافع، من خط السكة الحديد، فى إطلاق قذائفها على القرى التى يُفترض أن الفيدراليين يحتلونها.

- فلنسرع - قال -. هذه النيران ستستمر نحو ساعتين وعلينا بعدها أن ندخل للإستكشاف.

لم يدرِ أبداً لماذا، حين لمست حوافر حصانه بداية الأرض المستوية، خَفض رأسه وضاع منه تصوُّر المهمة المحددة التى أوكلت إليه. تبخَّر وجود رجاله، مع الشعور الحازم ببلوغ هدف وظهرت بدلهما تلك الرقة، ذلك الأسى الداخلى على شىء مفقود، تلك الرغبة فى العودة ونسيان كل شىء بين ذراعى ريخينا. كأن كرة الشمس الملتهبة قد تغلَّبت على الحضور القريب للفرسان وعلى ضجيج المدفعية البعيد: بدل هذا العالم الواقعى ظهر عالم آخر، حُلُمى، ليس فيه سواه هو وحبيبته من لهما الحق فى الحياة والمبرر لإنقاذها.

" - هل تتذكر تلك الصخرة التى تنغمس فى البحر مثل زورق حجرى؟"

تأملها من جديد، متمنياً أن يُقبِّلها، وخائفاً من أن يوقظها، واثقاً من أنه بتأملها قد جعلها ملكه: فكر أن رجلاً واحداً هو المالك لكل

صور ريخينا السرِّية وهذا الرجل يمتلكها ولن يتخلى عنها أبداً. وبتأملها، كان يتأمل ذاته. أفلتت يداه اللجام: كل ما يعنى وجوده، كل حبه، مدفون فى لحم هذه المرأة التى تحتوى عليهما هما الإثنين. يودُّ لو عاد... لو شرح لها كم يحبها... تفاصيلَ عاطفته... حتى تعرف ريخينا...

صهل الجواد ورفع قائميه الأماميين؛ فسقط الفارس فوق الأرض الصلبة، ذات الأحجار والشجيرات الشوكية. أمطرت القنابل اليدوية للفيدراليين فوق الفرسان ولم يستطع هو أن يميِّز، حين نهض، من بين الدخان، إلاَّ صدرَ حصانه المشتعل، الدرعَ الذى أوقف النار. وحول الجسد الساقط كان يتلوى دون شعور أكثر من خمسين حصاناً: وفوقها، لم يكن ثمة ضوء: هبطت السماء درجةً وكانت سماءً من البارود، بإرتفاع القامة. جرى نحو إحدى الأشجار المنخفضة: كانت موجات الدخان تُخفى أكثر من تلك الأغصان العارية. على بعد ثلاثين متراً، كانت بداية غابة قصيرة لكنها كثيفة. وصل إلى مسامعه صراخٌ بلا معنى. قفز ليتعلّق بلجام جوادٍ طليق ولفّ قدماً واحدةً حول مؤخرته: أخفى جسده خلف الحصان ونخسه بمهمازه: شبّ الحصان وتشبث هو، ورأسه متدلية وعيناه يملؤهما شعره المشعث، بالسرج واللجام تشبثاً يائساً. إختفى أخيراً ضياء الصباح؛ ومكّنته الظلمة من فتح عينيه، والإنفلات من لحم الحيوان، والتدحرج حتى إصطدم بجذع شجرة.

وهناك عاوده ما كان يشعر به من قبل. كانت تحيطُ به كل الضوضاء المختلِطة للمعركة، لكن بين القُرب والضجيج الذى يبلغ مسامعه، إمتدَّت مسافة لا يمكن عبورها: هنا، كانت تُسمع بدقة متناهية إهتزازات الغصون الخفيفة، والحركات المنفلتة للسحالى. وحيداً، ومستنداً إلى الجذع، عاوده الشعور بتلك الحياة العذبة،

الهادئة، التى أخذت تتدفق متمهلةً فى دمه: هذه الهناءة للجسد الذى يقاومُ أى محاولة متمردة للتفكير. رجاله؟ دق قلبه رتيباً، دون إنتفاض. هل يبحثون عنه؟ أحسّ الذراعان، والقدمان أنهم قريرون، نظيفون، متعبون. ماذا سيفعلون بدون أوامره؟ بحثت عيناه، بين سقف أوراق الشجر، عن التحليق الخفى لطائر. هل سيكونوا قد فقدوا الإنضباط؛ هل سيجرون، هم أيضاً، للإختفاء فى هذه الغابة الصغيرة الرائعة؟ لكن لا يمكن عبور الجبل ثانيةً على الأقدام. لابد من الإنتظار هنا. وإذا أخذوه أسيراً؟ لم يعد يستطيع التفكير: أزاح الأغصانَ أنينٌ، قرب وجه الملازم، وتهاوى رجلٌ بين ذراعيه: رفضه ذراعاه للحظةٍ وعلى الفور عادا للإمساك بذلك الجسد الذى تتدلى منه خرقةٌ حمراء، الذى فقد قواه، ولحمه ممزق. أسند الجريح رأسه إلى كتف رفيقه:

ـ إنهم... يضربون... بقوة...

أجس بالذراع المحطمة فوق ظهره، تصبغه وتصبُّ فوقه دماً وجلاً. حاول إبعاد الوجه الذى يُقلِّصُه الألم: وجنتان مرتفعتان، فم مفتوح، عينان مغمضتان، شارب ولحية أشعثان، قصيران مثل شاربه ولحيته. لو كانت عيناه خضراوين، لكان توأمه...

ـ هل هناك مخرج؟ هل خسرنا؟ أتعرف شيئاً عن الفرسان؟ هل تراجعوا؟

ـ لا... لا... لقد مضوا... إلى الأمام.

حاول الجريح أن يشير، بذراعه السليمة، فالأخرى، حطَّمها الرشاش، دون أن يفقد تلك التقطبية الفظيعة التى بدا أنها تصلب عوده وتمدّ فى وجوده.

ـ يتقدمون؟ كيف؟

ـ ماء، يا رفيق... حالتى سيئة جداً...

غـاب الجـريـح عن الوعـى، وهو يحـتـضنه بقـوةٍ غـريبـة، مليئـةً بضـراعاتٍ صـامـتة. أسند الملازم ذلك الثقل الرصـاصـى المصبوب فـوق جسده. وعـادت إلى سمعه إرتجـافات المدافع. مسحت ريحٌ مترددةٌ قمم الأشـجـار. مـرة أخـرى، السكون والهـدوء اللذين يقطعـهـمـا المدفع الرشاش. تناول الذراع السليمة للجريح وتخلَّص من الجسد المُلقى فوق جسـده. أمـسك رأسـه وأسندها على الأرض ذات الجـذور البـارزة. نزع غطاء الزمزمية ورشف رشفةً كبيرة: قرَّبها من شفتى الجريح: فانساب الماء فوق الذقن المسودّة. لكن القلب كان يدق: قـريبـاً من صدر الجـريح تساءل هو، على ركبتيه، إن كان سيظل يدق وقتاً طويلاً. فك المشبك الفضى الثقيل لحزام الجـريح وأدار له ظهـره. مـاذا يجـرى هناك فى الخارج؟ من سيكسب؟ نهض على قدميه وسـار إلى داخل الغابة، بعيداً عن الجريح.

سـار وهو يتحسس جسده، أحيـاناً يزيح الأغصـان المنخفضـة، لكنه يتحسس جسده على الدوام. لم يكن جريحـاً. لم يكن بحـاجة إلى العون. توقَّف بجوار عين ماء وملأ الزمزمية. كان جدولٌ صغير، ميتٌ قبل أن يولد، ينساب من عين الماء ليضيع خارج الغـابة، تحت الشمس. خلع سترته وفرك بكلتا يديه صدره، وإبطيه، والكتفين الملتهبتين، الجافتين، الخشنتين كالصنفرة، والعضلات الممدودة للذراعين، والجلد الزيتونى، الناعم، ذا الحراشف الصلبة. حال دونه الزَبَد: كان يودُّ النظر إلى نفسه منعكساً فى عين الماء. هذا الجسد ليس جسده: فقد منحته ريخينا ملكيةً أخرى: استحوذت عليه مع كل تربيتةٍ. لم يكن ملكه. كان ملكها أكثر منه. أن ينقذه من أجلها. لم يعودا يعيشان وحيدين ومعزولين؛ ها قد تحطمت جدران الإنفصال: لقد صارا إثنين وواحداً فقط، إلى الأبد. ستنقضى الثورة؛ ستنقضى القرى والحيوات، لكن هذا لن ينقضى. لقد أصبحت حياتها،

حياتهما. فرك وجهه. خرج إلى السهل من جديد.

كان موكب الثوريين قادماً من السهل صوب الغابة والجبل. كانوا يندفعون بسرعة بجواره بينما يهبط هو، فاقداً الإتجاه، صوب القرى المشتعلة. إستمع إلى رنين السياط فوق مؤخرات الخيول، وإلى الدوى الجاف لبعض البنادق وبقى وحيداً فى الأرض المنبسطة. هل كانوا يهربون؟ دار حول نفسه، رافعاً يديه إلى رأسه. لم يفهم. كان من الضرورى الإنطلاق من مكان، بمهمة واضحة، وعدم فقدان هذا الخيط الذهبى أبداً: بهذه الطريقة وحدها يمكن فهم ما يجرى. وتكفى لحظة واحدة من الشرود حتى يتحوَّل كلُّ شطرنج الحرب إلى لعبة غير معقولة، وغير مفهومة، من حركات ممزقة، فجائية، تفتقر إلى المعنى. هذه السحابة من الغبار... هذه الخيول الثائرة التى تتقدم عدْواً... هذا الفارس الذى يصيح ويهزُّ حديداً أبيض... هذا القطار المتوقف على مبعدة... هذه السحابة الترابية التى تقترب رويداً... هذه الشمس التى تصبح كل دقيقة أقرب إلى الرأس الذاهلة... هذا السيف الذى يمسح جبهته... هذا الموكب من الخيول الذى يمر بجواره ويلقيه على الأرض...

نهض وهو يربِّت على الجرح فى جبهته. لابد أن يلوذ بالغابة من جديد: فهى المكان الوحيد الآمن. ترنّح. أسالت الشمس نظرته وبخَّرت إلى فتات الأفقَ، والمرج الجاف، وحدود الجبال. حين بلغ الأشجار، تشبث بجذع شجرة؛ فك أزرار سترته ومزق كم قميصه. بصق فوقه وحمل الرطوبة إلى جبهته المقطوعة. لف قطعة القماش حول رأسه: الرأس التى شُجَّت حين دوَّت الأغصان الجافة إلى جانبه، تحت ثقل حذاء عسكرى مجهول. وأطلت النظرة المعذَّبة من بين الساقين القريبتين: كان الجندى من القوات الثورية وكان يحمل على ظهره جسداً آخر، جوالاً دامياً، مُحطَّماً، وذراعه مُتخثِّر.

ـ وجدته عند مدخل الغابة. كان يحتضر. نسفوا ذراعه، يا سيدى... يا سيدى الملازم.

زرَّ الجندى الطويل الصلب عينيه حتى تبيَّن الرتبة.

ـ أظنه مات منى. فهو ثقيل كميِّت.

أنزل الجسد وأسنده إلى الشجرة: نفس ما فعله هو منذ نصف ساعة، منذ خمس عشرة دقيقة. قرَّب الجندى وجهه من فم الجريح؛ وعاود هو التعرف على الفم المفتوح، والوجنتين البارزتين، والعينين المغمضتين.

ـ نعم. لقد مات. لو كنت قد وصلتُ منذ برهة، فربما كنت أنقذتُه.

أغلق عينى الميت بيده المربَّعة. وشبك المشبك الفضى وحين حنى رأسه قال من بين أسنانه البيضاء:

ـ اللعنة، يا سيدى الملازم. لو لم يكن فى العالم قلّةٌ من الشجعان مثل هذا، ماذا كان يمكن أن يكون حالنا نحن الباقين؟

أدار ظهره للجندى وللميت وعاود الجرى نحو السهل. كان ذلك أفضل. رغم أنه لم يكن يسمع ولا يرى شيئاً. رغم أن العالم كان يمر بجانبه مثل ظلٍّ مفتت. رغم أن كل أصوات الحرب والسلام ـ الطيور المغردة، الريح، العواء البعيد ـ المتواترة قد تحوَّلت إلى ذلك الطبل الوحيد، الأصمّ، الذى إبتلع كل الأصوات وإختزلها إلى حزن متجانس. تعثّر فى جسد ميتٍ. رجع إلى جواره، دون أن يدرى لماذا يفعل ذلك، لدقائق قليلة قبل أن يشق ذلك الصوت طريقاً لنفسه بين الدوىّ المُصمت لكل الأصوات.

ـ أيها الملازم... أيها الملازم كروث...

توقفت اليد فوق كتف الملازم؛ فرفع رأسه.

ـ أنت جريح جرحاً بليغاً، أيها الملازم. تعال معنا. هرب

الفيدراليون. واحتفظ خيمينث بمعقله. عد معنا إلى المعسكر في ريوهوندو. خاضت قوات الفرسان معركة كبرى؛ كأنهم تضاعفوا، حقاً. تعال. إنك لا تبدو بحالة جيدة.

تعلَّق بكتفى الضابط. وغمغم:

- إلى المعسكر. نعم، هيا بنا.

كان الخيط قد ضاع. الخيط الذى كان يتيح له أن يجوب، دون أن يتوه، متاهةَ الحرب. دون أن يتوه: دون أن يهرب. لم يكن يقوى على الإمساك باللجام. لكن الحصان مضى مربوطاً بسرج الرائد جابيلان، خلال ذلك السير البطئ عبر الجبل الذى يفصل سهل المعركة عن الوادى حيث تنتظره هى. خلَّف الخيط وراءه. وهناك إلى أسفل، لم تتغير قرية ريوهوندو: إنها نفس الدار ذات السقف القرميدى المكسور وجدران الطين النيء، الوردية، الضاربة إلى الحُمرة، البيضاء، المحاطة بنباتات الصبّار، التى تركها ذلك الصباح. ظن أنه تبيّن، بجوار شفتى الأخدود الخضراوين، الدار، النافذة حيث لابد أن ريخينا تنتظره.

كان جابيلان يَخُبُّ أمامه. وألقت ظلال الغروب خيال الجبل على الجسدين المتعبين للضابطين. توقف حصان الرائد برهة، فى إنتظار أن يلحق به حصان الملازم. قدّم له جابيلان سيجارة. وما أن إنطفأ اللهب، حتى عاود الحصانان الخبَبَ. لكنه كان قد رأى، وهو يشعل السيجارة، كلَّ الألم فى وجه الرائد وأحنى رأسه. هذا ما يستحقه. سيعرفون لابد حقيقة فراره خلال المعركة وسيحرمونه من رتبته. لكنهم لن يعرفوا الحقيقة بأكملها: لن يعرفوا أنه أراد إنقاذ نفسه حتى يعود إلى حب ريخينا، ولن يفهموا إذا شرح لهم. كذلك لن يعرفوا أنه تخلىّ عن ذلك الجندى الجريح، أنه كان يمكن أن يُنقِذ هذه الحياة. سيدفع حب ريخينا ثمن ذنب الجندى المتروك. لابد أن يكون الأمر على هذا النحو. خفض رأسه وأعتقد أنه يشعر بالعار لأول مرةٍ فى

حياته. العار: لم يكن هذا ما أطلّ من عينى الرائد جابيلان الرائقتين، المباشرتين. ربَّت الضابط بيده الخالية على لحية الشعر الأشقر، المعجونة بالتراب والشمس.

- نحن مدينون لك بحياتنا، أيها الملازم. أنت ورجالك أوقفتم التقدم. سيستقبلك الجنرال إستقبال الأبطال... يا أرتيميو... هل يمكن أن أدعوك أرتيميو؟

حاول الرائد الإبتسام. وضع يده الخالية فوق كتف الملازم وتابع، بابتسامة جافة:

- مضى وقت طويل ونحن نقاتل معاً وها أنت ترى، فنحن لا ننادى بعضنا حتى بأسمائنا الأولى.

بحث الرائد جابيلان بعينيه عن إجابة. هبط الليل بزجاجه الهيولى وانبثق آخر وميض خلف الجبال، التى أصبحت بعيدة، مختفيةً فى الظلام، منكمشة. وفىً المعسكر، إشتعلت نيران لا يمكن رؤيتها من بعيد فى الليل.

- إنهم كلاب - قال الرائد فجأةً بصوت حاد -. لقد دخلوا القرية بغتةً، حوالى الساعة الواحدة. بالطبع لم يستطيعوا الوصول إلى المعسكر. لكن إنتقموا من أحياء الضواحى؛ وأرتكبوا هناك أفعالهم. كانوا قد وعدوا بالإنتقام من كل القرى التى تساعدنا. أخذوا عشر رهائن وبعثوا يقولون أنهم سيشنقونهم إذا لم نسلِّم الموقع. فرد عليهم الجنرال بقذائف الهاون.

كانت الشوارع مليئة بالجنود والناس، بالكلاب الطليقة والأطفال، الطليقين مثل الكلاب، والذين يبكون أمام الأبواب. لم تكن بعض الحرائق قد خمدت بعد وكانت النساء جالسات فى منتصف الطريق فوق المراتب وكراسى الجريد التى أنقذنها.

- الملازم أرتيميو كروث - تمتم جابيلان منحنياً ليقترب من آذان

بعض الجنود.

- الملازم كروث - سرت همهمة الجنود إلى النساء.

أفسح الناس طريقاً للحصانين: حصان الرائد الرمادى، العصبى بين الحشد الذى يضغطه، وحصان الملازم الأسود، المنخفض الرأس، الذى يترك الآخر يقوده. إمتدت بعض الأيدى: كانوا رجال فصيل الفرسان الذى يقوده الملازم. ضغطوا على ساقه علامة التحية؛ أشاروا إلى جبهته حيث كان الدم قد صبغ القماش المربوط؛ غمغموا تهنئة صماء على النصر. عبروا القرية: فى العمق كان الأخدود ينحدر والأشجار تهتز فى نسيم الليل. رفع بصره: الدار البيضاء. بحث عن النافذة، كانت كل النوافذ مغلقة. كان وميض الشموع يضىء مداخل بعض البيوت. وكانت المجموعات السوداء، الملتفَّة بالعباءات، مُقعيَةً فى بعض المداخل.

- لا تفكُّوهم! - صاح الملازم أپاريثيو، من فوق حصانه، بينما يدفعه ليتحرك فى دوائر ويُزيح بسوطه الأيدى التى ترتفع ضارعةً -. فليظلوا محفورين فى أذهانكم جميعاً! فلتعرفوا جيداً ضد من نقاتل! إنهم يُجبرون رجالاً من القرية على قتل إخوانهم. إنظروا جيداً. هكذا قتلوا قبيلة هنود الياكى، لأنها لم تشأ أن ينتزعوا منها أراضيها. وكذلك قتلوا عمال ريوبلانكو وكانانيا، لأنهم لم يريدوا أن يموتوا جوعاً. وهكذا سيقتلوننا جميعاً إذا لم نحطِّم أولاد القحبة. إنظروا.

جال إصبع الملازم الشاب أپاريثيو بدغل الأشجار القريبة من الأخدود: كانت حبال الجوت، السيئة الصُنع، الخشنة، لا تزال تنتزع الدم من الأعناق؛ لكن العيون المفتوحة، والألسنة القرمزية، والأجساد الساكنة التى لا تكاد تهزها الريح التى تهبّ من سلسلة الجبال، كانت ميتة. وعلى إرتفاع النظرات - وبعضها تائه، والبعض الآخر حانق، وأغلبها نظرات عذبة، غير مُدرِكة، مليئة بألم هادئ - لم يكن ثمة سوى

صنادل هندية يكسوها الطين، والقدمان العاريتان لطفل، والحذاء الأسود لإمرأة. ترجل هو عن حصانه. إقترب. واحتضن الجونلة المُنَشَّاة لريخينا بصرخة مشروخة، بلغمية: بأول انتحاب له كرجل.

قاده أپاريثيو وجابيلان إلى غرفة الفتاة. أجبراه على الرقاد، وأبدلا له القماش القذر بضمادة، ونظّفا له الجرح. وحين خرجا، إحتضن الوسادة وأخفى وجهه. ودّ لو ينام، لا أكثر، وقال لنفسه سراً أن النوم ربما استطاع أن يُسوِّى بينهما، أن يوحدهما من جديد. إنتبه إلى أن ذلك مستحيل؛ إلى أنه الآن، فوق هذا الفراش ذى الناموسية المُصفرَّة، أمكنه أن يستشعر، بكثافةٍ تفوق كثافة الحضور، رائحة الشعر الندى، والجسد الأملس، والفخذين الدافئين. كانت حاضرةً هناك كما لم تكن أبداً فى الواقع، حيةً أكثر من أى وقت مضى على الإطلاق فى رأس الفتى المحمومة: إنها هى بدرجة أكبر، مِلكه بدرجة أكبر، الآن وهو يتذكرها. ربما، خلال شهور حبهما الوجيزة، لم ير أبداً جمال عينيها بكل هذه العاطفة، ولا استطاع أن يقارنهما، مثلما الآن، بتوائمهما المتألقة: الجواهر السوداء، البحر العميق الهادئ تحت الشمس، قاع الرمال التى تتأرجح فى الزمن، الكرزاتُ الداكنة لشجرة اللحمِ والأحشاءِ الساخنة. لم يقل لها ذلك أبداً. لم يتسع الوقت. لم يتسعِ الوقت ليقول لها أشياء كثيرة عن الحب. لم يتسعِ الوقت أبداً للكلمة الأخيرة. ربما لو أغمض عينيه لعادت هى مكتملةً لتحيا على التربيتات المتلهفة التى كانت تنبض فى أطراف أصابع الرجل. ربما كان يكفى أن يتخيلّها لينالها دوماً إلى جواره. من يدرى إن كانت الذاكرةُ قادرةً حقاً على إطالة أمد الأشياء، على تضفير السيقان، وفتح النوافذ عند الفجر، وتمشيط الشعر، وبعث الروائح، والأصوات، والملمس. نهض. وبحث متحسساً، فى الغرفة المظلمة، عن زجاجة المسكال*.

❖ mescal: مشروب روحى مكسيكى قوى يُستقطر من نبات الصبّار - م.

فجأة لم تعد تُفيد فى النسيان، كما يقول الجميع، بل فى إخراج الذكريات بسرعةٍ أكبر.

سيعود إلى صخور ذلك الشاطئ، بينما يشعل الكحول الأبيض ناراً فى معدته. سيعود. إلى أين؟ إلى ذلك الشاطئ الأسطورى، الذى لم يوجد أبداً؟ إلى تلك الأكذوبة للطفلة المعشوقة، إلى ذلك الإختلاق للقاء بجوار البحر، إخترعته هى حتى يشعر هو أنه نظيف، برىء، واثق من الحبٍ؟ طوّح قدح المسكال إلى الأرض. فى هذا تفيد الخمر، فى تبديد الأكاذيب. كانت أكذوبة جميلة.

" ـ أين تعارفنا؟

" ـ ألا تتذكر؟

" ـ قولى لى أنتِ؟

" ـ ألا تتذكر ذلك الشاطئ؟ كنت أذهب إلى هناك كل أصيل.

" ـ الآن أتذكر. رأيتِ إنعكاس وجهى بجوار وجهكِ.

" ـ تذكر هذا: ولم أعد أريد أبداً أن أرى نفسى دون إنعكاسك بجوار إنعكاسى.

" ـ نعم، أتذكر."

كان يجب عليه أن يُصدِّق تلك الكذبة الجميلة، دوماً، حتى النهاية. لم يكن مؤكَّداً: لم يكن هو قد دخل تلك القرية فى سينالوا مثلما دخل قرى كثيرة غيرها، باحثاً عن أول إمرأة تمر، غير مُحاذِرةٍ، عبر الشارع. لم يكن حقيقياً أن تلك الفتاة ذات الثمانية عشر عاماً قد حُمِلت بالقوة فوق حصان واغتُصِبت فى صمت فى عنبر النوم المشترك للضباط، بعيداً عن البحر، مُشيحةً بوجهها صوب سلسلة الجبال الشوكية والجافة. لم يكن مؤكداً أن إستقامة ريخينا قد غفرت له فى صمت: حين إستسلمت المقاومةُ للمتعة وأخذت الذراعان اللتان لم تلمسا رجلاً قط تلمسانه لأول مرةٍ ببهجة وأخذ الفم الرطب،

المفتوح، يردد فقط، مثل ليلة أمس، أن نعم، أن نعم، أن ذلك يروقها، أن ذلك معه يروقها، أنها تريد المزيد، أنها تخاف من هذه السعادة. ريخينا ذات النظرة الحالمة والمشتعلة. كيف قبلت حقيقة متعتها واعترفت بأنها عاشقة له؛ كيف إخترعت حكاية البحر والإنعكاس فى الماء الساكن من أجل نسيان ما يمكن أن يُخجله فيما بعد، عندما يحبها. إمرأة الحياة، ريخينا، المهرةُ الزاخرة بالطَعم، جنِّيةُ الدهشة الطاهرة، المرأةُ دون أعذار، دون كلمات تبرير. لم تعرف السَأم أبداً؛ لم تُثقِل عليه أبداً بشكاياتٍ مؤلمة. ستكون هناك دوماً، فى قريةٍ أو فى أخرى. ربما الآن على الفور سيتبدّد وهمُ جسدٍ خامدٍ معلق من حبل وهى... ستكون هى فى قرية أخرى. لقد تقدّمتهً فقطً. نعم: كالمعتاذ. خرجت دون إزعاج ومضت صوب الجنوب. إخترقت خطوط الفيدراليين ووجدت غرفةً صغيرةً فى القرية التالية. نعم؛ لأنها لا يمكن أن تحيا بدونه، ولا هو بدونها. نعم. الأمر كله الآن هو الخروج، أخذ الحصان، شهر المسدس، مواصلة الهجوم والعثور عليها فى الراحة التالية.

بحث فى الظلام عن السترة. وضع حزامى الطلقات متقاطعين حول صدره. فى الخارج، كان الحصان الأسود، الهادئ، مربوطاً إلى قائم. لم ينفصل الناس عن المشنوقين، لكنه لم يعد ينظر إلى ذلك الإتجاه. إمتطى حصانه وأسرع نحو المعسكر.

- إلى أين مضى أولاد القحبة هؤلاء؟ - صاح فى أحد جنود الحراسة بالمعسكر.

- إلى الجانب الآخر من الأخدود، يا قائدى. يُقال أنهم مُتَخَندِقون بجوار الجسر، فى إنتظار التعزيزات. أنهم يريدون الإستيلاء على هذه القرية مرةً أخرى. أُدخل، كُلّ شيئاً.

ترجّل. سار متمهلاً نحو نيران الفناء، حيث تتأرجح الأوانى

الفخارية فوق العصّى المتقاطعة وتتصاعد جلبةُ يدى إمرأةٍ تعجن كتلة الدقيق. غمس المغرفة فى حساء الكوارع الذى يغلى، إلتقط قضمةً من البصل، والفلفل الحار المطحون، والزعتر؛ مضغ الفطائر الشمالية، الصلبة، الطازجة؛ وأقدام الخنزير. كان حياً.

إنتزع من الحلقة الحديدية الصدئة الشعلةَ التى تضىء مدخل المعسكر. غرس المهمازين فى بطن الحصان الأسود: من كانوا لا يزالون يمشون فى الشارع جنحوا إلى جانب؛ حاول الحصانُ المندهش أن يجمح، لكنه هو شدّ قبضته على اللجام، وعاود غرس مهمازيه وأحس، فى النهاية، أن الحصان قد فهم. لم يعد حصان الرجل الجريح، الرجل المتشكك الذى عبر الجبل ذاك المساء. كان حصاناً آخرَ: فهم. هزّ عرْفه حتى يفهم هو: إنه الآن مَطِيَّةُ حرب، غاضبةٌ وسريعة مثل فارسها. ورفع الفارس الشعلة وأضاء، الأن، الحقول التى تحيط بالقرية لتؤدى إلى الجسر فوق الأخدود.

نارٌ أخرى كانت تضىء مدخل الجسر. كانت قبَّعات الزُعران تتضوأ بشحوب ضارب إلى الحُمرة. لكن حوافر الحصان الأسود كانت تستمدُّ كلَّ قوةِ الأرضِ، وتمضى منتزعةَ الأعشاب والتراب والشوك، تمضى مُخلِّفةً ذيلاً منَ الشرر المتناثر من الشعلة التى يمسكها الرجل الذى داهم موقع الجسر، وقفز فوق النار، وأطلق مسدسه على العيون المرعوبة، على الرقاب الداكنة، على الأجساد التى لم تفهم، التى أخذت تسحب المدافع إلى الوراء، التى لم تستطع فى الليل تبيُّنَ وحدة الفارس الذى يجب أن يصل إلى الجنوب، إلى القرية التالية، حيث ينتظرونه...

ـ أفسحوا طريقاً، يا زعران يا أبناء المُقرِفه! ـ تصيح الأصوات الألف لهذا الرجل.

صوت الألم والرغبة، صوت المسدس، الذراعُ التى تُوجِّهُ الشعلةَ إلى صناديق البارود وتجعل المدافع تنفجر وتجعل الخيول تهرب دون

فارس، وسط فوضى الصهيل والنداءات والإنفجارات التى تجدُ الآن صداها البعيد فى أصوات القرية الضائعة، فى الجرس الذى بدأ يدقّ فى برج الكنيسة الضارب إلى الحُمرة، فى نبض الأرض التى تدوسها حوافر الخيالة الثورية، التى تعبر الآن الجسر لتجد الدمار والفرار والنيران المطفأة، لكنها لا تجدُ لا الفيدراليين ولا الملازم، الذى يعدو بحصانه صوب الجنوب، رافعاً الشعلة، وعيون حصانه مشتعلةٌ: صوب الجنوب، والخيطُ فى يده، صوب الجنوب.

أنا نجوتُ. يا ريخينا. ماذا كان اسمك؟ لا. أنتِ ريخينا. ماذا كان أسمكَ أنتَ، أيها الجندى بلا إسم؟ نجوتُ. وأنتم متّم. أنا نجوتُ. آه، تركونى فى سلام. يظنوننى نائماً. تذكّرتُكِ، تذكرتُ إسمكِ. لكن أنت ليس لكَ اسم. وتتقدم الإثنتان نحوى، متشابكتى الأيدى، ومحاجرهما خاوية، معتقدتين أنهما ستُقنعانى، ستثيران تعاطفى. آه، لا. لست أدينُ بحياتى لكم. أدينُ بها لكبريائى، أتسمعوننى؟، أدينُ بها لكبريائى. تحدَّيتُ. تجاسرتُ. الفضائل؟ التواضع؟ البر؟ آه، يمكن العيش دون ذلك، يمكن العيش. ولا يمكن العيش بدون كبرياء. البر؟ من كانَ سيُفيدُ؟ التواضع؟ أنت، يا كاتالينا، ماذا كنتِ ستفعلين بتَواضعى؟ به كنتِ هزمتنى إحتقاراً، كنتِ هجرتِنى. أعرف أنك تغفرين لنفسك متخيِّلةَ قداسة هذا العهد المقدَّس. هأ. لو لم يكن من أجل ثروتى، ما

كان ليهمك أن تُطلَّقى. وأنت، يا تيريسا، إذا كنتِ تكرهيننى، تسُبِّيننى، رغم أنى أقيمُ أودَك، ماذا كنت ستفعلين وأنت تكرهيننى فى البؤس، وأنت تسُبِّيننى فى الفقر؟ تخيّلا نفسيكما دون كبريائى، أيتها الفريسيَّتان، تخيلا نفسيكما ضائعتين فى ذلك الحشد ذى الأقدام المتورِّمة، منتظرتين إلى الأبد سيارةَ نقل على كل نواصى المدينة، تخيلا نفسيكما ضائعتين فى ذلك الحشد ذى الأقدام المتورِّمة، تخيلا نفسيكما عاملتين فى متجر، فى مكتب، تدقان على الآلة الكاتبة، تلفّان طروداً، تخيلا نفسيكما تدخران لشراء سيارة بالتقسيط، تشعلان شموعاً للعذراء للإبقاء على الوهم، تدفعان أقساطاً شهرية لقطعة أرض، تتنهدان من أجل ثلاجة، تخيلا نفسيكما جالستين فى سينما الحى كل سبت، تأكلان السودانى، وتحاولان العثور على تاكسى عند الخروج، تتناولان الطعام فى الخارج مرةً واحدةً فى الشهر، تخيلا نفسيكما بكل التبريرات التى جنّبتكُما أنا إياها، تخيلا نفسيكما مضطرتين للهتاف أن المكسيك ليس لها مثيل لتشعرا أنكما على قيد الحياة، تخيلا نفسيكما مضطرتين للشعور بالفخر بعباءات الجبل* sa-rape وبكانتينفلاس** وبموسيقى عازفى الجيتار الجوّالين وباللحم الريفى المفروم المحمَّر لتشعرا أنكما على قيد الحياة، آه - آخ آى، تخيلا نفسيكما مضطرتين للإيمان حقاً بالنذور، والحج إلى المحاريب، وبفاعلية الصلاة حتى تبقيا على قيد الحياة.

- Domine, non sum dignus ... -

" - سلام. أولاً، يريدون إلغاء كل قروض البنوك الأمريكية

---

* دثار جبلى. نوع من البطانية، من الصوف المشغول فى الحواف بألوان زاهية، فى وسطه فتحة لإدخال الرأس - م.

** كانتينفلاس: شخصية سينمائية كوميدية يمثلها الممثل ماريو مورينو - م.

الشمالية لسكك حديد الباسيفيكى. أتعرف كم تدفع السكك الحديد سنوياً كفوائد على القروض؟ تسعة وثلاثين مليون بيسو. ثانياً، يريدون فصل كل مستشارى تطوير السكك الحديد. أتعرف كم نربح؟ عشرة ملايين فى السنة. ثالثاً، يريدون فصل كل من نُدير القروض الأمريكية الشمالية للسكك الحديد. أتعرف كم ربحتَ أنت وكم ربحتُ أنا العام الماضى...؟

" - Three million pesos each ...

" - بالضبط. ولا ينتهى الأمر عند هذا الحد. من فضلك أرسل برقية إلى الناشيونال فروتس إكسبريس بأن هؤلاء القادة الشيوعيين يريدون إلغاء تأجير العربات - الثلاجات التى تُدِرُّ على الشركة عشرين مليون بيسو سنوياً وتُدِرُّ علينا عمولةً جيدة - سلام".

هئ، هئ. شرحت ذلك شرحاً جيداً. يا حمقى. ماذا لو لم أدافع أنا عن مصالحكم، يا حمقى. أوه، أغربوا جميعاً، دعونى أسمع. لنرى إن كنتم ستفهمون. لنرى إن كنتم تفهمون ما تعنيه ذراع مطوية هكذا...

" - إجلسى، يا صغيرتى. الآن سأفرَغ لك. دياث: إحذر تماماً حتى لا يتسرب سطرٌ واحد حول قمع الشرطة لهؤلاء المشاغبين.

" - لكن يبدو أن هناك قتيلاً، يا سيدى. وفضلاً عن ذلك، جرى الأمر وسط البلد تماماً. سيكون من الصعب...

" - مطلقاً، مطلقاً. إنها أوامر عليا.

" - لكننى أعرف أن إحدى جرائد العمال ستنشر الخبر.

" - فيم تفكر إذن؟ ألا أدفع لك لتفكر؟ ألا يدفعون لك فى (مصدرك) لتفكر؟ أبلغ النيابة ليغلقوا هذه الصحيفة..."

ما أقلّ ما يلزمنى لكى أفكر. مجرد شرارة. شرارة تبعث الحياة فى هذه الشبكة المعقّدة، الضخمة. هناك آخرون يحتاجون إلى توليد كهربائى يمكن أن يقتلنى. أنا بحاجة إلى الإبحار فى مياه هائجة، إلى

إجراء مكالمات على مسافات بعيدة، إلى صد الأعداء. آه نعم. أدر هذا الجزء. لا يهمنى.

" ـ ماريا لويسا. هذا الـ خوان فيليپى كووتو، كالعادة، يريد أن يبدو ذكياً... هذا كل شىء، يا دياث... ناولينى كوب الماء، يا أمّورة. أقول: يريد أن يبدو ذكياً. مثلما كان الأمر مع فيديريكو روبلس، أتتذكرين؟ لكنه لن يستطيع معى...

" ـ متى، يا سيدى النقيب؟

" ـ حصل بمساعدتى على إمتياز إنشاء ذلك الطريق السريع فى سونورا. وساعدته أيضاً حتى يُصدِّقوا له على ميزانية أكبر بثلاث مرات من التكلفة الفعلية للعمل، على أساس تفاهم بأن الطريق سيمر عبر المناطق المرويّة التى أشتريتُها من المستفيدينً بالأراضى المشاع. وقد بلغنى للتو أن الناصح أشترى هو الآخر أراضيه فى تلك النواحى ويفكر فى تغيير مسار هذا الجزء من الطريق حتى يمر بممتلكاته...

" ـ يا له من خنزير! مع ما يبدو عليه من أدب.

" ـ إذن، يا حلوة، أنت تعرفين؛ ضعى بعض الشائعات فى عمودك تتحدث عن الطلاق الوشيك لرجلنا. بنعومة شديدة، حتى لا يرتعب منا.

" ـ لدينا أيضاً بعض الصور لكووتو فى كاباريه مع إمرأة شقراء حلوة ليست بالطبع مدام كووتو.

" ـ إحتفظى بها لتنفع إن لم يستجب..."

يُقالُ أن خلايا الإسفنجة لا يوحِّدها شىء ومع ذلك فالإسفنجة موحَّدة: هذا ما يقال، هذا ما أذكُره لأنهم يقولون أن الإسفنجة إذا تم حَكّها بعنف، فإن الإسفنجة المفتّتة تعود للتوحد، لا تفقد وحدتها أبداً، تبحث عن طريقة لتجميع خلاياها المتبعثرة من جديد، لا تموت أبداً.

آه، لا تموت أبداً.

ـ إنتظرتك هذا الصباح بابتهاج. لنعبر النهر على صهوة الجياد.
ـ أنت سيطرتَ عليه وانتزعته منى.

ينهض على قدميه بين الأصوات المحتجَّة للمرأتين ويأخذهما من ذراعيهما وأواصل أنا التفكير فى النجار ثم فى إبنه وفيما كنا سنوفِّره على أنفسنا لو تركوه طليقاً مع مندوبى علاقاته العامة الإثنى عشر، طليقاً كعنزة، يحيا على حكاية المعجزات، ويحصل على الوجبات مجاناً، وعلى الأَسِرَّة للنوم مجاناً ويجد مُداوُوه المقدّسون من يشاركهم فيها، حتى تهزمه الشيخوخة والنسيان وتجلس كاتالينا وتيريسا وخيراردو على المقاعد فى آخر المخدع. كم سيتأخرون فى إحضار قسيس، فى إستعجال موتى، فى إنتزاع الإعترافات منى؟ آه، يودّون لو يعرفوا. كم سأتسلىّ. كم كم. أنت، يا كاتالينا ستكونين قادرةً على أن تقولى لى ما لم تقوليه أبداً لإضعاف عزيمتى ومعرفة ذلك. آه، لكننى أعرف ما تودين معرفته. والوجه المسنون لإبنتك لا يخفيه. لن يتأخر فى الظهور هنا ذلك الشيطان التعِس للإستعلام، للتباكى، لمعرفة إن كان سيستطيع فى النهاية التمتُّع بكل هذا. آه، ما أسوأ ما يعرفوننى. يعتقدون أن ثروةً كهذه يمكن أن تتبدَّد بين ثلاثة مُهرِّجين، بين ثلاثة خفافيش لا يعرفون حتى الطيران؟ ثلاثة خفافيش دون أجنحة: ثلاثة فئران. إنهم يحطّون من قدرى. نعم. فهم لا يستطيعون تجنب الكراهية التى تتملك المتسوِّلين. إنهما تحتقران الجلود الثمينة التى تكسوهما، والمنازل التى تسكنانها، والجواهر التى تلمع، لأننى منحتهما إياها. لا. لا تلمسانى الآن...

ـ دعونى...
ـ لقد جاء خيراردو... خيرارديتو... زوج إبنتك... إنظر إليه.
ـ آه، الشيطان التعس...
ـ دون أرتيميو...

ـ ماما، لا أحتمل، لا أحتمل لا أحتمل!

ـ إنه مريض...

ـ أوف، سوف أنهض، سترون...

ـ قلت لكِ أنه كان يتظاهر.

ـ دعيه يستريح.

ـ أقول لكِ أنه يتظاهر! يختلقُ كما يفعل دائماً ليسخر منا كما يفعل دائماً كما يفعل دائماً.

ـ لا لا. الطبيب يقول...

ـ ماذا يعرف الطبيب. أنا أعرفه أفضل. إنها سخريةٌ أخرى.

ـ لا تقولي شيئاً!

لا تقولي شيئاً. ذلك الزيت. يمسحون بذلك الزيت على شفتّى. على جفنّى. على منخارىّ. لا تعرفان كم كلَّف ذلك. لم يكن عليهما أن تُقَرِّرا. على يدىّ. على الساقين الثلجيتين اللتين لم أعد أحسُّ بهما. لا تعرفان. لم يكن عليهما أن تخاطرا بكل شىء. على العينين. يفتحون ساقىّ ويمسحون بذلك الزيت على فخذىّ.

ـ Ego te absolvo

لا يعرفون. لم تتكلم هى. لم تقل.

أنت ستحيا واحداً وسبعين عاماً دون أن تنتبه: لن تتوقف

للتـفكيـر فى أن دمكَ يقـومُ بدورة، أن قلبكَ ينبض، أن غـدَّتك المرارية تُفرغ نفسها من سوائل لزجة، أن كَبدك يُفرز الصفراء، أن كليتك تنتج البول، أن بنكرياسـك ينظِّمَ السكر فى دمك: فلم تستـثر هذه الوظائف بتفكيرك: ستعرفُ أنك تتنفَّس لكنك لن تفكر فى الأمر لأنه لا يتوقف على تفكيـرك: ستـتجاهلُ وسـتحيـا: سيكون بإمكانك السيطرةُ على وظائفك، التظاهرُ بالموت، عبـورُ النار، تحمُّلُ فراش من نُتَف الزجاج: ببسـاطة، ستحيا وتترك الوظائف تتفاهم فيما بينهًا بنفسهـا. حتى اليوم. اليوم حين ستجبـرك الوظائفُ اللاإرادية على الإنتباه، ستسيطر عليكَ وستنتهى بأن تُدمِّر شخصيتك: ستفكر فى أنك تتنفس فى كلِّ مرةٍ يمرُّ فيها الهواء بصعوبة نحو رئتيك، ستفكر فى أن الدم يقوم بدورةٍ فى كل مرةٍ تنبض فيهـا شـرايين بطنك بهـذا الحضور المؤلم: ستهزمكَ لأنها ستجبركَ على الإنتباه للحياة بدل أن تحياها. إنتصار. ستحاولُ أن تتخيل الأمر - فالوضوح يبلغُ حداً يجبركَ على إدراك أتفه دبيب، كلِّ حركات الإنقباض، والإنفصال، وحتى أشدها رهبةً، حركة ما لم يعد يتحرك - وفى داخلك، فى أحشائك، سيكسو ذلك الغشاءُ اللزج تجويف بطنك وسينطوى حول الأمعاء، وإحدى طيّاته، تلك الطيّة النسيجية، الأوعية الدموية والليمفاوية التى تربطُ المعدةَ والأمعاء بجدران البطن، تلك الطيَّة من الخلايا البدينة، سيتوقفُ عن رَيِّها ذلك الشريانُ السميك لنهر دمك البطنى الذى يُغذِّى معدتك وأمعاءك البطنية، يخترقُ منبتَ الطيَّة ويهبط مائلاً إلى منبت الأمعاء الوسطى، بعد أن يكون قد سار خلف البنكرياس، مُفرِّعاً شرياناً آخر يروى ثُلثَ الإثنا عشر وجانبَ البنكرياس؛ ويخترقُ عابراً إثنا عشرك، وأورطاك، ووريدك الأجوف السفلى، وحالبك الأيمن، وعصبك التناسلى - الفخذى، وأوردة خصيتيك. هذا الشريان سيجرى، مُخضّباً، سميكاً، لحيماً، طوال واحدٍ وسبعين عاماً، دون أن تعرف. واليوم ستعرف. لأنه

سيتوقَّف. المجرى سيجفُّ. طوال واحدٍ وسبعين عاماً سيبذلُ هذا الشريان جهداً مضنياً: فَخلال مسار هبوطه، ثمة لحظة يكون عليه فيها، وهو مضغوطٌ بجزءٍ من عمودك الفقرى، أن يتقدم، فى نفس الآن، إلى أسفل، وإلى الأمام، وإلى الوراء بحدَّةٍ مرة أخرى. طوال واحدٍ وسبعين عاماً سيمر شريانك المساريقى بهذا الإختبار، بهذه القفزةً القاتلة. واليوم لن يعود يستطيع. اليوم لن يقاوم الضغط. اليوم، فى حركة المكبس السريعة إلى أسفل، وإلى الأمام، وإلى الوراء، سيتوقَّفُ، مُختلجاً، مُتَلَبِّكاً، مُستنفَداً، كتلةً من الدم المشلول، صخرةً قرمزيةً ستعوقُ أمعاءك: ستُحسُّ هذا الدبيبَ للضغط المتزايد، ستحسُّه: إنه دمك الذى يتوقف لأول مرةٍ، الذى لن يبلغ ضِفَّة حياتك هذه المرة، يتوقفُ ليتجمَّد داخل حرارة أمعائك، يتعفن، راكداً، دون أن يكون قد بلغَ ضفَّة حياتك:

وعندئذ ستقترب منك كاتالينا، ستسألك إن كانت تُقدِّم لكَ شيئاً، لكَ يا من لا تستطيع سوى الإلتفاتَ إلى ألمك المتصاعد، محاولةَ طرده بالرغبة فى النوم، فى الراحة، بينما لا تستطيع كاتالينا تجنُّبَ تلك الإيماءة، تلك اليد الممدودة التى ستسحبها على الفور، خائفةً، لتَضُمَّها إلى اليد الأخرى فوق ثديَى العقيلة المحترمة، لتفصلها من جديد، وتُقرِّبها، هذه المرة، مرتجفةً، من جبهتك: ستُربِّتُ جبهتك ولن تنتبه أنت، ضائعاً فى التركُّز الحاد للألم، لن تنتبه إلى أن كاتالينا لأول مرةٍ خلال عقودٍ طويلة تُقرِّبُ يدها من جبهتك، تربتُ جبهتك، تزيح الخصلات البيضاء، المضمَّخة بالعرق، التى تغطيها وتُعاودُ تربيتها، بخوفٍ مُمتَن، فى النهاية، لأن الرقة قد هزمته، برقة خجلانة من نفسها، بخجلٍ يبدو فى النهاية أنه قد خفَّفه اليقينَ بأنك لاً تنتبه إلى أنها تربِّتُ عليك، وربما تنقل لك بأصابعها، على جبهتك، بضع كلماتٍ تُريدُ أن تمتزجَ بتلك الذكرى

التى لا تكفُّ عن التدفق داخلك، ضائعةً فى قاع هذه الساعات، لا واعيةً، غريبةً عن إرادتك لكنها مصهورةٌ فى ذاكرتك اللاإرادية، تلك التى تنساب بين ومضات ألمك وتُكرِّرُ لك، الآن، الكلمات التى لم تستمع إليها حينذاك. هى أيضاً ستفكر فى كبريائها. وهنالك ستولد الشرَارة. هنالك ستستمعُ أنت إليها، فى تلك المرآة المشتركة، فى تلك البركة التى ستعكس وجهيكما، التى ستُغرقُكما حين تحاولان تقبيل بعضكما، فى الانعكاس السائل لوجهيكما: لماذا لا تنظر إلى جانبكَ؟؛ هنالك ستكون كاتالينا بشحمها ولحمها؛ لماذا تُحاولُ تقبيلها فى الإنعكاس البارد للماء؟ لماذا لا تُقرِّبُ هى وجهها إلى وجهكَ، لماذا، مثلكَ، تُغرقُه فى المياه الراكدة وتكرِّرُ لك، الآن، وأنت لا تسمعها، "تركتُ نفسى أنساق"؟ ربما تُحدِّثُكَ يدُها عن حرية مفرطة تهزم الحرية. الحريةُ التى تُشيِّدُ بُرجاً لا نهاية له، لا يبلغُ السماءَ، لكنه يُطوِّق الهاوية، يُحطِّم الأرض: ستُسمِّيها: إنفصال: سترفضها: كبرياء: ستنجو، يا أرتيميو كروث: ستنجو لأنك ستُعرِّض نفسَك للخطر: ستُعرِّض نفسَك لخطر الحرية: ستهزمُ الخطر، ودون أعداء، ستتحولُ إلى عدو لنفسك حتى تُواصلَ معركة الكبرياء: بعد أن هُزم الجميع، لن يتبقىً أمامك سوى أن تهزم نفسك: سيخرجُ عدُوُّك من المرآة ليشُنَّ المعركة الأخيرة: الحورية المُعادية، الحورية ذات النَفَس الثقيل، إبنة الآلهة، أم التيس المُغوى، أم الإله الوحيد الميت فى زمن البشر: من المرآة ستخرج أمّ الإله الكبير پان، حورية الكبرياء، نظيرتُك، ومرةً أخرى نظيرتك: عدوك الأخير، فى الأرض الخاوية لمن هزمهم كبرياؤك: ستنجو: ستكتشف أن الفضيلة هى مجرد شىء مرغوب، لكن الكبرياء هو مجرد شىء ضرورى: ورغم ذلك، فإن تلك اليد التى تربت جبهتك فى هذه اللحظة ستتمكن فى النهاية، بصوتها الضئيل، من إسكات صرخة التحدِّيات، من تذكيركَ أنه فى

النهـاية، ولو كـان ذلك فى النهـاية، فـإن الكبـرياء زائد عن الحـاجـة والتواضع ضـرورى: ستلمس أصـابعُهـا الشـاحبـة جبهتَك المحمومـة، سـتـودُّ تهـدئة الملك، سـتـودُّ أن تقـول لك اليـوم مـا لـم تقله منذ ثلاثةٍ وأربعين عاماً:

(١٩٢٤: ٣ يونيو)

هـو من لم يستمع إليها وهى تقول، حين استيقظت من أرقها، "تركتُ نفسى أنساق". وهى مستلقية إلى جواره. كان شعرها الكستنائى يغطى وجهها وفى كل طيّات جسدها أحسَّت بتلك الرطوبةِ المتعَبة، إرهاقِ الصيفِ ذاك. مرَّت بيدها على فمها وتوقَّعت النهارَ الجديد ذا الشَمس العَمودية، وهطول المطر فى المساء، والإنتقال الليلى من القيظ الخانق إلى البرودة المنعشة ولم تُرِد تذكُّر ما جرى خلال الليل. أخفت وجهها فى الوسادة وكرَّرت: ـ تركتُ نفسى أنساق.

محا الفجرُ ريشَ الليل ودخلَ، بارداً وصافياً، من نافذة المخدع الموَاربة. حدَّد من جديدٍ التفاصيل التى كانت الظلمةُ قد مَزَجَتها فى عناق واحد.

"أنا شابة؛ لى الحق..."

إرتدت قميص النوم وهربت من جانب الرجل قبل أن ترتفع الشمس إلى خط الجبال.

"لى الحق؛ لقد باركته الكنيسة."

الآن، من نافذة مخدعها، رأت الشمس تتوِّج قمة ثيتلالتيپتل* البعيدة. هدهدت الطفل بين ذراعيها وبقيت بجوار النافذة.

"آه، يا له من وهن؛ دائماً عند الاستيقاظ، هذا الوهن، هذه الكراهية، هذا الإحتقار الذى لا أكف عن الشعور به..."

إلتقت نظرتها بنظرة ذلك الهندى المبتسم الذى كان يعبر حاجز البستان، فخلع قبعة الخوص وأحنى رأسه...

"حين أستيقظ وأنظر إلى جسده النائم بجوارى..."

لمعت أسنانه البيضاء، خصوصاً حين إقترب هو.

"هل يحبنى حقاً؟"

أدخل السيِّدُ قميصه فى بنطلونه الضيق وأدار الهندى ظهره لنافذة المرأة.

"ها قد مرت خمس سنوات..."

أدارت ظهرها للحقول.

- ماذا أتى بك مبكراً هكذا، يا بنتورا؟

- جئتُ تقوُدنى أذناى. هل تسمح لى بأن أملأ القرعة**؟

- هل كل شىء جاهز فى القرية؟

أومأ بنتورا موافقاً؛ سار حتى البركة؛ غمس القرعة فى الماء؛ رشف جرعة؛ وعاود ملأها.

"ربما نسى هو أسباب زواجنا..."

---

* Citlaltépetl: قمة بركانية فى سلسلة جبال السييرامادرى الشرقية. هى الأعلى فى المكسيك (٥٧٠٠ متر) عادةً ما يغطيها الجليد. تسمى أيضاً قمة أوريثابا ORIZABA - م.

** guaje: قرعة جافة تستخدم كالدلو فى ملء المياة - م.

ـ وماذا تقول لك أذناك؟
ـ أن العجوز دون بيثارّو لا يطيق رؤيتك.
ـ أعرف هذا.
ـ وتقول أذناى أنه سينتهز فرصة فوضى اليوم الأحد لينتقم...
"... والآن يحبنى حقاً..."
ـ بارك الله فى أذنيك، يا بنتورا.
ـ بارك الله فى أمىّ التى علَّمتنى أن أجعلهما دائماً نظيفتين دون إتساخ.
ـ أنت تعرف ما يجب عمله.
"... يحبنى أنا ويُعجب بجمالى..."

ضحك الهندى دون صوت، ربَّت حواف قبعته الممزقة ونظر إلى الشرفة المغطاة بتعريشةٍ من القرميد، حيث كانت تلك المرأة الجميلة قد جلست فوق الكرسى الهزاز.

"... بعاطفتى..."

تذكّرها بنتورا، منذ أعوام، جالسةً هناك دائماً، أحياناً تكون بطنُها مستديرة وضخمة، وأحياناً ممشوقةً وصامتة، غريبة دائماً عن جلبة العربات المحمّلة عن آخرها بالحبوب، عن خوار الثيران التى يجرى وسمها بالحديد، عن السقوط الجاف لثمار الزعرور خلال الصيف فى البستان الذى زرعه السيد الجديد حول المنزل الريفى.

"... بما أنا عليه..."

كانت هى تراقب الرجلين. تراقب بنظرة أرنب يقيس المسافة التى تفصله عن الذئاب. كان موت دون جماليِيل قدً عرَّاها، بغتةً، من دفاعاتها المتكبِّرة خلال الشهور الأولى: مثَّل الأب إستمراراً للنظام وللتراتُبات وعلى الفور برَّر الحملُ الأولُ التباعدَ، والحياء، والتحذيرات.

"يا إلهى، لماذا لا أستطيع أن أكون نفس الشخص بالليل مثلما بالنهار؟"

أما هو، فحين أدار وجهه ليتابع نظرة الهندى، وجد وجه إمرأته الساكن وفكّر أنه خلال هذه السنين الأولى لم يكن يعبأ ببرودتها. فهو نفسه كان يفتقر إلى الإرادة لرعاية هذا العالم، هذا العالم الثانوى لما لم يفرغ من استيعابه، من تشكيله، من العثور على اسمه، من الإحساس به قبل أن يُسمِّيه.

"... بالليل مثلما بالنهار؟..."

عالمٌ آخر، أشد إلحاحاً، كان يشغله.

(" ـ السيد الحكومة لا يهتم بنا، سنيور أرتيميو، لهذا جئنا نطلب منك أن تساعدنا.

" ـ أنا موجودٌ لهذا، يا فتيان. ستنالون طريقكم المحلى، أعدكم بذلك، لكن بشرط: ألاّ تعودوا تحملوا محاصيلكم إلى طاحونة دون كاستولو بيثارّو. ألا ترون أن هذا العجوز يرفض أن يوزع حتى قطعة أرض. لا تُحابوه. أحضروا كل المحصول إلى طاحونتى ودعونى أنا أطرح المحاصيل فى السوق.

" ـ عندك حق، لكن دون بيثارّو سيقتلنا لو فعلنا هذا.

" ـ بنتورا: وزّع بنادقك على الفتيان حتى يتَعَلموا الدفاع عن أنفسهم.")

تأرجحت هى ببطء. تذكّرت، أحصت أياماً وأحياناً شهوراً لم تتفوّه خلالها ببنت شفةً. "لم يؤنبنى هو أبداً على البرودة التى أعامله بها أثناء النهار."

بدا أن كل شىء يتحرك دون مشاركتها والرجل القوى الذى يترجّل وأصابعه متصلبةٌ وجبهته مجعَّدةٌ من الغبار والعرق كان يمر متجاهلاً والسوط بين يديه ليلقى بنفسه فى الفراش كى يعاود

الاستيقاظ قبل الشمس ويقطع، فى كل الأيام، جولة الإرهاق الطويلة على طول الأراضى التى يجب أن تنتج، أن تربح: أن تكون، عن وعى، نقطة إنطلاقه.

" يبدو أنه يكتفى بهذه العاطفة التى أقَبلُه بها أثناء الليل".

أراضى الذُرة، فى الوادى الضيق المرويّ الذى يُطوِّق المنطقة المركزية للضياع: ضياع برنال، ولاباستيدا، وبيثارّو؛ وعلى مسافةٍ أبعد أراضى الصبار الأمريكى والخمر التى تُقطِّرُ من نسغه، حيث يبدأ الصخر مرة أخرى.

(" ـ هل هناك إحتجاجات، يا بنتورا؟

" ـ إنهم يُخفونها، يا سيدى، لأنهم الآن برغم كل شىء أفضل مما كانوا من قبل. لكنهم يلاحظون أنك لم توزِّع سوى أراضٍ موسمية واحتفظت بالأراضى المروية.

" ـ وماذا أيضاً؟

" ـ أنك تواصل تحصيل فوائد على ما تقرضه، تماماً مثل دون جماليل من قبل.

" ـ أنظر، يا بنتورا. إذهب وأوضح لهم أن الفوائد المرتفعة حقاً أتقاضاها من اللاتيفونديين* من أمثال هذا البيثارّو ومن التجار. والآن، إذا كانوا يحسون بأن قروضى تؤلمهم، فسوف أوقفها. كنت أظن أننى أقدّم لهم خدمة...

" ـ لا، إلاّ هذا...

" ـ إحكِ لهم أننى خلال وقت قصير سأتقاضى الرهونات من بيثارّو وعندئذ سوف أسلمهم الأراضى المروية التى أنتزعها من

---

* اللاتيفونديا: هى المزرعة الضخمة ـ م.

العجوز. قل لهم أن يصمدوا ويثقوا بى، وسوف يرون".)
كان رجلاً.
"لكن ذلك الإرهاق، وذلك الإنشغال باعداه. أنا لم أطلب ذلك الحب المتعجِّل الذى كان يمنحنى إياه من مساءٍ لمساء."
أمَّا دون جماليل، عاشق المجتمع، والنزهات ووسائل الراحة فى مدينة پويبلا، فنسى البيت الريفى وترك زوج إبنته يدير كل شىءٍ كما يحلو له.
"قبلتُ الأمر كما أراد. أبى. هو الذى طلب منى ألاّ أقبل شكوكاً ولا تبريرات. كان قد تم شرائى وتوجَّب علىّ أن أبقى هنا..."
لكن بينما كان أبوها حياً وكان يمكنها، كل خمسة عشر يوماً، أن تسافر إلى پويبلا وتقضى النهار إلى جانبه، تملأ الخِزانات بأنواع الحلوى والجبن المفضَّلة، تؤدى معه فرائض معبد القديس سان فرنسيسكو، تركع أمام مومياء المُتَنَيِّح المبارك سباستيان دى أپاريثيو، تذرع سوق پاريان، وتتجول فى ميدان الإستعراضات، ترسم علامة الصليب على أجران الماء المقدّس الحجرية الضخمة للكاتدرائية المبنية بأسلوب هيريرا* أو تنظر فقط إلى أبيها وهو يجئ ويروح فى مكتبة الفِناء...
"آه نعم، كيف لا، كان هو يحمينى، كان يساندنى".
... لم تكن أسبابُ حياةٍ أفضل قد ضاعت تماماً وكان للعالم الأليف والمحبوب، لسنوات الطفولة، واقعٌ كافٍ يتيح لها العودة إلى الريف، إلى الزوج، دون أسى.
"دون صوت ودون توجُّه، مُشتراه، شاهدةً صامتةً عليه".

---

* هيرّيرا (خوان دى) (١٥٣٠ ـ ١٥٩٧) أهم ممثل لأسلوب النهضة الإسبانية. يتميز أسلوبه بعظمة وتقشف. كلفه الملك فيليپى الثانى بإتمام بناء الإسكوريال ـ م.

كان يمكنها أن تتخيل نفسها كزائرةٍ عابرة فى ذلك العالم الغريب، الذى أقامه زوجها بدءاً من الطين.

كانت تملك عالمها الحقيقى فى الفناء الظليل فى پوييلا، فى مُتع الكتان الغضّ المفروش على مائدة خشب الماهوجنى، فى ملمس الأوانى الملونة يدوياً وفى أدوات المائدة الفضية، فى الرائحة.

"... رائحة الكمثرى المقطّعة إلى شرائح، والسفرجل، ومربى الخوخ..."

(" ـ أعرف أنك جلبت الخراب على دون ليون لاباستيدا. فتلك الدور الثلاثة فى پوييلا تساوى ثروة.

" ـ أنت ترى، يا پيثارّو. لاباستيدا يطلب ويطلب قروضاً، دون أن تهمه الفوائد. هو بنفسه جدل الحبل لمشنقته.

" ـ لابد أنك تتمتع وأنت ترى كيف تتهاوى الكبرياءات القديمة. لكنك لن تستطيع معى. فلست متأنقاً ريفياً مثل لاباستيدا ذاك.

" ـ أنت تفى بالتزاماتك فى موعدها فلا تستبق ما يمكن أن يحدث.

" ـ أنا لا يقودنى إلى الإفلاس أحد، يا كروث، وأقسم لك على ذلك بهذه.")

شعر دون جماليل بدنوّ الموت وأعدّ بنفسه طقوس جنازته بالتفصيل وببذخ. ولم يستطع زوج الإبنة أن يمنع عنه الألف بيسو الرنانة التى طلبها العجوز. أخذ البرد المزمن يشتدّ، مثل فقاعةٍ من زجاج يغلى موضوعةٍ فى الشمس وسرعان من إنسدّ صدره ولم تستطع رئتاه الحصول على هواء سوى ذلك الخيط الرفيع، البارد، الذى يفلح فى التسرُّب خلال شقوق كتلةٍ من البلغم، والتهيُّج، والدم.

"آه نعم، موضوعاً للذّة عابرة."

أمر العجوز بعربةٍ مطليةٍ بالفضة، مكسوَّةٍ بطيلسانٍ من المخمّل

الأسود وتجرّها ثمانية خيول يجب أن تتلألأ بأعنّةٍ من الفضة وغُرَّةٍ من الريش الأسود فوق قمة رأسها. وجعلهم يقتادونه فى كرسى بعجل حتى شرفة القاعة بينما العربة والخيول بكل عُدَّتها تمرّ، المَرَّة تلو المرَّة، فى الشارع أمام نظرته المحمومة.

"أمٌّ؟ يا لها من ولادة دون بهجة، ودون ألم."

قال للزوجة الشابة أن تُخرج الشمعدانات الذهبية الأربعة الضخمة من الشترينة وأن تُلمِّعها: إذ يجب أن تُحيط به فى طقس السهر على الجثمان مثلما فى قداس الجسد المُسجّى. ورجاها أن تحلق له بنفسها، لأن الذقن تظل تنمو خلال ساعات عديدة: العنقَ والوجنتين فقط، وأن تمر بالمقص قليلاً على طرف الذقن وعلى الشارب. أن تُلبِسه الصديرى الضيّق والبذلة الفراك وأن تعطى الكلبَ سُمّاً.

"ساكنةً وخرساء؛ بدافع الكبرياء."

أورث الإبنة ممتلكاته وعيَّن زوج إبنته مستفيداً ومديراً لها. لم يذكره سوى فى الوصية. أما هى فعاملها، أكثر من أى وقت مضى، بإعتبارها الطفلة التى كبرت إلى جواره ولم يتحدث أبداً عن موت الإبن، ولا عن تلك الزيارة، الأولى. بدا أن الموت هو المناسبة لإبعاد كل تلك الأحداث بورع ولاستعادة العالمِ المفقود، فى فعل أخير.

"هل لى الحقّ فى تدمير حبه، إذا كان حبه حقيًقياً؟"

قبل يومين من موته، ترك الكرسى المتحرك واستلقى فى الفراش. ومضطجعاً على كومة من الوسائد، إحتفظ بوضعه الأنيق والمنتصب، وبجانب وجهه الحريرى الحاد الملامح. أحياناً كان يمدّ يده ليتأكد من قرب إبنته. وكان الكلب يزوم تحت الفراش. وفى النهاية، إنفتحت الشفتان الرفيعتان فى إختلاجة فزع ولم تعد اليد تستطيع أن تمتد. فبقيت فوق الصدر الساكن. بقيت هى هناك، تتأمل تلك اليد.

كانت أول مرة تشهد فيها حضور الموت. فقد ماتت أمها وهى صغيرةٌ جداً. ومات جونثالوا بعيداً.

"إنه، إذن، ذلك الهدوء الشديد القرب، تلك اليد التى لا تتحرك."

عائلاتٌ قليلة جداً هى التى رافقت العربة الفارهة فى مسارها نحو معبد سان فرنثيسكو أولاً ثم إلى جبّانة التل بعد ذلك. ربما كانوا يخشون الإلتقاء به. وأمر زوجها بتأجير منزل پوييبلا.

"يا للوحشة، هذه المرّة. لم يكن الطفل كافياً. لم يكف لورنثو. أخذت أفكر فيما كان يمكن أن تكون عليه حياتى إلى جانب ذلك الآخر، الذى لم أره إلاّ من وراء قضبان النافذة؛ فى الحياة التى حال دونها هذا.

(" ـ ها هو پيثارّو العجوز يظل طول اليوم جالساً أمام منزل ضيعته، وبين يديه بندقية. لم يتبقّ له سوى منزل الضيعة.

" ـ نعم، يا بنتورا. لم يتبقّ له سوى منزل الضيعة.

" ـ كذلك تبقّى معه بعض الفتيان الذين يقال أنهم شجعان وهم مخلصون له حتى الموت.

" ـ نعم، يا بنتورا. لا تنسَ وجوههم.")

ذات ليلة إنتبهت هى إلى أنها تتجسّس عليه رغم إرادتها. دون أن تشعر، أخذت تنسى تلك اللامبالاه الخالية من الإعزاز لسنواتها الأولى لتبدأ فى البحث، خلال ساعات الأصيل الرمادية، عن نظرة زوجها، عن الحركات المتأنية للرجل الذى يفرد ساقيه فوق المقعد الجلدى أو ينحنى ليشعل المدفأة القديمة خلال ساعات الريف الباردة.

"آه، لابد أنها كانت نظرةً واهنة، مليئةً بالإشفاق على نفسى، تطلبُ نظرته؛ قلقةً، نعم، لأننى لم أستطع السيطرة على الحزن وقلة الحيلة اللذين تركنى فيهما ذلك الموت. واعتقدت أن هذا القلق كان

يخصُّنى وحدى..."

لم تتنبه إلى أنه، فى نفس الوقت، بدأ رجل جديد فى مراقبتها بعيون جديدة يملؤها الإسترخاء والثقة، كأنه يوّد أن يجعلها تدرك أن الأوقاتَ الصعبة قد إنقضت.

(" ـ الآن، يقولون جميعاً متى ستوزِّع عليهم أراضى دون پيثارّو.

" ـ قل لهم أن يصمدوا. ألا يرون أن پيثارّو لم يستسلم تماماً؟ قل لهم أن يصمدوا ببنادقهم إن تجاسر العجوز على الشجار معى. وحين تهدأ الأمور، سأوزع عليهم الأراضى.

" ـ أنا أحفظ سرَّك. فأنا أعلم أنك أخذت تبيع أراضى دون پيثارّو الجيدة لبعض المستوطنين مقابل قطع أرض هناك فى پويبلا.

" ـ الملاّك الصغار سيتيحون عملاً للفلاحين كذلك، يا بنتورا. هيا، خذ هذا وابق هادئاً...

" ـ شكراً، دون أرتيميو. أنت تعرف أننى...").

وأن رجلاً جديداً بدأ الآن، بعد أن تم إرساء أسس الرفاهية، مستعداً لأن يبيِّن لها أن قوته تُفيد أيضاً فى أفعال السعادة. وليلة أن توقفت تلك النظرات، أخيراً، لتمنحها لحظةً من الإهتمام الصامت، فكرت هى لأول مرةٍ منذ زمن طويل فى تصفيف شعرها ورفعت يداً إلى رقبتها ذات الشعر الكستنائى.

"... بينما يبتسم هو لى، وهو واقفٌ بجوار المدفأة، بهذا، بما يشبه البراءة... هل لى الحق فى أن أنكر على نفسى سعادةً محتملة...؟"

(" ـ قل لهم أن يُعيدوا إلىّ البنادق. يا بنتورا. فلم تعد تلزمهم. الآن يملك كلُّ واحدٍ قطعة أرضه والمساحات الكبرى مِلكى أو ملك من هم تحت حمايتى. لم يعد لديهم ما يخشونه.

ـ كيف لا، يا سيدى. إنهم راضون وممتنّون لعونك. البعض كانوا

يحلمون بأكثر من ذلك، لكنهم الآن راضون مرة أخرى ويقولون أن هذا أفضل من لا شيء.

" ـ إختر نحو عشرة أو إثنى عشر من أشدهم فتّوةً وأعطهم البنادق. لا نوّد أن يكون هناك ساخطون من جانب أو آخر.")

"بعدها شعرتُ بالحنق. تركت نفسى أنساق... وراقنى ذلك. يا للعار".

رغب فى أن يمحو ذكرى أصل الحكاية ويجعلها تحبه دون ذكريات عن الفعل الذى أجبرها على الزواج منه. ممدَّداً إلى جانب زوجته، كان يرجو فى صمت ـ هذا ما عرفته ـ أن تكون الأصابع المتشابكة فى تلك الساعة أكثر من مجرد إستجابةٍ لحظية.

"ربما مع ذاك الآخر كنت سأشعر بما هوً أكثر؛ لا أدرى؛ فلم أعرف سوى فعل الحب مع زوجى؛ آه، ذلك الفعل الذى يمنحه بعاطفةٍ مُتطلِّبة، كأنه لن يستطيع الحياة لحظة أخرى دون أن يعرف أننى أبادله الشعور..."

كان يوبِّخ نفسه مُفكِّراً فى أن المظاهر تقدِّم برهاناً فى غير صالحه. كيف يجعلها تصدِّق أنه قد أحبها منذ اللحظة التى رآها فيها تعبر أحد شوارع پويبلا، قبل أن يعرف من هى؟

"لكننا حين ننفصل، حين ننام، حين نبدأ فى أن نحيا يوماً جديداً، أفتقر إلى ذاك، إلى الإيماءات، إلى التصرُّفات التى يمكن أن تطيل فى الحياة النهارية حبَّ الليلِ ذاك."

كان بإمكانه أن يقول لها ذلك، لكن أى إيضاح سيجبره بالضرورة على إيضاح آخر وستؤدى كل الإيضاحات إلى يوم ومكان محدَّدين، إلى سجن، فى إحدى ليالى أكتوبر. كان يودُّ تجنب تلك العودة؛ وعرف أنه كى يحقق ذلك كان بإمكانه فقط أن يجعلها ملكه دون كلمات؛ قال لنفسه أن اللحم والرقة سيتحدثان دون كلمات. حينئذ، ساوره شكٌ

جديد. هل ستفهم هذه الفتاة كل ما يود قوله لها حين يأخذها بين ذراعيه؟ هل ستعرف كيف تُقدِّر غرض الرقة؟ ألم تكن إستجابتها الجنسية مفرطةً فى المبالغَة، ومُقلَّدةً، ومكتسبَةً بالتعلُّم؟ ألا يضيعُ فى هذا التمثُّل اللاإرادى للمرأة أىُّ وعدٍ بالتفاهم الحقيقى؟

" - ربما كان خجلاً. ربما كانَ رغبةً فى أن يكون هذا الحب فى الظلام إستثنائياً، حقاً."

لكنه لم يجرؤ على السؤال، على الكلام. كان واثقاً أن الحقائق ستفرض نفسها فى النهاية؛ العادة، والقدرية، والضرورة أيضاً. إلى أين يمكنها أن تنظر؟ إن مستقبلها الوحيد هو إلى جانبه. ربما ينتهى الأمر بهذه البديهية إلى أن تجعلها تنسى ذلك الأمر الآخر، مسألة المبتدأ. كان ينام بجوار إمرأته بهذه الرغبة، التى صارت حلماً.

"وأنا أطلب الصفح لأننى نسيت فى اللذة أسباب حنقى... يا إلهى، كيف يمكن أن أستجيب لهذه القوة، لبريق هاتين العينين الخضراوين؟ ماذا يمكن أن تكون قوتى، حين يأخذنى هذا الجسد المتوحش، الرقيق، بين ذراعيه ولا يطلب منى إذناً، ولا صفحاً عما يمكننى أن أواجهه به... آه، ليس لهذا إسم؛ الأشياء تحدث قبل أن يمكن إعطاؤها إسماً..."

(" - هناك الكثير من الصمت هذه الليلة، يا كاتالينا... هل تخشين أن تكسريه؟ هل يقول لك شيئاً؟

" - لا... لا تتكلم.

" - إنك لا تطلبين منى شيئاً أبداً. أودّ لو أنك أحياناً...

" - أتركك تتكلم. تعرفُ - الأشياء - التى...

" - نعم. ليس من الضرورى الكلام. أنت تروقيننى، تروقيننى... لم أظن أبداً...")

ستترك نفسها تنساق. ستتركه يحبها؛ لكنها حين تستيقظ

ستعاود تذكر كل شىء وتعارض بحنقها الصامت قوةَ الرجل.

"لن أقول لك ذلك. تهزمنى بالليل. وأهزمك بالنهار. لن أقوله لك. أننى لم أصدق أبداً ما حكيته لنا. أن أبى عرف كيف يُخفى مهانته خلف أسلوبه النبيل، ذلك الرجل المهذّب، لكننى أنا أستطيع الإنتقام له سراً وطوال الحياة برمتها."

نهضت من الفراش، وهى تضفر شعرها المحلول، دون أن تنظر إلى الفراش المنكوش. أشعلت شمعة الأيقونة وصلّت فى صمت، مثلما ستُظهر فى صمت، خلال ساعات النهار، أنها لم تُهزَم، رغم أن الليل، والحملُ الثانى، والبطن المنتفخة، يؤكدون العكس. وفى لحظات الوحدة الحقيقية فقط، حين لا يشغل تفكيرها لا حنق الماضى ولا الخجل من اللذة، كانت تعرف كيف تقول لنفسها بأمانة أنه هو، حياته، قوته،

"... يقدّمون لى هذه المغامرة الغريبة، التى تملؤنى بالخوف..."

كانت دعوةً إلى المغامرة، إلى الإنطلاق برأسها إلى مستقبل مجهول، لن تكون خطواتُه مُكرَّسةً بقداسة العادة. فقد كان يخترع كلَّ شىء ويخلقه من أسفل، وكأن شيئاً لم يحدث من قبل، آدم دون أبّ، موسى دون ألواح. لم تكن الحياة هكذا، لم يكن هكذا العالم الذى نظّمه دون جماليل.

"من هو؟ كيف إنبعث من ذاته؟ لا، لا أملك الشجاعة الضرورية لمرافقته. يجب أن أسيطر على نفسى. لا يجب أن أبكى حين أتذكر حياتى وأنا طفلة. يا للحنين".

قارنت أيام الطفولة السعيدة بهذا التقافز غير المفهوم لوجوه قاسية، وطموحات، وثروات مهدومة أو مخلوقة من العدم، لرهونات حان أوانُ تسديدها، وفوائد تم تسديدها، وكبرياءات تم إخضاعها.

(" ـ لقد أوقعنا فى البؤس. لا نستطيع التعامل معكِ فأنتِ جزءٌ

مما يفعله بنا.")

كان هذا مؤكداً. هذا الرجل.

"هذا الرجل الذى يروقنى على نحو لا شفاء منه، هذا الرجل الذى ربما كان يحبنى حقاً، هذا الرجل الّذى لا أدرى ماذا أقول له، هذا الرجل الذى يُراوح بى من اللذة إلى الخجل، من الخجل الأشد كآبةً إلى اللذة الأشد، الأشد..."

هذا الرجل جاء ليدمّرهم: وقد دمّرهم فعلاً، ولم تنقذ هى سوى جسدها، وليس روحها، حين باعت نفسها له. ساعات طوال قضتها أمام النافذة المفتوحة على الريف، ضائعةً فى تأمّل الوادى الذى تُظلّله شجيرات الفلفل الأحمر، وهى تهز أحياناً مهد الطفل، منتظرةً الولادة الثانية، متخيّلةً المستقبل الذى يمكن أن يقدمه لهم المغامر. لقد دخل العالم كما دخل جسد زوجته، هازماً الحياء، بتلك البهجة، محطماً قواعد اللياقة، بتلك المتعة. وأجلَس على المائدة أولئك الرجال، ملاحظى الأراضى، الأُجَراء ذوى النظرات اللامعة، أُناساً يجهلون آداب السلوك. ألغى كل التراتُبات التى جسّدها دون جماليل. حوّل ذلك البيت إلى إصطبل لفلاّحين يتحدثون عن أشياء غير مفهومة، ومُضجِرة، وبلا طعم. بدأ يتلقّى عمولاتٍ من الجيران، ويستمع إلى عباراتِ الإطراء. يجب أن يذهب إلى مكسيكو، إلى البرلمان الجديد. سوف يبايعونه. من سواه يمكنه أن يمثّلهم حقاً؟ إذا أراد هو والسيدة زوجته أن يتجوّلا فى القرى يوم الأحد، فسوف يريان كم يحبونهما وكيف أن نيابته مضمونة.

أحنى بنتورا رأسه من جديد قبل أن يرتدى قبعته. أقتاد أحد العمال العربة المكشوفة حتى الحاجز وأدار هو ظهره للهندى وسار نحو الكرسى الهزّاز حيث كانت المرأة الحامل.

"أم أن واجبى أن أُبقى حتى النهاية على الحنق الذى أشعر به؟"

مدّ يده فتناولتها. إنفتحت ثمار الخوخ المتعفّنة تحت قدميه، نبحت الكلاب وجرت حول العربة ونشرت أغصان البرقوق طزاجة الندى. وحين ساعدها على الصعود إلى العربة، ضغط لا إرادياً على ذراع زوجته وابتسم.

ـ لا أدرى إن كنت آذيت شعورك فى شىء. إن كنت قد فعلتُ، فأرجوك أن تغفرى لى.

إنتظر بضع لحظات. إن كانت، على الأقل، ستُظهر شيئاً من الإرتباك. كان ذلك سيكفيه: إيماءة، حتى لو لم تكن إيماءة محبة، تشى بأقل ضعف، ستكون علامةً كافية على الرقة، على الرغبة فى الحماية.

"لو كنت فقط أستطيع أن أحزم أمرى، لو كنت فقط أستطيع."

تماماً مثلما خلال لقائهما الأول، مدّ يده إلى راحتها وعاود لمس لحم دون عاطفة. أمسك بالأعنّة وجلست هى إلى جانبه وفردت مظلتّها الزرقاء، دون أن توجِّه بصرها نحو زوجها.

ـ إعتنوا بالطفل.

"قسَّمتُ حياتى إلى ليل ونهار، كأنما لإرضاء الجانبين. لماذا لا أستطيع أختيار واحدٍ فقط، ياً إلهى؟"

سدَّد بصره نحو الشرق. على طول الطريق كانت تمر أرض الذُرة، المحروثة بخيوطٍ من الماء الذى يوجهه الفلاحون فى مساراته بأيديهم، نحو الأراضى الفَتيَّة، ويحمون الأكوام الصغيرة التى تختبئ داخلها البذور. إنزلقت الصقور على البعد: بزغت الصوارى الخضراء لنباتات الصبّار الأمريكى؛ وعملت السواطير فى قطع حزوز فى الجذوع: ذلك النسغ. وحده الصقر، من الأعالى، يمكنه أن يُميِّز البقعة الرطبة والخصبة التى تطوِّق حدود أراضى السيد الجديد، التى كانت هى

الأراضى القديمة لبرنال، ولاباستيدا، وپيثارّو.

"نعم: إنه يحبنى، لابد أنه يحبنى."

سرعان ما نضب اللُّعاب الفضى للجداول وأفسح الاستثناء مكانه للقاعدة: السهل الجيرى لنباتات الصبار الأمريكى. وعند مرور العربة، ترك العمّال سواطيرهم وفؤوسهم، وساط سائقو الدواب حميرهم: تصاعدت سحب الغبار فوق أرض أخرى، جافة على حين غرّة. وأمام العربة، مثل سربٍ أسود، مضى الموكب الدينى الذى لم يتأخرا فى اللحاق به.

"لابد أننى منحته كل الأسباب حتى يحبنى. ألا تُطرينى عاطفته تجاهى؟ ألا تُطرينى كلمات حبه، وجسارته، وبراهين متعته؟ حتى وأنا على هذه الحال. حتى وأنا حامل، لا يتركنى. نعم. نعم إنها تطرينى."

أوقفهما تقدُّم الحجاج البطىء: أطفالٌ يرتدون عباءات بيضاء بحوافٍ مذهّبة، وأحياناً بهالاتٍ من الورق المفضَّض والسلك تتأرجح فوق رؤوسهم السوداء، يمسكون بأيدى نساء متشحات، بوجنات حمراء ونظرات زجاجية، ترسمن علامة الصليب وتغمغمن بالتراتيل القديمة: راكعاتٌ، وأقدامهن حافيةٌ وأيديهن متشبثةٌ بالمسابح: البعض يوقفون الرجل ذا الساقين المثخنتين بالجراح الذى يوفى نذره، والبعض يسوطون الخاطىء الذى يتلقى باستمتاع ضربات الحبال على ظهره العارى وخصره مُحزَّم بأوراق الصبّار الشائكة. وتيجان الشوك تفتح جروحاً فى الجبهات السمراء، ووشاحات الصبّار فوق الصدور الجرداء: لم تكن الهمهمات باللغة الهندية ترتفع فوق سطح الأرض المنقَّطة بقطراتٍ حمراء تسوّيها الأقدام البطيئة بالأرض وتخفيها على الفور: أقدام ذاتٍ حرشفة صلبة، مُتكلِّسة، معتادة على حمل تلك الطبقة الثانية من الجلد الطينى. لم تتقدّم العربة.

"لماذا لا أعرف كيف أقبل كل هذا دون شىء غريب فى قلبى، دون تحفُّظ؟ أريد أن أفهم هذا بإعتباره الدليل على أنه لا يستطيع مقاومة جاذبية جسدى لكننى أستطيع فهمه فقط على أنه برهان على أننى قد أخضعته، على أننى أستطيع أن أنتزع منه هذا الحب كل ليلة وأحتقره فى النهار التالى ببرودتى وتباعدى. لماذا لا أحزم أمرى؟ لماذا يجب أن أحزم أمرى؟"

ربط المرضى لزقات* البصل حول أصداغهم وتركوا النساء يُمسِّدنهم بالأغصان المقدسة: مئات، مئات: عويلٌ متَّصل هو وحده الذى كان يقطع الصمت الخفيض للهمهمات: حتى الكلاب التى يسيل من خطِمها اللعاب، ذات الجلد الأجرب، كانت تلهث بصوت خافت، وهى تجرى بين الحشد ذى الخطو البطىء الذى ينتظر أن تظهر، على البعد، أبراج الجير الوردى، وبوابة الآجر الأزرق وقباب القيشانى الأصفر. صعدت التمائم الرخيصة إلى الشفاه الرفيعة للتائبين وإنساب على الذقون البلغم الكثيف لخمر الصبّار الأمريكى. عيون بيضاء، مليئة بالدود؛ وجوه تبقِّعها القوباء؛ رؤوس حليقة لأطفال مرضى؛ أنوف نخرها الجدرى؛ حواجب محاها الزهرى: مَيْسِمُ الفاتح فوق أجساد المهزومين الذين يتقدمون على ركبهم، على أربع، على أقدامهم، صوب المحراب المُشيَّد لتمجيد إله القوم البيض. مئات، مئات: أقدام، أيدى، إشارات، عرق، شكايات، تورّمات، قمل، طين، شفاه، أسنان: مئات.

"يجب أن أحزم أمرى؛ ليس أمامى إحتمالٌ آخر فى الحياة سوى أن أكون، حتى موتى، إمرأة هذا الرجل. لماذا لا أقبل ذلك؟ نعم،

---

* chiqueadores: شرائح من ورق مدهون بالشحم أو بمواد يُعتقد أنها شافية تلصق بالرأس كعلاج منزلى. تقابلها "اللزقة" المصرية القديمة - م.

التفكير فى ذلك سهل. وليس سهلاً نسيان دوافع حنقى. يا إلهى. يا إلهى، قل لى إن كنت أنا نفسى أدمِّر سعادتى، قل لى إن كان يجب أن أفضِّله على واجباتى كأخت وكإبنة..."

شقت العربة طريقها بصعوبة عبر الدرب الترابى، بين الأجساد التى لا تعرف العَجَلة، التى تتقدم على رُكبها، على الأقدام، على أربع، صوب المحراب. كانت أفاريز الصبار الأمريكى تمنع الخروج على الطريق للإلتفاف حولهم وكانت المرأة البيضاء تحمى نفسها من الشمس بالمظلة بين أصابعها، وأرجحتها برفق أكتافُ الحجاج: عينا الغزالة، شحمتا الأذن المتورِّدتان، البياض الناعم للوجه، المنديل الذى يغطى أنفها وفمها، النهدان الصلبان خلف الحرير الأزرق، البطن المنتفخة، القدمان الصغيرتان المتقاطعتان، والحذاء الواطىء.

"لدينا طفل. وأبى وأخى قد ماتا. لماذا تشلّنى مغناطيسية الماضى؟ يجب أن أنظر باتجاه المستقبل. ولا أستطيع أن أحزم أمرى. هل سأترك الأحداث، الحظ، شيئاً خارجاً عنى يقرِّر لى؟ هذا ممكن. يا إلهى. أنتظرُ طفلاً آخر...":

إمتدت الأيدى نحوها: أولاً، الذراع المتصلِّب لهندى عجوز وخطه الشيب، ثم على الفور الأذرع، العارية تحت الوشاح، للنساء؛ همهمة هادئة للإعجاب والمحبة، تحرُّق للمسها، بضع مقاطع صفيرية: "ماميتا، ماميتا"* توقفت العربة وقفز هو، ملوِّحاً بالسوط فوق الرؤوس الداكنة، صائحاً أن إفتحوا طريقاً: طويلاً، مرتدياً السواد، والقبعة ذات الشريط غائصة حتى حاجبيه...

"... يا إلهى، لماذا وضعتنى فى هذا الموقف الصعب؟..."

تناولت هى الأعنّة، ووجهت الحصان بعنف نحو اليمين، مُطوِّحةً

---

* Mamita: تصغير وتدليل ماما. م.

الحجّاج على الأرض، حتى صهل الحصان، ورفع قائميه الأماميين، وحطمَّ أوعية الفخار، وأقفاص الدجاجات التى أخذت توَقوق، وتخفق بأجنحتها، وصدم رؤوس الهنود الذين سقطوا على الأرض، ودار على عقبيه، عرقاناً وملتمعاً، وأعصاب رقبته مشدودة وعيناه بارزتان: أحست هى فوق جسدها كلَّ العرق والجروح، والصراخ الأصمّ، والحشرات، وفوحُ عطن خمر الصبّار؛ طرقعت، وهى واقفة، متوازنة بثقل بطنها، اللجام فوق صدر الحيوان. فتح الحشد طريقاً، بصرخاتٍ صغيرة تنم عن البراءة والدهشة، بأذرعٍ مرفوعة، وأجسادٍ مطوَّحةٍ نحو جدار الصبار وجرت هى عائدةً،

"لماذا أعطيتنى هذه الحياة التى يجب فيها أن أختار؟ لم أولد لهذا ..."،

لاهثةً، بعيداً عن أولئك الناس، نحو قمة المنزل الضائعة فى تموجات القيظ، التى يخفيها الإرتفاع السريع لأشجار الفاكهة التى زرعها هو.

"أنا إمرأة ضعيفة. لم أرد سوى حياةً هادئة، يختار فيها آخرون من أجلى. لا ... لا أعرف كيف أحزم أمرى... لا أستطيع... لا أستطيع..."

أُعِدَّت الموائد الضخمة قرب المزار، مكشوفةً للشمس؛ تطاير الذباب فى أسراب كثيفة فوق القدور الضخمة للفاصوليا وأقراص عجَّة الذرة الموضوعة فى أكوام فوق مفرش من ورق الصحف؛ أما دمجانات خمر الصبّار المحلَّى بالكريز وكيزان الذرة الخضراء المجفَّفة وقطع حلوى اللوز المثلَّثة الألوان فكانت تكسر حدَّة قتامة الطعام والقدور. صعد رئيس البلدية إلى منصَّة وقدَّمه وامتدحه وقبل هو الترشيح لمنصب نائب فيدرالى، الذى كان قد تم ترتيبه قبل ذلك بشهور فى پويبلا وفى مكسيكو مع الحكومة التى إعترفت بمزاياه

الثورية، وبالمَثَل الجيّد الذى ضربه حين تقاعد من الجيش ليطبق تعاليم الإصلاح الزراعى وبخدماته الممتازة حين عوضّ عن غياب السلطة من المنطقة، مقيماً النظام على حساب جهده ومخاطرته. أحاطت بهم الهمهمات الصمّاء والمتصلة للحجاج الذين كانوا يدخلون ويخرجون من المعبد، يبكون بصوتٍ عالٍ عذراءهم وإلههم، وينتحبون، ويستمعون إلى الخُطب ويشربون منً الدمًجانات. صرخ شخصٌ، ودوّت بضع طلقات. لم يفقد المرشَّح رباطة جأشه، مضغ الهنود العِجَّة وأعطى هو الكلمة لمحام آخر من الإقليم، بينما تحييه الطبلة الهندية وتختفى الشمس خلف الجًبال.

- حدث ما نَبَّهتُكَ إليه - غمغم بنتورا حين بدأت القطرات المستديرة للمطر الدَقيق التوقيت فى الطرقعة فوق قبعته - كان قَتَلة دون بيثارّو هناك، يصوّبون إليك بنادقهم فور أن صعدتَ إلى المنصة.

ولمّا كان دون قبعة، فقد وضع فوق رأسه غطاءً واقياً من أوراق الذرة - وكيف أصبحوا؟

- باردين تماماً - إبتسم بنتورا - كنا قد طوّقناهم قبل بدء الإحتفال.

وضع قدمه فى ركاب الحصان - ألقوهم أمام باب بيثارّو مباشرةً.

كرهها حين دخلَ القاعةَ العارية، المطلية بالجير، ووجدها وحيدة، تتأرجح فى الكرسى وتربِّت علىٍ ذراعيها كأن حضور الرجل يملأها ببرد غير محسوس، كأن تنفّس الرجل، والعرق الجاف لجسده، والنغمة المرهوبة لصوته، تحمل جميعاً ريحاً مثلَّجة. إرتجفت الأنف النحيلة والمستقيمة للمرأة: طوّح القبعة فوق المائدة وتقدمت المهاميز راسمةً خطوطاً فى الأرضية القرميدية.

- لقد... لقد أخافونى...

لم يتكلم. خلع معطفه وفرده قرب المدفأة. إنساب الماء محدثاً

هسيساً بين بلاطات قرميد السقف. كانت أول مرةٍ تحاول هى فيها تقديم تبرير.

ـ سألوا عن زوجتى. اليوم كان يوماً هاماً بالنسبة لى.

ـ نعم، أعرف...

ـ كيف أقول لك... إننا جميعاً... إننا جميعاً نحتاج إلى شهودٍ على حياتنا حتى يمكننا أن نحياها...

ـ نعم...

ـ أنتِ...

ـ أنا لم أختر حياتى! ـ قالت بصوت عالٍ، وهى تشدِّد قبضتها على ذراعى المقعد ـ. إذا كنت تجبر الناس علىً تنفيذ إرادتك، فلا تطلب من أحد إمتناناً ولا...

ـ ضد إرادتكِ؟ لماذا أروقكِ، إذن؟ لماذا تتصايحين فى الفراش إذا كنتِ بعدها ترسمين على وجهك تقطيبةً كئيبة؟ منذا يفهمك؟

ـ أيها البائس!

ـ هيا، يا منافقة، أجيبى لماذا؟

ـ سيكون الأمر مُماثلاً مع أى رجل.

رفعت بصرها لتواجهه. ها قد قالت ما يجب أن يقال. فضّلت أن تحطَّ من قدر نفسها. ـ ما أدراك أنت؟ يمكننى أن أمنحك وجهاً آخر وإسماً آخر...

ـ كاتالينا... لقد أحببتك... ليس الخطأ من جانبى.

ـ دعنى. أنا فى يديك إلى الأبد. لقد حصُلت على ما أردت. إقنع ولا تطلب المستحيل.

ـ لماذا تتنصَّلين؟ أعرف أننى أروقك...

ـ دعنى. لا تلمسنى. لا تواجهنى بضعفى. أقسم لك أننى لن أترك نفسى تنساق ثانية... لذلك.

- أنت زوجتى.

- لا تقـتـرب. لن تفـتـقـدنى. هذا يخـصُّك... إنه جـزءٌ من إنتصاراتك.

- نعم، وسيكون عليك أن تحتمليه بقية حياتك.

- الآن أعـرف كيف أجـد العزاء. بالرب إلى جانبى، وبأبنائى، لن تنقصنى السلوى أبداً.

- لماذا يجب أن يكون الربّ إلى جانبك، أيتها المهرِّجة؟

- لا تهمنى شتائمك. أنا الآن أعرف كيف أجد العزاء.

- عن ماذا؟

- لا تبـتـعـد. عن مـعـرفـتى أننى أعـيش مع الرجل الذى أذلَّ أبى وخان أخى.

- ستـدفـعين ثمن هذا غـاليـاً، يا كـاتالينا برنـال. إنك تضـعين فى رأسى فكرة أننى أذكِّـرك بأبيك وأخـيك فى كل مـرةٍ تفـتـحين لى ساقيك...

- لم تعد تستطيع إهانتى.

- لا تكونى متأكدةً هكذا.

- إفعل ما يحلو لك. هل تؤلمك الحقيقة؟ قتلتَ أخى.

- لم يفسح أخوك وقتاً لخيانته. كان يريد أن يصبح شهيداً. لم يشأ إنقاذ نفسه.

- مات هو وأنت هنا، تتمتع بالحياة وبميراثه. هذا كل ما أعرفه.

- إشتـعلى إذن، وفكرى فى أننى لن أتنصّل منك أبداً، أبداً، حتى حين أمـوت، لكننى أيضـاً أعـرف كـيف أُذِّل. سـوف يؤلمك أنك لم تنتهبى...

- أتظن أننى لم أتبين وجهكَ الحيوانى وأنت تقول أنك تحبنى؟

- لم أحبك أن تكونى منفصلة، بل مغروسةً فى قلب حياتى...

ـ لا تلمسنى. هذا ما لن تستطيع شراءه أبداً.

ـ إنسِ هذا اليوم. فكرى فى أننا سنعيش الحياة كلها معاً.

ـ إبتعدَ. نعم. فى هذا أفكر. فى سنين كثيرة قادمة.

ـ سامحينى، إذن. أرجوك مرة أخرى.

ـ وهل ستسامحنى أنت؟

ـ ليس لدى ما أسامحك عليه.

ـ هل ستسامحنى على أننى لا أسامحك على النسيان الذى أخذ يلفُّ الآخر، الذى كان يروقنى حقاً؟ لو كنتُ فقط أستطيع تذكُّرَ وجهه جيداً... لهذا أكرهك أيضاً، لأنك جعلتنى أنسى وجهه... لو كنتُ فقط قد نِلتُ هذا الحبَ الأول لأمكننى أن أقول أننى قد عشت... حاول أن تفهمنى؟ أنا أكرهه أكثر مما أكرهك، لأنه استسلم للخوف ولم يعُد أبداً... ربما أقول لك هذه الأشياء لأننى لا أستطيع قولها له... نعم، قل لى أن من الجبن التفكير على هذا النحو... لا أدرى؛ أنا... أنا ضعيفة... وأنت، إذا شئت، يمكنك أن تحبَّ نساءً كثيرات، لكننى مقيَّدةٌ إليك. لو كان هو قد أخذنى بالقوة، لما كان علىّ اليوم أن أتذكره وأكرهه دون أن أستطيع تذكُّر شكل وجهه. لقد صرتُ محبطةً إلى الأبد، هل تفهمنى؟... إستمع إلىّ، لا تبتعد... ولمّا لم تكن لدى الشجاعة لإدانة نفسى على كل ما حدث ولمّا لم يكن قريباً منى لأكرهه، فإننى أحمِّلك أنت الوزر، وأكرهك أنت، أنت القوى جداً، الذى تستطيع تحمُّل كل شىء... قل لى هل تسامحنى على هذا، لأننى لن يمكننى أن أسامحك طالما لا أسامح نفسى وأسامحه هو الذى كان... ضعيفاً جداً... لكننى لا أريد التفكير ولا الكلام؛ دعنى أحيا فى سلام وأطلب المغفرة من الرب، وليس منك...

ـ إهدئى. كنتُ أُفضِّلك بصمتك الماكر.

ـ أنت الآن تعرف. يمكنك أن تجرحنى قدر ما تشاء. فقد

أعطيـتك حـتى هذا السـلاح. لأننى أريدك أن تكرهنى أنت أيضـاً وأن ننتهى من الأوهام إلى الأبد...

- سيكون من الأسهل نسيان كل شئ والبدء من جديد.

- لم نُصنَع على هذا النحو.

تَذكَّرت المرأةُ الساكنة قرارها الأول، حين أبلغها دون جماليل ما كان يجرى. الإستسلام بقوة. أن تدع نفسها تستشهد حتى تستطيع الإنتقام.

- لا يمكن أن يوقفنى شئ، أترى؟ قل سبباً يوقفنى.

- هذا أسهل.

- أقول لك لا تلمسنى، لا تربِّت علىّ!

- الكراهية أسهل، أقول لك. والحب أصعب ويتطلب أكثر...

- هذا هو الشئ الطبيعى. هذا ما يخرج منى.

- ليس من الضرورى زرعه ومحبته. يخرج وحده.

- أقول لك لا تلمسنى!

لم تعاود النظر إلى زوجها. محا غيابُ الكلماتِ قُربَ ذلك الرجل الطويل الداكن، ذى الشارب الكثيف، الذى كان يحس أن حاجبيه وعنقه يرزحان تحت ثِقل حجرى. خمَّن أن هناك شيئاً آخر فى عينى زوجته الجميلتين الغائمتَين. فهذا الفم المزموم كان يُلقى فى وجهه، بلفتة إحتقار خفىّ، الكلمات التى لن يتفوّه بها أبداً.

"أتعتقَد أنك بعد أن فعلتَ كلَّ ما فعلت، مازال لك الحق فى الحب؟ أتعتقد أن قواعد الحياة يمكن أن تتغيّر حتى تتلقىّ هذه المكافأة، علاوةً على كل شئ؟ لقد فقدتَ براءتك فى العالم الخارجى. ولا يمكنك إستعادتها هنا فى الداخل، فى عالم المشاعر. ربما كانت لك حديقة. أنا أيضاً كانت لى حديقتى، فردوسى الصغير. والآن فقدناهما كلانا. حاول أن تتذكر. لا يمكنك أن تجد فىَّ ما ضحَّيتَ به

فعلاً، ما فقدتَه إلى الأبد نتيجة عمل يديكَ. لا أعرف من أين تأتى. ولا أعرف ماذا فعلتَ. كل ما أعرفه هو أنك فى حياتك فقدتَ ما جعلتنى أفقده بعد ذلك: الحلم، البراءة. ولن نعود أبداً كما كنا."

أراد أن يقرأ هذه الكلمات فى وجه زوجته الساكن. ورغم إرادته، أحس أنه قريبٌ من التعليل الذى لم تنطق به. عادت الكلمة إلى رعبها الخفى. مخاتل: هذه الكلمة الفظيعة لا يجب أن تخرج، أبداً، من شفتى المرأة التى، رغم فقدانها الأمل فى الحب، ستكون رغم ذلك الشاهد ـ الصامت، المتشكك ـ عليه خلال الأعوام التى ستأتى. ضغط على صدغيه. فعلٌ واحدٌ، ربما، يمكنه أن يفك هذه العقدة للإنفصال والحنق. بضع كلماتٍ فقط، إما أن تقال الآن أو لا تقال أبداً. إذا قبلتها هى، أمكنهما النسيانُ والبدء من جديد. وإذا لم تقبلها...

"نعم، أنا حىٌّ وبجوارك، هنا، لأننى تركت آخرين يموتون من أجلى. يمكننى أن أحدثك عمَّن ماتوا لأننى غسلتُ يدّى وهززتُ كتفى. إقبلينى هكذا، بهذه الذنوب، وأنظرى إلىّ كما تنظرين إلى رجل محتاج... لا تكرهينى. لتأخذك الشفقة علىّ، يا كاتالينا الحبيبة. لأننى أحبك؛ ضعى ذنوبى فى كفّةٍ وحبى فى الكفَّة الأخرى وسترين أن حبى أكبر..."

لم يجرؤ. وتساءل لماذا لم يجرؤ. لماذا لم تطلب هى منه الحقيقة ـ منه هو، العاجز عن كشفها، والواعى بأن هذا الجبن يباعد بينهما أكثر ويجعله، هو أيضاً، مسئولاً عن الحب الفاشل ـ حتى يتطهر الإثنان من الذنب الذى أراد هذا الرجل إقتسامه، حتى ينال المغفرة.

"وحدى لا؛ وحدى لا أستطيع."

خلال تلك الدقيقة القصيرة الحميمة والصامتة...

"أنا الآن قوى. وقوتى فى أن أقبل دون صراع هذه الأمور الحتمية".

... قبِل هو أيضاً إستحالة النكوص، إستحالة العودة... ونهضت

هى مغمغمةً أن الطفل ينام وحيداً فى المخدع. بقىَ هو وحيداً وتخيَّل، تخيلها على ركبتيها، أمام الصليب العاجى، مؤديةً الفعل الأخير الذى يفصلها عنه.

"عن مصيرى وعن ذنبى، متشبثةً بخلاصِك الشخصى، رافضةً هذا، هذا الذى كان يجب أن يكون لنا نحن الإثنين، رغم أننى أعرضه عليكِ فى صمت؛ لن تعودى بعد..."

عَقَد ذراعيه وخرج إلى ليل الريف، رافعاً رأسه ليحيّى صُحبة الزُّهرة اللامعة، أول نجمة فى قبة سماوية سرعان ما إمتلأت بالأضواء. ذات ليلة ماضية كان قد نظر إلى النجوم؛ ولن يفيده شيئاً أن يتذكر ذلك. فلم يعد نفس الشخص، ولا النجوم عادت هى نفس النجوم التى تأملتها نظرتُه الشابة.

كان المطر قد توقف. بعث البستان أريجاً فاغماً للجوافة والخوخ، للبرقوق والكمثرى. كان هو قد زرع أشجار الحديقة. كان هو قد أقام الحاجز الذى يفصل المنزل والبستان، مملكته الحميمة، عن أراضى الفلاحة.

حين وطأت قدماه الأرض النديّة، غرس يديه فى جيبى بنطلونه وسار ببطء نحو البوابة. فتحها وواصل سيره نحو البيت المجاور. خلال الحمل الأول لزوجته، كانت تلك الهندية الشابة تستقبله من حين لآخر، بصمتٍ خامل وغياب كامل للأسئلة والتوقعات.

دخل دون إنذارٍ، دافعاً الباب بضربةٍ، إلى المنزل البائس ذى الطوب النىء المحطَّم. أخذها من ذراعها، موقظاً إياها من النوم، لامساً حرارة الجسد الداكن، الناعس. نظرت الفتاة برعب إلى الوجه المتجهم للسيِّد، إلى الشعر المجعَّد الذى يسقط فوق عينينٍ من زجاج مخضَّر، إلى الشفتين الغليظتين يحيطهما شعر أشعث خشن.

ـ تعالى، لا تخافى.

رفعت ذراعيها لترتدى البلوزة البيضاء ومدَّت يداً لتلتقط الشال. قادها إلى الخارج. زامت بصوتٍ خفيض، مثل عِجل تلتف الأنشوطة حول رقبته. ورفع هو وجهه نحو السماء، المرصَّعةً هذه الليلة بكل أضوائها.

- أترين هذه النجمة الكبيرة اللامعة؟ تبدو وكأنها فى متناول اليد، أليس كذلك؟ لكن حتى أنتِ تعرفين أنك لن تلمسيها أبداً. يجب أن نقول لا لما لا نستطيع لمسه بأيدينا. تعالى؛ ستعيشين معى فى الدار الكبيرة.

دخلت الشابة إلى البستان منكَّسة الرأس.

إلتمعت فى الظلمة الأشجار التى غسلها إنهمار المطر. وامتلأت الأرض المختمرة بروائح ثقيلة وتنفس هو بعمق.

وفى أعلى الدار، فى المخدع، تركت هى الباب موارباً واستلقت. أشعلت المسرجة. أدارت وجهها إلى الحائط، ضمَّت يديها على كتفيها وثنت ساقيها. وبعد برهة، فردتهما وتحسست موضع الخُفِّ على الأرض. نهضت وسارت فى الغرفة، وهى ترفع رأسها وتخفضه. ربَّتت، دون أن تدرى، على الطفل النائم فى السرير الصغير. تحسست بطنها. عاودت الاستلقاء وبقيت هكذا منتظرةً أن ترنَّ خطوات الرجل فى الممشى.

أنــا أتركهم يفعلون، لا أستطيع التفكير ولا الرغبة؛ أتعوَّد على هذا الألم: لا شىء يمكن أن يدوم إلى الأبد دون أن يتحوَّل إلى عادة؛ الألم الذى أحسّه تحت ضلوعى، حول بطنى، فى أحشائى، صار ألمى، ألمٌ يقرض: طعم القىء على لسانى هو طعمى؛ إنتفاخ بطنى هو ولادتى، أشبِّهه بالولادة، يُضحكنى. أحاول لمسه. أتلمسه من المعدة إلى العانة. جديد. مستدير. طرى. لكن العرق البارد يتوقف. هذا الوجه دون لون والذى يمكننى رؤيته فى قطع الزجاج غير المتماثلة فى حقيبة يد تيريسا، التى تمر بجوار فراشى، ولا تترك حقيبة يدها أبداً، كأن ثمة لصوصاً فى المخدع. أعانى من هذا الانهيار. لم أعد أدرى. ذهب الطبيب. قال أنه سيبحث عن أطباء آخرين. لا يريد أن يتحمل مسئوليتى. لم أعد أدرى. لكننى أراهم. لقد دخلوا. ينفتح وينغلق الباب الماهوجنى ولا يُسمع صوت الخطوات فوق السجادة السميكة. أَغلقوا النوافذ. أسدلوا، بهسيس، الستائر الرمادية. دخلوا. آه، هناك نافذة. هناك عالمٌ بالخارج. هناك هذه الريح العالية، ريح الهضبة، التى تهزُّ بضع أشجار سوداء ونحيلة. يجب أن أتنفس...

- إفتحوا النافذة...
- لا، لا. قد تُصابَ بالبرد وتُعقِّد الأمور.
- إفتحوا...
- Domine non sum dignus ...
- أبصق على الرب...
- ... لأنك تؤمن به...

ذكى جداً. كان هذا ذكياً جداً. يهدئُنى. لا أعود أفكر فى هذه الأشياء. نعم، لماذا أسبّه، إذا كان غير موجود؟ هذا يفيدنى. سأسمح بهذا كله لأن تمرُّدى يعنى التسليم بوجود تلك الأشياء. سأفعل هذا. لا أدرى فيم كنت أفكر. عفواً. القس يفهمنى. عفواً. لن أجعلكم على حقٍ

بتمرّدى. هذا أفضل. يجب أن أرسم على وجهى السأم. هذا ما يليق. كم من الأهمية يُضفونها على كل هذا. على فعل يعنى، بالنسبة لأكثر من يهمه، بالنسبة لى، نهاية الأهمية. نعم. هكذاً تسير الأمور سيراً حسناً. هكذا. حين أنتبه إلى أن كل شىء يفقد أهميته، يحاول الآخرون تحويله إلى أكثر الأشياء أهمية: ألمُ المرء ذاته، خلال الروح الغريبة. أطلقُ هذا الصوت الأجوف من منخارَى أنفى وأتركهم يفعلون وأشبكُ ذراعى فوق معدتى. أوه، أغربوا جميعاً، دعونى أسمع. لنر هل سيفهموننى. لنر هل سيفهمون ما تعنيه ذراعٌ مثنيةٌ هكذا...

" ـ ... يزعمون أن هذه العربات ذاتها يمكن صنعها هنا فى المكسيك. لكننا سنمنع ذلك، أليس كذلك؟ فعشرون مليون بيسو تساوى مليون ونصف من الدولارات...

" ـ Plus our commissions ...

" ـ لن يناسبك الثلج مع هذا الزكام.

" ـ Just hay fever. Well, I'll be ...

" ـ لم أنته بعد. يقولون أيضاً إن رسوم الشحن التى تدفعها شركات التعدين على النقل من وسط الجمهورية إلى الحدود منخفضة جداً، أنها تعادل دعماً، أن نقل الخضروات يكلف ثمناً أغلى من نقل معادن شركاتنا...

" ـ Nasty, nasty ...

" ـ وكيف لا. أنت تفهم أنهم لو رفعوا رسوم الشحن، فلن يكون مُربحاً لنا تشغيل المناجم...

" ـ "Less proffits, sure, lesproffitsue lesslessless ...

ماذا يجرى، يا بادييا؟ بادييا، يا رجل. ما هذا اللغط؟ بادييا، يا رجل.

ـ إنتهى الشريط. لحظة. البقية على الوجه الآخر.

- إنه لا يستمع، يا أستاذ.

لابد أن پادييا يبتسم لأنه يعرف. پادييا يعرفنى. أنا أستمع. آوه، أنا أستمع، آى. هذه الضوضاء تملأ مخّى بالكهرباء. هذه الضوضاء لصوتى أنا، صوتى القابل للإنعكاس، نعم، الذى يعاود إصدار أزيز ويمكن سماعه وهو يدور إلى الخلف، بأزيز سنجاب، لكن صوتى مثل إسمى الذى ليس به سوى أحد عشر حرفاً ويمكن كتابته بألف طريقة أموك ريوثترير ثورتيك مارثى إيتثاو أريمور إلاّ أن له مفتاحاً، سيداً، هو أرتيميو كروث، آه إسمى، يرن فى أذنى إسمى الذى يئز، ويتوقف، ويجرى فى الإتجاه المعاكس:

" - تكرّم، يا مستر كروكرى. أرسل هذا كله تلغرافياً إلى المقرّات الرئيسية المهتمة فى الولايات المتحدة. قل لهم أن يحرّكوا الصحافة هناك ضد عمال السكك الحديدية الشيوعيين فى المكسيك.

" —— Sure, if you say they're commies, I feel it my duty to uphold by any means our...

" - نعم، نعم، نعم. ما أجمل أن تتطابق مثلنا العليا مع مصالحنا، أليس كذلك؟ وهناك شىء آخر: تحدث مع سفيركم، حتى يمارس ضغطاً على الحكومة المكسيكية، الحديثة العهد والتى لم تنضج بعد.

" - Oh, we never intervine.

" - إعذر خشونتى. إقترح عليه أن يدرس الموضوع بهدوء وأن يقدِّم رأيه النزيه، آخذاً فى الإعتبار قلقه الطبيعى على مصالح المواطنين الأمريكيين الشماليين فى المكسيك. أن يشرح لهم أن من الضرورى الحفاظ على المناخ المواتى للاستثمار، فمع هذه التحريضات...

" - O.K, O.K"

آه، يا له من قصف من الإشارات، والكلمات، والمثيرات لسمعى

المتعَب؛ آه، يا للإرهاق؛ آه، يا لها من لغةٍ دون لغة؛ آه، لكننى قلت ذلك،
إنها حياتى، يجب أن أستمع إليها؛ آه، لن يفهموا إشارتى لأننى أستطيع
بالكاد تحريك أصابعى: أوقفوا هذا الآن، فقد أضجرنى، ما شأن هذا،
يا للإزعاج، يا للإزعاج... لدىّ ما أقوله لكم:

- أنتَ سيطرتَ عليه وانتزعته منى.

- إنتظرتك هذا الصباح بابتهاج. لنعبر النهر على صهوة الجياد.

- أنا أحمّلكَ الذنب. أنت المذنب.

تترك تيريسا الصحيفة تسقط. تقول كاتالينا عند إقترابها من
الفراش، كأننى لا يمكننى سماعها: - يبدو أن حالته سيئة جداً.

- هل قال أين هى؟ - تسأل تيريسا بصوت أكثر إنخفاضاً.

تنفى كاتالينا بهزة رأس. - ليست لدى المحامين. لابد أنها مكتوبة
بخط اليد. رغم أنه قادرٌ على أن يموت دون وصية، حتى يعقّد لنا
حياتنا.

أنصت إليهما وعيناى مغمضتان وأتظاهر، أتظاهر.

- ألم يستطع الأب أن ينتزع منه شيئاً.

لابد أن كاتالينا نفت. أحس بها تركع بجوار رأس الفراش وتقول
بصوت بطىء ومحطَّم: - كيف تشعر؟... أليس لديك رغبة فى الكلام
قليلاً؟... أرتيميو... هناك شىء مهم جداً... أرتيميو... لا نعرف إن
كنت قد تركت وصية. نريد أن نعرف أين...

الألم يبدأ فى التضاؤل. ولا تريان العرق البارد الذى ينساب على
جبهتى، ولا سكونى المشدود. أستمع إلى الأصوات، لكننى الآن فقط
عاود تمييز الأشكال الداكنة. يعود كلُّ شىءٍ إلى بؤرته الطبيعية
ميزهما بكاملهما. بوجهيهما وتعبيراتهما، وأودّ لو عاد الألم إلى
نى. أقول لنفسى، أقول لنفسى وذهنى صافٍ أننى لا أحبهما، أننى
أحبهما أبداً.

- ... نريد أن نعرف أين...

تخيلا نفسيكما فى مواجهة بائع عديم الثقة، أيتها الحقيرتان، فى مواجهة طردٍ من المسكن، فى مواجهة محام مخادع، فى مواجهة طبيب مزيِّف، تخيلا نفسيكما من الطبقة المتوسطة التافهة، أيتها الحقيرتان، واقفتين فى الطابور لشراء لبن مغشوش، لدفع الضرائب العقارية، لحضور مقابلة رسمية، للحصول على قرض، واقفتين فى الطابور لتحلما بإمكانكما بلوغ منزلةٍ أعلى، حاسدتين مرور زوجة وإبنة أرتيميو كروث فى سيارتهما، حاسدتين منزلاً فى لاس لوماس دى تشاپولتيپيك، حاسدتين معطفاً من فراء المِنك، عقداً من الزمرُّد، رحلة إلى الخارج، تخيلا نفسيكما فى عالم بدون كبريائى وتصميمى، تخيلا نفسيكما فى عالم أكون فيه أنا فاضلاً، أكون فيه رقيق الحال: إلى أسفل، من حيث خرجتُ، أو إلى أعلى، حيث أنا: هنالك فقط، أقول لكما، يوجد كبرياء، وليس فى المنتصف، ليس فى الحسد، والرتابة، والطوابير: كل شىء أو لا شىء: تعرفان رهانى؟ تفهمانه؟ كل شىء أو لا شىء، كل شىء بالأسود أو كل شىء بالأحمر، بعزيمة، هيه؟، بعزيمة، أن يكون المرء مخاطراً بحياته، محطماً وجهها، مُعرِّضاً نفسه لأن يعدمه بالرصاص من هم فوق أو من هم تحت؛ هذا ما يعنيه كون المرء رجلاً، كما كنت أنا، لا كما كان يمكن أن تتمنيا أنتما، نصف رجل، رجلاً ذا صرخاتٍ ناشزة، رجلَ مواخير وخمّارات، ذكورياً ممن يظهرون على بطاقاتٍ البريد، آه، لا، أنا، لا! أنا لم أضطر للصراخ فى وجهيكما، لم أضطر للإنغماس فى السُكر حتى أخيفكما، لم أضطر لضربكما حتى أفرض نفسى، لم أضطر لإذلال نفسى راجياً منكما المحبة: أعطيتكما الثروة دون أن أنتظر منكما مكافأة، ولا محبةً، ولا تفهُّماً ولأننى لم أطالبكما بشىء لم تستطيعا هجرانى، تشبَّثتما ببذخى، لا عنتين إياى ربما كما لم تكونا لتلعنا مرتَّبى البائس الملفوف

فى ورق شفاف، بل ربما كنتما ستضطران لإحترامى مثلما لم تكونا لتحترما إبتذالى، آه أيتها العجوزتان الخرائيتان، العجوزتان المتباهيتان، العجوزتان العاجزتان اللتان نِلتما كل أشياء الثراء ومازال رأساكما مبتذلين: لو كنتما على الأقل إستفدتما مما منحتكما، لو كنتما على الأقل فهمتما فيم تفيد، وكيف تُستخدم أشياء البذخ: بينما نلتُ أنا كل شىء، أتسمعانى؟، كلَّ ما يُشترى وكل ما لا يُشترى، نلت ريخينا، أتسمعانى، أحببتُ ريخينا، كان اسمها ريخينا وقد أحبّتنى، أحبّتنى دون نقود، وتبعتنى، ومنحتنى الحياة هناك إلى أسفل، أتسمعانى؟: سمعتك، يا كاتالينا، أنصتتُ إلى ما قلتِه لهُ ذات يوم:

" ـ أبوك؛ أبوك، يا لورنثـــو... أتظن...؟ أتظن أنه يمكن أن ينجح...؟ لا أدرى، فى إخـتـبـار الرجـال القـديسين... الشـهـداء الحقيقيين..."

ـ Domine non sum dignus ...

أنت ستشمُّ، فى أعماق ألمك، هذا البخور الذي لا يريد أن يتبدَّد وستعرف، خلف عينيك المغمضتين، أن النوافذ قد أُغلقت أيضاً، أنك لم تعد تتنفس هواء الأصيل المنعش: فقط فوح هذا البخور ورائحة القس الذى سيتقدم ليمنحك الغفران، طقساً أخيراً لن تطلبه أنت، وستقبله، رغم ذلك، حتى لا ترضيهم بتمردك فى الساعة الأخيرة: تودُّ

أن يجرى كل شىء دون أن تدينَ لأحدٍ بشىءٍ وتودُّ أن تتذكر نفسك فى حيـاةٍ لا تدين لأحـدٍ بشـىء: لكنهـا ستـمنعك، ذكـراها سـتـمنعك - ستُسمِّيها: ريخينا؛ ستسميها: لاورا؛ ستسميها: كاتالينا؛ ستسميها: ليليا - ستُلخِّص هى كلَّ ذكرياتك وستجبركَ على الإعتراف بها: لكنك ستحوِّلُ هذا الإمتنان - ستعرفُ ذلك، خلف كل صرخة ألم حادة - إلى إشفاقٍ على نفسك، إلى ضياع لضياعك: لا أحد سيمنحك أكثر، لينتزع منك أكثر، من تلك المرأة، المرأة التى أحببتها بأسمائها الأربعة المختلفة: من غيرها؟:

ستقاوم: ستكون قد قمت بإقتراع سرِّى: أن لا تعترف بديونك: ستكون قد طويت فى نفس النسيان تيريسا وخيراردو: نسيان ستُبرِّره لأنك لن تعرف شيئاً عنهما، لأن الفتاة ستكبر إلى جانب والدتها، بعيدةً عنك أنت الذى لن تعيش إلاّ من أجل إبنك، لأن تيريسا ستتزوج ذلك الفتى الذى لن تستطيع أبداً تثبيت وجهه فى ذاكرتك، ذلك الفتى الضبابى، ذلك الرجل الرمادى الذى لن يجب أن يستهلك ويحتل زمن النعمة الممنوح لذاكرتك: وسباستيان: ألن تودَّ تذكر المعلم سباستيان: ألن تودَّ تذكر تلك اليدين المربَّعتين اللتين ستملِّصان أذنيك، ستضربانك بالمسطرة: ألن تودّ تذكُّر عُقَل أصابعك المتألِّمة، أصابعكَ التى بيَّضها الطباشير، ساعاتِك أمام السبورة وأنت تتعلم الكتابة، والضرب، ورسم أشياءٍ أوَّلية، منازل ودوائر، ألن تريد: إنه دَيْنك:

ستصرخ وتتوقف ذراعاك: ستودُّ أن تنهض وتتمشى لتهدئة ألمك:

ستشم البخور

ستشم الحديقةَ المغلقة،

ستفكر فى أنك لا يمكن أن تختار، أنك لم تختر ذلك اليوم: بل تركت الأمور تجرى، لم تكن مسئولاً، لم تخلق أيّاً من المبدأين الأخلاقيين اللذين كانا يستميلانك ذلك اليوم: لم تستطع أن تكون

مسئولاً عن الخيارات التى لم تخلقها: ستحلم، منفصلاً عن جسدك الذى يصرخ ويتقلّص، منفصلاً عن ذلك الساطور الذى إنغرس فى معدتك حتى طفرت من عينك الدموع، ستحلم بذلك الترتيب للحياة، الذى خلقته أنت، والذى لن تستطيع الكشف عنه أبداً لأن العالم لن يعطيك الفرصة، لأن العالم لن يقدِّم لك سوى قوانينه الراسخة، لوائحه المتصارعة، أنك لن تحلم، أنك لن تفكر، أنك لن تحيا:

سيكون البخور عطراً فى الزمن، عِطراً يُحكى:

سيحيا الأب بايث فى منزلك، ستخفيه كاتالينا فى البدروم: لن يكون ذنبك، لن يكون ذنبك:

لن تتذكر ما تقولانه، أنت وهو، تلك الليلة، فى البدروم: لن تتذكر إن كنت أنت، أو كان هو من يقوله: ما اسم الوحش الذى يتخفّى بإرادته فى زى إمرأة، الذى يخصى نفسه بإرادته، الذى يسكر بإرادته من الدم الموهوم للرب؟: من سيقول هذا؟: لكنه يحب، وأقسم، لأن حبَ الرب ضخمٌ جداً ويسكن كلَّ الأجساد، ويبرِّرها: ننال أجسادنا بنعمة ومباركة الرب، لنمنحها لحظات الحب التى تريد الحياة حرماننا منها: لا تشعرن بالخجل، لا تشعرنّ بشىء وبالمقابل ستنسى أحزانك: لا يمكن أن يكون ذلك خطيئة لأن كل كلمات وكل أفعال حبنا القصير، المتعجِّل، حب اليوم وليس أبداً حب الغد، هى مجرد عزاءٍ نمنحه لأنفسنا أنت وأنا، قبول لشرور الحياة الضرورية يبرِّرُ فيما بعد ندمنا إذ، كيف يمكن أن يوجد ندمٌ حقيقى دون الإعتراف بالشر الحقيقى فى داخلنا؟ كيف ننتبه إلى الخطيئة التى يجب أن نتضرع راكعين لننال المغفرة عنها إذا لم نرتكب قبلها الخطيئة ذاتها؟: إنس حياتك، دعنى أطفىء النور، إنس كلَّ شىء وبعدها سنتضرع سوياً من أجل غفراننا ونُقيم صلاةً تمحو لحظاتِ حبنا: لكى نكرِّس هذا الجسد الذى خلقه الرب والذى يذكر إسم الرب فى كل رغبةٍ متحققةٍ وغير متحقِّقة،

يذكر إسم الرب فى كل تربيته سرية، يذكر إسم الرب فى كلِّ إخراجٍ لسائل منوى زرعه الرب بين فخذيك:

أن تحياً يعنى أن تخون إلهك؛ فكلُّ فعل من أفعال الحياة، كل فعل يؤكدنا ككائنات حية، يتطلَّب إنتهاك وصايا ربك؛

ستتحدث تلك الليلة مع الرائد جابيلان فى ماخور، مع كل الرفاق القدامى ولن تتذكر ما قالوه، تلك الليلة، لن تتذكر إن كانوا هم قد قالوه، أو أنك أنت من قاله، بصوتٍ باردٍ لن يكون صوت البشر: بل الصوت البارد للسلطة وللمصلحة: نرغب فى أفضل خير ممكن للوطن: طالما ظل متمشياً مع رفاهيتنا الشخصية: لنكن أذكياءً: يمكننا الوصول إلى بعيد: فلنصنع الضرورى وليس المستحيل: فلنحدِّد مرةً وإلى الأبد كل أفعال القوة والقسوة التى يمكن أن تفيدنا مرةً وإلى الأبد: حتى لا نضطر لتكرارها: فلنشرع فى وضع تدرُّج للمنافع حتى يتذوقها الشعب: الثورة يمكن عملها بسرعة بالغةً: لكنهم غداً سيطالبوننا بالمزيد والمزيد والمزيد: وحينئذ لن يكون لدينا ما نقدمه إن كنا قد فعلنا وأعطينا كل شىء: إلاّ تضحيتنا الشخصية وحدها: لماذا نموت إن كنا لن نرى ثمار بطولتنا؟: فلنُبْق دائماً شيئاً إحتياطياً: نحن بشر ولسنا شهداء: كل شىء سيكون مسمَوحاً لنا به إذا حافظنا على السلطة: إفقد السلطة وسوف يهتكونك: إنتبه لثروتنا: نحن شباب لكننا محاطون بهالة مكانةِ الثورة المسلحة والمنتصرة: لماذا نتعارك؟: لنموت من الجوع؟: إذا لزم الأمر فإن القوة على حق: والسلطة لا تُقتَسَم:

وغداً؟ سنكون موتى أيها النائب كروث؛ فليُرتِّب من يخلفوننا الأمورَ كما يستطيعون:

: domine non sum dignus, domine non sum dignus

نعم، رجلٌ يستطيع أن يتحدث مع الرب بألم رجلٌ يمكنه غفران

الخطيئة لأنه إرتكبها، قسيس له الحق فى أن يكون كذلك لأن بؤسه الإنسانى يتيح له ممارسة الخلاص فى جسده هو قبل أن يعطيه للآخرين: domine non sum dignus :

ستـرفض الذنب؛ لن تكون أنت مسئولاً عن المبدأ الأخلاقى الذى لم تخلقه، الذى وجدته جاهزاً: كنت ترغب

ترغب

ترغب

ترغب

آه، لقد كانت سعيدةً تلك الأيام التى قضيتها مع المعلم سباستيان والتى لن تودّ تذكرها بعد، جالساً على ركبتيه، وأنت تتعلم تلك الأشياء الأولية التى يجب البدء منها لكى تصبح رجلاً حراً، وليس عبداً للوصايا التى كُتِبت دون إستشارتك: آخ، كانت سعيدة أيام التعلّم تلك، تلك الحِرَف التى علمك إياها لكى تستطيع كسب قوتك: تلك الأيام مع الكور والمطارق، حين كان المعلم سباستيان يعود متعَباً ويشرع فى تلك الدروس من أجلك فقط، حتى يمكنك أن تصنع لنفسك قيمةً فى الحياة وتخلق قواعدك الخاصة: أنت المتمرد، أنت الحر، أنت الجديد والفريد: لن تودّ تذكره: هو الذى أمرك، وأنت مضيت إلى الثورة: لا تخرج منى هذه الذكرى، لن يبلّغك:

لن تكون لديك إجابة على القانونين المتعارضين والمفروضين؛

أنت برىء،

أنت ستودّ أن تكون بريئاً،

أنت لم تختر، تلك الليلة.

(٢٣ نوڤمبر : ١٩٢٧)

هو من نظر بعينيه الخضراوين إلى النافذة وسأله الآخر إن كان لا يريد شيئاً فزَرِّ هو عينه، ونظر بعينيه الخضراوين إلى النافذة. عندئذ قام الآخر، الذى كان قد ظل حتى تلك اللحظة هادئاً جداً، جداً، بجذب المسدس بعنف من حزامه ووضعه بضربةٍ فوق المنضدة: أنصت هو إلى صدى إهتزاز الأكواب والزجاجات ومدّ يده لكن الآخر كان قد إبتسم، قبل أن يتمكن هو من إعطاء إسمٍ للإحساس الجسمانى الذى أثارته فى فم معدته الحركةُ المباغتهً، الضربة وتأثيرها على تلك الأكواب الكريستال الزرقاء، وتلك الزجاجات البيضاء. لكن الآخر إبتسم ومرت سيارةٌ مسرعة فى الزقاق، بين الصفير والشتائم بالأمّ وأضاءت مصابيحها رأس الآخر المستديرة. أدار الآخرُ ساقية المسدس وأشار إليه أن بها رصاصتين فقط؛ أدار من جديد، وضبط الزناد ووضع فوّهة السلاح على صدغه. حاول هو أن يُشيح ببصره، إلاّ أن تلك الغرفة الصغيرة لم تكن بها نقطةٌ ثابتة تجذب الإنتباه: الجدران العارية، المطلية بالأزرق والأرضية الحجرية المستوية والمناضد، والكرسيان، والرجلان. إنتظر الآخر حتى كفت العينان الخضراوان عن الدوران فى الغرفة وعادتا إلى المقبض، وإلى المسدس، وإلى الصدغ. كان يبتسم، لكنه يعرق، وهو أيضاً. حاول أن يميِّز فى صمت تكتكة الساعة الموضوعة فى الجيب الأيمن للمعطف. ربما كانت تدقُّ أقل مما يدق قلبه؛ لم يكن لذلك أهمية، لأن إنفجار طلقة المسدس كان يدوِّى فى سمعه، من قبلها، وفى نفس الوقت كان السكون يسيطر على كل الأصوات الأخرى، بما فيها الصوت

المحتمل - الذى لم يرن بعد - لمسدس. إنتظر الآخر. جذب الآخر الزناد وضاعت تكةٌ جافة ومعدنية فى السكون وفى الخارج استمر الليل كما هو، دون قمر. ظل الآخر بالسلاح مصوَّباً إلى صدغه وبدأ فى الإبتسام، فى القهقهة: إرتجف الجسد البدين من الداخل، مثل المهلبية، من الداخل لأنه لم يتحرك من الخارج. هكذا بقيا بضع ثوانٍ ولم يتحرك هو أيضاً؛ الآن شمَّ رائحة البخور التى صاحبته منذ ذلكً الصباح فى كل مكان واستطاع فقط من خلال الدخان المتخيَّل أن يميِّز وجه الآخر، الذى ظل يضحك من الداخل قبل أن يعاود وضع المسدس فوق المنضدة، ويفرد أصابعه المبطَّطة، الصفراء ويدفع السلاح ببطءٍ نحوه. كان يمكن للسعادة العكرة فى عينى الآخر أن تكون إيذاناً بدموع حبيسة؛ لم يُرِد هو التحقق من ذلك. آلمته فى معدته الذكرى، التى لمْ تصبح كذلكَ بعد، لذلك الشخص البدين والسلاح ملتصق بصدغه؛ أما الخوف لدى الآخر، الخوف المُسيطَر عليه فى المقام الأول، فقد قلَّص أمعاءه ومنعه من الكلام: ستكون تلك هى النهاية: أن يعثروا عليه فى هذه الغرفة مع البدين الميت، أن تكون هناك حجة ضده. كان قد تعرَّف على مسدسه هو، المحفوظ دائماً فى درج الصوان، دون أن ينتبه حتى الآن إلى أن البدين يُقرِّبه منه بأصابعه القصيرة، والمقبض ملفوفٌ فى ذلك المنديل الذى ربما كان قد إنزلق من يده إذا كان الآخر... لكن إذا كان لم ينزلق، فإن الإنتحار يكون واضحاً. بالنسبة لمن؟ قائد شرطة يموت فى غرفة خالية وعدوُّه فى مواجهته. من الذى تصرَّف فى من؟ فك الآخر حزامه وتجرع الكوب حتى آخره مرةً واحدة. كان العرق يُبقِّع إبطيه وينساب على عنقه. أصرت الأصابع، المشوَّهة لفرط قِصرها، على تقريب المسدس منه. ماذا سيقول؟ أنه قد برهن من جانبه على كل شىء؛ ألن يجبُنَ هو؟؛ ألن يفعل حقاً؟ سأل هو ما الذى تمت البرهنة عليه فقال الآخر أن ما تمت البرهنة عليه هو أنه من جانبه لم يتأخر، أنه إذا وصل الأمر إلى

حد الموت فإنه لم يجبن، أنه لا يجب الاستمرار فى جذب الخيط إلى الأبد ،أن الأمور على هذا النحو. وإذا كان ذلك لم يقنعه، فلا يعرف ماذا يمكن أن يقنعه. كان ذلك برهاناً - قال له الآخر - على أنه هو يجب أن ينتقل إلى معسكرهم؛ فهل هناك واحدٌ من جماعته مستغدٌ لأن يثبت له ولو دفع حياته ثمناً أنهم يريدونه فى ذلك الجانب؟ أشعل سيجارةً وقدّم له أخرى وأشعل هو نفسه سيجارته وقرَّب عود الكبريت من وجه البدين الذى بلون القهوة لكن البدين أطفأه بنفخة وشعر هو بأنه محاصَر. تناول المسدس وترك السيجارة فى توازن هش على حافة الكوب، دون أن ينتبه إلى أن الرماد يسقط داخل التكيلًا* ويترسب فى القاع. ضغط فوهة المسدس على صدغه ولم يحس بأى حرارة، رغم أنه تخيَّل أنه لابد أن يحسّ ببرودة وتذكر أن عمره ثمانية وثلاثون عاماً، لكن هذا لا يهم أحداً ولا يهم البدين بل ولا يهمه هو نفسه.

وفى ذلك الصباح كان قد إرتدى ملابسه أمام المرآة البيضاوية الضخمة فى مخدعه وكان البخور قد وصل إلى أنفه لكنه تجاهل ذلك. كذلك تصاعدت من الحديقة رائحة ثمرة قسطل فوق تلك الأرض الجافة والنظيفة فى هذا الوقت. رأى الرجل القوى، ذا الذراعين القويتين، والمعدة الملساء دون دهون، والعضلات الصلبة الملفوفة حول السُرَّة الداكنة حيث ينتهى زغب العانة والمعدة. مرَّر يداً على وجنتيه، وعلى الأنف المحطمة وعاودته رائحة البخور. إختار قميصاً نظيفاً من الصوان ولم ينتبه إلى أن المسدس لم يعد هناك وانتهى من إرتداء ملابسه وفتح باب المخدع. "لا وقت لدىّ؛ حقاً، لا وقت لدى. أقول لك لا وقت لدىّ".

كانت الحديقة قد زرعت بنباتات زينة على شكل حدوة حصان

* tequila: شراب مسكر مكسيكى قوى يستخرج من الصبّار الأمريكى - م.

وأزهار سوسن، مع أشجار ورد وشجيرات يحيط إطارها الأخضر بالمنزل ذى الطابق الواحد، المشيَّد على الطراز الفلورنسى، بأعمدة رشيقة وأفاريز من الجصّ عند مدخل رواق البوابة. طُلِيَت الحوائط الخارجية باللون الوردى وفى داخل الصالونات، التى عبرها هو هذا الصباح، كان الضوء الباهت فى تلك الساعة يبرز الأشكال المرصَّعة للمصابيح، وتماثيل المرمر، وستائر المخَّمل، والمقاعد العالية ذات القماش المطرَّز، والفترينات، والطلاء الذهبى لمقاعد الحب المزدوجة. لكنه توقف عند الباب الجانبى فى عمق الصالون، ويده فوق المقبض البرونزى ولم يُرِد أن يفتح ويهبط.

"كان منزلَ أناس ذهبوا ليعيشوا فى فرنسا. إشتريناه بثمن بخس لكن الترميم كلفنا كثيراً. قلت لزوجى: دعنى أقوم بكل شىء، إترك كل شىء لى، فأنا أعرف كيف..."

قفز البدين من الكرسى، خفيفاً، ممتلئاً بالهواء وأزاح اليدَّ التى تمسك بالمسدس: لم يستمع أحدٌ إلى الطلقة، لأن الوقت كان متأخراً وكانا وحيدين، نعم، ربما بسبب ذلك لم يستمع إليها أحد، فغاصت فى حائط الغرفة الأزرق بينما ضحك قائد الشرطة وقال يكفى ألعاباً لهذه المرة، يكفى ألعاباً خطرة: لماذا، إذا كان يمكن تسوية كل شىء بسهولةٍ بالغة؟ بسهولةٍ بالغة، فكَّر هو؛ حان الوقت لتسوية الأمور بسهولة؛ ألن أحيا أبداً فى هدوء؟

- لماذا لا تتركونى فى سلام؟ لم لا؟
- لكن هذا أسهل شىء، يا زُمَل*. الأمر بيدك.
- إلى أين وصلنا؟

لم يصل؛ بل أحضروه؛ ورغم أنهم كانوا فى وسط المدينة، فقد

* زُمَل: صيغة تحبُّب من كلمة زميل، شائعة فى أوساط الجنود وما شابه - م.

دوّخه السائق، إنحرف إلى اليسار، إنحرف إلى اليمين، حوَّل ذلك التخطيط الإسبانى، ذا المستطيلات، إلى متاهةٍ ذات شفاطات غير محسوسة. كان ذلك كله غير محسوس، مثل اليد القصيرة والهشة للآخر، الذى إنتزع منه السلاح، وهو يضحك على الدوام، وعاود الجلوس، ثقيلاً مرةً أخرى، بديناً، عرقاناً، وعيناه تلمعان بالشرر.

- ألسنا نحنُ الناكحين الملاعين؟ أتعرف؟ إختر أصدقاءك دائماً من بين الناكحين الكبار، لأنك معهم لن ينكحك أحد. هيا نشرب.

تبادلا الأنخاب وقال البدين أن هذا العالم ينقسم إلى ناكحين وحمقى وأن الوقت حان للإختيار. وقال أيضاً أنها ستكون خسارة أن لا يعرف النائب - هو - كيف يختار فى الوقت المناسب، لأنهم شديدو الترابط، أناس طيبون جداً يمنحون الجميع فرصة الإختيار، إلاّ أنهم ليسوا جميعاً بحيوية النائب، يشعرون بأنهم ذكور جداً ثم يقومون بانتفاضة مسلحة، بينما من السهل جداً تغيير المرء لموقعه كأنه لا يرغب فى ذلك ليصبح فى الجانب الصحيح. هل هذه أول مرة يهرب فيها؟ إذن أين قضى السنوات الخمس عشرة الأخيرة؟ نَعَسَ صوته، البدين مثل لحمه، ذو الهسيس والمثلجّ مثل حيَّة: حنجرة ذات حلقات منقبضة، يُزيِّنها الكحول والسيجار: - ألا يعجبك هذا؟

حدّ الآخرُ بصرَه فيه وواصل هو التربيت على مشبك الحزام دون أن ينتبه، حتى سحب أصابعه لأن الحلقة الفضية ذكّرته ببرودة أو حرارة المسدس وأراد أن يحرِّر يديه.

- غداً سيُعدَم الرهبان رمياً بالرصاص. أقول لك هذا أيضاً كبرهان على الصداقة، لأننى واثق أنك لست من أولئك الرخوين...

أبعدا الكرسيين. توجّه الآخر إلى النافذة وطرق بأصابعه بقوةٍ على الزجاج. قام بإشارةٍ ثم مد يده إلى الرجل. بقى الآخر عند الباب بينما هبط هو من البرج الدائرى العطن الرائحة والمظلم وقلب صندوق

قمامة وفاح كل شيء برائحة قشر برتقال متعفن، وأوراق صحف مبتلّة. رفع الرجل الذى كان بجانب الباب إصبعاً إلى قبعته البيضاء وأشار له أن طريق ١٦ سبتمبر يقع إلى ذلك الجانب.

ـ ماذا تعتقد؟

ـ أننا يجب أن ننتقل إلى جانب الآخر.

ـ أنا لا.

ـ وأنت؟

ـ أسمعكم.

ـ ألا يسمعنا أحد آخر؟

ـ إن لاساتورنو إمرأة موضع ثقة ولا تخرج من منزلها شائعة...

ـ إذا لم تخرج الشائعات، فسوف أخرجها أنا...

ـ صنعنا أنفسنا مع زعيمنا ومع زعيمنا عليهم أن يحطمونا.

ـ لقد ضاع. نصب له الجديد أحبولةً محكمة تماماً.

ـ وماذا تقترح؟

ـ يجب أن نكون حاضرين، هذا ما أقوله.

ـ عليهم أولاً أن يقطعوا أذنى. أن نكون أو لا نكون.

ـ كيف؟

ـ هناك طرق.

ـ لكن،ليس بطريقة مكشوفة، أليس كذلك؟

ـ أكيد. من المعترض...

ـ لا، لا، أنا لا أقول شيئاً.

ـ كأنها نعم ولا فى نفس الوقت...

ـ أقول يجب أن نكون جميعاً، مثل ذكور حقيقيين، مع هذا أو مع الآخر...

ـ استيقظ، يا سيدى الجنرال، فالنهار يطلع.

- إذن؟

- حسناً... الأمر يقف عند هذا الحد. كل واحد يعرف إلى أين يمضى.

- حسناً... من يدرى.

- أنا أقول.

- أتعتقد صراحةً أن زعيمنا لن يتقدم؟

- يبدو لى، يبدو لى...

- ماذا؟

- لا، فقط يبدو لى.

- وأنت، فى النهاية؟

- وأنا يبدو لى كذلك.

- المهم فى ساعة الحقيقة ألاّ تتذكروا حتى أننا تناقشنا اليوم.

- من سيتذكر أى شىء؟

- أقول، إذا كان ثمة شكوك.

- الشكوك اللعينة.

- إصمت أنت. أحضر لنا شيئاً، إذهب.

- الشكوك اللعينة، يا سيدى.

- إذن، لن نمضى سوياً؟

- سوياً نعم، لكن كل واحد بطريقته...

- ... وفى النهاية سيستمر توزيع الثمرة فى نفس المكان...

- فى نفس المكان. هذا صحيح.

- ألن تأكل، يا سيدى الجنرال خيمينث؟

- كل واحد يعرف دوره.

- والآن، إذا أفلت لسان أحد...

- لكن، فيم تفكر، يا أخى؟ ألسنا جميعاً إخوةً هنا؟

ـ أنا أقول أن نعم، لكن بعد ذلك يبدأ المرء فى تذكر الأم التى أنجبته، وبصراحة، تبدأ الشكوك...

ـ الشكوك اللعينة، كما تقول لاساتورنو...

ـ اللعينة جداً، يا سيدى الجنرال جابيلان.

ـ ويتذكر المرء فقط.

ـ يمضى المرء ويقرر وحده، وينقضى الأمر.

ـ لكن المرء يريد إنقاذ نفسه، هيه؟

ـ بشرف، يا سيدى النائب، بشرف دائماً.

ـ بشرف، يا سيدى الجنرال، هذا أقل ما يجب.

ـ إذن...

ـ هنا لم يحدث شىء.

ـ لا شىء، لا شىء مطلقاً، لا شىء.

ـ لكن هل حقاً سينتزعون ضرس زعيمنا؟

ـ أيهما، زعيمنا السابق أم الحالى؟

ـ السابق، السابق...

Chicago, Chicago, that toddlin'town: رفعت لاساتورنو إبرة الفونوغراف وصفقت: ـ يا بنات، يا بنات، إنتباه...، بينما وضع هو الشريط فى الجهاز وأزاح الستائر، ضاحكاً، ولم يَرَهُنَّ إلاّ خلسةً، مُنعَكِسات فى المرآة المبقّعة لتلك الصالة، سمراوات لكنهن يضعن البودرة والكريم، وطابع الحسن المزَّيف مرسومٌ فوق الخدود، وفوق الصدور، وبجانب الشفاه، بأخفاف الساتان والجلد، والجونلات القصيرة، والجفون المائلة إلى الزرقة ويد ثربيرو* فى ثياب الأحد وعلى وجهه البودرة هو أيضاً: ـ هديتى، يا سيدى؟

---

* ثربيرو: سربيروس: حارس الجحيم. كلب ذو ثلاث رؤوس يحرس جهنم فى الميثولوچيا. واضح أنها كنية للبواب ـ م.

كان الأمر سيمضى على ما يرام، كان هو يعرف ذلك، حين تحسس بطنه بيده اليمنى وتوقف فى الحديقة الصغيرة أمام دار البغاء ليتنفس الندى الزغبى وطزاجة الماء فى نافورة المخمل الطحلبى: حسناً، لابد أن الجنرال خيمينث قد نزع الآن نظارته الزرقاء ولابد أنه يفرك جفنيه اليابسين، ونُتَفِ عُماص إلتهاب الملتحمة الذى يكسو ذقنه: سيطلب أن يخلعوا له حذاءه العسكرى، أن يخلع له أحد الحذاء العسكرى لأنه مُتعَب ولأنه متعوِّد على أن يخلعوا له الحذاء وسوف يضحك الجميع لأن الجنرال سينتهز فرصة وضع الفتاة وهى تخلع له الحذاء ليرفع جونلتها ويكشف الأفخاذ الصغيرة المستديرة الداكنة المكسوة بحرير أرجوانى، رغم أن الآخرين سيفضِّلون المنظر الغريب لتلك العينين المَحجوبتين دائماً، والمفتوحتين مرةً واحدة مثل محارتين ضخمتين بلا طعم وسيشرع الجميع، الأصدقاء، الإخوان، الزملاء، فى فرد أذرعتهم ويجعلون فتيات ماخور لاساتورنو يخلعن لهم السترات، لكنهن سيدرن كالنحلات حول من يرتدون السترة العسكرية، كأنما لا تعرف أى واحدةٍ منهن ماذا يمكن أن يكون تحت الرداء العسكرى، والأزرار ذات النسر والحية، والنجوم الذهبية: كان قد رآهن تتقافزن هكذا، نَديِّات، خرجن لتوِّهن من الشرنقة، وأذرعهن الخلاسية مرتفعة فى الهواء وفى أيديهن علبة البودرة والبدَّارة، تبيِّضن رؤوس الأصدقاء، الإخوان، الزملاء المضطجعين على الأسِرَّة وسيقانهم مفتوحة وقمصانهم مبقعة بالكونياك، وصدورهم مبلولة وأيديهم جافة، بينما يتسلل إيقاع الشارلستون، بينما تأخذن فى نزع ثيابهم ببطء وفى تقبيل كل جزء عار وتتصايحن حين يمدون أصابعهم: نظر إلى أظافره بأطرافها البيضاء التى يقال أنها دليلٌ على الكذب وإلى هلال السبابة ونبح الكلب قريباً منه. رفع ياقة چاكتته وسار نحو منزله، رغم أنه كان يُفضِّل العودة إلى المكان الآخر لينام تعانقه الأجساد المكسوة بالبودرة

ويتخلص من ذلك الحامض الذى يقتل أعصابه ويجبره على البقاء وعيناه مفتوحتان، ناظراً بلا ضرورة إلى تلك الصفوف من المنازل الخفيضة، الرمادية، المحاطة بشرفات غاصّةٍ بأصص البورسلين والزجاج، إلى تلك الصفوف من النخيل الجاف والمترب للطريق، وهو يشم بلا ضرورة بقايا الذرة الخضراء فى الفلفل الأحمر والخل.

مرَّر يده على وجنتيه. بحث بين مجموعة المفاتيح غير المريحة. ستكون هى موجودة بأسفل فى هذه اللحظة: هى التى تصعد وتهبط السلالم المفروشة بالسجاد دون أن تصدر صوتاً والتى تفزع دائماً عندما تراه يدخل: ـ آى! لقد أفزعتنى. لم أتوقعك. لا، لم أتوقعك مبكراً هكذا؛ أقسم لك أننى لم أتوقعك مبكراً هكذا ـ وتساءل ما الدافع الذى يجعلها تتخذ مواقف التواطؤ لتجعله هو المذنب. لكن تلك أسماءٌ أما اللقاءات، الانجذاب المرفوض قبل أن يبدأ حركته، الرفض الذى كان يقرِّبهما أحياناً، فليس لها إسم بعد، لا قبل ولادتها ولا بعد إنتهائها، لأن كلا الفعلين هما نفس الشىء. ذات مرة، فى الظلمة، إلتقت أصابعه وأصابعها على إفريز السلَّم وأبعدت هى يده وأشعل هو الضوء حتى لا يتعثَّر، لأنه لم يكن يعرف أنها تهبط بينما يصعد هو، لكن وجهها لم يكن يحمل شعور اليد وأطفأت هى الضوء وأراد هو أن يسمى ذلك شذوذاً لكن ذلك لم يكن هو الإسم، لأن العادة لا يمكن أن تكون شاذةً، بقدر ما تكف عن كونها إستثنائية وصادرة عن تفكير مسبق. كان يعرف شيئاً، أملساً، ملفوفاً فى حرير وملاءات كتانية، موضوعاً للَّمس لأن أضواء المخدع لم تكن تُضاءُ أبداً فى تلك اللحظات: فقط فى تلك اللحظة على السلَّم وحينئذ لم تخفِ هى وجهها، ولم تتظاهر بذلك. كانت مرةً واحدةً، لم يكن من الضرورى تذكُّرها لكنها رغم ذلك قلّصت معدته برغبة حلوة ـ مرة فى أن تتكرر. فكر فى ذلك وأحسه عندما تكرّرت، حين تكرّرت ذلك الفجر ذاته

ولمست نفسُ اليـد يدها، هذه المرة على الإفـريز الذى يؤدى إلى قبـو المنزِل، رغم أن ضوءاً لم يُشعل وسألته هى فقط: ـ عم تبحث هنا؟ قبل أن تُصحِّح نفسها وتكرِّر بنفس الصوت: ـ آى! لقد أفزعتنى. لم أتوقعك. أقسم لك أننى لم أتوقعك مبكراً هكذا ـ: نفس الصوت، دون تهكم وتنفَّس هو تلك الرائحة المُجسِّدة تقريباً، تلك الرائحة ذات الكلمات، ذات الهسيس.

فتح باب القبو ولم يتبيَّنه فى البداية، لأنه بدا أيضاً أنه مصنوعٌ من البخور؛ أمسكت هى بذراع الضيف السّرى الذى حاول إخفاء طيّات العباءة بين ساقيه وتبديد الرائحة المقدَّسة بتلويح ذراعيه، قبل أن ينتبه إلى لا جدوى كل شىء ـ حمايتها، والحركات المسرحية السوداء ـ ويحنى رأسه فى إشارةٍ تُحاكى الختام لابد أنها أراحته وأكدت له أنه، من أجل رضاه هو إنْ لم يكن من أجل رضى الشاهدين اللذين لم يكونا ينظران إليه، بل إلى بعضهما، قد أدّى الأفعالَ المكرَّسة للإذعان. أرادَ، تضرَّعَ أن ينظر إليه الرجل الذى دخل لتوّه، أن يتعرَّف عليه: بنظرةٍ جانبية، رأى القس أنه لا يمكنه إنتزاع عينى الرجل عن المرأة، ولا عينيها عنه، مهما إحتضنت هى، وحجبت مفوَّض الرب هذا الذى أحسّ فى تقلُّص الغدة المرارية، فى الصُفرة التى سرت فى عينيه ولسانه، إرهاصاً برعب لن يستطيع، إذا حانت لحظته ـ اللحظة التالية، فلن تكون ثمة أخرىً ـ أن يخفيه. فكر الكاهن أنه لم تبق أمامه سوى هذه اللحظة، لقبول مصيره، لكن فى هذه اللحظة لم يكن ثمة شهود. كان ذلك الرجل ذو العينين الخضراوين يرجو: يرجوها أن ترجوه، أن تتجاسر على الرجاء، أن تُجرِّب مع لا أو نَعَم القَدَر ولم تستطع هى الردّ؛ لم تعد تستطيع الإجابة. تخيّل القس أنها، ذات يوم آخر، حين ضحَّت بهذه الإمكانية للإجابة أو الرجاء، كانت قد ضحَّتْ منذ ذلك الحين بهذه الحياة، حياة الكاهن. أبرزت الشموع دُكنة الجلد،

المادة التى تحفظ الشفافية والبريق؛ نَسَخَت الشموعُ فى توأم أسود كلَّ بياض الوجه، والعنق، والذراعين. إنتظرَ حتى ترجوه. رأى إنقباضَ تلك الحنجرة التى تودُّ التقبيل. تنهد القس: لن ترجوه هى ولم تبق أمامه هو، فى مواجهة الرجل ذى العينين الخضراوين، سوى هذه اللحظة للقيام بإذعانه، لأنه لن يستطيعَ غداً، سيكون ذلك مستحيلاً عليه دون شك، غداً سينسى الإذعانُ إسمه وسيُدعَى أحشاءً والأحشاءُ لا تعرفُ كلمات الرب.

نام حتى الظهيرة. أيقظته موسيقى پيانولا فى الشارع ولم يشغل نفسه بالتعرف على الأغنية المعزوفة، لأن صمت الليلة السابقة ـ أو ذكراها، التى هى الليل والصمت ـ فَرَض لحظات طويلةً ميّتةً تقطع اللحن ليبدأ من جديدٍ على الفور الإيقاعُ البطىء والحزين، الذى ينساب من النافذة الموارية، قبل أن تُعاودَ مقاطعته هذه الذكرى الخالية من الأصوات. رن التليفون فرفَع السماعة واستمع إلى الضحكة المكتومة للآخر وقال:

ـ حسناً.

ـ ها قد أصبح لدينا فى مقر القيادة، يا سيدى النائب.

ـ حقاً؟

ـ السيد الرئيس على علم.

ـ إذن...

ـ أنت تعرف. لفتةِ. زيارة. دون حاجةٍ لأن تقول أى شىء.

ـ فى أى ساعة؟

ـ مرّ هنا حوالى الثانية.

ـ سنتقابل.

إستمعت إليه من المخدع المجاور وشرعت فى البكاء، ملتصقةً بالباب، وبعدها لم تعد تسمع شيئاً وجفَّفت خديها قبل أن تجلس

أمام المرآة.

إشترى الصحيفة من أحد البائعين المتجولين وحاول قراءتها بينما يقود السيارة، لكنه لم يتمكن إلاّ من إلقاء نظرة على العناوين التى تتحدث عن الإعدام بالرصاص لمن حاولوا إغتيال الزعيم الآخر، المرشَّح. تذكّره فى اللحظات العظيمة، فى الحملة ضد بيبيا، فى الرئاسة، حين أقسم الجميع على الولاء له ونظر إلى تلك الصورة للأب پرو، وذراعاه مفتوحتان، وهو يتلقى الرصاص. سارت إلى جواره الأغطية البيضاء للسيارات الجديدة، ومرّت الجونلات القصيرة وقبعات الأجراس للنساء والبنطلونات المنفوخة الشبيهة بالسحالى السائدة الآن وماسحو الأحذية الجالسون على الأرض، حول نافورة الضفدعة، لكن لم تكن المدينة هى التى تمر أمام هذه النظرة الزجاجية والثابتة، بل الكلمة. تذوقها ورآها فى النظرات السريعة التى تتقاطع مع نظرته من الأرصفة، رآها فى الأوضاع الجسمانية، فى تقطيبات الوجوه، فى الإيماءات العابرة، فى هز الأكتاف، فى الإشارات البذيئة للأصابع. شعر بأنه حيٌّ بصورة خطرة، مشدودٌ إلى عجلة القيادة، تسبب له الدوارَ الوجوهُ، والإيماءات، والأصابع البذيئة فى الشوارع، بين تأرجحين للبندول. يجب أن يفعل ذلك اليوم إذ فى الغد، وبشكل حتمى، سيقوم المُهانون اليوم بإهانته هو. أعشى بصره إنعكاس ضوءٍ فى زجاج فرفع يده إلى جفنيه: لقد أحسن الإختيار دائماً، إختار الناكح الأكبر، الزعيمَ الصاعد ضد الزعيم الآفل. إنفتح الميدان الرئيسى الشاسع، بمنصات البيع تحت البواكى ودوّت أجراس الكاتدرائية برنين البرونز العميق معلنةً الثانية بعد الظهر. أظهر بطاقة النائب للحارس على مدخل قصر الرئاسة. أبرز شتاءُ الهضبة البللوريُ الخطوط الظلّية الكنائسية للمكسيك العتيق وهبطت جماعات من الطلبة فى فترة الامتحانات عبر شارعى الأرجنتين وجواتيمالا.

أوقف السيارة فى الفناء. صعد فى المصعد الشبيه بالقفص. عبر صالونات خشب الورد والثُريات المضيئة وجلس فى قاعة الإنتظار. وفيما حوله، لم تكن الأصوات الخفيضة ترتفع إلاّ لتنطق بحماسة زائفة الكلمتين:

- السيِّد الرئيس.
- الصيِّد الرئيص.
- السيِّيد الرئييس.
- النائب كروث؟ تفضَّل.

مدّ له البدينُ ذراعيه وربَّت الإثنان على ظهرى بعضهما وعلى الخصرين وعلى المؤخرتين وضحك البدين كما يفعل دائماً، من الداخل وإلى الداخل وصنع بسبابته إشارة إطلاق النار على الرأس وعاود الضحك دون صوت، بالاهتزاز الصامت لكرشه وخدِّيه الداكنين. زرّر بصعوبة ياقة الرداء العسكرى وسأله إن كان قد قرأ الصحف فقال هو نعم، أنه الآن يفهم اللعبة لكن كل هذا لا أهمية له وأنه جاء فقط ليؤكد للسيد الرئيس ولاءه، ولاءه غير المشروط، وسأله البدين إن كان يرغب فى شيء فحدّثه هو عن بعض الأراضى القفر فى ضواحى المدينة، لا تساوى الكثير اليوم لكنها مع الزمن يمكن أن تكون مُربحة ووعده الآخر بتسوية المسألة لأنهم فى نهاية المطاف زملاء، إخوان. وقد ظل السيد النائب يناضل، هووه، منذ عام ١٣ وأصبح له الحق فى أن يعيش آمناً وخارج تقلُّبات السياسة: قال هذا وربَّت على ذراعه وعاود الطبطبة على ظهره ومؤخرته لتكريس صداقتهما. إنفتح البابُ ذو المقابض المذهَّبة وخرج من المكتب الجنرال خيمينث، والمقدم جابيلان وأصدقاءٌ آخرون كانوا الليلة الماضية فى دار لاساتورنو ومرّوا دون أن يروه، ورؤوسهم مطأطأة وعاود البدين الضحك وقال له أن كثيرين من أصدقائه قد جاءوا ليضعوا أنفسهم رهن إشارة السيد

الرئيس فى ساعة الوحدة هذه ومدّ ذراعه ودعاه للدخول.

فى عمق المكتب، بجوار ضوء مائل إلى الخضرة، رأى تلك العينين الثاقبتين فى عمق الجمجمة، عينى النمر المتحفز هاتين وأحنى رأسه وقال: - تحت أمرك، يا سيدى الرئيس... فى خدمة سيادتك دون شروط، أؤكد لسيادتك، يا سيدى الرئيس...

أنا أشم هذا الزيت القديم الذين يلطِّخون به عينّى، وأنفى، وشفتّى، وقدمّى الباردتين، ويدىّ الزرقاوين، وفخذىّ، قرب عضوى وأرجو أن يفتحوا النافذة: أريد أن أتنفَّس. أُطلق هذا الصوتَ الأجوف من منخارىّ وأتركهم يفعلون وأشبكُ ذراعىّ فوق معدتى. كتان الملاءة، طزاجتها. هذا حقاً أمرٌ هام. ماذا يعرفون هم، كاتالينا، والقس، وتيريسا، وخيراردو؟

- دعونى...

- ماذا يعرف الطبيب. أنا أعرفه أفضل. إنها سخريةٌ أخرى.

- لا تقولى شيئاً.

- تيريسيتا، لا تُعارضى أباك... أقصد، أمك... ألا ترين أن...

- هأ. أنت مسئولة مثله تماماً. أنت لأنك ضعيفة وجبانةَ، وهو لأنه... لأنه...

- كَفَى. كفى.

ـ مساء الخير.
ـ من هنا.
ـ كَفَى، بحق الرب.
ـ تفضلوا، تفضلوا.
فيم كنت أفكر؟ ماذا كنت أتذكّر؟
ـ ... مثل متسوِّلين، لماذا يُجبرُ خيراردو على العمل؟

ماذا يعرفون هم، كاتالينا، والقَس، وتِيريسا، وخيراردو؟ ماذا ستكون أهمية حركاتهم المسرحية الدالَّة على الحِداد أو عبارات التكريم التى ستظهر فى الصحف؟ منذا الذى ستكون لديه أمانة أن يقول، مثلما أقولُ الآن، أن حبى الوحيد كان إمتلاك الأشياء، ملكيتها الحسِّية؟ هذا هو ما أحبه. الملاءة التى أربِّت عليها. وكل شىء آخر، كل ما يمر الآن أمام عينىّ. أرضية من المرمر الإيطالى، تتخلله عروقٌ خضراء وسوداء. الزجاجات التى تحتفظ بصيف تلك الأنحاء. اللوحات القديمة، ذات الورنيش المتقشِّر، التى تلتقط فى بقعة واحدةٍ ضوءَ الشمس أو ضوء القناديل، التى تُتيح تلمُّسها ببطءٍ بالنظر واللمس، وأنا جالسٌ فوق أريكةٍ من الجلد الأبيض بنقوش ذهبية، وكأس الكونياك فى يدٍ والسيجار فى الأخرى، مرتدياً بذلة سموكنج خفيفة، من الحرير، وخفٍ من الجلد الناعم مزروع فوق سجادة سميكة وصامتة من الصوف. هنالك يتملَّكُ المرء المشهدَ ووجوه الرجال الآخرين. هنالك، أو جالساً فى الشرفة فى مواجهة المحيط الباسيفيكى، ناظراً إلى غروب الشمس ومُرَدِّداً بكل الحواس، بأشد الحواس توتراً، آه نعم، بأشد الحواس عذوبةً، تقدُّمَ وتراجعَ، وإحتكاكَ تلك الأمواج المفضَّضة فوق الرمال النديَّة. أرضٌ. أرضٌ يمكنُ ترجمتها إلى نقود. قطعُ أرض مربَّعة فى المدينة تبدأ فى الإرتفاع فوقها غابة دعامات البناء. أراضٍ خضراء وصفراء فى الريف، الأفضل دائماً،

قربَ السدود، يجتاحها طنين الجرَّارات. أراض رأسية فى الجبال المنجمية، خزائن نقودٍ داكنة. آلات: تلك الرائحة اللذيذة لآلة الطباعة التى تتقيأ أوراقها بإيقاعٍ متسارع...

"- إيه، دون أرتيميوً، هل تحس بتوعُّك؟

"- لا، إنها الحرارة. هذا القيظ. كيف حالك يا مينا؟ هل تتفضّلين بفتح النوافذ؟

"- حالاً..."

آه، أصوات ضوضاء الشارع. فجأة. لا يمكن فصل بعضها عن البعض الآخر. آه، أصوات ضوضاء الشارع.

"- ماذا تريد، دون أرتيميو؟

"- مينا، أنت تعرفُ بأى قدر من الحماس دافعنا هنا، حتى اللحظة الأخيرة، عن الرئيس باتيستاً. لكن لما لم يعُد الآن فى السلطة، لم يعد الأمر سهلاً، وأقل من ذلك سهولةً الدفاع عن الجنرال تروخييو، رغم أنه يظل فى السلطة. أنت تمثِّل الإثنين ولابد أنك تفهم... الأمر مُرهِق...

"- حسناً، لا تشغل بالك، دون أرتيميو، سأعمل على تسوية الأمر. لكن مع كل هؤلاء المنهوبين... وإذا كنا نتحدث عن هذا، فأنا أحضر لك الآن بضع أوراق تشرح عمل رجل الخير*... هذا كل شىء...

"- وكيف لا. إتركها لى. آه، يا دياث، حسنٌ أنك جئت. إنشر هذا فى صفحة الإفتتاحية بتتويجٍ تخترعه... نهارك سعيد، مينا، أنتظر أخبارك..."

أخبارك. أخبار. أنتظر أخبارك. أخباراً من شفتّى البيضاوين

---

* Benefactor: لقب الدكتاتور تروخييو - م.

آآآى، يداً، أعطوناً يداً، نبضاً آخر يُحيِى نبضى، شفاه بيضاء...

ـ أنا أحمّلك الذنب.

ـ هل يُريحكِ هذا؟ إفعليه. لنعبر النهر على صهوة الجياد. لِنَعُدْ إلى أرضى. أرضى.

ـ ... نريد أن نعرف أين...

أخيراً، أخيراً تمنحانى لذة المجىء، راكعتين لحماً وشحماً، لتطلبا منى هذا. القس توقّع ذلك. لأن شيئاً لابد أنه يدور حولى على مقربة شديدة حتى تجيئان بدورهما إلى رأس مخدعى بذلك الإرتجاف الذى لا يغيب عن إنتباهى. تحاولان أن تتبيَّنا سخريتى، هذه السخرية الأخيرة التى طالما تلذَّذت بطعمها وحيداً، هذا الإذلال الحاسم الذى لن أتمكن من الاستمتاع بعواقبه النهائية، لكن إرتعاشاته الأولية تسرّنى فى هذه اللحظة. ربما سيكون ذلك هو الدفء الأخير للإنتصار...

ـ أين... ـ أغمغم بعذوبة بالغة، بتصنٌّع بالغ... ـ أين... أتركانى أفكر... تيريسا، أظننى أتذكر... أليس هناك صندوق من الماهوجنى... أحتفظ فيه بالسيجار...؟ له قاعٌ مزدوج...

لا أحتاج إلى إكمال كلامى. تنهض الإثنتان وتجريان إلى الطاولة الحديدية الضخمة حيث تعتقدان أننى أحياناً، بالليل، أقضى ساعات الأرق فى قراءة أشياء: بودّهما أن يكون الأمر كذلك. تقلبان أدراجاً، وتبعثران أوراقاً وتعثران، أخيراً، على صندوق الأبنوس. آه، إذن فهى هناك. هناك أخرى. أم أخذتاها. لابد أن أصابعهما قد فتحت بعجلةٍ القاع الثانى، ساحبتين إياه من القاعدة بذلك الاحترام. لا شىء هناك. متى أكلتُ آخر مرة؟ تبوّلت منذ وقت طويل. لكن الأكل. تقيأت. لكن الأكل.

" ـ السكرتير المساعد على التليفون، دون أرتيميو..."

أسدلوا الستائر، أليس كذلك؟ الوقت ليل، أليس كذلك؟ هناك

نبـاتات تحـتـاج إلى ضـوء الليل لتُـزهـر. تنتظر حـتـى تظهـر الظلمـة. اللبـلاب يفـتح بتـلاته عند الغـروب. اللبـلاب. فى ذلك الكُوخ كـان ثمـة شـجـرة لبـلاب، فى الكُوخ بجوار النهـر. كانت تتفتح عند حلول المساء. نعم.

" ـ شكراً، سنيوريتا... حسناً... نعم، أنا أرتيميو كروث. لا، لا، لا، ما من مصـالحـة مجدية. إنهـا مـحاولة واضحـة لإسقاط الحكومة. ها قد أفلحوا فى جعل النقابة بكاملها تترك الحزب الرسمى؛ وإذا استمر ذلك، على مـاذا ستستندون، يا سيدى السكرتير المسـاعد؟... نعم... هذا هو الطريق الوحيد: إعلان بطلان الإضراب، إرسال الجنود إليهم، تحطيمهم بالهروات وسـجن قادتهم... كيف لا تكون المسألة خطيرة، يا سيدى..."

الميموزا أيضاً، أذكُرُ أن الميموزا أيضاً لها مشاعر؛ يمكنها أن تكون حسَّاسة وخجولة، عفيفة ونابضة، حيةٌ، هذه الميموزا...

" ـ ... نعم، مـؤكد... ثمـة شىء آخـر، حـتـى نتحـدث بـوضـوح: إذا أظهـرتم حضـراتكم أنكم ضـعـفـاء، فـإننى أنا وشـركـائى سنودع رؤوس أموالنا خارج المكسيك بوضوح. نحن بحاجة إلى ضمـانات. إسمع، ماذا يمكن أن يحدث إذا هربت من البلاد خلال أسبوعين مائة مليون دولار، مثلاً؟... إيه؟... لا، الآن أفهم. هذا ما كان ينقصنا!..."

خلاص. إنتهى. آه. كان هذا كل مـا هناك. كان هذا كل مـا هناك؟ من يدرى. لا أتذكـر. منذ زمن لا أستمع إلى أصوات جهاز التسجيل هذا. منذ زمن وأنا أتظاهر وأنا أفكر فى الحقيقة فى أشياء يطيب لى أن آكلها، نعم، التفكير فى الطعام أهم لأننى لم آكل منذ ساعات طويلة ويفصل باديبا الجهاز عن التيار وأبقيت عينىّ مغمضتين ولا أدرى ماذا يظنون، مـاذا تقول كاتالينا، وتيريسا، وخيـراردو، والطفلة ـ لا، جلوريا خـرجت، ذهبت منذ برهةٍ طويلة مع إبن باديبـا، إنهـمـا يتـبـاوسـان فى

الصالة، منتهزين فرصة عدم وجود أحد - لأننى أظل وعينىّ مغلقتين ولا أفكر سوى فى ضلوع الخنزير، فى لحم الظهر المحمَّر، فى الشواء، فى الديوك المحشيَّة، فى أنواع الحساء التى تعجبنى كثيراً، تقريباً بقدر ما تعجبنى أنواع الحلوى، آه نعم، كنت دائماً مغرماً بالحلوى والحلوى هنا لذيذة المذاق، حلوى اللوز والصنوبر، حلوى الكاكاو واللبن الرائب، آه، آه، واللبن المحروق أيضاً، حلوى لبن ثامورا، أفكر فى حلوى لبن ثامورا، والفواكه المسكَّرة، وسمك الوقار، فى سمك القاروس، وسمك موسى، أفكر فى المحار والكابوريا.

- لنعبر النهر على صهوة الجياد. ونصل حتى الضفة الرملية والبحر. فى بيراكروث.

فى الصَدَفيَّات والسُبِّيط، فى الأخطبوط وفواكه البحر، أفكر فى البيرة، المرَّة كالبحر، البيرة، أفكر فى لحم غزلان يوكاتان، فى أننى لست عجوزاً، لا، رغم أننى كنت عجوزاً ذات يوم، أمام مرآة، وفى الجبن الروكفور، كم أستطيبه، أفكر، أريد، كم يخفِّف عنى هذا، كم يضجرنى الإستماع إلى صوتى الخاص الدقيق، الملىء بالتلميحات، التسلطى، الذى يلعب نفس هذا الدور، دائماً، يا للسأم، بينما كان يمكننى أن آكل آكل: آكل، وأنام، وأضاجع والباقى، ماذا؟ ماذا؟ ماذا؟، من يريد أن يأكل ينام يضاجع بنقودى؟ أنت يا باديا وأنتِ يا كاتالينا وأنتِ يا تيريسا وأنت يا خيراردو وأنت يا باكيتو باديا، هل تدعى هكذا؟، لابد أنك الآن تأكل شفتى حفيدتى فى ظلمة صالتى أو هذه الصالة، أنت الذى مازلت شاباً، لأننى لا أعيش هنا، أنتما شابان، أنا أعرف كيف أعيش جيداً، لهذا لا أعيش هنا، أنا عجوز، هه؟، عجوز ملىء بالوساوس، له الحق فى أن تكون له وساوس لأنه قد هُتِكَ، أترون؟، وهو يهتك الآخرين، إختار فى الوقت المناسب، مثل تلك الليلة، آه لقد تذكرتها قبلاً، تلك الليلة، تلك الكلمة، تلك المرأة: أعطونى

طعاماً: لماذا لا يعطوننى طعاماً: إغربوا: آه، ألم: إغربوا: إهتكوا أمكم:

أنـت ستنطِقها: إنها كلمتك: وكلمتك هى كلمتى؛ كلمة شرف: كلمة رجل: كلمة عَجَلة: كلمةُ طاحونة: لعنةٌ، تحيةٌ مقصودة، مشروعُ حياة، إنتماءٌ، ذكرى، صوت اليائسين تحرير الفقراء، أمرُ ذوى النفوذ، دعوةٌ إلى النزاع وإلى العمل، نقشٌ للحب، علامةٌ على المولد، تهديدٌ وسخرية، كلمة شهادة، رفيقةٌ للعيد وللسُّكْر، سيفُ الشجاعة، عرشُ القوة، قمةُ المداهَنَة، شعارُ السلالة، طوقُ نجاة الحدود، خلاصة التاريخ: شارةُ المكسيك ورمزه: كلمتك:*

---

* الكلمة التى يكرّس لها فوينتس هذا المقطع بكامله لمحوريتها فى الوعى - واللاوعى - المكسيكى والتى يقول أنها "شعار المكسيك ورمزه" هى كلمة chingada بمعانيها واشتقاقاتها البالغة الإتساع. وهى من الفعل chingar الذى يعادل تقريباً الفعل الإنجليزى to Fuck، لكنها تحمل ظلالاً أشد تعقيداً وتشابكاً نتيجة تاريخ المكسيك. وقد أطلقت (كصفة) على مالينشى أو مالينالى التى كانت عبدةً لدى هنود المايا ثم أهدوها إلى هرنان كورتيس فاتح المكسيك فأصبحت عشيقته ومترجمته وغيّر إسمها إلى مارينا. وكسبت فى هذا الوضع الجديد عداء أهل البلاد. وتحمل الكلمة معانى الإنتهاك والإغتصاب والفحش والإجبار والخديعة وليس مجرد الفعل الجنسى. وتشير إلى عمليات التهجين القسرى والعنيف والمتتابع لثقافات وأجناس عديدة على أرض المكسيك. فالمايا - مثلاً - يغتصبون سبايا القبائل الصغيرة المهزومة. والإسبان يغتصبون

- إهتك أمَّك
- إبن الهتيكة
- نحن هنا الهاتكون الكبار
- دع عنك المهاتكة
- سأهتك هذا حالاً
- هيا، أيها المهتوك فى استسلام.
- لا تدعهم يهتكونك
- هتكتُ هذه العجوز
- إهتك أنت
- إهتك حضرتك
- إهتك جيداً، ولا يهم من
- المَثَل قال لك إهتك
- هتكته فى ألف بيسو
- إلى الهتيكة ولو أرعدتم
- أمورى مهتوكة
- هتكنى الرئيس

سبايا الجميع. ويأتى الأمريكيون الشماليون لفرض إغتصاب مادى ومعنوى للمكسيك بنهب الثروات وفرض الثقافة. ولا فكاك للمكسيكى من نتائج هذه الأفعال المركَّبة والمتتالية. ونعتقد أن فوينتس يودّ التركيز على تقريبها من معانيها الدرامية الأولى التى تحكم كل رؤيته للتاريخ المكسيكى كفعل تهجين عنيف وقسرى لكنه يُظهر الضيق بها لسعيه إلى تجاوز هذا التاريخ بدءاً من قبوله.

وقد نتج عن إتساع إستخدامها التقليل من عمق معانيها الأصلية فأصبحت تعنى فى اللغة الدارجة أشياء كثيرة من الإخفاق إلى الضيق إلى الخداع إلى الخطأ إلى الهزل إلى الافراط فى الشراب وحتى إلى تدريب ديكة القتال - م.

- لا تهتك لى يومى
- فلنذهب جميعاً إلى الهتيكة
- إنغمس فى الهتيكة
- لا أجبن حتى لو هتكونى
- هتكوا الهندى
- هتكنا المستوطنون الإسبان
- الجرينجو يهتكوننى
- عاش المكسيك، أبناء الهتيكة الكبرى:

حزن، فجر، خديعة، تلطيخ سمعة، إحتيال، نوم سىء: أبناء الكلمة. وليدو الهتيكة، موتى فى الهتيكة، أحياء بفعل الهتيكة الخالصة: بطن وكساء، مختبئين فى الهتيكة. إنها تمنح الوجه، وتوزّع أوراق اللعب، وتتلاعب بالشعار، تغطى التلميح والتلاعب بوجهين، وتكشف العراك والشجاعة، تُسكِرُ، تصرخُ، تستسلم، تحيا فى كل فراش، تتسيَّد خيلاء الصداقة، والكراهية، والسلطة. كلمتنا. أنت وأنا، أعضاء هذه الطائفة الماسونية: طائفة الهتيكة. أنت من أنت لأنك عرفت كيف تهتك ولم تتركهم يهتكونك؛ أنت من أنت لأنك لم تعرف كيف تهتك وتركتهم يهتكونك: سلسلة الهتيكة التى تسجننا جميعاً: حلقةٌ إلى أعلى، وحلقةٌ إلى أسفل، متَّحدين مع كل أبناء الهتيكة الذين سبقونا والذين سيتلوننا: سترثُ الهتيكة من أعلى؛ سترثها إلى أسفل: أنت إبن أبناء الهتيكة؛ ستكون أباً لمزيدٍ من أبناء الهتيكة: كلمتنا، خلف كل وجه، وكل إشارة، وكل نَصَاحَةً: عضو الهتيكة، قضيب الهتيكة، مؤخرة الهتيكة: الهتيكة تُصدر لك الوصايا، الهتيكة تُخلِّصكَ من بلغم الصوم الكبير، تهتكُ الهتيكة، تهيئُ ذلك الهتيكةُ، لن تكون لك أم، بل ستكون لك هتيكتك: بالهتيكة تنالُ كلَّ أمٍ، أنها توأمك، إنها قريبُك، أخوك، أمك، إنها لك أفضل من لا

شيء: الهتيكة: تقصمُ ظهركَ بالهتيكة؛ تشعر أنك تستطيع عمل كل شيء بالهتيكة، تُطلقُ سلسلة ضرطات رائعة مع الهتيكة، يتجعّدُ جلدكَ مع الهتيكة، تثبت عزيمتك مع الهتيكة: لا تجبنُ مع الهتيكة: تدورُ فى فلك الهتيكة:

إلى أين تذهب مع الهتيكة؟

يا للسِّر، يا للخديعة، يا للحنين: تعتقد أنك معها ستعود إلى الأصول: إلى أيِّ أصول؟ ليس أنت: لا أحد يريد العودةَ إلى العصر الذهبى الكاذب، إلى الأصول المشئومة، إلى الزئير الوحشى، إلى الصراع على لحم الدُّب، على الكهف وحَجَر الزناد، إلى التضحية وإلى الجنون، إلى الرعب الذى لا إسم له للأصلَ، إلى الصنم الذى تجرى التضحيةُ به، إلى الخوف من الشمس، الخوف من الإعصار، الخوف من الخسوف، الخوف من النار، الخوف من الأقنعة، الرعب من الآلهة، الخوف من سنّ البلوغ، الخوف من الماء، الخوف من الجوع، الخوف من الوحشة، الرعب الكونى: الهتيكة، هَرَم الإنكارات، معبد الفزع.

يا للسِّر، يا للخديعة، يا للسراب: تعتقدُ أنكَ معها ستسيرُ إلى الأمام، ستُثبتُ ذاتك: إلى أى مستقبل؟ ليس أنت: لا أحد يريدُ السيرَ مُحمَّلاً باللعَنة، بالريبة، بالإحباط، بالضغينة، بالكراهية، بالحَسَد، بالحنق، بالإحتقار، بانعدام الأمان، بالبؤس، بالإنتهاك، بالسِبَاب، بالتخويف، بالكبرياء الزائف، بالنزعة الذكورية، بفساد هتيكتك المهتوكة:

إتركها فى الطريق، إغتلها بأسلحة ليست أسلحتها: فلنقتلها: فلنقتل هذه الكلمة التى تُفرِّقُ بيننا، تُحجِّرُنا، تُعضِّنُنا بسُمِّها المزدوج للمعبود والصليب: دعونا لا نجعلها جوابنا وشقاءنا:

صَلِّ، بينما يدهن ذلك القس شفتيك، وأنفك، وجفنيك، وذراعيك،

وساقيك، وعضوك بالمباركة الأخيرة: تضرع: ألاّ تكون جوابنا ولا شقاءنا: الهتيكة، أبناء الهتيكة، الهتيكة التى تُسمِّمُ الحب، تفكُّ عُرى الصداقة، تسحقُ الرِّقة، الهتيكة التى تُفرِّق، الهتيكة التى تفصل، الهتيكة التى تُدمِّر، الهتيكة التى تُسمِّمُ: الفرج الطافح بالأفاعى ومعدن الأمّ الحجرية، الهتيكة، التجشؤ الثمل للكاهن فوق الهَرَم، للسيد فوق العرش، للكاهن الأكبر فى الكاتدرائية: دخان، إسبانيا وأناهواك*، دخان، أسمدة الهتيكة، براز الهتيكة، هِضاب الهتيكة، أُضحياتُ الهتيكة، تشريفات الهتيكة، إستعبادات الهتيكة، معابد الهتيكة، لغات الهتيكة: من ستهتكُ اليوم، كى توجد؟، ومن غداً؟ من ستهتكُ: من ستستخدمُ؟: أبناء الهتيكة هم هذه الأشياء، هذه الكائنات التى ستُحوِّلُها أنت إلى موضوعاتٍ لإستخدامك، لمتعتك، لسيطرتك، لإحتقارك، لإنتصارك، لحياتك: إبن الهتيكة هو شئ تستخدمه أنت: أفضل من لا شئ.

تتعَبُ

لا تهزمها

تسمع غمغمات الصلوات الأخرى التى لا تُنصِتُ إلى صلاتك

أنت: ألاّ تكون جوابنا وشقاءنا: إغسل نفسك من الهتيكة:

تتعَبُ

لا تهزمها

حملتها معك طوال حياتك: تلك:

أنت إبنٌ للهتيكة

للمهانة التى غسلتها بإهانة رجالٍ آخرين

للنسيان الذى تحتاجه حتى تتذكَّرً

---

* موقع مدينة مكسيكو - م.

لهذه السلسلة اللانهائية لظُلمِنا

تتعب

تُتعبِنى: تهزمنى؛ تجبرنى على الهبوط معك إلى هذا الجحيم؛ تودُّ تذكُّرَ أشياء أخرى، وليس هذا: تجبرنى على نسيان أن الأشياء ستكون، ليست كائنةً أبداً، ولم تكن كائنةً أبداً: تهزمنى بالهتيكة

تتعب

إسترح

إحلم ببراءتك

قل ماذا إعتزمتَ، ماذا ستتناول: أن الإغتصاب سيُرَدُّ لك ذات يوم بنفس العُملة، سيديرُ لك وجهه الآخر: حين تريد أن تنتهكَ وأنت شابٌ ما لابد أنك ستكون ممتناً له وأنت عجوز: اليومَ الذى ستنتبه فيه إلى شىء، إلى نهاية شىء: يوماً ستُبَكِّرُ فيه - أنا أهزمك - وسترى نفسك فى المرآة وسترى، فى النهاية، أنك قد تركتَ شيئاً وراءك: ستتذكره: أول يوم بلا شباب، أول يوم فى زمن جديد: أنظر إليه جيداً، ستنظرُ إليه جَيداً، كأنه تمثال، لتتمكنً من رؤيته من جميع الزوايا: ستزيح الستائر ليدخل هذا النسيمُ الباكر: آه، كم سيملؤك، آه، سيجعلك تنسى رائحة البخور تلك، تلك الرائحة التى تتعقَّبُكَ، آه، كم سينظِّفُك: لن يسمح لك حتى بالتلميح بالشك: لن يقودك إلى حافة ذلك الشك الأول:

(١١ : ١٩٤٧ سبتمبر)

هو من أزاح الستائر واستنشق الهواء النظيف. كان النسيم الباكر قد دخل، هازّاً الستائرَ ليعلن عن مقدمه. نظر إلى الخارج: ساعات الفجر هذه هى أفضل الساعات، أكثرها صفاءً، ساعات ربيع يومى. لن تتأخر الشمس المتأجِّجة فى خنقها. لكن فى السابعة صباحاً، إستضاء الشاطئ أمام الشرفة بسلامٍ منعشٍ وخطوطٍ ساكنة. لم تكد الأمواج توشوش ولم تبلغ أصوات المستَحمينً القلائلً حد صرف الإنتباه عن اللقاءَ المستوحِدِ للشمس البازغة، والمحيط الهادئ، والرمل الذى مشّطَه المدّ. أزاح الستائر واستنشق الهواء النظيف. سار ثلاثة صبيةٍ على الشاطئ حاملين دِلاءهم، وهم يجمعون كنوز الليل: نجوم بحر، وقواقع، وقطع خشب لامعة. تأرجح زورقٌ شراعى قرب الساحل: إنعكست السماء الشفافة على الأرض عبر فلترٍ من الأخضر الأشد شحوباً. لم تسِر أى سيارة عبر الطريق الذى يفصلً الفندق عن الشاطئ.

ترك الستارة تسقط ومشى إلى الحمّام ذى السيراميك الموريسكى الطراز. نظر فى المرآة إلى هذا الوجه المنتفخ بفعل نومٍ كان، رغم ذلك، قصيراً جداً، ومختلفاً جداً. أغلق الباب برفق. فتح الصنبورين ووضع السِدادة فى الحوض. ألقى قميص البيچاما فوق غطاء المرحاض. إنتقى شفرةً جديدة، وأخرجها من لفافة الورق الشمعى وأدخلها فى التجويف الذهبى. بعدها ترك سكين الحلاقة تسقط فى الماء الساخن، وبلَّل فوطة وغطى وجهه بها. ضبَّب البخارُ الزجاجَ. مسحه بإحدى يديه وأشعل إسطوانة ضوء النيون الموضوعة فوق المرآة. عصر أنبوبة مُنْتَجٍ أمريكى شمالى جديد، كريم الحلاقة الذى يوضع على الجلد مباشرةً؛ وضع المادة البيضاء المنعشة فوق خدّيه، وذقنه، ورقبته. لسَعَ أصابعه عند إخراج سكين الحلاقة من الماء. أبدى إيماءة ضيقٍ وبيده اليسرى

فَرَد خداً وبدأ يحلق، من أعلى إلى أسفل، بعناية، لاوياً فمه. جعله البخارُ يعرق؛ أحس بالقطرات تنزلق على ضلوعه. الآن حَلَق ضد إتجاه الشعر ببطء وبعدها رَبَّت على ذقنه ليتأكد من نعومتها. عاود فتحَ الصنبورين، وبلَّ الفوطة، وتغطيةَ وجهه بها. نظَّف أذنيه وندَّى وجهه بلوسيون مُثير جعله يزفر من المتعة. نظَّف الشفرة وأعاد وضعها فى التجويف ووضَع سكينَ الحلاقة فى جرابه الجلدى. جذب السِدادة وتأمل، للحظة، شَفْطَ البِركة الرمادية من الصابون والشعيرات الملتصقة. لاحظ تقاطيعهَ: أراد أن يكتشف نفس الشخص الذى عهده دائماً، لأنه حين نظَّف من جديد البخارَ الذى كسى الزجاج، شعرَ دون أن يدرى - فى هذه الساعة الباكرة، ساعةَ الواجبات التافهة لكن لا غنى عنها، ساعةَ التوعُّكات الهضمية وأنواع الجوع غير المحدَّدة، ساعةَ الروائح غير المرغوبة التى تلُفُّ الحياةَ اللاواعية للنوم - بأن زمناً طويلاً قد إنقضى دون أن يرى نفسه، بينما ينظر إلى نفسه كل يوم فى مرآة حمَّام. مُربَّعٌ من الزئبق والزجاج وصورةٌ حقيقية فريدة لهذا الوجه ذى العينين الخضراوين والفم الملىء بالحيوية، ذى الجبهة الواسعة والوجنتين البارزتين. فتح فمه وأخرج لسانه الخشن فى جُزُر صغيرةٍ بيضاء؛ بعدها بحث فى الإنعكاس عن فراغات الأسنان الناقصَة. فتح خزانة الحمّام وتناول الكبارى التى كانت مستقرةً فى قاع كوب مملوءٍ بالماء. شَطَفها بسرعة وثبتها فى مواضعها، مُديراً ظهره للمرآة. فَرَدَ المعجون المخضَّر فوق فرشاة الأسنان ونظَّف أسنانه. تَغَرغر وتخلَّص من بنطلون البيچاما. فتح صنبورى البانيو. تحسس الحرارة بكفّ يده وأحس بالإنسكاب غير المتكافىء على رقبته، وهو يمرر الصابون فوق جسده النحيل، ذى الضلوع البارزة، ومعدته المترهِّلة وعضلاته التى مازالت تحتفظ ببعض الشدّ العصبى، لكنها الآن تميل إلى التدلّى نحو الداخل، بطريقة بدتَ له غريبة، إذا لم يحافظ على إنتباه نشيطٍ

ومصطنع... فقط عندما يكون مُراقباً، مثلما فى هذه الأيام، من جانب تلك النظرات الوقحة لفندق الشاطئ. أدار وجهه إلى البانيو، أغلق الصنبورين وفرك نفسه بالفوطة. عاوده الإحساس بالرضى حين فرك صدره وإبطيه بماء اللاڤاندر ومرَّر المشط فوق شعره المجعَّد. تناول من الـ closet سروال الإستحمام الأزرق وقميص الپولو الأبيض. إرتدى الخفَّ الإيطالى ذى القماش والرباط وفتح ببطءٍ باب الحمام.

واصل النسيمُ هزَّ الستائر والتمعت الشمس بالكاد: ستكون خسارة، خسارة حقيقة أن يضيع النهار. فى سبتمبر لا يمكن التكهن أبداً. نظر نحو الفراش المزدوج. ظلت ليليا نائمة، فى ذلك الوضع التلقائى، الحرّ: الرأس مستندةٌ على الكتف والذراع ممدودة فوق الوسادة، الظهر مكشوف وإحدى الركبتين مثنيَّة، خارج الملاءة. إقترب من الجسد الشاب، الذى كان هذا الضوء الأول يتلاعب فوقه بخفّة، مضيئاً الزغب الذهبى للذراعين والأركان النديَّة للجفنين، والشفتين، والإبط ذى القشّ. ركع لينظر إلى لآلئ العرق فوق الشفتين ويحسَّ بالدفء الفاتر الذى يتصاعد من جسد حيوانٍ صغير مسترخ، لوَّحته الشمس، لا يعرف الخجل فى براءته. مدّ ذراعيه، برغبةٍ فى أنً يديرها ويرى مقدمة الجسد. إنغلقت الشفتان شبه المفتوحتين وتنهَّدت الفتاة. هبط هو ليُفطِر.

حين إنتهى من قهوته، نظَّف شفتيه بالفوطة الصغيرة ونظر حوله. فى هذه الساعة، دائماً، يبدو أن الأطفال هم الذين يفطرون، بصحبة المربِّيات. كانت الرؤوس الناعمة والرطبة هى رؤوس من لم يستطيعوا مقاومة إغراء الاستحمام قبل الإفطار ويستعدّون الآن للعودة، بثياب الاستحمام المبلولة، إلى الشاطئ الذى يلوذُ به ذلك الزمن بلا زمن ووحدها مُخيِّلةُ كل طفل هى التى تمنح فيه الإيقاع المرغوب لساعاتٍ، طويلة أوقصيرةٍ، من قلاعٍ وأسوارٍ تُقام، من

مُقدِّمات مرحة للدفن فى الرمال، من نُزُهات يتناثر فيها الرذاذ وألعاب مهدومة، من أجساد متمددة بلا زمن فى زمن الشمس، من صيحاتٍ فى كساءٍ غير ملموسٍ من الماء. كان غريباً أن يراهم، بالغى الصغر، يبحثون فى الخلاء المفتوح عن ملاذ فريد لدفن خيالى، لقصر من الرمال. الآن إنسحب الأطفال ودخل ضيوف الفندق البالغون.

أشعل سيجارةً وإنتابه ذلك الدُوار الخفيف الذى ظل منذ بضعة أشهر يصاحب دائماً أول نَفَس دخان فى النهار. وجّه نظرته بعيداً عن صالة الطعام، صوب قوس الشاطئ الناعم الذى يتلوّى فى الزَبَد من طرف المحيط المفتوح حتى الهلال الأصغر للخليج، المبذور الآن بالقوارب الشراعية وبجلبة نشاط متصاعدة. مر بجواره زوجان من معارفه وحيياه بإيماءة. هز رأسه وسحب من جديد نَفَساً من الدخان.

تصاعدت جلبة صالة الطعام: الشوَك والسكاكين فوق الأطباق، والملاعق الصغيرة تقلّب ما فى الفناجين، والزجاجات التى تُنزع سداداتها وفوران المياه المعدنية، والكراسى وهى تُحرَّك من مكانها، وأحاديث الأزواج، ومجموعات السياح. والوشيش المتزايد للأمواج، الذى لم يُرضِه أن تغلبه ضوضاء البشر. ومن مائدته، بدا مُتنزَّهُ الواجهة الحديثة لأكاپولكو، الذى أُنشئ على عجل لتوفير الراحة للعدد الكبير من المسافرين الأمريكيين الشماليين الذين حرمتهم الحربُ من وايكيكى، وپورتوفينو، وبيا ريتز، وكذلك لإخفاء الفناء الخلفى البائس، الغارق فى الوحل، للصيادين العارين وأكواخهم بالأطفال المنتفخى البطون، والكلاب الجرباء، وبرك المياه السوداء، وديدان الأمعاء الشعرية وجراثيم الباسيللوس. الزمنان دائماً، فى هذه الحاضرة ذات الوجه المزدوج، الشديدة البعد عمّا كانت والشديدة البعد عما تريد أن تكون.

دخَّن، جالساً، وتتميلٌ خفيفٌ فى ساقيه اللتين لم تعودا تحتملان،

حتى فى الحادية عشرة صباحاً، هذا الثوب الصيفى. فَرَك ركبته فى الخفاء. لابد أن فى داخله برد، لأن النهار تفجَّر فى ضوءٍ واحدٍ مستدير وتأجج قرص الشمس تحيطه حلقةٌ برتقالية. ودخلتْ ليليا، وعيناها مختفيتان خلف نظارةٍ داكنة. نهض واقفاً وقرَّب الكرسى من الفتاة. أشار للجرسون. ولاحظ تهامس الزوجين اللذين يعرفانه. طلبت ليليا ثمرة پاپايا وقهوة.

- نِمْتِ جيداً؟

أومأت الفتاة بالإيجاب، إبتسمت دون أن تفتح شفتيها وربَّتت يدَ الرجل السمراء، البارزة فوق المفرش.

- ألم تصل الصحف من مكسيكو؟ - قالت بينما تُقطِّعُ شرائح الفاكهة - لماذا لا تتأكد؟

- نعم. أسرعى، فاليخت ينتظرنا فى الثانية عشرة.

- وأين سنأكل؟

- فى النادى.

توجه الرجل نحو الإدارة. نعم، سيكون يوماً مثل الأمس، يومَ حديثٍ صعب، وأسئلة وأجوبة مسترخية. لكن الليل، دون كلمات، هو شئٌ آخر. لماذا يطلب أكثر؟ العقد، الضمنى، لا يتطلَّب حباً حقيقياً، ولا حتى ما يشبه الإهتمامَ الشخصى. أراد فتاةً ترافقه فى الإجازة. وقد نالها. ويوم الإثنين سينتهى كلُّ شئ، ولن يعود لرؤيتها. منذا سيطلب أكثر من ذلك؟ إشترى الصحف وصعد ليرتدى بنطلوناً من القطن الخفيف.

فى السيارة، إنغمست ليليا فى قراءة الصحف وعلَّقت على بعض أخبار السينما. وضعت ساقاً برونزيةً فوق الأخرى وتركت فردة حذاء تسقط من قدمها. أشعل السيجارة الثالثة هذا الصباح، ولم يقل لها أنه يُصدر هذه الصحيفة، تلهَّى بمراقبة الإعلانات التى تُتَوِّج المبانى

الجديدة وهذا الإنتقال الغريب للفندق ذى الخمسة عشر طابقاً ولمطعم الهمبورجر إلى الجبل العارى، الذى أخرج أحشاءه الحفّارُ الميكانيكى، الذى يقف ببطنه الحمراء فوق الطريق.

حين قفزت ليليا برشاقة إلى ظهر اليخت وحاول هو أن يتوازن ووضع قدمه أخيراً على اليخت، كان الآخر هناك وكان هو من مدّ لهما يده ليصعدا من الرصيف المتأرجح.

- كسافْييه آدام.

شبه عار، بثوب استحمام بالغ القِصر ووجهه داكن، بلون الزيت حول العينين الزرقاوين والحاجبين الكثيفين اللعوبين. مدّ يده بحركة ذئب برىء: جسور، وصريح، ومتكتم.

- يسأل دون رودريجو إن كان لا يزعجكم أن تشاركونى المركب.

أومأ هو بالإيجاب وبحث عن مكان فى الكابينة الظليلة قال آدام لليليا:

- ... عرضه علّى العجوز منذ نحو أسبوع وبعدها نسى...

إبتسمت ليليا وفردت الفوطة فوق مقدمة المركب المشمسة.

- أترغبين فى تناول شىء؟ - سأل الرجل ليليا عندما إقترب خادم المركب بعربة المشروبات والمزّات

قالت ليليا، المستلقية، لا بإصبعها. قرَّب هو العربة والتقط اللوز بينما الخادم يعدُّ له جين - آند - تونيك gin - and - tonic. كان كسافييه آدام قد إختفى فوق سقف الكابينة. رن صوت خطواته الثابتة، وحوارٌ سريع مع شخص فوق الرصيف، ثم حركة جسمه وهو يستلقى على سقف الكابينة.

خرج اليخت الصغير ببطءٍ من الخليج. تناول هو قلنسوته ذات الحافة الشفافة واتكأ ليشرب الجين - آند - تونيك gin - and - tonic.

فى مواجته، تمدَّدت الشمس فوق ليليا. فكَّت الفتاة مشبك

السوتيان وكشفت ظهرها. أبدى جسدها كلُّه رعشة إبتهاج. رفعت ذراعيها وعقدت شعرها المفكوك، النحاسي اللامع، فوق مؤخر رقبتها. إنساب عرقٌ دقيقٌ جداً فوق رقبتها، مبلِّلاً اللحم الأملس المستدير للذراعين والظهر الناعم، بسلسلة الظهر الغائرة. نظر إليها من عمق الكابينة. الآن تتاعست فى نفس وضع الصباح. متكئةً على الكتف، وإحدى ركبتيها مثنيَّة. رأى أنها قد حلقت إبطها. إنطلق الموتور وانشق الماء إلى قمّتين مسرعتين، مُطوِّحاً رذاذاً مالحاً، متماثلاً، مشقوقاً، سقط فوق جسد ليليا. بلَّلَ ماء البحر سروال الاستحمام الصغير وألصقه بإليتيها وغاص به بين فخذيها. إقتربت طيور النورس، متصايحةً، من المركب السريع ورشف هو ببطءٍ شرابه. هذا الجسد الفتيّ، بدل أن يُثيره، ملأه بالمشاكسة، بنوعٍ من التقشف الحاقد. لعب، وهو جالس على كرسى القماش فى عمق الكابينة، لعبة إرجاء رغباته، تخزينها حتى الليل الصامت والمتوحِّد، حين يختفى الجسدان فى الظلمة ولا يمكن جعلهما موضوعاً للمقارنة. فى الليل، لن يحتفظ لها سوى بيديه الخبيرتين، المحبّتين للتأنى والمفاجأة. خفض بصره ورأى هاتين اليدين السمراوين، بعروقهما المخضرّة، الناتئة، اللتين حلَّتا محلّ توقُّد ونفاد صبر عصور أخرى.

وجدوا أنفسهم فىً البحر المفتوح. الساحل المهجور، ذو الأجمات المشعثة والصخور البارزة، كان يغطيه وهجٌ من القيظ الحارق. إستدار اليخت فى البحر المرّ واصطدمت به موجة، فبلَّلت جسد ليليا: صرخت بابتهاج ورفعت صدرها، الذى يبرز منه هذان الزرَّان الورديَّان اللذان بدا أنهما يُثبِّتان النهدين الصلبين. عاودت الإستلقاء. إقترب الخادم بطبق فوَّاح من الكرز المخدوش، والخوخ، والبرتقال المقشَّر. أغمض هو عينيهً وأفسح المجال لإبتسامةٍ صعبة، يفرضها التفكير: هذا الجسد الزلِق، وهذا القوام المعتدل، وهذان الفخذان الممتلئان، يحملون أيضاً

خفيةً فى خليَّة متناهية الصِغر حتى الآن، سرطانَ الزمن. هذه الأعجوبة السريعة الزوال، فيم ستفترقُ، بعد مرور الأعوام، عن هذا الجسد الآخر الذى تملكه الآن؟ هيكلٌ عظميٌ فى الشمس تسيل منه الزيوت والعرق، يعرقُ شبابَه الخاطفَ، الضائعَ فى غمضة عين، شعرٌ ذابل، وأفخاذٌ ستتجعَّد بالولادات والبقاء المجرَّد، القلِق فوق الأرض وروتيناتها الأولية، المتكررة دوماً، والعاريةِ من الأصالة. فتح عينيه. نظر إليها.

هبط كسافييه من السقف. رأى هو ظهور الساقين المكسوتين بالشعر، ثم إنتفاخ العضو المختبىء، ثم الصدر الملتهب. نعم: كان يمشى مثل ذئب، حين إنحنى ليدخل الكابينة المفتوحة ويأخذ خوختينٍ من الطبق الكبير الموضوع فوق وعاء الثلج. وجَّه إليه إبتسامةً وخرج والفاكهة فى قبضته. تربّع فى مواجهة ليليا، وساقاه مفتوحتان فى مواجهة وجه الفتاة؛ لمس كتفها. إبتسمت ليليا وتناولت إحدى الخوختين المقدّمتين بكلماتٍ لم يستطع هو سماعها فقد خنقها صوت الموتور، والنسيم، والأمواج المسرعة. الآن أخذ هذان الفمان يمضغان فى وقتٍ واحد وسالت العصارة على ذقنيهما. لو على الأقل... نعم. ضم الفتى ساقيه واستند، وهو يمدهما، إلى جانب المركب. رفع عينيه الباسمتين، مقطّباً جبينه، إلى سماء منتصف النهار البيضاء. نظرت إليه ليليا وحرّكت شفتيها. أشار كسافييه إلى شىء، حرك ذراعه وأشار نحو الشاطئ. حاولت ليليا النظر إلى هناك، مُغطيّةً نهديها. عاود كسافييه الاقتراب وضحك الإثنان حين ربط لها مشبك السوتيان القماشى وجلست هى وصدرها رطبٌ ومرسوم وظلَّلت جبهتها بإحدى يديها لترى ما أشار إليه فى الخطّ البعيد لبلاج صغير غائر، كأنه خليج صغير أصفر، بين كثافة الدغل. نهض كسافييه على قدميه وصاح أمراً لقائد

اليخت. إستدار اليخت من جديد وتوجه إلى البلاج. استندت الشابة أيضاً إلى جانب المركب وقرَّبت حقيبة يدها لتقدم سيجارةً إلى كسافييه. تحدثا.

رأى هو الجسدين، الجالسين جنباً إلى جنب، الداكنين بنفس الدرجة والناعمين بنفس الدرجة، مرسومين بخطٍ واحدٍ لا ينقطع، من الرأس وحتى الأقدام المفرودة. ساكنين لكنهما مشدودين بإنتظار أكيد، متماثلين فى جدَّتهما، فى سعيهما الذى لا يجهدان فى إخفائه إلَى أن يُجرِّبا نفسيهمَا، أن يعرضا نفسيهما. رشف شرابه ووضع نظارته السوداء، التى تكاد مع القلنسوة ذات الحافة أن تخفى وجهه.

تحدّثا. فرغا من مصمصة بذرة الخوخ ولابد أنهما قالا: "الذيذ"، أو ربما،

"يروقنى..."،

شيئاً لم يقله أحدٌ من قبل، يقوله الجسدان، الحضوران اللذان يستهلاّن الحياة. لابد أنهما قالا...

- لماذا لم نلتق من قبل؟ أنا دائماً فى النادى...

- لا، أنا لا... هيا، تعالى نقذف البذرتين. واحد...

رآهما يقذفان البذرتين فى وقتٍ واحد، بضحكةٍ لم تبلغ مسامعه؛ رأى قوة الأذرع.

- غلبتك! - قال كسافييه حين سقطت البذرتان دون ضجيج، بعيداً عن اليخت. ضحكت هى. عاودا الاسترخاء.

- هل تحبين التزلّج؟

- لا أعرف.

- هيا سأعلّمك...

ماذا سيقولان؟ سعل وقرَّب العربة ليُعدَّ مشروباً آخر. لابد أن كسافييه سيتحقق من نوع الثنائى الذى تكونه ليليا وهو. لابد أنها

ستحكى حكايتها الصغيرة البائسة. وسيهز هو كتفيه، ويجبرها على تفضيل جسد الذئب، لليلةٍ واحدةٍ على الأقل، من أجل التغيير. لكن أن يحب... أن يحب...

ـ المسألة هى إبقاء الذراعين صلبتين، أترين؟، ألاّ تثنى ذراعيك...

ـ أرنى أولاً كيف تفعل أنت...

ـ وكيف لا. دعينا نصل إلى البلاج الصغير.

آه، نعم! أن يكون المرء شاباً وثرياً.

توقف اليخت على مسافة بضعة أمتار عن البلاج المختبىء. إنزَلَق، مُتعَباً، وأفلت رائحة البنزين، ملوِّثاً البحر ذا البلورات الخضراء والقاع الأبيض. تناول كساڤييه لوحى التزلج وألقاهما فى الماء؛ ثم غطس، وطفا مبتسماً وأرتداهما.

ـ إقذفى إلىّ الحبل!

بحثت الفتاةُ عن المقبض وألقته إلى الشاب. عاود اليخت الإنطلاق وارتفع كساڤييه من الماء، مُتتبِّعاً أثر المركب رافعاً إحدى ذراعيه بالتحية بينما تتأمله ليليا ويشرب هو الچين ـ آند ـ تونيك gin - and - tonic: هذه المسافة من البحر التى تفصل بين الشابين كانت تقرِّبهما على نحو خفي؛ كانت توحِّدهما أكثر من مضاجعةٍ لصيقة وتثبِّتهما فى قُرب ساكن، كأنما اليخت لا يمخر الباسيفيكى، كأن كساڤييه تمثالٌ منحوتٌ إلى الأبد، تجرُّه المركب، كأن ليليا قد توقَّفت فوق واحدةٍ، أى واحدةٍ، من الموجات التى تفتقر ظاهرياً إلى قوامٍ خاص بها، التى ترتفع، وتتلاطم، وتموت، وتتلاحم ـ هى نفسها أُخرى ـ دائماً فى حركة ودائماً متماثلة، خارج الزمن، مرآةٌ لذاتها، لموجات الأصل، موجات الألفية الضائعة والألفية المقبلة. غاص بجسده فى ذلك المقعد المنخفض والمريح. ماذا سيختار الآن؟ كيف يمكن أن يُفلِتَ من هذا القدرِ المشحونِ

بضروراتٍ تفلتُ من سيطرة إرادته؟

أفلتَ كساڤييه المقبض وسقط فى البحر أمام البلاج. غاصت ليليا دون أن تنظر إليه، دون أن تنظر إليه هو. لكن التوضيح سيأتى. أى توضيح؟ هل ستوضح ليليا له هو؟ هل سيطلب كساڤييه توضيحاً من ليليا؟ هل ستقدم ليليا توضيحاً لكساڤييه؟ حين ظهرت رأس ليليا، تضيؤها ألف لمسة غريبة للشمس والبحر، فى الماء بجوار رأس الشاب، عرف أن لا أحد، باستثنائه، سيتجاسر على طلب توضيح؛ أن هناك إلى أسفل، فى البحر الهادئ لهذا الخليج الشفاف، لن يفتِّشَ أحد عن الأسباب أو يوقف الإلتقاء الحتمى، لن يُفسدَ أحدٌ ما جرى، ما كان يجب أن يجرى. ما الذى يقف بين الشابين؟ أهو هذا الجسد الغائص فى الكرسى، المرتدى قميص الپولو، والبنطلون القطنى الخفيف والقلنسوة ذات الحافة؟

أهى هذه النظرة العاجزة؟ هناك إلى أسفل، كان الجسدان يسبحان فى صمت ومنعته حافة المركب من رؤية ما يحدث. صفّر كساڤييه. إنطلق اليخت وظهرت ليليا، للحظةٍ، فوق سطح البحر. سقطت؛ توقف اليخت. الضحكات الواسعة، المفتوحة، بلغت سمعه. لم يسمعها تضحك هكذا أبداً. كأنها وُلِدَت لتوِّها، كأنما ليس وراءها، دائماً وراءها، شواهدُ لتاريخ وحكايات، حُزَمٌ من العار، من أفعالٍ إرتكبتها هى، وارتكبها هو.

إرتكبها الجميع. كانت هذه هى الكلمة التى لا تُحتمل. إرتكبها الجميع. لم تستطع التقطيبة المرّة إحتواء هذه الكلمة التى تتجاوزها. التى تقطعُ كلَّ خيوطِ السلطة والذنب، خيوطِ السيطرة الفريدة على آخرين، على أحد، على فتاة فى سلطته، إشتراها هو، لتجعلهم يندرجون فى عالم واسع من الأفعال الشائعة، من المصائر المتماثلة، والخبرات دون بطاقة إمتلاك. إذن فهذه المرأة ليست موسومةً إلى

الأبد؟ لن تكون، إلى الأبد، امرأةً إمتلكها هو بشكل عابر؟ ألن يكون هذا هو تعريفها وقدرها: أن تكون ما كانته لأنها كانت ملكةُ فى لحظة بعينها؟ هل تستطيع ليليا أن تحب كأنما لم يوجد هو أبداً؟

نهض، مشى إلى مقدمة المركب وصاح:

ـ الوقت تأخر. يجب العودة إلى النادى لنأكل فى الوقت المناسب.

أحس بأن وجهه، وكل جسمه، متصلبين يغطيهما نشاءٌ شاحب حين إنتبه إلى أن أحداً لم يسمع صيحته، فلم يكن يستطيع السمعَ جسدان خفيفان يسبحان تحت الماء المتلألئ، متوازيين، دون تلامسٌ، كأنهما يطفوان فى طبقة أخرى من الهواء.

تركهما كسافييه آدم على الرصيف وعاد إلى اليخت: كان يريد أن يواصل التزلج. ودّعهما من مؤخرة المركب. لوّح بالقميص ولم يكن فى عينيه شيءٌ مما ودّ هو أن يراه. مثلما خلال الغداء عند شاطئ الخليج، تحت سقف سعف النخيل، ودّ أن يرى ما لم يجده فى عينى ليليا الكستنائيتين. لم يكن كسافييه قد سأل. ولم تكن ليليا قد حكت تلك الحكاية الحزينة الميلودرامية التى إستمتع هو بمذاقها فى داخله وهو يُميِّز الطعومَ المتمازجة لحساء فيشى Vichyssoise. زيجة الطبقة الوسطى تلك، مع الصعلوك الموجود دائماً، الذكورى، المفترى، الشيطان البائس؛ الطلاق ثم العهر. ودّ لو يحكيها ـ آه، لابد أن يحكيها ـ لكسافييه. ورغم ذلك، كلفه تذكّرُ الحكاية عناءً، لأنها كانت قد هربت من عينى ليليا، ذلك الأصيل، كأنما كان الماضى قد هرب خلال الصباح من حياة المرأة.

لكن الحاضر ما كان يمكنه الهروب لأنهما يعيشانه، جالسَين على هذين الكرسيين الحصير ويأكلان بطريقة ميكانيكية الغداء المُعدَّ خصيصاً: حساء فيشى، وإستاكوزا، «نبيذ كوت دو رون،

وآلاسكا مطهو. كانت جالسةً هناك، يدفع هولها. أوقف الشوكة بالجمبرى قبل أن تبلغ فمه: يدفع هولها، لكنها تفلت منه. لم يعد يستطع إمتلاكها أكثر من ذلك. ففى هذا المساء، هذه الليلة ذاتها، ستبحث عن كسافييه، وسيتقابلان سراً، وقد حدَّدا الموعد فعلاً. أما عينا ليليا، الضائعتان فى مشهد الزوارق الشراعية والمياه الساكنة، فلم تقولا شيئاً. لكن بإمكانه أن ينتزع ذلك منها، أن يفتعل فضيحة ... شعر بأنه زائف، وغير مرتاح وواصل أكل الإستاكوزا ... أى طريق الآن... إنه لقاء قاتل يتغلَّب على إرادته... آه، يوم الإثنين سينتهى كلُّ شىء، لن يعود لرؤيتها، لن يعود للبحث عنها فى الظلام، عارياً، متأكداً من العثور على ذلك الدفء الفاتر مضطجعاً بين الملاءات، لن يعود...

- ألست نعساناً؟ - غمغمت ليليا حين قُدِّمت لهم الحلوى - ألا يسبّب لك النبيذ دواراً؟

- نعم. قليلاً. تفضلى.

- لا؛ لا أريد آيس كريم... أودّ أن أنام القيلولة.

عند الوصول إلى الفندق، ودعته ليليا بإشارة من أصابعها وعبر هو الطريق وطلب من صبى أن يضع له كرسياً تحت ظل النخيل. تعب فى إشعال السيجارة: فقد إجتهدت ريحٌ خفية، لا يمكن تحديد إتجاهها فى وقت العصر الحار، فى إطفاء الكبريت. الآن كان بعض الثنائيات الشباب ينامون القيلولة بالقرب منه، محتضنين بعضهم، البعض سيقانهم مشتبكة، والبعض الآخر يخفون رؤوسهم تحت الفوط. بدأ يتمنى أن تهبط ليليا وتريح رأسها على ركبتيه المكتسيتين بالقطن الخفيف، الرفيعتين، الصلبتين. عانى أو أحس بأنه مجروح، متضايق، غير واثق. عانى من غموض ذلك الحب الذى لا يمكنه لمسه. عانى من ذكرى ذلك التواطؤ الفورى، دون كلمات، المُبرم أمام

عينيه بحركات لا تقول شيئاً فى ذاتها، لكنها فى حضور ذلك الرجل، ذلك الرجل الغائص فى كرسى القماش، الغائص خلف حافة القلنسوة، والنظارة الداكنة... تمددت إحدى الشابات المستلقيات بإيقاع كسول فى ذراعيها وشرعت ترشُّ بيدها، مطراً من الرمل الناعم على رقبة رفيقها. صرخت حين قفز الشاب متصنعاً الغضب وأمسكها من خصرها. تدحرج الإثنان على الرمال؛ ونهضت هى وجرت؛ وهو خلفها، حتى عاد للإمساك بها، لاهثةً، عصبيةً، وحملها بين ذراعيه نحو البحر. تخلص هو من الخُف الإيطالى وأحس بالرمل الساخن تحت قاع قدميه. أن يذرع البلاج حتى نهايته، وحيداً. أن يسير وعيناه مصوبتان على آثار أقدامه، دون أن يتوقع أن المدّ سيشرع فى محوها وأن كل خطوة جديدة هى الشاهد الوحيد، العابر، على نفسها.

كانت الشمس عند مستوى العينين.

خرج العاشقان من البحر - هو، المرتبك، لم يستطع قياس زمن هذا الجماع الطويل، على مرأى من البلاج تقريباً، لكنه ملتفٌ فى ملاءات بحر الغروب الفضّى - ولم يعد ذلك الإستعراض اللعوب الذى دخلا به إلى الماء، هذه المرة، سوى رأسين متحدين فى صمتٍ والنظرةِ الخفيضة لتلك الفتاة الرائعة، السمراء، الشابة... الشابة. عاود الشابان الإستلقاء، قريباً جداً منه، وتغطية رأسيهما بنفس الفوطة. تغطيا أيضاً من المساء، المساء المدارى البطئ. بدأ الزنجى الذى يؤجر الكراسى فى جمعها. نهض هو وسار نحو الفندق.

قرر أن يأخذ غُطّساً فى حمام السباحة قبل أن يصعد. دخل إلى كابينة خلع الملابس القائمة بجوار الحمام وعاد إلى خلع الخُفّ، جالساً فوق مقعد خشبى. كانت الخزانات الحديدية التى تحفظ ثياب النزلاء تخفيه. سمع بضع خطوات رطبة فوق الأرضية

المطاطيـة، وراءه؛ وضـحكت أصـواتٌ فـقـدت أنفـاسـهـا؛ وجـفـفت أجسادها بالفوطِ. نزع قميص البولو. من الجانب الآخر للخزانة، تصـاعدت رائحـةٌ نفاذة لعـرقٍ، وتبغٍ أسود، ومـاء كولونيـا. وتصـاعد دخان نحو السقف.

- اليوم لم تظهر الجميلة والوحش.
- اليوم لا.
- غريبة هذه الفتاة...
- للأسف، هذا الطائر القبيح لن يصمد.
- سيموت بالسكتة فجأة.
- نعم، أسرعى.

عاودا الخروج. إرتدى خُفّه وخرج مرتدياً القميص.

صـعـد السلّم إلى المخـدعِ. فـتح البـاب. لم يكن لديه سـببٌ للإندهاش. كان السرير المُشعثُ من القيلولة هناك، لكن لم تكن ليليا هنـاك. توقف فى منتـصف الغـرفـة. كـانت المروحـة تدور مـثل طـائر حبيس. وفى الخارج، فى الشرفة، ليلة أخرى مليئة بالجنادب وديدانٍ الوهـج. ليلة أخـرى. أغلق النافـذة حـتى لا تهـرب الرائحـة. إلتـقطت حواسه هذا الفوح لعطر تم رشه حديثاً، لعرق، ومنـاشف مبلولة، ومواد تجميل. ليست هذه هى أسماؤها. فالوسادة، التى ما زالت غائرة، هى حديقة، فاكهة، أرض مبتلّة، بحر. تحرك ببطء نحو الصوان حيث تضع هىَ... تناول بين يديه السوتيان الحريرى، قربه من خده. إحتكت به الذقن النابتـة. لابد أن يكون مـستـعـداً. يجب أن يسـتـحم، ويحلق من جديد إستعداداً لليلة. أفلت السوتيان وسار بخطوة جديدة، راضياً مرةً أخرى، نحو الحمام.

أضـاء النور. فتح صنبور الماء السـاخن. ألقى القـميص فوق غطاء المرحـاض. فـتح الخـزانة الصـغيـرة. رأى تلك الأشـيـاء، الأشـيـاء التى

تخص الإثنين. أنابيب معجون الأسنان، كريم حلاقة بالمنتول، أمشاط من صدف السلاحف، كولد كريم cold cream، علبة أسبيرين، أقراص ضد الحموضة، فوَط صحية، ماء لافندر، شفرات حلاقة زرقاء، بريانتين، أحمر شفاه، كبسولات ضد التقلصات، غرغرة صفراء، موانع حمل، ماء مغنيسيوم، أشرطة لاصقة، زجاجات يود، وعاء شامبو، قصّافات، مقصات أظافر، قلم أحمر شفاه، قطرة للعين، إصبع كافور للأنف، شراب للسعال، مزيل لرائحة العرق. تناول سكين الحلاقة. كانت مليئة بزغب كستنائى، كثيف، مشتبك بين الشفرات ومجراها. توقف والسكين بين يديه. قربها من شفتيه وأغلق، لا إرادياً، عينيه. وحين فتحهما، فإن ذلك العجوز ذا العينين المحتقنتين، والوجنتين الرماديتين، والشفتين الذابلتين، ذلك الذى لم يعد هو الآخر، الإنعكاس المعروف، جاوب تقطيبته من داخل المرآة.

أنا أراهم. لقد دخلوا. ينفتح، وينغلق باب الماهوجنى ولا تُصدر الخطوات صوتاً فوق السجادة السميكة. لقد أغلقوا النوافذ. أسدلوا، بهسيس، الستائر الرمادية. وددتُ لو أطلبَ منهم أن يفتحوها، أن يفتحوا النوافذ. ثمة عالمٌ بالخارج. هناك ريح الهضبة، العالية، التى تهز بضع شجراتٍ سوداء ونحيلة. يجب أن أتنفس... دخلوا.

- أقتربى، يا بُنيَّتى، حتى يتعرَّف عليك. قولى له إسمك.

رائحتها طيبة. رائحتها زكية. آه، نعم، مازلت أستطيع أن أتبيَّن خديها الملتهبين، وعينيها اللامعتين، وكل قوامها الفتى، الرشيق، الذى يقترب من فراشى بخطواتٍ قصيرة.

- أنا... أنا جلوريا...

- إنتظرتك هذا الصباح بإبتهاج. لنعبر النهر على صهوة الجياد.

- أترى كيف إنتهى؟ أترى، أترى؟ تماماً مثل أخى. هكذا إنتهى.

- هل يُريحُك هذا؟ إفعليه

- Ego te absolvo ...

الخشخشة المنعشة والعذبة لأوراق البنكنوت والسندات الجديدة حين تتناولها يدُ رجل مثلى. الإندفاع السلس لسيارة فاخرة، مصنوعة خصيصاً، بتكييفٍ هواء، وبار، وتليفون، ووسائد للظهر، ومساند للأقدام، إيه، ياقسيس، إيه؟، هل هناك مثلها فى السماء، هيه؟ وهذه السماء التى هى السلطة على البشر، الذين لا يُحصَون، ذوى الوجوه المختفية، ذوى الأسماء المنسية: الأسماء ذات الألف شكل فى المنجم، والمصنع، والصحيفة: ذلك الوجه المجهول الذى يحملنى صباح يوم عيد قديّسى، الذى يُخفى عنّى عينيه تحت الخوذة حين أزور أعمال التنقيب، الذى يحنى لى رقبته علامة على اللياقة حين أجوب المزارع، الذى يرسم لى صوراً كاريكاتورية فى مجلات المعارضة: إيه، إيه؟ هذا موجودٌ فعلاً، هذا يخصنّى فعلاً. هذا هو حقاً كون المرء إلهاً، إيه؟ أن يكون مرهوباً ومكروهاً أو ما شئت، هذا هو حقاً كون المرء إلهاً، فعلاً، إيه؟ قل لى كيف أنقذُ كلَّ هذا وسأتركك تكمل كل طقوسك، أضربُ صدرى، وأمشى على ركبتىّ حتى مزار مقدس، وأشرب الخلّ وأتوّجُ نفسى بالأشواك. قل لى كيف أنقذُ كلَّ هذا، لأن روح...

- ... الإبن، والروح القُدُس، آمين...

يظل هناك، على ركبتيه، ووجهه مغسول. أحاول أن أدير له

ظهـرى. يمنعنـى ألم جنبـى. آآآى. لعله إنتـهى الآن. سـأنال الغـفـران. أريد النوم. هـا هـى الطعنة تأتـى. هـا هـى تأتى. آآآى ـ آه. والنسـاء. لا، ليسـتا هـاتين. النسـاء. اللاتى تعـشـقن. كيف؟ نعم. لا. لا أدرى. نسيتُ ذلك الوجه. يا إلهى، نسيتُ الوجه. كان ملكى، كيف أنساه.

" ـ پادييـا ... پادييـا ... إستـدع لى رئيس الإسـتعـلامات ومـحـررة الإجتماعيات."

صوتك يا پادييا، إستقبال صوتك الأجوف عبر ذلك الإنترفون...

" ـ نعم، دون أرتيـميـو. دون أرتيميـو، هنـاك مـشكلة عـاجلة. هؤلاء الهنود يمضون ثائرين. يريدون أن تدفع لهم دينك لقطعك غاباتهم.

" ـ مـاذا؟ كم المبلغ؟

" ـ نصف مليون.

" ـ فـقط؟ قل لقـائد الشـرطة المحلى أن يؤدبهم، فـأنا أدفـع له من أجل هذا. لم يكن ينقصنا إلا ...

" ـ هـا هـو مينا فـى صـالة الإنتظار. ماذا أقـول له؟

" ـ إجعله يدخل."

آه پادييـا، لا أسـتطيع أن أفـتح عينـىّ وأراك، لكننـى أسـتطيع رؤية أفكارك يا پادييـا، مـن خلف قنـاع الألم: الرجل الذى يـحـتـضـر إسـمـه أرتيمـيو كروث، أرتيمـيو كروث فقط؛ وحـده هـذا الرجل يموت، هيه؟، لا أحد غيره. كأنهـا ضـربة حظ تؤجِّل الميتـات الأخرى. هـذه المرة لا يموت سوى أرتيـميو كـروث. وهـذه الميتـة ربما أصابته بدل أخـرى، ربمـا ميتتك أنت، يـا پادييـا ... آه. لا. مـا زالت لـدىّ أشـيـاء لأصنعـهـا. لا تكونوا متأكدين هكذا، لا ...

ـ قلت لك أنه يتظاهـر.

ـ دعيه يستريح.

ـ أقول لك أنه يتظاهر!

أراهما، من بعيد. أصابعهما تفتحُ بتعجّل القاع الثانى، تخرجانه من القاعدة بإحترام. لا شىء فيه. لكننى أهز ذراعى، مشيراً إلى حائط خشب البلّوط، إلى الصوان الضخم الذى يشغل جانباً بأكمله من المخدع. تجريان إلى هناك، تجذبان كلَّ الأبواب، تجذبان كل الشمّاعات المحمَّلة ببذلات زرقاء، ومخططّة، وذات زرارين، وذات مخمَّل آيرلندى، ولا تتذكران أنها ليست بذلاتى، أن ثيابى فى منزلى، تجذبان كلَّ الشمَّاعات بينما أشيرُ لهما بيدىّ اللتين أحركهما بالكاد، أن الوثيقة ربما كانت محفوظة فى أحد الجيوب الداخلية اليمنى لإحدى البذلات. تتزايد عجلة تيريسا وكاتالينا، وتأخذان فى التقليب دون تحفظ، تلقيان السُترات الفارغة على السجادة، حتى تقلبانها جميعاً وتديران وجههما إلىّ. لا يمكننى إبقاء وجهى جاداً تماماً. أنا متمترسٌ خلف وسائد كبيرةٍ وأتنفس بصعوبة، لكن نظرتى لا تفلت تفصيلاً واحداً. أحس بها سريعةً ومتعطّشة. أطلب بيدى أن تقتربا:

- الآن أتذكر... إنها فى حذاء... أتذكر جيداً...

أراهما على أربع، فوق صفٍ من السترات والبنطلونات، تديران نحوى مؤخرتيهما العريضتين، وتحركان أفخاذهما بلهاث فاحش، بين أحذيتى، وعند ذلك فقط تسقط سحابة العذوبة المرَّة فوق عينىّ، أرفع يدى إلى قلبى وأغلق جفنىّ.

- ريخينا...

تبدأ همهمة المهانة والجهد من المرأتين فى التبدُّد فى الظلام. أحرك شفتىّ لأغمغم بذلك الإسم. لم يعد لدى الكثير من الوقت للتذكّر، لتذكّر الآخر، الذى أحبَّ... ريخينا...

"باديا... باديا... أريد أن آكل شيئاً خفيفاً... ليست معدتى على ما يرام. تعال لترافقنى فور أن تنتهى من ذلك..."

كيف؟ تنتقى، تشيِّدُ، تصنع، تحفظ، تواصل: لا أكثر... أنا...

" ـ نعم، إلى اللقاء. مع إحترامى.

" ـ أحسنت الكلام، يا سنيور. من السهل سحقهم.

" ـ لا، يا پادييـا، ليس سـهـلاً. ناولنى هذا الطبق... هذا، طبق الساندوتشات... لقد رأيت هؤلاء الناس فى مسيرات. حين يحزمون أمرهم، يكون من الصعب إحتواؤهم..."

كيف كانت الأغنية؟ منفياً مضيت إلى الجنوب، نفتنى الحكومة وبعد عام عدتُ؛ آه يا لليالى القلقة التى أقضيها بدونِك، بدونِك؛ لا صديق ولا قريب يتألم لى؛ وحده الحب، وحده الحب، حب تلك المرأة، هو الذى جعلنى أعود...

" ـ لهذا يجب العمل الآن، حين يولد السخط ضدنا، وسحقهم من الجذور. يفتقرون إلى التنظيم ويراهنون بكل شىء من أجل كل شىء. تفضل، تفضل ساندوتشات، فهناك ما يكفى إثنين...

" ـ تحريضٌ عقيم..."

لدىّ زوجُ غدارات بمقبض عاجى لأنضمَّ وسط الطلقات إلى عمال السكة الحديد أنا عاملة السكة حديد ولدىّ حبيبى خوان هو هنائى وأنا حبّه: إذا حسبتِنى جندياً لأنك ترييننى بحذاءٍ عسكرى فإننى عامل سكة حديد فقير من سكك الحديد المركزية.

" ـ لا، فمعهم حق. وليس معهم. لكنك أنت الذى كنتَ ماركسياً فى شبابك، يجب أن تفهم على نحو أفضل. عليك أن تخاف مما يجرى. أما أنا فلم أعد أخاف...

" ـ كامپانيلا بالخارج."

ماذا قالوا؟ ورم؟ نزيف؟ فتق؟ إنسداد؟ ثقب؟ إلتواء أمعاء؟ مغص قولونى؟

آه، پادييـا، يجب أن أضغط زرَّاً كى تدخل، پادييـا، لا أراك لأن عينى مغمضتين، وعيناى مغمضتان لأننى لم أعد أثق بتلك الرقعة

الضئيلة، غير الكاملة، لشبكيَّتى: ماذا لو فتحتُ عينىّ ولم تعد الشبكية تستقبل أى شىء، لم تعد تنقل شيئاً إلى المخ؟ ماذا؟

- إفتحوا النافذة

- أنا أحمِّلك الذنب. تماماً مثل أخى.

نعم.

أنت لن تعرف، لن تفهم لماذا تريد كاتالينا، الجالسة بجوارك، أن تتقاسم معك تلك الذكرى، تلك الذكرى التى تريد فرض نفسها على كل ما عداها: أنت فى هذه الأرض، لورنثو فى تلك الأخرى؟، ماذا تودُّ هى أن تتذكر؟، أنت مع جُونثالو فى هذا السجن؟، لورنثو بدونك فى ذلك الجبل؟: لن تعرف، لن تفهم إن كنتَ أنتَ هو، إن كان هو سيكون أنت، إن كنتَ عشتَ ذلك اليوم بدونه، معه، هو من أجلك، أنت من أجله. ستتذكر. نعم، ذلك اليوم الأخير كنتما أنت وهو معاً - إذن لم يعش هو ذلك من أجلك، ولا أنت من أجله، كنتما معاً - فى ذلك المكان. سألك هو إن كنتما تذهبان معاً حتى البحر؛ تذهبان على صهوة الجياد؛ سألكَ إن كنتما ستذهبان معاً، على صهوة الجياد، حتى البحر: سيسألك أين ستأكلان وقال لك - سيقول لك - بابا، سيبتسم، سيرفع ذراعه ببندقية الصيد وسيخرج من المخاضة وجذعه عارٍ، رافعاً إلى أعلى بندقية الصيد والجربنديات القماش.

لن تكون هى هناك. لن تتذكر كاتالينا هذا. لهذا تحاول أنت أن تتذكره، حتى تنسى ما تريدُكَ أن تتذكره. ستحيا هى حبيسةً وسترتجف حين يعود هو، لعدة أيام، إلى مدينة مكسيكو، لوداعكم. إن كان سيعود لوداعكم. تعتقد هى ذلك. لكنه لن يفعل. سيأخذ السفينة البخارية من بيراكروث، سيمضى. لابد أنه سيمضى. لابد أنها تتذكر ذلك المخدع حيث تصارع روائح النوم لتبقى رغم أن هواء الربيع يدخل من الشرفة المفتوحة. لابد أنها تتذكّر السريرين المنفصلين، الغرفتين المنفصلتين، رأسى الفراشين الحريريين، الملاءاتِ المنكوشة للغرفتين المنفصلتين، المساحات الغائرة فى الحشيِّتين، الخطّ الظلّى العنيد لمن ناما فى هذين الفراشين. لن يمكنَها تذكر حَافرى المُهرة، الشبيهين بلؤلؤتين سوداوين، غسلهما النهر السَبِخُ. أنت نعم. فعند عبور النهر، ستتبيّنان أنت وهو على الضفة الأخَرى شبحَ أرضٍ مرتفع فوق التخمُّرِ الضبابى للصباح. هذا الصراع للدغل الداكن معً الشمسٌ اللاهبة سَيتجسد فى إنعكاسٍ مزدوج لكل الأشياء، فى شبح للرطوبة وهى تعانق وهج القيظ. سيفوح ًالمكان برائحة الموز. سيكوًن هو كوكويا. لن تعرف كاتالينا أبداً ما كانته، وما تكونه، وما ستكونه كوكويا. ستجلس هى تنتظر على حافة الفراش، والمرآة فى يدٍ وفرشاة الشعر فى اليد الأخرى، بلا رغبة، وطعم المرارة فى حلقها، مُقرِّرةً أنها ستبقى هكذا، جالسةً، ونظرتها ضائعة، دون رغبةٍ فى عمل شىء، قائلةً لنفسها أن المشاحنات تجعلها هكذا دائماً: فارغةً. لا: وحدكما أنت وهو ستشعران بحوافر الحصان فوق التربة المساميّة للضفة. كذلك، عند الخروج من الماء، ستشعران بالبرودة مختلطةً بحرارة الغابة وستنظران إلى الوراء: ذلك النهر البطئ الذى يحرِّك بعذوبة طحالب الضفة الأخرى. وعلى مسافةٍ أبعد، فى عمق درب شجيرات

التـاباتشين* المزهرة، السقف، الذى تم طلاؤه من جديد، لضيعة كوكويا المستقرة فوق سهل ظليل. ستردِّد كاتالينا: "يا إلهى، لا أستحق هذا"؛ سترفع المرآة وتتساءل هل هذا ما سيراه لورنثو حين يعود، إن عاد: هذا التشوُّه المتزايد للذقن والرقبة. هل سينتبه للتجاعيد المتخفِّية التى ستبدأ فى الظهور عند الجفنين والخدين؟ سترى فى المرآة شعرةً أخرى وخطها المشيب وستنتزعها. وأنت، ولورنثو إلى جانبك، ستدخل إلى عمق الغابة. سترى أمامك ظهر إبنك العارى، الذى ستتاوب عليه أيضاً ظلال دغل المانجروف** وحبيبات أشعة الشمس التى ستخترق سقف الأغصان الكثيف. ستمزِّق جذورُ الأشجار الكثيرةُ العُقَد قشرة الأرض، وستُطِلُّ خشنةً ومتلوِّيةً. على طول الدرب الذى يفتحه الساطور. دربٌ سرعان ما ستعاود النباتات المتسلقة نسج شباكها فيه. سيسير لورنثو خبَبَاً وهو منتصب القامة، دون أن يحرِّك رأسه، ضارباً بسوطه جانبى المهرة ليهش الذباب ذا الطنين. ستردِّدُ كاتالينا أنه لن يثق فيها، لن يثق فيها ما لم يرها كما كانت من قبل، مثلما كان طفلاً، وستستلقى وهى تئن، وذراعاها مفرودتان، ونظرتها غائمة وستترك فردتى الخفّ الحريريتين تفلتان من قدميها وستفكر فى إبنها، الشديد الشبه بأبيه، الشديد النحافة، الشديد الدكنة. ستُطقطِقُ الأغصانُ الجافة تحت الحوافر وسينفتح السهل الأبيض بشواشى القصب المتماوجة. سيضغط لورنثو مهمازيه. سيدير وجهه وستنفرج شفتاه فى ابتسامة ستصل إلى عينيك مصحوبةً بصيحة إبتهاج وذراع مرفوعة: ذراعٌ قوية، وجلد زيتونى، وإبتسامة بيضاء مثل إبتسامات

---

* tabachines': إسم شعبى لنوع من الشجيرات موجود بكثرة فى المكسيك ـ م

** المانجروف: شجر ينبت على حافة المياه المالحة وتتدلى أغصانه لتصنع جذوراً جديدة ـ م

شبابك: ستتذكر شبابك بسببه وبسبب هذه الأرجاء ولن تريد أن تقول للورنثو كم تعنى بالنسبة لك هذه الأرض لأنك إن فعلت ربما إنتزعت تعاطفه: ستتذكَّر كاتالينا تربيتات لورنثو الطفولية، منذ الأيام القاسية لموت العجوزِ جماليل، ستتذكر الطفل على ركبتيه بجوارها، ورأسه مستلقيةٌ على حِجر أمه، بينما تدعوه هى بهجة حياتها، لأنها لم تجدها قبل أن يولد هو، فقد قاستِ كثيراً، دون أن تستطيع قول ذلك، لأنها كانت لديها واجباتٌ مقدَّسة والطفل ينظر إليها دون أن يفهم: ما السبب، ما السبب، ما السبب. ستُحضرُ أنت لورنثو ليحيا هنا حتى يتعلم محبة هذه الأرض وحده، دون حاجةٍ لأن تشرح له دوافع الجهد الشغوف الذى ستكون قد أعدت به بناء جدران الضيعة المحترقة وأدخلت به الزراعة إلى أراضى السهل. ليس لسبب، بل دون سبب. ستخرجان إلى الشمس. ستأخذ القبعة ذات الحافتَين العريضتين، وستضعها فوق رأسه. الريح التى يثيرها العدو فى الجو الهادئ والمومِض ستملأ فمك، وعينيك، ورأسك: سيتقدمك لورنثو، مثيراً غبَاراً أبيض، على الطريق المفتوح بين الزراعات وخلفه، عدْواً، ستكون متأكداً من أن كليكما تحسَّان نفس الإحساس:السباق يوسِّع الشرايين، يجعل الدم يتدفق، يغذّى قوة الإبصار، يفتحه على هذه الأرض الواسعة المفعمة بالحيوية، الشديدة الإختلاف عن الهضاب، وعن الصحراوات التى ستعرفها، المقسَّمة إلى مربعات ضخمة، حمراء، وخضراء، وسوداء، تتناثر فيها النخلات العالية، الطينية والعميقة، التى تفوح بروائح الروث وقشور الفاكهة، التى تجيب بحواسها التى هذبها الكدح على الحواس المتيقظة، المنتشية لإبنك ولك أنت، أنت وإبنك اللذان تجريان بسرعة وتنقذان من الخمول كلَّ الأعصاب، وكلَّ عضلات الجسم المنسية. سيجرح مهمازاك بطن الكُمَيت، حتى يدمى: ستعرف أن لورنثو يريد سباقاً.

ستقطع نظرتهُ المتسائلة عبارات كاتالينا. ستتوقف هى، ستتساءل إلى أى مدى يمكنها أن تصل، ستقول لنفسها أنها مسألة زمن، مسألة أن تأخذ فى كشف النقاب عن الأسباب تدريجياً، نعم، حتى يفهمها جيداً. هى جالسة على المقعد وهو على قدميه، وذراعاه على ركبتيها. ستدوّى الأرض تحت السنابك؛ ستحنى أنت رأسك، كأنك تريد تقريبها من أذن الحصان لتهمزه بالكلمات، لكن ثمة هذا الثقل، ثِقل الهندى الياكى الذى سيكون منطرحاً، على وجهه، فوق مؤخرة نفس الحيوان، الياكى الذى سيمدُّ ذراعاً ليتعلّق بخصرك: الألم سيجعلك تتعس: ستتدلّى ذراعك وساقك خاملَتين وسيظل الياكى يحتضن خصركَ ويئن وسحنته متقلصة: ستتتابع أكوام الصخور وستسيران تخفيكما الظلمة، فى أخدود الجبل، مكتشفيْن ودياناً داخليةً من الصخر، ووهاداً عميقة تستقر فوق مجارى مياهٍ مهجورة، وطرقاً مليئة بالأشواك والأجمات: من سيتذكر معك؟ أهوٍ لورنثو بدونك فى ذاك الجبل؟ أهو جونثالو معك فى هذا السجن؟:

(١٩١٥: ٢٢ أكتوبر)

هو من إلتفَّ بالبطانية الزرقاء، لأن الريح الثلجية لهذه الساعات كانت تُكذِّبُ، بحفيف أعواد النباتات المقطوعة، حرارة النهار العمودية. كانوا قد قضوا الليل كلَّه فى العراء، دون طعام. وعلى مسافة أقل من كيلومترين إنتصبت التيجان البازلتية لسلسلة الجبال، وجذورها غائرة

فى الصحراء القاسية. منذ ثلاثة أيام قبلها، كان فصيل الإستطلاع يسير دون إسترشاد باتجاه أو علاماتٍ، لا يرشده سوى أنف النقيب، الذى إعتقد أنه يعرف حيلَ وطرق الطوابير، الممزَّقة الآن والهاربة، لفرنثيسكو بييا* . وإلى الوراء، على مسافة ستين كيلومتراً، بقيت القوات التى لا تنتظر سوى رسولٍ من الفصيل، بأقصى سرعة للجواد، لتنقضّ على بقايا قوات بييا وتمنعها من الإنضمام إلى قواتٍ لم ينهكها القتال فى تشيهواهوا . لكن أين ستكون مِزَق قواتِ الزعيم؟ إعتقد هو أنه يعرف: فى أحد الممرات الوعرة للجبل، سالكةً أصعب الطرق. فى اليوم الرابع ـ هذا اليوم ـ كان يجب على الفصيل أن يتوغل داخل السييرا** بينما تتقدم القوات الموالية لكارّانثا صوب الموقع الذى سيغادره هو ورجاله، عند الفجر. منذ الأمس، فرغت أكياس دقيقٍ الذرة. والجاويش الذى خرج على حصانه الليلة الماضية، حاملاً زمزميات الفصيل كله، نحو الجدول الذى يفيض من بين الصخور ويغيض عند أول إلتقاء بالصحراء، لم يجده. فقد رأى المجرى ذا العروق المحمرَّة، نظيفاً ومجعداً، خاوياً. كانوا قد مروا منذ عامين بنفس هذا المكان فى موسم المياه والآن ليس سوى كوكب مستدير يتأرجح، من الفجر وحتى الغسق، فوق الرؤوس الملتهبة للجنود. كانوا قد عسكروا دون أن يشعلوا ناراً؛ لأن أى حارس يمكنه أن يتبينها من الجبل. وكذلك، لم يكن هذا ضرورياً. فلن يطهوا أى طعام، وفى إتساع السهل المتصحِّر، لن تدفئ أحداً نارٌ منعزلة. ملتفاً فى لفاعه، ربَّت هو على وجهه النحيل؛ إمتداد الشارب الخشن فى الذقن التى نبتت خلال الأيام الماضية؛ وطبقة التراب الملتصقة بجانبى الشفتين، وفى الحواجب، وفى قصبة الأنف. شكَّلَ المعسكرَ ثمانيةَ عشر رجلاً، على

---

* Villa : اشتهر خارج المكسيك بإسم ڤيللا مع زاباتا ونطقه الإسبانى ثاباتا ـ م

** السييرا: سلسلة الجبال ـ م

مبعدة بضعة أمتار من القائد: فهو ينام أو يحرس وحيداً، دائماً، تفصله مسافةٌ من الأرض عن جنوده. وقريباً، كانت غُرَر الخيل تتماوج فى الريح وترتسم أشكالها السوداء على جلد الأرض الأصفر. كان يودُّ الصعود: فمنبع المَسِيل فى الجبل وبين صخوره تتشكل تلك القطرات من الإنتعاش القصير والمستوحد. كان يودُّ الصعود: فالعدو لا يمكن أن يكون بعيداً. أحس جسدُه بالتوتر تلك الليلة. كان الصيام والعطش قد جعلا عينيه غائرتين ومفتوحتين أكثر، تلك العينان الخضراوان بنظرتهما المتماثلة والباردة.

ظل القناع المصبوغ بالتراب ثابتاً ومستيقظاً. إنتظر ظهور الخيط الأبيض ليأخذ فى التحرك: فى اليوم الرابع، طبقاً لما هو متفقٌ عليه. لم ينم أحدٌ تقريباً، لأنهم كانوا ينظرون إليه من بعيد، جالساً وركبتاه مضمومتين، ملتفاً بالبطانية، ساكناً. ومن حاولوا إغلاق عيونهم. كانوا يصارعون ضد العطش، والجوع، والإرهاق. ومن لم ينظروا إلى النقيب نظروا إلى صف الخيول برؤوسها المحنية. كانت أعناقها قد رُبطت بشجرة مثكيتى* سميكة تبرز من الأرض، مثل إصبع ضائع. ونحو الأرض كانت تنظر الخيول المتعَبة. لابد أن الشمس تظهر من خلف الجبل. حان الوقت.

كان الجميع بانتظار هذه اللحظة التى نهض فيها القائد، وطوّح لِفاعه الأزرق وكشف صدره المحمَّل بأحزمة الرصاص، والمشبك اللامع لحزام الرداء العسكرى، وقطعتى جلد الخنزير الملتفتين فوق ساقه فوق الحذاء. دون كلمة، نهض الفصيل واقترب من الخيول. النقيب كان على صواب: فقد ظهر الوميض المروحى خلف القمم الأكثر إنخفاضاً وأطلق قوساً من الضوء صاحبه كورَس الطيور غير المرئية، البعيدة،

* mezquite: شجرمكسيكى شبيه بالأكاسيا تستخرج منه عطور ـ م

لكنها سيدةُ السكون الشاسع للأرض المهجورة. أشار هو إلى الياكى توبيّاس وقال له بلغته: عليك أن تبقى فى المؤخرة، وفور أن نتبيَّن العدوّ تسابق الريح لتُبَلِّغ عن ذلك.

أومأ الياكى موافقاً، وهو يرتدى قبعته المنفوخة، ذات القمة المستديرة، المزيَّنة بريشة حمراء مشبوكة فى جانبها. قفز النقيب إلى سرجه وبدأ طابور الرجال خببه الخفيف نحو بوابة السييرا: إلى الأخدود ذى الممرات الضيقة الصفراء.

برزت ثلاثة أفاريز فى جسم الأخدود. إتجهت القوة إلى الثانى: الأقل إتساعاً، لكنه يتيح مرور الخيل فى طابور منفرد: الذى يقود إلى النبع. كانت الزمزميات الفارغة تصطَدم برنين مكتوم بأفخاذ الرجال؛ وكرَّر سقوط الأحجار تحت السنابك ذلك الصوت الأجوف العميق، الذى كان يتبدَّد دون صدى، بالضربة الجافة الفريدة لطبل مشدود، على طول الإخدود. من أعلى الممر الضيق، كان الطابور القصير يبدو منكّساً رؤوسه، يتقدم متحسساً طريقه. هو وحده ظل ناظراً إلى القمم، مُزَرِّراً عينيه إتقاءً للشمس، تاركاً للحصان التعامل مع تضاريس الأرض. على رأس الفصيل، لكن يشعر لا بالخوف ولا بالفخر. كان قد خلَّف الخوف وراءه، ليس فى اللقاءات الأولى، بل فى اللقاءات المتكرِّرة التى جعلت من الخطر حياة عادية ومن الهدوء عنصراً مُدهشاً. لذا، أزعجه سراً هذا السكونُ المطبقُ للأخدود ولذا شدد قبضته على الأعنَّة وأعدّ، دون أن ينتبه، عضلات ذراعه ويده لتناول مسدسه بسرعة. إعتقد أنه لا يعرف الكبرياء. فقد منعه من ذلك الخوف فى البداية، ثم التعوُّد بعدها. لم يستطع أن يشعر بالفخر حين صفرَّت الطلقات الأولى قريبةً من سمعه وفرضت تلك الحياةُ المعجزةُ نفسها فى كل مرةٍ يحيد فيها الرصاص عن هدفه: حينها لم يستطع سوى الشعور بالدهشة إزاء الحكمة العمياء لجسده فى تفادى الطلقات، فى

النهوض أو الإنحناء، فى إخفاء الوجه خلف جذع شجرة؛ دهشة واحتقار، حين فكَّر فى العناد الذى يدافع به الجسد، الأسرع من الإرادة، عن نفسه. ولم يستطع أن يشعر بالفخر، بعدها، حين لم يعد يسمع إلاّ بالكاد ذلك الصفير العنيد، المألوف. فقط، كان يحيا لحظة خطر، محكومة وجافة، فى هذه اللحظات التى أحاطه فيها السكون غير المُتوقَّع. دفع فكّه إلى أمام، بإيماءة شك.

أكدّ له الصفير المتَّصل لأحد الجنود، خلفه، خطر هذه النزهة فى الأخدود. وقطعت الصفير طلقات مفاجئة وأنينٌ معروف: كانت خيول بيبيا تنقض، يدفعها فرسانها، رأسياً، من قمة الأخدود فى هبوطٍ إنتحارى، بينما البنادق المتمرسة فى الجرف الثالث تجرح رجال الفصيل وتجمح الخيول الدامية وتتدحرج، يلُفُّها دوى البارود، حتى القاع ذى الصخور المدبَّبة: لم يستطع هو إلاّ أن يدير وجهه ويرى توبيّاسٍ يخرج عن الإفريز، مقلداً رجال بيبيا، منحدراً على السفوح المسنَّنة، فى محاولةٍ عبثية لتنفيذ الأوامر: إنزلقت قدم حصان الياكى وطار خلال ثانية، قبل أن يصطدم بقاع الممر الضيق ويسحق فارسَه تحت ثقله. تصاعد العويل، مصحوباً بنيران كثيفة؛ إنزلق هو من الجانب الأيسر للحصان وتدحرج، متحكماً فى سقوطه باستدارات واستنادات، نحو القاع: فى نظرته الغائمة، كانت بطون الخيل الجامحة تنبض فى الأعلى، بجوار الطلقات، غير المجدية هى الأخرى، للرجال المباغتين فوق ذلك الجرف الضيق، دون إمكانية للإحتماء أو المناورة بخيولهم. سقط، متشبثاً بجوانب الجبل، وسقط فرسان بيبيا فوق الجرف الثانى، لخوض القتال الإلتحامى. الآن إستمر التدحرج الوحشى لأجسادٍ متلاحمة وخيول مجنونة، بينما يلمس هو بيديه الداميتين قاع الأخدود المظلم ويخرجُ مسدسه. لم يكن بإنتظاره سوى سكون آخر. كانت القوات قد أبيدت. زحف،

بذراعه وساقه المتألمتين، نحو صخرة عملاقة.

ـ أخرج، يا نقيب كروث، سلِّم نفسك...

أجابت الحنجرة الجافة: ـ حتى تعدمونى بالرصاص؟ أنا صامدٌ هنا.

لكن اليد اليمنى، التى شلّها الألم، لم تكد تستطيع الإمساك بالمسدس. وحين رفع ذراعه، أحس بوخزة غائرة فى بطنه: أطلق الرصاص، ورأسه ساقط، لأن الألم يمنعه من رفع بصره: ظل يطلق الرصاص حتى كرَّر الزناد وحده حركةً معدنيةً. قذف المسدس إلى الجانب الآخر من الصخرة الضخمة وعاد الصوتُ من أعلى للصياح:

ـ إخرج ويداك خلف رقبتك.

على الجانب الآخر من الصخرة، تمدَّد أكثر من ثلاثين حصاناً، ميتين أو محتضرين. بعضهم يحاول رفع رأسه؛ وآخرون يتّكئون على ساق مثنية؛ وأغلبهم تلتمع وردات حمراء كبيرة فى جبهتهم، وعنقهم، وبطنهم. وفوق الحيوانات أحياناً، وتحتها أحياناً أخرى، إتخذ رجال الفريقين أوضاعاً ذاهلة: وجوههم إلى أعلى، كأنهم يبحثون عن خيط ماء المسيل الجاف؛ وجوههم إلى أسفل، محتضنين الصخور. وجميعهم موتى، باستثناء ذلك الرجل الذى يئن، تحت ثقل مهرةٍ بُنية.

ـ دعونى أُخرِج هذا ـ صاح بجماعة القمة ـ قد يكون واحداً منكم.

كيف؟ بأية أذرع؟ بأية قوة؟ لم يكد ينحنى ليمسك إبطى جسد توبيّاس المحشور، حتى صفرت طلقةٌ من الصلب واصطدمت بالصخرة. رفع بصره. هدأً قائد الجماعة المنتصرة ـ خوذةٌ بيضاء، باديةٌ من ظلّ القمة ـ مُطلِقَ الرصاصة بحركةٍ من ذراعيه. إنساب العرق اللزج، المُترب، من معصميه وإذا كان أحد المعصمين لا يكاد يستطيع الحركة، فقد تمكّن المعصم الآخر من جذب كتف توبيّاس

بإرادة مُركَّزة.

أنصت، خلف ظهره، إلى السنابك المسرعة لأنصار بيبيا الذين إنفصلوا عن الطابور ليقبضوا عليه. كانوا فوق رأسه حين خرجت ساقا الياكى المحطمتان من تحت الحيوان. إنتزعت أيدى أنصار بيبيا أحزمة الطلقات من صدره.

كانت الساعة السابعة صباحاً.

ولن يتذكر تقريباً، عندما دخل فى الرابعة بعد الظهر سجن بيرالس، السير الحثيث الذى فرضه المقدم ثاجال تابع بيبيا على رجاله وعلى السجينين ليقطع، فى تسع ساعات، الممرات الوعرة للسييرا ويهبط إلى القرية التابعة لولاية تشيهواهوا. ففى رأسه التى تخترقها الآم ثقيلة، لم يكد يتبيَّن الطريق الذى قطعه. الطريق الأصعب، فى الظاهر. والأسهل لمن كان، مثل ثاجال، قد رافق بانتشو بيبيا منذ العمليات الأولى وظل عشرين عاماً يذرع هذه السييرا ويُسجّل مخابئها، وممراتها، وأخاديدها، ودروبهاالمختصرة. كان شكل الخوذة الشبيه بالفِطر يُخفى نصف وجه ثاجال، لكن أسنانه الطويلة المضمومة كانت تبتسم دائماً، يحدِّدها الشارب واللحية الأسودين. إبتسمت حين أركبوه هو بصعوبة فوق الحصان ومدَّدوا الجسد المحطم للياكى، على وجهه، على عجيزة نفس الحصان. وابتسمت حين مد توبيّاس ذراعه وتعلّق بخصر النقيب. وابتسمت حين شرع الطابور فى السير متوغلاً فى فوهةٍ مظلمة، فى كهفٍ حقيقى ذى فتحتين، يجهله هو وغيره من أنصار كارّانثا، أتاح فى ساعةٍ واحدة قطع مرحلة تستغرق أربع ساعات فى الطرق المفتوحة. لكنّه إنتبه إلى ذلك كله نصف إنتباه. كان يعرف أن كلا فريقى الحرب الطائفية كانا يعدمان بالرصاص فوراً ضباط الجماعة المعادية وتساءل ما الدافع، الآن، للمقدم ثاجال فى إقتياده إلى مصير مجهول.

أنعسته الرائحة. كان ذراعه وساقه، اللتين حطمتهما السقطة تتدليان خاملتين وظل الياكى يحتضنه ويئن، ووجهه مُتقلِّص. كانت أكوام الصخر المنحدرة تتتابع وهم يسيرون تخفيهم الظلال، عند قاعدة الجبال، مكتشفين ودياناً داخلية من الصخور، وهوَّات عميقة تستقر فوق مجارى مياه مهجورة، وطرق تُقدِّم فيها شجيرات الأشواك والأجمات سقفاً خادعاً لمرور الطابور. ربما لم يعبر هذه الأرض سوى رجال بانتشو بيبا، فكَّر، ولهذا تمكنوا من الفوز، قبلاً، بتلك السلسلة من إنتصارات حرب العصابات التى حطَّمت ظهر الدكتاتورية. إنهم أساتذة فى المباغتة، والحصار، والهروب السريع بعد توجيه الضربة. كل ما هو نقيض مدرسته فى الحرب، مدرسة الجنرال البارو أوبريجون، التى كانت مدرسة المعركة التقليدية، فى سهل مفتوح، بعتادٍ كافٍ ومناوراتٍ فى أراض تم إستكشافها.

- ضُمّوا الصف، بنظّام. لا تتشتتوا منى - كان المقدم ثاجال يصيح كلّما خرج من مقدمة الطابور وسار نحو الخلف، مبتلعاً الغبار ومبرزاً أسنانه - . سنخرج الآن من الجبل ومن يدرى ماذا ينتظرنا. إستعدوا جميعاً؛ إنحنوا؛ عيونٌ صاحية لتمييز سحب الغبار؛ جميعنا يمكننا الرؤية أفضل منى وحدى...

أخذت كتل الصخور تنفتح. كان الطابور فوق قمةٍ مستوية وصحراء تشيهواهوا، المتماوجة، المرشَّقة بأشجار الميثكيتى، تُنفتح عند أقدامهم. كانت تقطع الشمس لفحاتٌ من الهواء المرتفع: طبقة باردة لا تلمس أبداً حواف الأرض الملتهبة.

- سنسلك طريق المنجم، لنهبط بسرعة أكبر - صاح ثاجال - . أمسك رفيقك جيداً، يا كروث، فالهبوط عمودى.

ضغطت يد الياكى حزام أرتيميو؛ لكن كان فى ضغطته شىء أكثر من الرغبة فى عدم السقوط: إلحاحٌ تواصلى. خفض أرتيميو رأسه،

ربَّت عنق الحصان ثم أدار وجهه نحو سحنة توبيّاس المتقلصة.

- غمغم الهندى بلغته: - سنمرُّ بجوار منجم مهجور منذ زمن بعيد. حين نمر بجوار إحدى فوّهات الدخول، إنزلق من على الحصان وإجر إلى الداخل؛ المنجم مليءٌ بالأنفاق ولا يمكن أن يعثروا عليك هناك...

لم يتوقف عن التربيت على شعر الحصان. عاود رفع رأسه وحاول أن يتبيّن، أثناء الهبوط نحو الصحراء، ذلك المدخل الذى تحدث عنه توبياس.

غمغم الياكى: - إنسنى. فساقاى مكسورتان.

الثانية عشرة؟ الواحدة؟ كانت الشمس تزداد ثقلاً.

ظهرت بضع عنزات فوق صخرةٍ فصوب إليها بعض الجنود بنادقهم. هربت واحدة، وسقطت الأخرى صريعةً من فوق قاعدتها فترجَّل أحد جنود بيبيا وحملها فوق ظهره.

- لتكن هذه آخر مرة يصطاد فيها أحدٌ الماشية! - قال ثاجال بصوته الأجش والباسم - . ستحتاجون إلى هذه الطلقات ذات يوم، يا عرِّيف پايان.

ثم نهض فوق الركاب، وقال للطابور كله: - إفهموا شيئاً، يا حمقى: إننا نمضى وأنصار كارّانثا يدوسون على ذيلنا. فلا تعاودوا تبديد الذخيرة. ماذا تظنون؟ أننا نمضى منتصرين صوب الجنوب، مثلما من قبل؟ لا. إننا نمضى مهزومين، صوب الشمال، من حيث خرجنا.

- إسمع، يا سيدى المقدم - زام العرِّيف بصوته المكتوم -، لدينا على الأقل شيءٌ نتبلَّغ به.

- ما لدينا هى أمٌّ عاهرة - صرخ ثاجال.

ضحك الطابور وربط العرِّيف پايان العنزة الميتة فوق مؤخرة حصانه.

ـ لا يلمسنّ أحد الماء ولا دقيق الذرة حتى نصل إلى أسفل ـ أمر ثاجال.

لكن تفكيره هو كان مثبّتاً فى شعاب الهبوط. وها هى هناك، عند إستدارة هذا المنعطف، الفوهة المفتوحة للمنجم.

إصطدمت سنابك ثاجال بالقضبان الضيِّقة التى تتقدم لنصف متر خارج المدخل. الآن قفز كروث من الحصان وتدحرج على المنحدر الخفيف قبل أن تستطيع البنادقُ المُبَاغَتَة الاستعداد وسقط على ركبتيه فى الظلام: رنت الطلقات الأولى وإختلطت أصوات أنصار بيبا. جعل البردُ المباغت رأس الرجل خفيفة؛ وسبَّبت لها الظلمةُ الدوار. إلى الأمام: جرت الساقان ناسيتين الألم، حتى إصطدم الجسد بالصخر: وحين فتح ذراعيه، مدَّهما نحو نفقين متباعدين. من أحدهما تهب ريحٌ قوية؛ وفى الآخر، حرارةٌ متكومة. أحست اليدان الممدوتان، فى أطراف الأصابع، هاتين الحرارتين المتعارضتين. عاود الجرى، عبر الجانب الساخن، الذى لابد أنه أعمق. ووراءه، كانت تجرى أيضاً، بموسيقى المهاميز، أقدام أنصار بيبا. أطلق عودُ ثقاب وميضه البرتقالى وفقد هو توازنه وسقط فى نفق رأسى وشعر بالصدمة الجافة لجسده فوق بعض الدعامات المسوِّسة. فوقه، لم تتوقف جلبة المهاميز وارتدت غمغمة الأصوات فوق حوائط المنجم. نهض المطَارد بعناءٍ؛ حاول أن يتبيّن أبعاد المكان الذى سقط فيه، والمخرج الذى يمكن منه متابعة الفرار.

"الأفضل أن أنتظر هنا..."

تصاعدت الأصواتُ فوقه، كأنها تتجادل. ثم سُمِعت، بوضوح، قهقهة المقدم ثاجال. تراجعت الأصوات. صفَّر شخصٌ ما، عن بعد: صفارة إنتباهٍ واحدة، خشنة. وبلغت المخبأَ جَلَبَاتٌ أخرى غير محدَّدة، ثقيلة، إستطالت خلال عدة دقائق. وبعدها، لا شىء. بدأت العينان فى

الإعتياد: الظلمة.

"يبدو أنهم مضوا. ربما كان كميناً. الأفضل أن أنتظر هنا."

فى حرارة النفق المهجور، تحسسَّ صدره، وجسّ جنبه الذى آلمته الصدمات. كان فى مساحة مستديرة بلا مخرج: هى، بالتأكيد، آخر نقطة فى إحدى الحفائر. كانت بضع دعامات مكسورة ملقاةً على الأرض؛ وكانت أخرى تسند سقف الصلصال الضعيف. تحقَّق من ثبات إحداها ووضع ثقله عليها، جالساً، فى انتظار مرور الساعات. كانت إحدى الأخشاب تمتد نحو الفتحة التى سقط منها: لم يكن صعباً تسلُّقها والوصول مرةً أخرى إلى كهف المدخل. لمس عدَّة تمزقات فى بنطلونه، وفى السترة التى إنفصلت منها خطوط القصب المذهبة. إرهاق، وجوع، ونعاس. مدَّ جسدٌ شابٌ ساقيه وأحس بالنبض القوى فى فخذيه. الظلمة والاسترخاء، اللهاث الخفيف والعيون المغمضة. فكر فى النساء اللواتى كان يودُّ معرفتهن؛ أما جسد من عرفهن فهرب من خياله. الأخيرة كانت فى فرسنييو. عاهرة ترتدى أفضل ثيابها. واحدة من أولئك اللواتى يبكين حين تُسألن، "من أين أنت؟ ولماذا إنتهى بك المطاف هنا؟". السؤال الدائم، من أجل بدء محادثة ولأنهن جميعاً يسرُّهُن إختراع حكايات. أما تلك فلا؛ إنها تبكى فقط. والحرب التى بلا نهاية. واضح أن هذه هى العمليات الأخيرة. شبك ذراعيه فوق صدرِه وحاول أن يتنفس بإنتظام. حالما سيسيطرون على الجيش المحطَّم لبانشو بييا، سيكون ثمة سلام. سلام.

"ماذا سأفعل حين ينتهى هذا؟ ولماذا الإعتقاد بأنه سينتهى؟ أنا لا أفكر هكذا أبداً."

ربما سيعنى السلامُ فرص عمل طيّبة. فى إرتحاله المتعرِّج عبر أراضى المكسيك، لم يشارك سوى فى التدمير. لكن دُمِّرَت أراض زراعية يمكن زراعتها من جديد. وذات مرة، فى الباخييو، رأى أرضاً

زراعية ممتازة، يمكن بجوارها أن يبنى لنفسه بيتاً ببواكى وأفنية مزهرة ويسهر على البذار. أن يرى كيف تنمو بذرةٌ، ويعتنى بها، ويرعى إزدهار النبتة، ويجمع الفاكهة. يمكن أن تكون هذه حياة طيبة، حياة طيبة...

"لا تنم، كن مستعداً..."

قَرَص فخذه. طوَّحت عضلات الرقبة رأسَه إلى الوراء.

لم يكن يأتى من أعلى أى صوت. باستطاعته الاستكشاف. إتكأ على الدعامة الصاعدة حتى يبلغ، بقدمه، النتوءات الصخرية للفوَّهة. مضى متأرجحاً، بذراعه القوية، من نتوء إلى نتوء، حتى أنشب أظافره فى المنصّة العليا. ظهرت رأسه. كان فى النفق الساخن. لكنه بدا الآن أشدَّ ظلمةً وإختناقاً مما كان. سار حتى الكهف الذى تتوزَّع منه الأنفاق. تعرَّف عليه لأن نفق الريح القوية كان إلى جوار النفق الآخر السئ التهوية، لكن على مسافة أبعد لم يكن الضوء يدخل من الفتحة الأصلية. هل يكون الليل قد حلَّ؟ هل يكون قد فقد حساب الساعات؟

فى الظلام، بحثت يداه عن المدخل. لم يكن الليل هو الذى أغلقه، بل متراس من الصخور الثقيلة، أقامه أنصار بيبيا قبل ذهابهم. لقد حبسوه فى هذه المقبرة ذات الدعامات المتهالكة.

أحس بهذا فى أعصاب معدته: أنه منسحقٌ. وعلى نحو آلى. وسَّع منخارَى أنفه فى جهدٍ خيالى للتنفُّس. رفع أصابعه إلى صدغيه وربَّت عليهما. النفق الآخر، الجيد التهوية. فهذا الهواء يأتى من الخارج، يصعد من الصحراء، تسوطه الشمس. جرى نحو الممر الثانى. إلتصق أنفه بذلك الهواء العذب، المتجدِّد، وأخذ، ويداه مُستندتان على الجدران، يتعثَّر فى الظلام. بلَّلت يدَه قطرةٌ. قرَّب فمه المفتوح من الجدار، باحثاً عن مصدر الماء. من السقف الأسود كانت تتساقط تلك اللآلئ البطيئة، المنعزلة. إلتقط قطرةً ثانية بلسانه؛ وانتظر الثالثة،

والرابعة. أمال رأسه. بدا أن النفق قد بلغ نهايته. تشمَّم الهواء. كان يأتى من أسفل، أحسّ به حول كاحله. ركع، وبحث بيديه. من تلك الفتحة غير المرئية، من هناك ينبع: والنفق الضيق هو ما كان يمنحه قوة أكبر من قوته الأصلية. كانت الأحجار مُفككة. بدأ يجذبها، حتى إتسع الشق، وفى النهاية، إنهار: دهليزٌ جديد، تضيؤه عروق فضِّية، إنفتح خلف الإنهيار. دفع جسده وإنتبه، فى الممر الجديد، إلى أنه لا يستطيع السير على قدميه: فلم يكن الممر يسعه إلاّ وهو على بطنه. وهكذا ظل يسحب جسده، دون أن يعرف إلى أين يؤدى جهده الزاحف. عروقٌ رمادية، وإنعكاسات مذهَّبة لشرائط الضابط المقصَّبة: وحدها هذه الأضواء المتفاوتة كانت تضئ تمهُّله الشبيه بأفعى متشرنقة. عكست عيناه أشد أركان الظلمة سواداً وإنساب خيطٌ من اللعاب على ذقنه. أحس بفمه مليئاً بثمار التمر الهندى: ربما كانت الذكرى اللاإرادية لثمرة ما زالت تثير فى الذاكرة غدَدَه اللعابية، ربما كانت الرسول الأمين لرائحة تنبعث من بستان ناء، حملها هواء الصحراء الساكن، حتى بلغت الممر الضيق. إلتقطتْ حاسَّة الشَّم المنتبهة شيئاً آخر. فماً ممتلئاً بالهواء. رئةً ممتلئةً. طعماً لا يخطئ لأرض قريبة: لا يخطئُ بالنسبة لشخص ظل وقتاً طويلاً حبيس طعم الصخور. ظل الممر المنخفض يرتفع؛ والآن إنتهى بشكل مفاجئ وإنحدر، بحدة، إلى فضاء داخلى واسع وأرض رملية. أفلت الدهليز المرتفع وترك نفسه يسقط فوق الفراش الأبيض. كانت بعض عروق النباتات قد دخلت حتى ذلك الموضع. من أين؟

"نعم، الآن يعود إلى الإرتفاع. لكنه ضوء! بدا إنعكاساً للرمال. لكنه ضوء!"

جرى، وصدره ممتلئ، نحو الفتحة التى تستحمُّ فى الشمس.

جرى، دون أن يسمع أو يرى. دون أن يسمع عزف الجيتار البطئ

والصوت الذى يصاحبه، صوتٌ متثاقلٌ وحسّى لجندى مُرهَق.

فتيات دورانجو يكتسين بالأزرق والأخضرٍ،
من الساعة الثامنة فصاعداً، من لا تقرُصُ منهم تعضُّ...

دون أن يرى النار الصغيرة التى يتأرجح فوقها الهيكل العظمى للعنزة التى تم إصطيادها فى الجبل ولا الأصابع التى تنتزع منها مِزَقاً من الجلد.

سقط دون أن يسمع أو يرى، فوق أول شريط من الأرض المضاءة. كيف كان بإمكانه أن يرى، تحت شمس الثالثة بعد الظهر هذه، المُنصَبَّة، التى تضئ مثل فطرٍ من الجير خوذةَ الرجل الذى ضحكَ ومدَّ يده.

ـ هيا، يا نقيب، فأنت ستجعلنا نصل متأخرين. إنظر فقط كيف يدخل الياكى إلى الضيعة. والآن نعم، يمكن استخدام الزمزميات.

فتيات تشيهواهو لم تعدن تعرفن ماذا تفعلن،
وتطلبن من الرب أن يكون ثمة رجل يعرف كيف يجيد محبتهن...

رفع السجين وجهه وقبل أن يرى المجموعة المتكئة للمقدم ثاجال، ترك عينيه تتوهان فى المنظر الطبيعى الجاف للأحجار والنبتات الشائكة، المنظر الطبيعى الممتد والبطئ، الساكن والثقيل كالرصاص. بعدها، نهض ووصل إلى المعسكر الصغير. نظر إليه الياكى محدِّقاً. مد هو ذراعه وانتزع مِزقةً محترقة من ظهر العنزة وجلس يأكل.

بيرالس.

كانت قرية من الطوب النئ. لا تكاد تتميز عن غيرها من القرى. مربعٌ واحد، هو الذى يمر فى مواجهة رئاسة البلدية، كان مرصوفاً بالحجارة. أما ما عداه فكان من التراب الذى سوَّته أقدام الأطفال

العارية، وأظافر الديكة الرومية التى تتنفش عند مداخل الشوارع، وأقدام جماعات الكلاب التى تنام أحياناً فى الشمس وتجرى جميعها أحياناً، وهى تنبح، على غير هدى. ربما كان هناك واحدٌ أو إثنين من المنازل الجيدة، ببوابات ضخمة ومزاليج من الحديد ومواسير من الصفيح: هما دائماً منزل المرابى ومنزل الزعيم السياسى (حين لا يكون هذا وذاك هما نفس الشخص)، الهاربين الآن من العدالة العاجلة لبانتشو بييا. كانت القوات قد إحتلّت المقرِّين مالئةً الأفنية ـ المختبئة خلف الجدران الضخمة التى تدير وجهها الشبيه بالحصن نحو الشارع ـ بالخيول والقش، بصناديق الذخيرة والأدوات: ما إستطاعت فرقة الشمال، المهزومة، إنقاذه فى مسيرتها نحو نقطة إنطلاقها. كان لون القريةُ مُغبَّراً، واجهة الرئاسة وحدها كانت تضئ بلون وردى، يضيع على الفور، عند الجانبين وعند الأفنية، فى نفس لون الأرض المائل إلى الرمادى. كان هناك مصدر ماءٍ قريب؛ ولهذا السبب تأسست القرية، التى كانت ثروتها تنحصر فى بعض الديكة والدجاجات، وبعض أعواد الذرة الجافة المزروعة فى الحوارى الترابية، ودكانتى حدادة، ودكان نجارة، ودكان بقالة وبعض الصناعات المنزلية. كانت القرية تحيا بمعجزة. وتحيا فى صمت. ومثلما فى غالبية النجوع المكسيكية، كان من الصعب معرفة أين يختبئ سكانها. فى الصباح كما فى المساء، وفى المساء كما فى الليل، ربما أمكن سماع ضربات مطرقة، ملحاحة، أو عويل طفل حديث الولادة، لكن سيكون من الصعب الإلتقاء فى الشوارع الحارقة بكائن حى. وأحياناً يُطلُّ الأطفال، ضئيلين، حفاة. القوات أيضاً بقيت خلف جدران المنازل التى استولت عليها أو مختفيةً فى أفنية الرئاسة، التى إتجه نحوها الطابور المتعب. وحين ترجّلوا، إقترب حارس فأشار المقدم ثاجال إلى الهندى الياكى.

خذ هذا إلى السجن. وأنت تعال معى، يا كروث.

الآن لم يكن المقدم يضحك. فتح مصراعى باب المكتب المطلى بالجير وجفّف عرق جبهته بكمّه. فك حزامه وجلس. تأمله السجين وهو واقف.

- إجذب كرسياً، يا نقيب، ودعنا نتحدث على سجيتنا. هل تريد سيجارة؟

تناولها السجين وقرَّب لهبُ الولاعة الوجهين.

- حسناً - عاود ثاجال الإبتسام -، الأمر بسيطٌ جداً. بإمكانك أن تخبرنا بخطط من يطاردوننا وسنطلق سراحك. أنا صريح معك. نحن نعرف أننا خسرنا، ورغم كل شىء نريد الدفاع عن أنفسنا. أنت جنديٌّ جيد وتفهم هذا.

- بالتأكيد. ولهذا السبب نفسه لن أتكلم.

- نعم. لكن ما سيكون عليك أن تخبرنا به قليلٌ جداً. فأنت وكل أولئك الموتى الذى تخلّفوا فى الأخدود كنتم تشكلون فصيل استطلاع، كان ذلك واضحاً تماماً. وهذا يعنى أن مجمل القوات ليست بعيدة. حتى آنهم إشتمّوا الطريق الذى سلكناه نحو الشمال. لكن لما كنتم لا تعرفون جيداً ذلك الممر عبر الجبل، فالمؤكد أنه كان عليكم أن تعبروا السهل كلّه وهذا يستغرق عدة أيام. والآن: كم عددهم، وهل هناك قوات سبقت بالقطار، وبكم تحسب إمداداتهم من الذخيرة، وكم عدد قطع المدفعية التى يجرُّونها؟ أى تكتيك إستقروا عليه؟ أين ستتجمَّع الألوية المتفرقة التى تقتفى أثرنا؟ تصوَّر بساطة الأمر: عليك أن تقصَّ علىَّ كلَّ هذا وتخرج حراً. أعطيك كلمتى.

- منذ متى تعطون هذه الضمانات؟

- مرحى، أيها النقيب، إننا سنخسر فى كل الأحوال. أنا صريح معك. الفرقة تفكَّكت. إنقسمت إلى مجموعات ستضيع فى الجبال، وتتسلُّ بإطِّراد، لأنهم على طول الطريق سيبقون فى قراهم، فى

أراضى ضياعهم. نحن مُتعَبون. إنها أعوامٌ طويلة من القتال، منذ أن إنتفضنا ضد دون پورفيريو. بعدها قاتلنا مع ماديرو، ثم ضد الملَّونين أنصار أوروثكو، ثم ضد زعران هويرتا، ثم ضدكم أنتم أنصار كارّانثا. إنها أعوام طويلة. وقد تعبنا. وقومنا مثل الحرباوات، يأخذون لون الأرض، يستقرّون فى الأكواخ التى خرجوا منها، يعاودون إرتداء زى الفَعَلة ويعاودون إنتظار ساعة مواصلة القتال، ولو طال الأمد مائة عام. وهم يعرفون الآن أننا خسرنا هذه المرة، تماماً مثل أنصار ثاباتا* فى الجنوب. أنتم كسبتم. فلماذا يجب أن تقتلنا وفريقك هو الذى كسب الحرب؟ دعنا نخسر ونحن نقاتل. لا أطلب منك سوى هذا. دعنا نخسر ببعض الشرف.

- بانتشو بييا ليس فى هذه القرية.
- لا. إنه يسبقنا. والرجال يهجروننا. لقد صرنا قلةً قليلة.
- وأى ضمانات تعطوننى؟
- نتركك حياً هنا فى السجن حتى ينقذك أصدقاؤك.
- هذا، إذا كسب رجالنا. وإذا لم يكسبوا...
- إذا هزمناهم، أعطيك حصاناً حتى تذهب.
- وهكذا يمكنكم قتلى بالرصاص من الظهر حين أخرج جرياً.
- قل لنا أنت...
- لا. ليس لدى ما أقوله.
- فى السجن صديقك الياكى والمحامى برنال، مبعوث كارّانثا. إنتظر معهما أمر الإعدام بالرصاص.

نهض ثاجال.

لم يكن لدى أى منهما مشاعر. فقد فقدها كل واحدٍ منهما، فى

---

* Zapata: اشتهر خارج المكسيك باسم زاباتا - م

فريقه، تآكلت بفعل الأحداث اليومية، بفعل الدفع المتَّصل دون هدنةٍ لصراعهما الأعمى. كانا قد تحدثا بطريقة الية، دون توريط لعواطفهما. طلب ثاجال المعلومات وأتاح فرصة الإختيار بين الحرية وبين فصيل الإعدام، ورفض السجين تقديم المعلومات: لكن ليس بوصفهما ثاجال وكروث، بل مثل ترسين فى ماكينتى حربٍ متعارضتين. لهذا السبب، لقى نبأ الإعدام بالرصاص لا مبالاةً مطلقةً من جانب السجين. لا مبالاة هى، بالضبط، ما أجبره على الإنتباه إلى الهدوء الوحشى الذى قَبِل به موته الخاص. عندئذ نهض هو أيضاً وهو يجزُّ على فكيه.

ـ أيها المقدم ثاجال، لقد قضينا زمناً طويلاً ونحن نطيع الأوامر، دون أن نتيح لأنفسنا الوقت لفعل شىء، كيف أقول لك؟، لفعل شىءٍ يقول: هذا الشىء أفعله بوصفى أرتيميو كروث؛ هذه اللعبة ألعبها أنا وحدى، وليس بصفتى ضابطاً فى الجيش. إذا كان عليك أن تقتلنى، إقتلنى بوصفى أرتيميو كروث. لقد قلت أنت أن هذا سينتهى، أننا مُتعَبون. أنا لا أريد أن أموت بوصفى آخر ضحايا قضيةٍ منتصرة وأنت أيضاً لا تريد أن تموت بوصفك آخر ضحايا قضية خاسرة. كن رجلاً، يا سيدى المقدم، ودعنى أكون رجلاً. أقترح عليك أن نتبارز بالمسدسات. إرسم خطاً فى الفناء ولنخرج كلانا مسلَّحين من ناصيتين متقابلتين. وإذا تمكنت أنت من جرحى قبل أن أعبر الخط، فلتقتلنى. وإذا عبرتُه دون أن تصيبنى، فلتطلق سراحى.

ـ عرِّيف پايان! ـ صاح ثاجال وبريقٌ فى عينيه .. خذه إلى الزنزانة.

ثم أدار وجهه إلى السجين. ـ لن تُخطَروا بساعة تنفيذ الإعدام، ومن ثم يجب أن تظلوا مستعدين، قد يكون خلال ساعة، وكذلك قد يكون غداً أو بعد غد. وعليك فقط أن تفكر فيما قلته لك.

عبر القضبان كانت تدخل الشمس الغاربة وترسم بالأصفر الخطوط الخارجية لهذين الرجلين، أحدهما واقف، والآخر مستلق. حاول توبيّاس أن يغمغم بتحية؛ أما الآخر، الذى كان يتمشّى بعصبية، فاقترب منه فور أن أصدرت الزنزانة صريراً واحتكّت مفاتيح عريّف الحراسة بالمزلاج.

- حضرتك النقيب أرتيميو كروث؟ أنا جونثالو برنال، مبعوث القائد الأعلى بينوستيانو كارّانثا.

كان يرتدى زياً مدنياً: بذلة كشمير بلون البن بحزام مستعار فى الجزء الخلفى. وراقبه هو مثلما يراقب كلَّ المدنيين الذين يلقون بأنفسهم من حين إلى آخر على النواة الغارقة فى العرق لمن يقاتلون: بنظرة سريعةٍ متهكمةٍ ولامبالية، حتى استرسل برنال، وهو يمر بمنديلٍ على جبهته الواسعة وشاربه الأشقر:

- الهندى فى حالة سيئةٍ جداً. ساقه مكسورة.

هزّ النقيب كتفيه. - لن يبقى طويلاً

- ماذا تعرف؟ - سأل برنال وأوقف المنديل فوق شفتيه، بحيث خرجت الكلمات مخنوقةً.

- سينسفوننا جميعاً. لكنهم لا يقولون فى أى ساعة. لن نموت من الزكام.

- أليس هناك أمل فى أن يصل رجالنا قبل ذلك؟

كان النقيب هو من توقف الآن - كان يدور، مراقباً السقف، والحوائط، والنافذة الصغيرة ذات القضبان، والأرضية الترابية: البحث الغريزى عن الفوهة التى يمكن الهرب منها - ونظر إلى عدوٍّ جديد: الواشى المزروع داخل الزنزانة.

سأل: - ألا يوجد ماء؟

- شربه الياكى.

أنَّ الهندى. إقتـرب هو من الوجه النحـاسى المتكئ على المسند الحجرى لتلك المصطبة العارية التى تقوم مقام السرير والمقعد. توقف خدّه بجوار خدّ توبيّاس ولأول مـرة، بقوةٍ أجبرته على التراجع، شعر بحضور ذلك الوجه الذى لم يكن أبداً أكثر من عجينةٍ داكنة، جزءٍ من القوات، يمكن التعرُّف عليه فى التكامل العصبى والسريع لجسده المقاتل أكثر مما يمكن التعرُّف عليه فى هذا الهدوء، وهذا الألم. كان لتوبيّاس وجه: وقد رآه. كانت مئات من الخطوط البيضاء - خطوطُ ضحكٍ وضيق وعيون مُزَرَّرَةٍ ضد الشمس - ترتسم عند زاويتى الجفون وتتقاطع علىً الوجنتين العريضتين. إبتسمت الشفتان المثلثتان والبارزتان بعذوبة وكان فى العينين الرماديتين، المعذَّبتين شئٌ شبيه ببئر من الضوء الكابى، المسحور، الذكى.

- لقد وصلت حقاً - قال توبيّاس فى لغته، التى تعلمها النقيب خلال تعامله اليومى مع قوات سييرا إقليم سنيالوا.

ضغط اليد المعروقة للياكى - نعم، يا توبيّاس. من الأفضل أن تعرف شيئاً: سيعدموننا بالرصاص.

- هذا ما يجب أن يفعلوه. لو كنت أنت لفعلت نفس الشئ.

- نعم.

ظلوا صامتين، بينما تختفى الشمس. أعدَّ الرجالُ الثلاثة أنفسهم لقضاء الليل معاً. تمشّى برنال بتمهل فى الزنزانة: أما هو فنهض ثم جلس فوراً على التراب مرةً أخرى ورسَم خطوطاً على الأرضية. وفى الخارج، فى الدهليز، أضيئ مصباحٌ بترولى وصدر صوتٌ عن فكَّى عريف الحراسة. هبَّت ريحٌ باردة فوق الريف الصحراوى.

نهض على قدميه من جديد، وإقترب من باب الزنزانة: ألواح سميكة، خشب صنوبر دون تلميع، وتلك الفتحة الصغيرة على ارتفاع النظر. من الجهة الأخرى، إرتفع دخان سيجارة أوراق الشجر التى

أشعلها العرِّيف. أغلق قبضتيه حول القضبان الصدئة وراقب المنظر الجانبى لوجه حارسه. كانت الخصلات السوداء تبرز من القلنسوة القماشية وتنتهى عند الوجنتين المربعتين الجرداوين. بحث السجين عن نظرته وأجاب العريف بإيماءة سريعة، إيماءة "ماذا تريد؟" صامتة من رأسه ويده الخالية. وأطبقت اليد الأخرى على القربينة بحكم العادة.

- هل تلقيتم الأمر لصباح الغد؟

نظر إليه العريف بعينيه الواسعتين الصفراوين. ولم يجب.

- أنا لست من هنا. وأنت؟

- من هناك من الشمال - قال العريف.

- كيف حال المكان؟

- أين؟

حيث سيعدموننا. ماذا يبدو للنظر من هناك؟

توقَّف وأشار للعريف أن يناوله الولاعة.

- ماذا يبدو للنظر؟

عند ذلك فقط تذكَّر أنه ظل دائماً ينظر إلى الأمام، منذ الليلة التى عبر فيها الجبل وأفلت من نطاق بيراكروث القديم. منذ ذلك الحين لم يعاود النظر إلى الوراء. منذ ذلك الحين أراد أن يعرف نفسه وحده، دون أى قوة أخرى سوى قواه الخاصة... والآن... لم يستطع مقاومة هذا السؤال - كيف حال المكان، ماذا يبدو للنظر من هناك - الذى ربما كان طريقته فى إخفاء ذلك التوق إلى التذكُّر، ذلك المنحدر المؤدى إلى صورة نباتات سرخس وارفة وأنهار متمهلة، صورة أزهار مُستَدِقَّةٍ فوق كوخ، صورة جونلةٍ منشَّاةٍ وشعرٍ ناعم، يفوح برائحةً السفرجل...

- سيحملونكم إلى الفناء الخلفى - كان العريف يقول - وما يبدو

للنظر، حسناً، ماذا يمكن أن يكون؟ جدارٌ مرتفع، كله ثقوب من فرط الإعدامات التى نُجريها هنا...

- والجبل؟ ألا يبدو الجبل للنظر؟
- حسناً، الحقيقة هى أننى لا أتذكر.
- هل رأيت الكثيرين...؟
- يوووه...
- من المحتمل أن من يعدمِ بالرصاص يرى ما يجرى أفضل ممن يُعدَمون.
- ألم تشهد إعداماً أبداً؟

("نعم، لكن دون أن ألاحظ جيداً، دون أن أفكر أبداً فيما يمكن أن يكون شعور من يُعدَمون، فى أن دورى قد يجئ ذات مرة. لذا ليس لى الحق فى أن أسألك، أليس كذلك؟ إنك فقط قد قَتلت مثلى، دون أن تلاحظ جيداً أى شىء. لهذا لا يعرف أحدٌ شعور من يُعدَمون ولا يستطيع أحدٌ أن يحكيه. إذا كانت العودة ممكنة، إذا كان ممكناً حكىُ ما يعنيه سماع دفعة طلقات والإحساس بها فى الصدر، فى الوجه. إذا كان ممكناً حكى حقيقة ذلك، فربما لن نجرؤ على القتل، أبداً؛ وربما لم يعد يهم أحداً أن يموت... ربما كان ذلك فظيعاً... وربما كان طبيعياً تماماً مثل الميلاد... ما أدرانا أنت وأنا؟")

- إسمع أيها النقيب، شرائط القصب هذه لن تفيدك بعد. أعطنى إياها.

أدخل العريف يده من بين القضبان وأدار هو ظهره إليه. ضحك الجندى بأزيز مكتوم.

الآن كانً الياكى يغمغم أشياء بلغته وجرجر هو قدميه إلى المسند الصلب، ليلمس بيده جبهة الهندى المحمومة ويستمع إلى كلماته. كانت تنساب بهسهسة عذبة.

ـ ماذا يقول؟

يحكى أشياء. كيف إنتزعت منهم الحكومة أراضيهم الأزلية لتعطيها لبعض الجرينجو*. كيف قاتلوا هم دفاعاً عنها ثم وصلت القوات الفيدرالية وبدأت تقطع أيدى الرجال وتطاردهم فى الجبل. كيف صعدوا بزعماء الياكى إلى زورق حربى ومن هناك قذفوا بهم إلى البحر مُحمَّلين بالأثقال.

كان الياكى يتحدث وعيناه مغمضتين. ـ نحن الذين بقينا قيَّدونا فى طابور طويل جداً ومن هناك، من سينالوا، جعلونا نمشى حتى الطرف الآخر، حتًى يوكاتان.

ـ كيف كان عليهم أن يسيروا حتى يوكاتان وأخذ العجائز والنساء والأطفال يتساقطون موتى. ومن تمكنوا من بلوغ ضياع السيزال** بيعوا كعبيدٍ مع فصل الأزواج عن زوجاتهم. كيف أجبروا النساء على مضاجعة الصينيين، حتى تتسين لغتهن وتلدن المزيد من الأجراء...

ـ عُدْتُ، عدتُ. فور أن عرفت باندلاع الحرب، عدتُ مع إخوتى لنناضل ضد الأذى.

ضحك الياكى بهدوء وأحسّ هو بالرغبة فى التبوُّل. نهض وفتح فتحة البنطلون الكاكي؛ بحث عن ركن وسمع صوت الطرطشة فى التراب. قطَّب جبهته وهو يفكر فى النهَّاية المعتادة للشجعان الذين يموتون وبقعة رطبة فى بنطلونهم العسكرى. أما برنال، المشبوك الذراعين الآن، فبدا أنه يبحث، عبر القضبان العالية، عن شعاع من القمر يضيئ هذه الليلة الباردة والمظلمة. أحياناً، كان يتناهى إليِّهم ذلك الطرْق الملحاح للقرية؛ وتنبح الكلاب. واستطاعت بضع محادثاتٍ ضائعة، بلا معنى، إختراق الجدران. نفض سترته وإقترب

* الجرينجو: تقال إحتقاراً أو تهكماً للأمريكيين الشماليين ـ م
** Henequen= pita: نبات تصنع من أليافه الحبال ـ م

من المحامى الشاب.

ـ ألديك سجائر؟

ـ نعم... أظن أن نعم... كانت هنا.

ـ قدِّم منها للياكى.

ـ قدَّمت له من قبل. لا تعجبه سجائرى.

ـ وهل يحمل سجائره؟

ـ يبدو أنها نفدت منه.

ـ قد يكون لدى الجنود أوراق لعب.

ـ لا؛ لن يمكننى التركيز. أظننى لن يمكننى...

ـ هل تشعر بالنعاس؟

ـ لا.

ـ معك حق. لا يجب النوم.

ـ أتظن أنك ستندم ذات يوم؟

ـ ماذا؟

ـ أقول، ستندم على أنك نمت قبل...

ـ هذا ظريف.

ـ آه، نعم. من الأفضل إذن أن نتذكَّر. يُقال أن التذكر شئٌ طيب.

ـ ليست وراءنا حياة طويلة.

ـ كيف لا. هذه هى ميزة الياكى. ربما لهذا السبب لا يحب الكلام.

ـ نعم. لا، لا أفهمك...

ـ أقول أن لدى الياكى أشياء كثيرة ليتذكرها.

ـ ربما كان التذكر مختلفاً فى لغته.

ـ كل تلك المسيرة، من سينالوا. ما حكاه لنا منذ برهة.

ـ نعم.

- ...

- ريخينا...

- ماذا؟

- لا. إننى فقط أردِّد بعض الأسماء.

- ما عمرك؟

- سأُتِمُّ السادسة والعشرين. وأنت؟

تسعة وعشرون. وأنا أيضاً ليس لدى الكثير لأتذكره. هذا مع أن الحياة قد أصبحت مضطربة، على حين غِرَّة.

- متى بدأ المرء فى تذكر طفولته، مثلاً؟

- بالتأكيد؛ فهذا يُرهق.

- أتعرف؟ الآن، بينما نتحدث...

- نعم؟

- حسناً؛ ردَّدتُ بعض الأسماء. أتعرف؟ لم تعد أليفةً؛ لم تعد قادرةً على أن تقول لى شيئاً:

- الفجر سيطلع.

- لا تلتفت لهذا.

- ظهرى يعرق بشدة.

- أعطنى السيجارة. ماذا حدث؟

- عفواً. ها هى. ربما لا يشعر المرءُ بشىء.

- يقولون هذا.

- من الذين يقولون، يا كروث؟

- من يَقتُلون. مؤكد.

- وهل يهمك كثيراً؟

- حسناً...

- لماذا لا تفكرُ فى...؟

ـ فى ماذا؟ فى أن كل شىء سيظل على حاله، رغم أنهم يقتلوننا؟

ـ لا، لا تفكر فيما سيحدث، بل فيما حدث. أنا أفكرُ فى كل من ماتوا فعلاً فى الثورة.

ـ نعم؛ أتذكَّرُ بولى، وأپاريثيو، وجومث، والنقيب تيبوريثو أمارييباس... أتذكر قليلين.

ـ أراهن أنك لا تعرف إسم عشرين منهم. وليسوا هم فقط. ماذا كانت أسماء كل الموتي؟ ليس فقط موتى هذه الثورة؛ بل موتى كلِّ الثورات وكل الحروب وحتى الموتى على فراشهم. منذا سيتذكرهم؟

ـ أنظر: أعطنى ثقاباً.

ـ عفواً.

ـ الآن طلع القمر.

ـ أتريد رؤيته؟ إذا إستندت على أكتافى، يمكنك بلوغ...

ـ لا. لا يستحق الأمر العناء.

ـ من الأفضل أنهم نزعوا ساعتى.

ـ نعم.

ـ أعنى، حتى لا أحسب الساعات.

ـ مؤكد. لقد فهمتُ.

ـ الليل بدا... بدا أطول...

ـ اللعنة على هذه الرغبة فى التبول.

ـ أنظر إلى الياكى. لقد نام. من الأفضل أن أحداً لم يُظهِر الخوف.

ـ الآن، يومٌ آخر ونحن هنا.

ـ من يدرى. ربما دخلوا فجأة بعد برهة.

ـ لا. تروقهم لعبتهم. ثمة إعتيادٌ مفرط على الإعدام عند الفجر. سوف يلعبون معنا.

ـ أليس شديدَ الإندفاع؟
ـ بيبيا، نعم لكن ليس ثاجال.
ـ كروث... ألا يبدو هذا بالغ العبثية؟
ـ ماذا؟
ـ أن يموت المرء على يد أحد الزعماء وهو لا يؤمن بأى واحدٍ منهم.
ـ هل نذهب نحن الثلاثة معاً أم يخرجوننا واحداً واحداً؟
ـ مرة واحدة أسهل، أليس كذلك؟ أنت العسكرى.
ـ ألا تخطر على بالك أى حيلة؟
ـ سأقص عليك شيئاً؟ إنه شيء يميتُ من الضحك.
ـ ما هو؟
ما كنت أقوله لك لو لم أكن متأكداً من أننى لن أخرج من هنا حياً. لقد أرسلنى كارّانثا فى هذه المهمة بهدفٍ وحيد هو أن يمسكوا بى ويكونوا هم المسئولين عن موتي. لقد سيطر على عقله أن بطلاً ميتاً أفضل من خائن حي.
ـ هل أنت خائن؟
ـ الأمر يتوقف على الطريقة التى تنظر بها إليه. أنت لم تفعل سوى القتال؛ أطعت الأوامر ولم تتشكك مطلقاً فى رؤسائك.
ـ بالتأكيد. فالمهم هو كسب الحرب. ماذا، ألستَ مع أوبريجون وكارّانثا؟
ـ مثلما كان يمكن أن أكون مع ثاباتا أو بيبيا. أنا لا أؤمن بأي واحدٍ منهم.
ـ إذن؟
ـ هذه هي المأساة. ليس هناك سواهم. لا أدري إن كنت تتذكر البداية. كانت منذ وقت قصير جداً، لكنها تبدو بعيدة جداً... وقتها لم

يكن القادة مهمين. وقتها كنا نفعل هذا ليس للإرتفاع برجل، بل للإرتفاع بالجميع.

ـ أتريد الحديث بسوءٍ عن ولاء رجالنا؟ هذه هي الثورة، لا أكثر: الولاء للرؤساء.

ـ نعم. حتى الياكى، الذى خرج فى البداية للقتال من أجل أرضه، لا يقاتل الآن إلاّ من أجل الجنرال أوبريجون وضد الجنرال بييا. لا، من قبل كان الأمر مختلفاً. قبل أن يتدهور هذا إلى طوائف. الشعب الذى يمر بثورةٍ كان شعباً تنتهى فيه ديونُ الفلاح، وتُصادَرُ فيه ممتلكات المرابين، ويُطلقُ فيه سراح السجناء السياسيين ويجرى فيه تدمير الإقطاعيين القدامى. لكن إنظر فقط كيف تركنا خلف ظهورنا من يؤمنون بأن الثورة ليست من أجل تضخيم الزعماء بل من أجل تحرير الشعب.

ـ سيُتاح الوقت لهذا

ـ لا، لن يُتاح. الثورة تبدأ بدءاً من ميادين القتال، لكنها فور أن يصيبها الفساد، تكون قد ضاعت حتى لو ظلت تكسب المعارك الحربية. وقد كنا جميعاً مسئولين. فقد تركنا الجشعين، والطموحين، والتافهين يُفرّقون بيننا ويقودوننا. والذين يريدون ثورة حقيقية، جذرية، غير متهاونة، هم لسوء الحظ رجالٌ جاهلون ودمويون. أما المتعلِّمون فلا يريدون سوى نصف ثورة، تتمشّى مع الشىء الوحيد الذى يهمهم: أن يزدهروا، ويعيشوا حياة رغدة، ويحلّوا محلّ نخبة دون بورفيريو. هنا تكمن مأساة المكسيك. إنظر إلىّ أنا. طيلة حياتى وأنا أقرأ كروبوتكين، وباكونين، وبليخانوف العجوز، بصحبة كتبى منذ أن كنت صبياً، أناقش وأناقش. وفى ساعة الحسم، علىّ أن أنضمَّ إلى صفوف كارّانثا لأنه هو الذى يبدو مهذباً، هو من لا يخيفنى. أترى هذه الرقاعة؟ أنا أخاف من

الزعـران، من بيـيـا ومـن ثاباتا... "سـأظلُّ شـخصـاً مسـتحيـلاً طالما ظل الأشخاص المُمْكِنُون اليومَ ممكنين..." آه، نعم. كيف لا.

- أنت تفقد الحياء فى ساعة الموت...

ــــــ "هذا هو العـيب الجـذرى فى طبـعى: حب مـا هـو خـيـالىّ، المغامرات التى لم يرها أحدٌ قط، المشروعـات التى تفتح آفاقاً لا نهائيةً وغير متوقَّعة..." آه، نعم. كيف لا.

- لماذا لم تقل هذا أبداً هناك فى الخارج؟

- قلتـــه منذ عـــام ١٣ لإيتــوربى، للوثيــو بلانكو، لبــويلنا، لكل العسكريين الشرفاء الذين لم يحاولوا أبداً التحـوُّل إلى زعمـاء. ولهـذا لم يعرفوا كيف يوقفوا لعبة كارّانثا العجوز، الذى كرس نفسه طوال حياته لزرع الفُرقة والإنقسـام، ولو كان الأمـر بخـلاف ذلـك، ألم يكن باسـتطاعة أى واحـدٍ أن يأكل منه القيـادة، هذا العـجوز التافه؟ لهذا رقَّى التافهين، أمثال پابلو جونثالث، الذين لا يمكنهم منافسته. هكذا فرَّق صفوف الثورة، وحولها إلى حرب طائفية.

- ولهذا بعثوك إلى بيرالس؟

- بمهمة هى إقناع أنصار بيـيا بأن عليهم الاستسلام. كأننا لم نكن نعرف جميعاً أنهم يهربون مهزومين وأنهم فى يأسهم يُعملِون سلاحهم فى أى مؤيدٍ لكارّانثـا يقف فى طريقهم. فالعجوز لا يَحب أن يلوِّث يديه. يفضل أن يقوم له العدوّ بالأعمال القذرة. أرتيميو، أرتيميو، لم يكن الرجال على مستوى شعبهم وثورتهم.

- لماذا لا تنتقل إلى صفوف بيـيا؟

- إلى زعيم آخر؟ لأرى كم يدوم ثم أنتقل إلى آخر وآخر غيره، حتى أعود فأجدنًى فى زنزانة أخرى فى إنتظار أمر إعدامٍ آخرٍ؟

- لكنك تنقذ نفسك هذه المرة...

- لا... صدقنى، يا كروث، كان بودّى أن أنقذ نفسى، أن أعود إلى

پويبـلا. أن أرى زوجـتى، وإبنى. لـويسـا وپانتـشـولين. واخـتى العـزيزة كـاتالينا، التـى ترتبـط بىَّ كـثـيراً. أن أرى أبى، دون جـمـاليـيل العـجـوز، البـالغ النبـالة، البـالغ العمى. أن أحـاول أن أشـرح له لماذا ورَّطت نفسـى فى هذا. فلم يفـهم أبداً أن ثمة واجبات من الضرورى إنجـازها حتـى لو عرفنا مقدَّماً أنها ستفشل. بالنسبة له فإن ذلك النظام أبدى؛ الضياع، الريا المُقنَّع، وكل ذلك... ليتـه كـان هنـاك من يمكن أن أكلِّفـه بـالذهـاب لرؤيتـهم وإبلاغـهم بأى شـىء من طَرَفى. لـكن لن يخـرج أحـدٌ من هنا حيـاً، أعرف. لا؛ الأمر كله هو لعبـة تصفيـات مشـئومـة. ها نحن نحيـا بين مـجـرمين وأقـزام، لأن الزعيم الأكـبـر يتبنَّى أقـزامـاً لا يسـتطيـعون منافسته والزعيم الصغير عليه أن يغتال الكبير كى يصعد. يا لـلأسى، يا أرتيميو. ما ضرورة كل ما يجرى وما ضرورة عدم إفساده. ليس هذا مـا أردناه حين صنعنا الثـورة مع كل الشـعب، عـام ١٣ ... وأنت، إحـزم أمـرك. فعندمـا تتم تصـفيـة ثاباتا وبيـيـا، لن يبقـى سوى زعيـمين، هما زعيماك الحاليان. إلى من منهما ستنحاز؟

ـ زعيمى هو الجنرال أوبريجون.

ـ من الأفـضل أنك حـزمت أمـرك فـعـلاً. فلنر إن كـان ذلـك لن يكلفك حياتك؛ فلنر إن...

ـ أنت تنسى أنهم سيعدموننا.

ضـحك برنال باندهاش، كـأنه حاول الطيـران فمنعه الثِقَل المنسى لبعض الأصفاد. ضغط على كتف السجين الآخر وقال:

ـ هَوَسٌ سـيـاسـى لعين! وربمـا كـان حـدسـاً. لماذا لا تنتـقل أنت إلى صفوف بيـيا؟

لم يسـتطيـع أن يتبـين جيـداً وجـه جـونثـالو برنال، لكنـه شـعـر فى الظلمـة بهاتين العينين المتهكمتين، بجـو العليم بكل شـىء والذى يحيط بهؤلاء المحـامين التـافـهين الذين لم يقـاتلوا أبداً، الذين لم يفـعلوا سـوى

أن يتكلموا كثيراً بينما يكسبون هم المعارك. أبعد جسده بعنف عن جسد برنال.

- ماذا حدث؟ - إبتسم المحامى.

زام هو وأشعل سيجارته المطفأة. - لا يصحُّ الحديث على هذا النحو - قال من بين أسنانه -. ماذا؟ هل أحدثك بشكل مباشر؟ يثير قرفى من يكشفون عن دخليتهم دون أن يطلب منهم ذلك أحد وخصوصاً فى ساعة الموت. إبق صامتاً، يا سيدى المحامى، وقل لنفسك ما شئت، لكن دعنى أموت دون أن تضعف عزيمتى.

إكتسى صوت جونثالو بقشرةٍ معدنية: - إسمع، يا جدع، نحن ثلاثة رجال محكومٌ عليهم بالإعدام. وقد حكى لنا الياكى حياته...

وكان السخط موجهاً ضد نفسه، لأنه قد ترك نفسه لينساق للثقة والثرثرة، وكشف عن دخيلته لرجل لا يستحق الثقة.

- كانت تلك حياة رجل. كان معه حق.

- وأنت؟

- قاتلت فقط. وإن كان هناك المزيد، فلست أتذكره.

- أحببتَ إمرأةً ما...

أطبق قبضتيه.

- ... كان لك أبوان؛ وما أدرانى إن كان لديك حتى إبن. لا؟ أنا كان لدى إبن، يا كروث؛ أنا حقاً أعتقد أن حياتى كانت حياة رجل، وددت لو كنت حراً لأواصلها؛ ألا تودُّ أنت؟؛ ألا تودُّ فى هذه الساعة لو كنت تربَّتُ...؟

تقطَّعَ صوت برنال حين بحثت يداه هو عنه فى الظلمة، وخبطته فى الحائط، دون أن ينطق بكلمة، بخوار مُصمَت، وأظافره مغروسة فى ياقة البذلة الكشمير لهذا العدوّ الجديد المسلَّح بالأفكار وضروب الرقة، الذى لم يكن يفعل سوى تكرار نفس تفكيره الدفين، تفكيرِ

النقيب، السجين، تفكيره هو: ماذا سيحدث بعد موتنا؟ وكرَّره رنال، رغم القَبضتين المَضمومتين اللتين تنتهكانه:

ـ لو لم يقتلونا قبل أن نكمل الثلاثين؟... كيف كانت ستصبح حيواتنا؟؛ كان بودّى أن أفعل أشياء كثيرة...

حتى غمغم هو أيضاً، وظهره غارقٌ فى العرق ووجهه قريب جداً من وجه برنال: ـ ... سيظل كل شىء على حاله، ألا تعرف هذا حقاً؟؛ ستطلع الشمس؛ وسيظل الأطفال يولدون رغم أنك أنت وأنا سنكون قد نُسِفنا تماماً، ألا تعرف هذا حقاً؟

أفلت الرجلان من عناقهما العنيف. تهاوى برنال على الأرض؛ ومشى هو نحو باب الزنزانة، عازماً: سيقصّ على ثاجال خطةً زائفة، ويطالب بإنقاذ حياة الياكى، وسيترك برنال ليواجه مصيره.

حين قاده عرِّيف الحراسة، وهو يترنَّم، إلى حضرة المقدِّم، لم يكن هو يشعر إلاّ بذلك الألم الضائع لريخينا، تلك الذكرى العذبة والمُرَّة التى طالما إختبأت والآن تتفتّح عن آخرها، راجيةً إياه أن يظل حياً، وكأن إمرأةً ميتة تحتاج إلى ذكرى رجل حى لتظلّ أكثر من مجرد جسدٍ إلتهمه الدود فى حفرةٍ بلا إسم، فى قريةٍ بِلا إسم.

ـ سيكون من الصعب عليكَ أن تخدعنا ـ قال المقدم ثاجال بصوته المبتسم الأبدى ـ. فى نفس هذه اللحظة يخرج فصيلان ليريا إن كان ما تحكيه لنا مؤكداً وإذا لم يكن، أو إذا جاء الهجوم من ناحيةٍ أخرى، فعليك أن تُسلِم نفسك إلى السماء وأن تفكر فى أنك لم تكسب سوى بضع ساعاتٍ من الحياة، لكن على حساب شرفك.

مدّ ثاجال ساقيه وحرك أصابع قدميه داخل الجورب. كان الحذاء العسكرى فوق المنضدة، مُتعَباً ودون دعامة.

ـ والياكى؟

ـ لم يكن هذا ضمن ما أبرمناه. إنظر: الليل يستطيل. فلماذا

نجعل أولئك التعساء يحلمون بشمس جديدة؟ عريف پايان!... فلنبعث بالسجينين إلى الحياةِ الأفضل. أخرِجْهما من الزنزانة واحملوهما إلى الخلف.

- الياكى لا يستطيع السير - قال العريف.

- أعطوه ماريجوانا - قهقهة ثاجال -. حسناً، أخرجوه على نقّالة وأسندوه كيفما استطعتم إلى الجدار.

ماذا رأى توبيّاس وجونثالو برنال؟ نفس ما رآه النقيب، رغم أن هذا يفوقهم إرتفاعاً، وهو واقف إلى جانب ثاجال فوق شرفة الرئاسة. وإلى أسفل، تم إخراج الياكى على نقّالة وسار برنال مطأطئ الرأس ووُضِع الرجلانِ أمام جدار الإعدام بين مصباحين بتروليين.

إنها ليلةٌ تأخَّرت فيها ومضات الفجر فى الإنبلاج ولم ترتسم خطوط الجبال، حتى حين دوَّت البنادق بإرتجاجاتٍ حمراء مدّ برنال يده ليلمس كتف الياكى. ظل توبيّاس مستنداً إلى الجدار، مُحتمياً بالنقالة. أضاء المصباحان وجهه المحطَّم، بعلامات الرصاصات. ولم يلتمع سوى كاحلى جسد جونثالو برنال الساقط، حيث بدأ يسيلُ خيطان من الدم.

- هاك ميِّتاك - قال ثاجال.

وتبعت كلماته رصاصات أخرى، بعيدة وكثيفة، إنضم إليها على الفور مدفعٌ أجشٌّ أطار إحدى زوايا المبنى. تصاعدت صرخات أنصار بيبا مُشوَّشةً حتى الشرفة البيضاء حيث صاح ثاجال بتساؤل مرتبك:

- وصلوا فعلاً! وجدونا فعلاً! هم أنصار كارّانثا! بينما أَسقطه هو وأطبق يده - التى عاودتها الحياة، مُركَّزةً بكل قوته - على مقبض مسدس المقدم. أحس فى يديه بالجفاف المعدنى للسلاح. غرسه فى ظهر ثاجال وطوَّق بذراعه اليمنى عنق المقدم، وضغطه وأبقاه على الأرض، بلهاثٍ عنيف ورغوةٍ بين شفتيه. من فوق حاجز الشرفة،

إستطاع أن يرى الفوضى التى سادت فى فناء الإعدام. جرى جنود فصيل الإعدام، وهم يطأون جثتى توبياس وبرنال، ويقلبون مصباحيٍ البترول: تتابعت الانفجارات المنهالة فى كل قرية بيرالس، مصحوبة بصرخاتٍ وحرائق، بتقافز خيولٍ وصهيل. خرج المزيد من جنود بيبيا إلى الفناء، وهم يرتدون السُتراتِ العسكرية، ويربطون بنطلوناتهم. ورسمت الأضواء الساقطة خطاً ذهبياً فى كل منظر جانبى لوجهٍ، فى كل حزام، فى كل عروة. إمتدت الأيدى لتتناول البنادقَ وأحزمة الطلقاتٍ. فُتِح باب الإسطبل بعجلةٍ وخرجت الخيول الصاهلة إلى الفناء، إمتطاها الفرسان واندفعوا من البوابة المفتوحة. جرى بعض المتأخرين خلف الخيّالة وفى النهاية ظل الفناء خاوياً. جثّتا برنال والياكى. مصباحا بترول. إبتعد الصياح؛ مضى للقاء الهجوم المعادى. أفلت السجينُ ثاجالَ. ظل المقدم على ركبتيه، يسعُل، ويتحسس عنقه المخنوق. إرتفع صوته بالكاد: ـ لا تستسلموا. أنا هنا.

وكشف الصباح، أخيراً، جفنَه الأزرق فوق الصحراء.

توقف الطنين القريب. وعبر الشوارع جرى جنود بيبيا لمواجهة الحصارِ. إصطبغت قمصانهم البيضاء بالأزرق. لم يصدر عن الفناء همهمةٌ واحدة. نهض ثاجال على قدميه، وهو يفك أزرارَ سترته الرمادية، فى حركةٍ يقدِّم فيها صدره للرصاص. تقدَّم النقيب بدوره، والمسدس فى يده.

ـ إقبل ما عرضته عليك ـ قال للمقدم بصوتٍ جافٍ.

ـ فلنهبط ـ قال ثاجال وفرد ذراعيه.

فى المكتب، أخذ ثاجال المسدس الكولت من أحد الأدراج.

سارا، مُسلَّحين كلاهما، عبر الممرات الباردة حتى الفناء. حسبا منتصف المربع. أزاح المقدم، بقدمه، رأس برنال. رفع النقيب مصباحى البترول.

إتخذ كلٌ منهما موقعه عند زاوية. وتقدّما.

أطلق ثاجال النار أولاً وجرحت طلقته الياكى توبيّاس من جديد. توقف المقدم وأضاء عينيه السوداوين أملٌ: كان الآخر يتقدّم دون أن يطلق النار. كان الحدثُ يجرى مثل طقس شرف. تشبَّث المقدم - ثانيةً، ثانيتين، ثلاث ثوان - بالأمل فى أن الآخر سيحترم شجاعته، فى أن الإثنين سيلتقيان عنًد منتصف الفناء دون إطلاق نارٍ جديد.

توّقف الإثنان عند منتصف الفناء.

عادت الإبتسامة إلى وجه المقدم. عبر النقيبُ الخطَّ المُتَخَيَّل. ضاحكاً، أومأ ثاجال إيماءةً صداقةٍ بيده حين إخترقت طلقتان متتابعتان معدته ورآه الآخر ينثنى ويسقط عند قدميه. عندها ترك المسدس يسقط فوق جمجمة المقدم الغارقة فى العرق وظل، دون حراك، واقفاً.

حرّكت ريح الصحراء خصلات شعره الأكرت على جبهته، وكرمشات السترة المبللة بالعرق، والأربطةَ المقطوعة لقطعتى الجلد الملتفتين حول ساقيه. وقفت شعرات ذقنه ذات الأيام الخمسة فوق خدّيه وضاعت عيناه الخضراوان خلف رموشه المترية والدموع الجافة. على قدميه، بطلاً وحيداً فى ساحة الموتى المحاصَرة. على قدميه، بطلاً دون شهود. على قدميه، محاطاً بالوحشة، بينما تدور المعركة خارج القرية، على قرع الطبول.

خفض بصره. كان الذراع الميِّت للمقدم ثاجال يمتد نحو الرأس الميِّت لجونثالو. وكان الياكى جالساً، وجسده الميِّت مستندٌ إلى جدار الإعدام؛ كان ظهرُه قد ترك توقيعاً مخطَّطاً فوق قماش النقّالة. إنحنى بجوار المقدم وأغلق له عينيه.

نهض بسرعةٍ واستنشق هواءً ودّ فيه أن يجدَ، أن يشكرَ، أن يمنح إسماً لحياته وحريته. لكنه كان وحيداً. لم يكن لديه شهود. لم يكن

لديه رفاق. أفلتت من حنجرته صرخةٌ صمّاء، أخمدها المدفع الرشاش المُعادِل لها على البعد.

"أنا حرٌّ؛ أنا حرٌّ".

ضمَّ قبضتيه فوق معدته وتقلَّص وجهُه من الألم.

رفع بصره ورأى، أخيراً، ما لابد أن يراه محكومٌ بالإعدام عند الفجر: خطَّ الجبال البعيد، والسماءَ التى إبيضَّت أخيراً، وجدران الفناء الطينية. وسمع ما لابد أن يسمعه محكومٌ بالإعدام عند الفجر: شقشقةَ الطيور المختبئة، وصرخةً حادةً لطفل جائع، وذلك الوقعَ الغريبَ لمطرقةِ أحدِ عمالِ القرية، غريباً عن الطنيَن المُتَّصِل، الرتيب، الضائع، لإطلاقَ المدافع وزخَّات الرصاص المستمرين خلف ظهره. عملٌ مجهول الهوية، أقوى من الطنين، واثقٌ من أنه بعد إنقضاء الصراع، والموت، والنصر، ستعاودُ الشمسُ الشروقَ، كل يوم...

أنا لا أستطيع أن أرغب؛ أتركهم يفعلون. أحاول لمسها. أتحسسها من السرَّة حتى العانة. مستديرة. طريَّة. لم أعد أدرى. ذهب الطبيب. قال أنه سيبحث عن أطباء آخرين. لا يريد أن يكون مسئولاً عنى. لم أعد أدرى. لكننى أراهم. لقد دخلوا. ينفتح، وينغلق باب الماهوجنى ولا تُصدِرُ الخطوات صوتاً فوق السجادة السميكة. لقد أغلقوا النوافذ. أسدلوا، بهسيس، الستائرَ الرمادية. لقد دخلوا.

- إقتربى، ياأ بنيَّتى... حتى يتعرَّف عليكِ... قولى له إسمك...

رائحتها طيبة. رائحتها زكيَّة. آه، نعم، مازلت أستطيع أن أتبيَّن خدِّيها الملتهبين، وعينيها اللامعتين، وكل قوامها الفتى، الرشيق، الذى يقترب من فراشى بخطواتٍ قصيرة.

- أنا ... أنا جلوريا ...

أحاول أن أتمتم إسمها. أعرف أن كلماتى غير مسموعة. على الأقل يجب أن أشكر لتيريسا هذا: أنها قرَّبت منى جسد إبنتها الفتّى. لو كنت فقط أتبين وجهها على نحو أفضل. لو كنت فقط أستطيع رؤية تقطيبتها على نحو أفضل. لابد أنها تشمُّ رائحة القشور الميتة هذه، رائحة القئ والدم؛ لابدَّ أنها تنظر إلى هذا الصدر الغائر، إلى هذه الذقن الرمادية المشعثة، إلى هاتين الأذنين الشمعيتين، إلى هذا الرشح الأنفى الذى لا سبيل إلى إيقافه، إلى هذا اللعاب الجاف فوق الشفتين والذقن، إلى هاتين العينين الزائغتين اللتين لابد أنهما تُظهِران نظرةً أخرى، وهذه...

يبعدونها عنى

- المسكينة... لقد تأثرت...

- هيه؟

- لا شىء، يا بابا؛ إسترح.

يقولون أنها خطيبة إبن باديا. كيف لابد أنه يقبلها، أى كلمات لابد أنه يقولها لها، آه، نعم، أىُّ خجل. يدخلون ويخرجون. يلمسون كتفى، يهزُّون رؤوسهم، يغمغمون بعباراتٍ مهموسة، نعم، لا يعرفون أننى أنصت إليهم، رغم كلِّ شىء: أنصتُ إلىً أشد المناقشات تباعداً، إلى المحادثات فى أركان المخدع، وليس إلى المحادثات القريبة. الكلمات التى تُقالُ بجوار رأس فراشى.

- كيف تراه، سنيور باديا؟

- سىء، سىء.

- إنه يترك إمبراطورية كاملة.

ـ نعم.
ـ سنوات طويلة على رأس أعماله!
ـ سيكون من الصعب جداً إستبداله.
ـ سأقول لك. بعد دون أرتيميو، ليس هناك سواك...
ـ نعم، أنا مُتَفَهِّم...
ـ ومن سيتولّى منصبك، فى هذه الحالة؟
ـ هناك الكثير من الناس المؤهَّلين.
ـ إذن، هل يتم الإعداد لعدة ترقيات؟
ـ كيف لا. توزيع جديد كامل للمسئوليات.
آه، باديا، إقترب. هل أحضرت جهاز التسجيل؟
ـ على مسئوليتك؟
ـ دون أرتيميو... أحضرت لك...
" ـ نعم، يا ريِّس.
" ـ كن مستعداً. الحكومة ستضرب بيدٍ من حديد ويجب أن تكون مستعداً لتولّى إدارة النقابة.
" ـ نعم، يا ريِّس.
" ـ أنبهك إلى أن عدداً من الذئاب العجوزة يُعدُّون أنفسهم هم أيضاً. وقد ألمحت للسلطات أنك من يتمتع بثقتنا. ألا تتناول شيئاً؟
" ـ شكراً لكننى أكلتُ. أكلتُ منذ برهة.
" ـ لا تجعلهم يأكلون منك القيادة. قم بجولتك، فى السكرتارية، فى إتحاد العمال المكسيكى، فى هذه الأماكن...
" ـ وكيف لا، يا ريِّس. إعتمد علىَّ.
" ـ وداعاً، كامپانيلا. فى الخفاء. حاذر جيداً. هيا بنا، يا باديا..."
خلاص. إنتهى. كان هذا كل شئ: هل كان هذا كل شئ؟ من

يدرى. لا أتذكر. منذ زمن وأنا لا أستمع إلى أصوات جهاز التسجيل هذا. منذ زمن وأنا أتظاهر. من يلمسنى؟ من هذا القريب منى جداً؟ يا للعبث، يا كاتالينا. أقول لنفسى: يا للعبث، يا لها من تربيةٍ بلا جدوى. أتساءل: ماذا ستقولين لى؟ أتظنين أنك قد وجدتِ أخيراً الكلمات التى لم تجرؤى قط على نطقها؟ آه، أنتِ أحببتنى؟، لماذا لم نقل ذلك؟ أنا أحببتك. لم أعد أذكر. تربيتك تجبرنى على رؤيتك ولا أعرف، لا أفهم لماذا، وأنت جالسةٌ إلى جوارى، تتقاسمين معى فى النهاية هذه الذكرى ودون لوم فى عينيكِ هذه المرة. الكبرياء. لقد أنقذَنا الكبرياء. وأماتنا الكبرياءُ.

- ... بمرتَّب بائس، بينما يهيننا بهذه المرأة، يقذف بالترف فى وجوهنا، يمنحنا مًا يمنحنا وكأننا شحاذون...

لم يفهموا. لم أفعل شيئاً من أجلهم. لم أضعهم فى حسبانى. فعلتُه من أجلى. لا تهمنى هذه الحكايات. لا يهمنى تذكُّر حياة تيريسا وخيراردو. لا يهمّوننى.

- لماذا لم تطلب منه أن يعطيك مكانك، يا خيراردو؟ أنت مسئول مثله تماماً...

لا يهمّوننى.

- إهدئى، تيريسيتا، إفهمى وضعى؛ أنا لا أشكو.

- قليلٌ من الشخصية؛ ولا هذا...

- دعوه يستريح.

- لا تتحازى إلى جانبه! لم يُعذِّب أحداً قدر ما عذَّبكِ...

أنا نجوتُ. يا ريخينا. ماذا كان إسمك؟ لا. أنت ريخينا. ماذا كان اسمكَ أنت، أيها الجندى بلا إسمٍ؟ جونثالو. جونثالو برنال. هندىٌ ياكى. ياكى بائس. نجوت. وأنتم متّم.

- وكذلك عذَّبنى. كيف يمكن أن أنسى. لم يحضر حتى العُرس.

عُرسى، عُرس إبنته...

لم تفهما أبداً. لم أكن بحاجة إليهما. صنعت نفسى وحدى. جندى. ياكى. ريخينا. جونثالو.

ـ لقد حطَّمَ حتى ما أحبه، يا ماما، أنت تعرفين.

ـ لا تتكلمى. بحق الرب، لا تتكلمى...

الوصية؟ لا تشغلوا بالكم: توجد ورقة مكتوبة، ومختومة، ومسجلة أمام مُوَثِّق؛ أنا لا أنسى أحداً: لماذا أنساكم، لماذا أكرهكم؟؛ ألن تشكروا لى هذا، سراً؟ ألن يسعدكم التفكير فى أننى حتى اللحظة الأخيرة فكّرت فيكم لأسخر من نفسى؟: لا، أنا أذكركم بلا مبالاةٍ إجراءٍ بارد، عزيزتى كاتالينا، إبنتى الحبيبة، حفيدتى، زوج إبنتى: أوزِّع عليكم ثروةً هائلة، ستتسببونها أنتم، علناً، إلى مجهودى، إلى دأبى، إلى إحساسى بالمسئولية، إلى مميزاتى الشخصية. إفعلوا ذلك. إجلسوا هادئين. إنسوا أننى كسبتُ هذه الثروة مُعرِّضاً حياتى للخطر، دون أن أعرف، فى صراع لم أشأ فهمه لأنه لم يكن يناسبنى أن أعرفه، أن أفهمه، إذ لم يكن يستطيع معرفته، وفهمه إلاّ من لا ينتظرون شيئاً من وراء تضحيتهم. هذه هى التضحية، أليس هذا حقاً؟: منحُ كلِّ شىءٍ مقابل لا شىء. كيف سنُسمِّى، إذن، منحُ كلِّ شىء مقابل كلِّ شىء؟ لكنَّ هؤلاء لم يقدموا لى كلَّ شىءٍ. هى قدَّمت لى كلَّ شىء. ولم آخذه. لم أعرف كيف آخذه. ماذا سيكون إسمها؟

* O.K. The picture's clear enough. Say, the old boy at ___ " the Embassy wants to make a speech comparing this Cuban

---

* أو. كى. الصورة واضحة بما يكفى. لنقل أن الفتى الكبير فى السفارة يريد أن يلقى خطاباً يقارن فيه هذه الفوضى الكوبية بالثورة المكسيكية العتيقة. لماذا لا تُمهِّد الجو بإفتتاحية...؟

mess with the old - time Mexican revolution. Why don't you the climate with an editorial...?×prepare

"- نعم، نعم. سنفعل. عشرون ألف بيسو؟

" - Seems fair enough. Any ideas?

" - نعم. قل له أن يُقيم تضاداً واضحاً بين حركة فوضوية، دموية، مُدمِّرة للملكية الخاصة ولحقوق الإنسان وبين ثورةٍ منظَّمة، سلمية، ومشروعة مثل الثورة المكسيكية، التى أدارتها طبقةٌ وسطى تستلهم چيفرسون. إن ذاكرة الناس سيئة فى نهاية المطاف. قل له أن يتملَّقنا.

" - Fine. So long, Mr. Cruz, it's always ..."

آه، يا له من قصفٍ للإشارات، والكلمات، والمثيرات لسمعى المُتعَب؛ آه، يا للإرهاق؛ لم يفهموا إيماءتى لأننى لا أكاد أستطيع تحريك أصابعى: فليقطوه، لقد أسأمنى، ما علاقة ذلك، يا للضجر، يا للضجر...

- باسم الأب، والإبن...

- إنتظرتك هذا الصباح بابتهاج. لنعبر النهر على صهوة الجياد.

- لماذا إنتزعتَه من جانبى؟

سأورثهم الميتات اللامُجدية، الأسماء الميِّتة لريخينا، للياكى... توبيّاس، الآن أتذكر، كانوا ينادونه باسم توبيّاس... لجونثالو برنال، لجندى بلا إسم. وهى؟ إنها أخرى.

- أفتحوا النافذة.

- لا. قد تصاب بالبرد وتُعقِّدَ الأمور.

لاورا. لماذا؟ لماذا جرى كلٌّ شىءٍ على هذا النحو؟ لماذا؟

أنت ستبقى على قيد الحياة: ستعاود تحسُّس الملاءات وستعرف أنك قد بقيتَ على قيد الحياة، برغم الزمن والحركة اللذين يُقَلِّلان حظوظك مع كل لحظة: بين الشلل وبين الإنفلات يقع خطُّ الحياة: المغامرة: ستتخيَّل الأمان النهائى، ألاّ تتحرك أبداً: ستتخيَّلُ نفسك ساكناً، فى مأمن من الخطر، من الصدفة، من عدم اليقين: لن يوقفَ هدوؤك الزمن الذّى يجرى بدونك، رغم أنك تخترعه وتقيسه، الزمن الذى ينفى سكونك ويُخضعك لخطره المتمثِّل فى الإنقراض: مغامراً، ستقيس سرعتك بسرعة الزمن:

الزمن الذى ستخترعه لتظلَّ على قيد الحياة، لتتظاهر بوهم بقاءٍ أطول على الأرض: الزمن الذى سيخلقه مُخُّكَ بقوَّةِ إدراك ذلك التتابع للضوء والظلمات فى لوحة الحلم؛ بقوةِ الإبقاء على تلك الصور للصفاء الذى تتهدَّدُه التراكمات المُركَّزة والسوداء للسحب، ونذير الرعد، وما يَتبعُ البرق، والإنصباب المنهمر للمطر، والظهور الأكيد لقوس قُزَح؛ بقوةِ الإنصات إلى النداءات الدوريَّة للحيوانات فى الجبل؛ بقوةِ الصراخ بعلامات الزمن: عواء زمن الحرب، عواء زمن الحِداد، عواء زمن الإحتفال؛ فى النهاية، بقوةِ قولِ الزمن، التحدث بالزمن، التفكير فى الزمن غير الموجود لكون لا يعرفه لأنه لم يبدأ مطلقاً ولن ينتهى أبداً: لم تكن له بداية، ولن تكُون له نهاية ولا يعرفُ أنك ستخترع مقياساً للاّمتناهى، إحتياطياً للعقل:

ستخترع وتقيس زمناً غير موجود،

ستعرف، ستميِّز، ستحكم، ستحسب، ستتخيَّل،ستتوقَّع، وستنتهى بالتفكير فيما لن يكون له واقع آخر سوى ما يخلقه مخُّك، ستتعلم السيطرةَ على عنفِك حتى تسيطر على عنف أعدائك: ستتعلم فركَ خشبتين حتى تشتعلا لأنك ستكون بحاجة إلى وضع مشعل على مدخل كهفك وإخافة الوحوش التى لن تتبيَّنك، التى لن تُفرِّقُ لحمَكَ عن لحم الوحوش الأخرى وسيكون عليك أن تشيِّد ألف معبد، وتُصدرَ ألفَ قانون، وتكتبَ ألفَ كتاب، وتعبدَ ألف إله، وترسم ألف لوحة، وتصنع ألف آلة، وتسيطر على ألف شعب، وتُحطِّم ألف ذرَّة لتعود وتضع مشعلك المشتعل على مدخل الكهف،

وستفعل كلَّ هذا لأنك تفكر، لأنك ستكون قد طوَّرتَ تصريفاً عصبياً فى المخ، شبكةً كثيفةً قادرةً على تلقِّى المعلومات وإرسالها من الجبهة إلى الوراء: ستبقى على قيد الحياة، ليس لأنك الأقوى، بل بفعل الصدفةِ الداكنةِ لكون يزداد برودةً باستمرار، لن يبقى فيه على قيد الحياة سوى التكويناتُ العضوية التى تعرف كيف تحافظ على درجة حرارة أجسادها فى مواجهة تغيّرات الوسط المحيط، التى تركِّزُ هذه الكتلة العصبية فى الجبهة وتستطيعَ توقُّعَ الخطر، والبحث عن الغذاء، وتنظيم حركتها وتوجيه سباحتها فى المحيط المستدير، الممتَّد، المزدحم للأصول: ستبقى فى قاع البحر الأنواع الميِّتة والمفقودة، أخواتك، ملايين الأخوات التى لم تخرج من الماء بنجومها الخمسة القابلة للإنقباض، بأصابعها الخمسة المغروسة فى الضفة الأخرى، فى الأرض الصلبة، فى جُزُر الفجر: ستبزغُ مع الأميبا، والزواحفِ، والطيورِ مهجَّنةً معاً: الطيور التى ستُلقى بنفسها من القمم الجديدة لتتحطمَ فى المهاوى الجديدة، وهى تتعلم خلال إخفاقها، بينما صارت الزواحف تطير والأرض تبرد: ستبقى على قيد الحياة مع الطيور التى يحميها الريش، مُلْتَفَّةً بسرعةِ حرارتها، بينما تنام الزواحف الباردة،

تبيت بياتاً شتوياً وتموت فى النهاية وأنت ستتشبُ حوافرك فى الأرض الصلبة، فى جزر الفجر، وستعرقُ مثل حصان، وستتسلَّق الأشجار الجديدة بدرجة حرارتك الثابتة وستهبط بخلايا مخِّك المتمايزة، ووظائفك الحيوية التى صارت تلقائية، وثوابتك من الهيدروچين، والسُكَّر، والكالسيوم، والماء، والأكسچين: حراً لتفكر فيما يتجاوز الحواس المباشرة والاحتياجات الحيوية.

ستهبط بخلايا مخك العشرة آلاف مليون، ببطاريتك الكهربائية فى رأسك، مَرِناً، مُتحوِّلاً، لتستكشف، لتُشبع فضولك، لتقترح على نفسك غاياتٍ، وتحقِّقها بأقل مجهود، لتتجنب الصعوبات، لتستشرف، وتتعلم، وتنسى، وتتذكَّر، وتربط بين الأفكار، وتتعرَّف على الأشكال، وتُضيفُ درجاتٍ إلى الهامش الذى تركته الضرورةُ حُرَّاً، وتطرحُ إرادتك من جوانب جاذبيةٍ ورفض الوسط المادى، وتبحث عن الشروط المواتية، وتقيس الواقع بمعيار الحد الأدنى، وترغبُ سِرَّاً فى الحد الأقصى، ولا تُعرِّض نفسك، رغم ذلك، لرتابة الإحباط:

تتعوّد، تتوافق مع متطلّبات الحياة المشتركة:

ترغب: ترغب فى أن تكون رغبتك والشىء المرغوب هما نفس الشىء؛ تحلم بالتحقُّق الفورى، بالتماهى دون أى إنفصالٍ بين الرغبة وما هو مرغوب:

تتعرَّف على نفسك:

تتعرَّف على الآخرين وتجعلهم يتعرفون عليك: وتعرف أنك تُعارض كل فردٍ، لأن كل فردٍ هو عقبة أخرى أمام بلوغ رغبتك:

ستختار، ستختار حتى تبقى على قيد الحياة، ستختارُ واحدةً فقط من بين المرايا اللانهائية، واحدةً فقط ستعكسك بطريقةٍ لا رجوع فيها، وستملأُ بقيةَ المرايا بظل أسود، ستقتُل أنت هذه المرايا قبل أن تقدِّم لك، مرةً أخرى، هذه الطرقَ اللانهائية أمام الاختيار:

ستُقرر، ستنتقى واحداً من الطرق، ستضحّى بالبقية: ستضحّى بنفسك عندما تنتقى، ستكفُّ عن كونِك كلَّ الرجال الآخرين الذين كان يمكنك أن تكونهم، ستودُّ أن يُكمِل رجالٌ آخرون - رجلٌ آخر - بدلاً منك الحياةَ التى شوَّهتها عندما إخترت: عندما إخترت نعم، عندما إخترت لا، عندما سمحتَ ليس لرغبتك، المطابقة لحريتك، بأن ترشدك فى متاهةٍ، بل لمصلحتك، لخوفك، لكبريائك:

ستخاف من الحب، ذلك اليوم:

لكنك ستستطيع إستعادته: سترقد وعيناك مغمضتان، لكنك لن تكفَّ عن الرؤية، لن تكفَّ عن الرغبة، لأنك على هذا النحو ستجعل الشىءَ المرغوبَ ملِكك:

الذكرى هى الرغبة المتحققة

اليوم حيث حياتك ومصيرك هما نفس الشىء.

(١٩٣٤: ١٢ أغسطس)

هــو من إنتقى عود ثقاب، وحكّه على الجانب الخشن لعلبة الكبريت، تأمَّل اللهب وقَرَّبه من طرف السيجارة. أغمض عينيه. إستنشق الدخان. مدَّ ساقيه واضطجع فى المقعد المخملى؛ مسَّد المخمل بيده الخالية وشم أريجَ أزهار أقحوان موضوعةٍ فى إناء زجاجى، على الطاولة، خلف ظهره. أنصت إلى الموسيقى البطيئة،

المنبعثة من الفونوغراف، الموضوع هو الآخر خلف ظهره.

- أنا جاهزٌ تقريباً.

بحث مُتحسِّساً، بيده الخالية، عن الألبوم المفتوح الموضوع فوق منضدة الجوز الصغيرة، إلى يمينه. لمس أغلفة الكرتون، وقرأ Deuts-chen Grammophon Gesselschaft وأنصت إلى الإستهلال الجليل للتشيلو الذى إنفصل عن بقية الآلات، وأبرز حضوره، وتغلَّب فى النهاية على قرار الكمنجات وأزاحها إلى المرتبة الثانية. كفَّ عن الإنصات. سوَّى رباط عنقه وربَّت خلال بضع ثوان على الحرير المنبعج، ذلك الحرير الذى يخشخش بخفةٍ حين تلمسه الأصابع.

- هل أُعِدُّ لكِ شيئاً؟

إتجه إلى المنضدة الواطئة، على عجلاتٍ، المخصَّصة لحمل أنواع الزجاجات والكئوس حيث إنتقى زجاجة ويسكى إسكتلندى وكأساً ثقيلةً، من زجاج بوهيميا، وقاس إصبعين من الويسكى داخل الكأس، ثم إختار مكعباً من الثلج وصب قليلاً من الماء المعدنى.

- ما تتناوله أنتَ.

عندئذٍ كرَّر العملية وتناول الكأسين بين يديه، وهزّهما، وأدارهما قليلاً فى راحتيه حتى يمتزج الويسكى جيداً بالماء واقترب من باب المخدع.

- دقيقة واحدة.

- هل إخترته من أجلى؟

- نعم. أتذكُر؟

- نعم.

- إعذرنى لتأخُّرى.

عاد إلى المقعد. عاود تناول الألبوم، ووضعه على ركبتيه. Werke von Georg Friedrich Händel. إستمعا إلى الكونشرتوهين فى تلك

القاعة المفرطة التدفئة وبالصدفة كان من حظهما أن جلسا جنباً إلى جنب، واستمعا ـ إستمعت هى ـ لأنه كان يتحدث بالإسبانية ويُعلِّق مع صديق له على أن التدفئة أكثر من المعتاد فى القاعة. طلب هو منها البروجرًام بالإنجليزية فابتسمت هى وقالت له، بالإسبانية، بكل سرور. إبتسم الإثنان. كونشرتى جروسِّى، العمل رقم ٦.

تواعدا على اللقاء فى الشهر التالى، حين كان كلاهما سيصل إلى تلك المدينة، فى ذلك المقهى فى شارع كومارتان، بالقرب من بولڤار دى كابوسين، والذى سيعاود هو زيارته بعدها بسنوات، بدونها، دون أن يستطيع تحديد موقعه بالضبط، راغباً فى أن يراه من جديد، فى أن يعود فيطلب نفس المشروب، وحدده بأنه مقهى له ديكورٌ أحمرٌ وبنىٌ داكن، بكراسى رومانية بلا ظهر وبار طويل من الخشب المائل إلى الحمرة، ليس مقهىً فى الهواء الطلق، لكنه مقهى مفتوح، دون أبواب. شربا نعناعاً بالماء. وعاود الطلب. قالت هى أن سبتمبر هو أفضل الشهور، نهاية سبتمبر وبدايات أكتوبر. الصيف الهندى. العودة من الإجازات. دفعَ الحساب. تعلَّقت بذراعه، ضاحكةً، مستنشقةً الهواء، وعبرا أفنية الپاليه رويال، وسارا بين قاعات العرض والأفنية، وهما يدوسان أوراق الشجر الأولى الميتة، ترافقهما الحمائم، ودخلا ذلك المطعم ذا الموائد الصغيرة وظهور الكراسى المخملية وحوائط المرايا الملوَّنة، والمزيَّن برسومٍ قديمة، بطلاءٍ قديم من الذهب، والأزرق، والبنى الداكن.

ـ جاهزة.

نظر من فوق كتفه ورآها تخرج من المخدع، واضعةً القرط فى شحمة أذنها، ومُسوِّيةً بيدها شعرها الناعم، بلون العسل. قدَّم لها الويسكى المُعدَّ ورشفت هى رشفةً صغيرة، مُكرمشةً أنفها وجلست فى المقعد الأحمر، ووضعت ساقها اليمنى فوق الأخرى ورفعت الكأس إلى

مستوى عينيها. أجاب هو بإيماءةٍ مماثلة وابتسم لها، بينما إلتقطت هى شيئاً من على ياقة ردائها الأسود. كانت آلة الكلافسان تؤدِّى النغمة المحورية لذلك الهبوط، بمصاحبة آلات الكمان: تخيَّله كهبوط من القمة، وليس كمسيرةٍ إلى الأمام: هبوط بطىء، غير محسوس، يتحول عند لمس الأرض إلى بهجة من التضادات بين نغمات الكمنجات العميقة والحادة. كانت آلة الكلافسان قد أفادت، مثل الأجنحة، فى الهبوط ولمس الأرض. والآن، على الأرض، كانت الموسيقى ترقص. نظر الإثنان إلى بعضهما.

- لاورا...

أصدرت إشارةً بإصبعها السبابة وواصل الإثنان الإستماع؛ هى جالسةً، والكأس بين يديها؛ وهو واقفاً، يدير كرة الأبراج السماوية حول محورها، ويوقفها من حين إلى حين ليتبيَّن الأشكال المرسومة بالفضة فوق الهيئة المفترضة للمجرَّات: centauro, altar, pez, lebrel, escudo, cuervo. أخذت الإبرة تدور فوق الصمت؛ مشى هو حتى الفونوغراف، رفع الإبرة عن الأسطوانة، ووضعها فوق مسندها.

- ناسبتك الشَّقة جداً.

- نعم. أمرٌ غريب. لكنها لم تتسع لكل أشيائى.

- إنها على أحسن حال.

- إضطررت لتأجير بدروم للإحتفاظ بكل ما لم تتَّسع له.

- لو شئت، لأمكنك...

- شكراً. - قالت ضاحكةً -: أتمنى فقط بيتاً كبيراً، سأبقى فى هذه الشقة.

- أتريدين سماع المزيد من الموسيقى، أم نمضى؟

- لا. نكمل الكأس ونخرج.

توقَّفا أمام تلك اللوحة وقالت هى أنها تروقها جداً ودائما ما

تأتى لرؤيتها لأن هذه القطارات المتوقفة، وهذا الدخان الأزرق، وهذه البيوت الضخمة بالأزرق والأصفر فى العمق، وهذه الأشكال الآدمية الممحيَّة، المُشار إليها بالكاد، وهذا السقف الفظيع، من الحديد وقطع الزجاج الداكنة، لمحطة سان ـ لازار المرسومة بريشة مونيه تروقها جداً، هى ما يروقها فى هذه المدينة حيث الأشياء، ربما، ليست جميلةً جداً إذا نُظِر إليها معزولةً، فى تفاصيلها، لكنها لا تُقاوَم إذا نُظر إليها سوياً. قال لها أن تلك فكرة فضحكت هى وربّتت على يده وقالت له أن معه حق، أنها تروقها ببساطة، يروقها كل شىء، أنها راضيةٌ وعاد هو، بعدها بسنوات، لرؤية تلك اللوحة، حين كانت معروضةً فى الـ چى ـ دو ـ پوم* وقال له المرشد الخاص أن الأمر لافت، فخلال ثلاثين عاماً تضاعفت قيمة تلك اللوحة أربع مرات، وهى الآن تساوى عدة آلاف من الدولارات، أمرٌ لافت.

إقترب، توقف خلفها، ربَّت على مسند المقعد ثم لمس كتفى لاورا. أمالت رأسها على يد الرجل، ومسَّدت خدّها بأصابعه. تنهدت إبتسامةً جديدة، إبتعدت ورشفت قليلاً من الويسكى. طوَّحت رأسها إلى الوراء، وعيناها مغمضتين، وإبتلعت الرشفة بعد أن أبقتها بين لسانها وحلقها.

ـ يمكننا أن نعود العام القادم. ألا تظنين؟

ـ نعم، يمكننا أن نعود.

ـ أتذكر كثيراً كيف كنا نتمشى فى الشوارع.

ـ وأنا أيضاً. لم تكن قد ذهبت أبداً إلى الـ Village**. أتذكر أننى أخذتك إلى هناك.

---

* Jeu - de - Paume: متحف للفن الحديث فى قصر التويلرى كانت تعرض فيه اللوحات الانطباعية ـ م.

** Village: حىٌّ راقٍ فى نيويورك ـ م.

ـ نعم. يمكننا أن نعود.

ـ ثمة شىءٌ حىٌّ جداً فى تلك المدينة. أتتذكَّر؟ لم تكن قد تعلمت تمييز رائحة النهر والبحر معاً. لم تكن قد حدّدتها. سرنا حتى نهر الهدسون وأغمضنا عيوننا حتى نميِّزها.

تناول يد لاورا، وقبَّل أصابعها. رنَّ جرس التليفون وتقدَّم هو ليتناول السماعة، رفعها واستمع إلى الصوت الذى كان يردِّد: ـ أيوه... أيوه، أيوه؟... لاورا؟

وضع يداً فوق السماعة السوداء وقدَّمها إلى لاورا. تركت هى الكأس فوق المنضدة الصغيرة ومشت حتى التليفون.

ـ نعم؟

ـ *لاورا. أنا كاتالينا.*

ـ نعم. كيف حالك.

ـ *ألا أعطِّلك؟*

ـ كنت خارجة.

ـ *لا، لن آخذ منك وقتاً طويلاً.*

ـ قولى.

ـ *ألاّ آخذ وقتك؟*

ـ لا، أقول لك لا.

ـ *أعتقد أننى إرتكبت خطأً. كان يجب أن أقول لك.*

ـ حقاً؟

ـ *نعم، نعم. كان يجب أن أشترى منك الأريكة. الآن وأنا أفرش المنزل الجديد إنتبهت. هل تذكرين الأريكة، تلك الأريكة المزينة بشغل الإبرة؟ تصوّرى أنها يمكن أن تناسب الردهة على نحو جيدٍ جداً، لأننى أشتريت بضع سجاجيد فرنسية، سجاجيد لتزيين الرَّدهة وأعتقد أن الشىء الوحيد الذى يناسبها هو أريكتك المشغولة...*

ـ من يدرى. ربما كان شغل الإبرة أكثر مما ينبغى.

ـ لا، لا، لا. إذ أن سجاجيدى ألوانها غامقة وأريكتك ألوانها فاتحة، بحيث أن هناك تضاداً جميلاً.

ـ لكنك تعرفين أننى فرشت هذه الأريكة هنا، فى الشقة.

ـ آه، لا تكونى هكذا. لديك مايزيد عن حاجتك من الأثاث. ألم تحكى لى أنك وضعت أكثر من نصف الأثاث فى بدروم؟ نعم، حكيتِ لى، أليس كذلك؟

ـ نعم. لكننى رتَّبت الصالة بحيث...

ـ إذن فكرى فى الأمر. متى ستأتين لترى المنزل؟

ـ وقتما تشائين.

ـ لا، ليس هكذا، بشكل غير محدَّد. إختارى يوماً لنتناول الشاى سوياً ونتحدث.

ـ الجمعة؟

ـ لا، الجمعة لا أستطيع، لكن الخميس ممكن.

ـ إذن الخميس.

ـ لكننى أقول لك أنه بدون قطعة أثاثك ستضيع الردهة، أكاد أفضل لو لم يكن لدى ردهة، أترين؟ ستضيع. من السهل توضيب شقة. سترين.

ـ إذن الخميس.

ـ ورأيت زوجكِ ماشياً فى الشارع. حيانى بإهتمام كبير. لاورا، إنها لخطيئة، خطيئة أن تُطلَّقا. وجدته أمّور جداً. وواضح أنه يفتقدك. لماذا، يا لاورا، لماذا؟

ـ هذا أمرٌ إنقضى.

ـ إذن الخميس. نحن الإثنتان وحدنا، لنتحدث على راحتنا.

ـ نعم، يا كاتالينا. إلى الخميس.

ـ وداعاً.

دعاها للرقص وعبرا صالونات فندق پلازا ذات النخيل المزروع فى الأُصُص وتوجَّها إلى الصالون وأخذها هو بين ذراعيه وربَّتت هى على أصابع الرجل الطويلة، ولمست حرارة راحة يده، وأسندت رأسها على كتف رفيقها، وباعدتها، ونظرت إليه بإمعان، مثلما نظر هو إليها: ناظرين إلى بعضهما، ناظرين إلى بعضهما، عيناه خضراوان، وعيناها رماديتان، ناظرين إلى بعضهما، وحيدين فى صالون الرقص مع تلك الأوركسترا التى كانت تعزف لحن بلوز بالغ البطء، ناظرين إلى بعضهما، والأصابع متعانقة، والقامة متعانقة، يدوران ببطء، وتلك الجونلة ذات الكرانيش، تلك الجونلة...

وضعت هى السماعة ونظرت إليه وانتظرت. مشت حتى الأريكة المشغولة وربَّتت عليها وعاودت النظر إلى الرجل.

ـ هل تسمح بإضاءة النور؟ هذا الذى إلى جوارك. شكراً.

ـ إنها لا تعرف شيئاً.

إبتعدت لاورا عن الأريكة ونظرت إليها. ـ لا، الضوء أكثر مما يجب لا أعرف بعد كيف أوزعه جيداً. إضاءة منزل ضخم ليست كإضاءة هذه...

شعرت بأنها مرهقة، جلست على الأريكة، تناولت كتاباً صغيراً، مجلَّداً بالجلد، من المنضدة الجانبية وقلبت صفحاته. أزاحت إلى جانب شعرها الأشقر الذى كان يغطى نصف وجهها، بحثت عن ضوء الأباجُورة وتمتمت بصوتٍ خفيض ما تقرأه، وحاجباها مرفوعان وفى شفتيها إستكانةٌ خفيفةٌ. قرأت ثم أغلقت الكتاب وقالت: ـ كالديرون دى لا باركا، وردَّدت من الذاكرة، ناظرةً إلى الرجل: ـ ألن تكون ثمة سعادةٌ ذات يوم؟ يا إلهى، قل لى، لماذا خلقت أزهاراً، إن لم يكن للشمِّ أن يستمتع بالرائحة الناعمة لأريج عطورها...

تمددَّت فوق الأريكة، مُغطِّيةً عينيها بيديها، مُردِّدةً بصوت دقيق، مُرهَق، بصوتٍ لا يريدُ أن يسمع نفسه أو يُسمع: - ... إن لمً يكنً للسمعً أن يسمعها؟... إن لم يكن للعيون أن تراها؟... وأحسَّت بيده فوق عنقها، تلمس اللآلئ الحية، متلامسةً مع جلد الصدر.

- أنا لم أُجبركِ...

- لا، لا علاقة لكَ. هذا أمرٌ سابق.

- ولماذا حدث؟

- أوه، ربما لأن فكرتي عن نفسى مفرطةٌ فى الخُيَلاء... لأننى أعتقد أننى أستحق معاملةً أفضل... ألا أكون شيئاً بل شخصاً.

- ومعى؟

- لا أدرى. لا أدرى. أنا فى الخامسة والثلاثين. ومن الصعب أن نبدأ من جديد، ما لم يمدّ لنا أحدٌ يداً... تكلمنا تلك الليلة، أتتذكر؟

- فى نيويورك.

- نعم. قلنا أننا يجب أن نعرف بعضنا...

- ... أن إغلاقُ الأبواب أخطر من فتحها... ألا تعرفنى حتى الآن؟

- أنت لا تقولين شيئاً أبداً. لا تطلبين منى شيئاً أبداً.

- كان علىّ أن أفعل ذلك، أليس كذلك؟ لماذا؟

- لا أدرى...

- لا تدرى. ولن تدرى إلاّ إذا أفصحتُ لك...

- ربما.

- أنا أحبك. وأنت قلت لى أنك تحبنى. لا، أنت لا تريد أن تفهم... أعطنى سيجارة.

أخرج علبة السجائر من جيب الچاكتة. إنتقى عود ثقاب وأشعله بينما تناولت هى السيجارة وأحست بالورق بين شفتيها، وبلَّلته، وأزالت الحافة المنتزعة، الملتصقة بالشفة، بإصبعين وفركتها بين الإصبعين،

وقذفتها بخفةٍ وانتظرت. ونظر هو إليها.

- الآن ربماً إستأنفت دروسى. فى الخامسة عشرة كنت أريد أن أرسم. ثم نسيت ذلك بعدها.

- ألن نخرج؟

نزعت حذاءها، وأراحت رأسها على وسادة، ونفثت حلقات الدخان نحو السقف.

- لا، لن نخرج الآن.

- أتريدين ويسكى آخر؟

- نعم، أعطنى آخر.

تناول الكأس الفارغ من على المنضدة، نظر إلى بقعة أحمر الشفاه على حافته، إستمع إلى خشخشة مكعب الثلج وهو يصطدم بالزجاج، مشى حتى المنضدة الواطئة، صب الويسكى من جديد، تناول مكعب الثلج الآخر بالكماشة الفضية...

- دون ماء، لو سمحت.

سألته هى إن كان لا يقلقه أن يعرف إلى ماذا تنظر، إلى من وإلى ماذا تنظر الفتاة الواقفة فوق الأرجوحة، المكتسية بالبياض - بالبياض والظل - والشرائط الزرقاء المعقودة تنتشر على طول الفستان؛ قالت له أن شيئاً يظل دائماً خارج اللوحة، لأن العالم الذى تمثّله اللوحة يجب أن يتسع، أن يمتد إلى خارجها ويصبح ممتلئاً بألوان أخرى، بحضوراتٍ أخرى، بإغراءاتٍ أخرى، تتشكّلُ بفضلها اللوحة وتكون. خرجا إلى شمس سبتمبر. سارا، تحت بواكى شارع ريفولى وقالت هى أنه يجب أن يعرف ميدان فوسج، الذى ربما كان أجمل الميادين. أوقفا سيارة أجرة. فرد هو فوق ركبتيه خريطة المترو وأخذت هى تتتبَّع بإصبعها الخط الأحمر، والخط الأخضر، متعلقةً بذراعه، ونَفَسُها قريبٌ جداً من نَفَسه، قائلةً أن تلك الأسماء تسعدُها، ولا تتعبُ من ترديدها،

ريشار لونوار، ليدرو ـ رولان، فيّ دو كالفير...

ناولها الكأس وعاد لإدارة كرة الأبراج السماوية، لقراءة الأسماء serpens, libra, argo navis, horologium, piscis, sagittarius, cater, lupus. جعلها تدور، تاركاً إصبعه يحتك بالكرة، يلمس النجوم الباردة، النائية.

ـ ماذا تفعل؟

ـ أنظر إلى هذا العالم.

ـ آه.

إنحنى وقبّل شعرها المحلول؛ أومأت برأسها، وابتسمت.

ـ زوجتك تريد هذه الأريكة.

ـ سمعتُ.

ـ بماذا تنصحني؟ هل يجب أن أكون سَخِيَّةً؟

ـ كما تشائين.

ـ أم لا مبالية؟ هل أنسى أنها كلّمتني؟ أُفضِّل أن أكون لا مبالية. السخاءُ مثل شتيمة قبيحةَ ودون ظُرْفٍ أحياناً، ألا تظنُّ ذلك؟

ـ لا أفهمك.

ـ ضع قليلاً من الموسيقى.

ـ أيّها تريدين الآن؟

ـ نفس الموسيقى. ضع نفس الموسيقى، لو سمحت.

قرأ الأرقام على الأربعة وجوه. رتّبها، وضغط الزِّر، وترك الأسطوانة تسقط، تسقط بلطمتها الجافة على القرص اللَّيِّن. شم ذلك المزيج من الشمع والمواسير الساخنة والخشب المُلمَّع وعاود الإستماع إلى أجنحة الكلافسان، الهبوط الناعم نحو البهجة، إلى زهد الكلافسان، زهده في الهواء، حتى يلمس مع الكمنجات الأرضَ

الصلبة، الدِعامةَ، ظهر العملاق.

ـ هل ارتفاع الصوت مناسبٌ هكذا؟

ـ أعلى قليلاً. أرتيميو...

ـ نعم؟

ـ لم أعد أحتمل أكثر، يا حبّى. عليك أن تختار.

ـ إصبرى، يا لاورا. خذى بالك...

ـ منِ ماذا؟

ـ لا تُجبرينى.

ـ على ماذا؟ هل أنت خائفٌ منى؟

ـ ألسنا على ما يرام هكذا؟ هل ينقص شىء؟

ـ من يدرى. ربما لا ينقص شىء.

ـ لا أسمعك جيداً.

ـ لا، لا تخفض الصوت. إستمع إلىّ رغم الموسيقى لقد تعبتُ.

ـ أنا لم أخدعكِ. ولم أجبرك.

ـ لم أغيِّركَ، وهو أمرٌ مختلف. أنت لستَ مستعداً.

ـ أنا أحبكِ هكذا، كما كنّا حتى الآن.

ـ مثل أول يوم.

ـ نعم، هكذا.

ـ لم يعد اليوم أولُ يوم. الآن تعرفنى. قل لى.

ـ خذى بالك، يا لاورا، لو سمحتِ. فهذه الأشياء تُسبِّبُ الأذى. يجب أن نعرف كيف نراعى...

ـ المظاهر؟ أم الخوف؟ لكن لن يحدث شىء، تأكَّد أن شيئاً لن يحدث.

ـ كان يجب أن نخرج.

ـ الآن لا. لا، الآن لا. إجعل الصوت أعلى.

إرتطمت الكمنجاتُ بالزجاج: البهجة، الزهد. بهجة تلك التقطيبة المغتصبَة تحت العينين الصافيتين واللامعتين. تناول هو القبعة من فوق كرسى. مشى نحو باب الشقة. توقف ويده فوق المقبض. نظر إلى الوراء. لاورا مُقرفِصةً، والوسائد بين ذراعيها، مُديرةً ظهرها إليه. خرج. أغلق الباب بعناية.

أنا أستيقظ مرةً أخرى، لكن بصرخة هذه المرّة: شخصٌ ما غرس نصلاً طويلاً وبارداً فى معدتى؛ شخصٌ ماً من الخارج: فأنا لا يمكننى أن أحاول إغتيال حياتى بهذه الطريقة: ثمة شخص، ثمة آخر قد غرس قطعة صلب فى أحشائى: أفرد ذراعىّ، أبذل جهداً كى أنهض فأجد الأيدى، الأذرِع الغريبةِ تسندنى، تطالبنى بالهدوء، تقول أننى يجب أن أظل ساكناً ويسجِّل إصبعٌ بسرعة الأرقام فى التليفون، يخطىء، يعاود المحاولة، ويعاود الخطأ، وينجح أخيراً فى الإتصال، يطلب الدكتور، حالاً، بسرعة، لأننى أودّ لو أنهض وأخفى الألم بالحركة ولا يتركوننى أفعل - من يكونون؟ من يكونون؟ - وتتصاعد التقلصات، أتخيلها مثل حلقات أفعى، تصعد حتى الصدر، حتى الحنجرة، وتملأ لسانى، فمى، بهذا الطعام المطحون، المرّ، لوجبة قديمةٍ ما نسيتها والآن أتقيؤها، ووجهى إلى أسفل، باحثاً عبثاً عن إناءٍ بورسلين لا عن هذه السجادة الملطّخة بسائل معدتى السميك والكريه

الرائحة: لا يتوقف، يخدش صدرى، إنه شديد المرارة ويجعل حنجرتى تضحك، يُدغدِغنى دغدغات مُفزعة: يستمر، لا يتوقف، إنه هضم قديم مع دمٍّ، أتقيؤه فوق سجادة المَخدع ولا أحتاج لأن أرى نفسى كى أحس بشحوب وجهى، بزرقة شفتىّ، بالإيقاع المتسارع لقلبى بينما يختفى النبض من معصمى: غرسوا نصلاً فى سرَّتى، نفس السرَّة التى غذَّتنى بالحياة ذات مرة، ذات مرةٍ ولا أستطيع أن أصدِّق ما تقوله لى أصابعى حين ألمس هذه البطن الملتصقة بجسدى لكنها ليست بطنى: منتفخة، متضخِّمة، بارزة بفعل هذه الغازات التى أحس بها تتحرك ولا أستطيع إطلاقها، مهما ضغطتُ: هذه الضرطات التى تصعد حتى حنجرتى وتعود للهبوط إلى بطنى، إلى أمعائى، دون أن أستطيع إطلاقها: لكننى أستطيع شمَّ نفَسَى العطِن، الآن وأنا أتمكن من الإستلقاء وأشعر أنهم بجوارى ينظفون السجادة بتعجُّل: أشمُّ الماء بالصابون، الخرقةَ المبلَّلة التى تحاول هزيمة رائحةِ القىء تلك: أريد أن أنهض؛ إذا مشيت فى الحجرة سينقشع الألم، أنا أعرف أنه سينقشع:

ـ إفتحوا النافذة.

ـ لقد حطَّمَ حتى ما أحبَّه، يا ماما، أنت تعرفين.

ـ لا تتكلمى. بحق الرب، لا تتكلمى.

ـ ألم يقتل لورنثو، ألم يفعل...؟

ـ إسكتى، يا تيريسا! أمنعك من أن تواصلى الكلام. إنك تجرحيننى.

هيه، لورنثو؟ لا يهم. لا يهمنى. فليقولوا كل شىء. أعرف منذ زمن بعيد ما يقولونه دون أن يجرؤوا على قوله لى. فليقولوه الآن. فلينتهزوا الفرصة. لقد فرضتُ نفسى. وهم لم يفهموا. هم ينظرون إلىّ كالتماثيل بينما الكاهن يدهننى بالزيت في جفنىّ، وفى عينىّ، وفي شفتىّ، وفي قدمىّ ويديّ، وبين ساقىّ، قرب عورتى. أوصل جهاز

التسجيل، ياپاديبا.

ـلنعبر النهر...

وتوقفنى هى، تيريسا، وهذه المرَّة أرى الخوف في عينيها، أرى الذعر فى تقطيبة شفتيها الخاليتين من الأصباغ، وفي ذراعى كاتالينا ثِقَلٌ لا يُحتمل من الكلمات التى لم تُنطق أبداً وأمنعها أنا من نطقها: يتمكّنون من طرحى على الفراش: لا أستطيع، لا أستطيع، الألم يثنى خصرى، علىّ أن ألمس أطراف قدمىّ بأطراف أصابعى حتى أعرف أن القدمين موجودتان ولم تختفيا، مثلَّجتين، ميتتين فعلاً، آآآآخـاآآى، ميتتين فعلاً وأنتبهُ الآن فقط إلى أنه دائما، طوال حياتى، كانت ثمة حركة غير ملحوظة في أمعائي، طوال الوقت، حركة أتعرف عليها الآن فقط لأننى فجأة لم أعد أحسُ بها: لقد توقفت، كانت حركةً موجيةً صاحبتنى طوال حياتى، والآن لا أحسُّ بها، لا أحسُّ بها، لكننى أنظرُ إلى أظافرى حين أفردُ يدىّ لألمس قدمىّ المثلّجتين اللتين لم أعد أحسُّ بهما، أنظر إلى أظافرى الجديدة الزرقاء، المسودة، التى نبتت كى أموت، آآخ ـ آآى، لا، سينقضى هذا، لا أريد هذا الجلد الأزرق، هذا الجلد الملوَّن بلون الدم الميت، لا، لا لا أريده، الأزرق شىء آخر، السماء زرقاء، الذكريات زرقاء، الخيول التى تعبر الأنهار زرقاء، زرقاءٌ الجياد اللامعة وأخضرٌ هو البحر، الأزهار زرقاء، أزرق أنا لا، لا، لا، لا، آآآآـاآآآى، وعلىّ أن أسقط على ظهرى لأننى لا أدرى إلى أين أتوجه، ولا كيف أتحرك، لا أدرى إلى أين أوجِّه ذراعىّ وساقىّ اللتين لا أحسُّ بهما، لا أدرى إلى أين أنظر، لم أعد أريد النهوض لأننى لا أدرى إلى أين أذهب، لدىّ فقط هذا الألم فى سرَّتى، هذا الألم في بطنى، هذا الألم بجانب ضلوعى، هذا الألم في شرجى وأنا أدفع بلا جدوى، أدفع وأنا أخدش نفسى، أدفع وساقاى منفرجتين ولم أعد أشمُّ شيئاً لكننى أستمع إلى نحيب تيريسا وأحسّ بيد كاتالينا على ظهرى.

لا أدرى، لا أفهم لماذا، وأنت جالسة إلى جوارى، تتقاسمين معى هذه الذكرى أخيراً وهذه المرة دون لوم في نظرتك. آه، لو فهمت. لو فهمنا. ربما كان ثمة غشاء آخر خلف العيون المفتوحة والآن فقط سنمزقه، لنرى. يمكن أن يخرج من الجسد بقدر ما يمكن لجسد المرء أن يستقبله من نظرة، ومن تربيته الآخرين. تلمسيننى. تلمسين يدى وأحسُّ بيدك دون أن أحسَّ بيدى. تلمسنى. تربت كاتالينا يدى. هل يكون حباً. أتساءل. لا أفهم. هل يكون حباً؟ كنا معتادين تماماً. على أننى إذا قدَّمت الحب، تردُّ هى باللوم؛ على أنها إذا قدَّمت الحب، أردُّ أنا بالكبرياء: ربما كانا نصفين لنفس العاطفة، ربما. تلمسنى. تريد أن تتذكر معى ذلك، ذلك وحده؛ أن تفهمه.

- لماذا؟

- لنعبر النهر على صهوة الجياد...

أنا نجوتُ. يا ريخينا. ماذا كان اسمكِ؟ لا. أنت ريخينا. ماذا كان اسمك أنتَ، أيها الجندى بلا أسم؟ نجوت. وأنم متَّم. أنا نجوت.

- اقتربى، يابنيتى... حتى يتعرَّف عليكِ... قولى له إسمك...

لكننى أسمع نحيب تيريسا وأحسُّ بيد كاتالينا على ظهرى وبالحركة السريعة ذات الصرير لذلك الرجل الذى يتحسَّس معدتى، ويقيس نبضى، ويفتح بعنفٍ أجفانى ويُغرق عينى في ضوءٍ زائف يضئُ وينطفئ، يُضئ وينطفئ ويعاود تحسس معدتى، يُدخل إصبعاً في شرجى، يدخل الترمومتر الساخن والكحولى في فمي وتتوقف الأصوات الأخرى ويقول الشخص الحديث الوصول شيئاً على مبعدة، في قاع نفق:

- من المستحيل أن نعرف. قد يكون فتقاً مُحتبساً. وقد يكون إلتهاباً فى الغشاء البريتونى. وقد يكون مغص إلتهاب كلوى، وفي هذه الحالة، يجب حقنه بإثنين سنتيجرام من المورفين. لكن هذا يمكن أن

يكون خطيراً. أعتقد أننا يجب أن نستشير طبيباً آخر.

آى أيها الألم الذى يهزم نفسه بنفسه، أى أيها الألم الذى تستطيل حتى لا يعود الأمر يُهمُّ، حتى تتحول إلى حالة إعتيادية: آى أيها الألم، لن أعود أتحملُّ غيابك، أتعودُ عليك، آى أيها الألم، آى...

ـقل شيئاً، دون أرتيميو، تكلم، لو سمحت. تكلم.

- ... لا أتذكرها، لم أعد أتذكرها، نعم، كيف سأنساها...

- أنظر: النبض يتوقف تماماً حين يتكلم.

- إحقنه، يا دكتور، حتى لا يتعذب...

- يجب أن يراه طبيب آخر. الأمر خطير.

- ... كيف سأنساه...

- إسترح، من فضلك. لا تقل شيئاً. هكذا. متى تبوَّل آخر مرة؟

- هذا الصباح... لا، منذ ساعتين، دون أن يدرى.

- ألم تحتفظوا بالبول؟

- لا... لا.

- ضعوا له المبولة. إحتفظوا بالبول؛ من الضرورى تحليله.

- لم أكن هناك؛ فكيف سأتذكر؟

مرة أخرى ذلك الشئ البارد. مرة أخرى عضوى الميت موضوعاً في الفتحة المعدنية. سأتعلم كيف أحيا مع كل هذا. إنها نوبة؛ نوبة يمكن أن تصيب عجوزاً في سنىّ؛ نوبة ليست شيئاً من العالم الآخر؛ ستنقضى؛ لابد أن تنقضى؛ لكن الوقت قليل جداً، لماذا لا يتركونى أتذكرُ ذلك؟؛ نعم، حين كان الجسد فتيَّاً؛ كنت فتياً ذات مرة؛ كنت فتياً... آه، الجسد يموت ألماً، لكن المخ يمتلئ بالضوء: ينفصلان، أعرف أنهما ينفصلان: لأننى الآن أتذكرُ ذلك الوجه.

- أظهر الندم:

لى إبن، صنعتُه أنا: لأننى الآن أتذكرُ ذلك الوجه: من أين أمسكُ

به، من أين حتى لا يهرب، من أين، بحق الرب، من أين، من فضلك، من أين.

أنت ستصيحُ من أعماق ذاكرتك: ستخفض رأسك كأنك تريد أن تُقربها من أذن الحصان وتهمزه بالكلمات. ستحسُّ - ولابد أن إبنك سيحس بنفس الشئ - بذلك النفس القوى، الذى يتصاعد منه البخار، بذلك العرق، بتلك الأعصاب المشدودة، بتلك النظرة الزجاجية، بفعل المجهود. سيضيع الصوتان تحت رنين الحوافر وسيصيح هو: "لم تستطع أبداً التغلب على المُهرة، يا بابا! " "ومن علَّمك ركوب الخيل؟ هيه؟"، "أقول لك أنك لا تستطيع التغلُّب على المُهرة!"، "لنرى!" "يجب أن تحكى لى كل شئ، يا لورنثو، مثلما حدث حتى الآن، تماماً... تماماً مثلما حدث حتى الآن... لا يجب أن يُخجلك شيء إن كنت تحكيه لأمِّك؛ لا، لا، لا ترتبك أبداً في حضوري؛ فأنا أفضل صديق لك، وربما صديقك الوحيد.. ستُكررُ ذلك ذاك الصباح، مُمدَّدَة فوق الفراش، ذاك الصباح الربيعى وسترددُ لنفسها كل المحادثات التى كانت قد أعدَّتها منذ طفولة إبنها، منتزعةً إياه منك، وهى ترعاه اليوم بطوله، رافضة أن تقبل مربية، ساجنة الطفلة، منذ سن ست سنوات، في المدرسة الداخلية الدينية، حتى يصبح الوقتُ كله للورنثو، حتى يتعود لورنثو على تلك الحياة المريحة،

دون خيارات. ستجعل السرعة الدموع تطفر من عينيكَ: ستحتضن بساقيك بطن الحصان الكُمَيتِ، ستطوِّح بنفسك بعنف على غُرَّته، لكن المهرة السوداء ستظل تسبقك بثلاثة أطوال. ستتصبُ، مُرهقاً؛ ستخففُ عدْوك. سيبدو لك أجمل أن ترى المهرة والفارس الشاب وهما يبتعدان بتلك الضوضاء الضائعة في غناء الببغاوات الضخمة، في القفار التي ستنحدر من جوانب الجبال: سيكون عليك أن تزرر عينيك حتى لا تغيب عن بصرك مهرة لورنثو، التى ستنحرف الآن عن الدرب لتعاود الخَبَبَ بإتجاه النباتات المتكاثفة، عائدة إلى مجرى النهر. لا : دون خيارات صعبة، دون ضرورات مزعجةٍ للاختيار، ستقول كاتالينا لنفسها، مُفكرةً في أنك، في البداية، قد ساعدتها بلا مبالاتك، دون أن تدرى، لأنك ستكون منتمياً إلى عالم آخر، ذلك العالم المتمثل فى العمل والقوة الذى عَرَفتهُ هى حين أَخذت أنت أراضى الدون جماليل، تاركاً الطفل لينضم، في البداية، إلى العالم الآخر للمخادع نصف المضاءة: وسط طبيعى، مناخ من الاستبعادات والإندماجات غير المحسوسة تقريباً، تصنعه هى بين الغمغمات المقدسة، والتصنعات الهادئة. ستنحرف مهرة لورنثو عن الدرب لتعاود الخَبَبَ باتجاه النباتات المتكاثفة، عائدة إلى مجرى النهر. سيشير ذراع الفتى المرفوع صوب الشرق، حيث بزغت الشمس، صوب البحيرة التى يفصلها عن البحر حاجزُ النهر. ستغمض عينيك حين تحسُّ، من جديد، بتصاعد البخار الساخن نحو وجهك، بهبوط الظل المنعش فوق رأسك، ستترك الحصان يواصل طريقه وحده ويؤرجحك فوق السرج المبلَّل بالعرق. وخلف أجفانك المغمضة، سيتناثر فى ومضاتٍ غير مرئية شكل الشمس وشكل الظل، سيرتسم الطيف الأزرق للهيئةِ الشابة والقوية. ستكون قد إستيقظت ذاك

الصباح، مثل كل الصباحات، بالبهجة المتوقَّعة. "لقد أدرتُ دائما خدَّى الآخر"، ستردِّد كاتالينا، والطفل قريب منها، "دائما؛ دائما ما تحملتُ كل شئ؛ لو لم يكن من أجلك"، وستحبُّ أنت هاتين العينين المندهشتين، المتسائلتين، اللتين ستتركانك تقودهما: "ذات يوم سأحكى لك:.." لن تخطئ بحملك لورنثو إلى كوكويا منذ سن الثانية عشرة؛ ستكرِّر ذلك: لا. من أجله فقط ستكون قد اشتريت الأراضى، وأعدت بناء الضيعة وتركته فيها، طفلاً ـ سيداً، مسئولاً عن الحصادات، مفتوحاً على حياة الخيول والصيد، حياة السباحة وصيد السمك. ستراه من بعيد، على صهوة المهرة، وستقول لنفسك أنه قد صار صورة شبابك، ممشوقاً وقوياً، أسمراً، وعيناه الخضروان غائرتان في وجنتيه البارزتين. ستستنشق العفن الطينى للضفة. "ذات يوم سأحكى لك... أبوك؛ أبوك، يا لورنثو..." ستترجَّلان بجانب الأعشاب المتماوجة للبحيرة. وسيخفض الحصانان خِطميهما، وقد تحرَّرا، سيلعقان الماء، سيلعقان أحدهما الإخر وفماهما رطبان. وعلى الفور سيجريان ببطء، بخبب مُنوِّم، وهما يُفرِّقان الأعشاب المتدلية في الماء، ويهزّان عرفيهما؛ ويثيران زبداً متناثراً، تاركين الشمس وإنعكاس الماء يذهِّبانهما. سيضع لورنثو يده فوق كتفك. "أبوك؛ أبوك، يا لورنثو... لورنثو: هل تحبُّ حقاً الربَّ آلهنا؟ هل تؤمن بكل ما علَّمتُكَ؟ هل تعرف أن الكنيسة هى جسدُ الرب على الأرض وأن الكهنة هم مفوّضو الرب...؟ هل تؤمن...؟" سيضع لورنثو يده فوق كتفك. ستنظران في عيون بعضكما، وستبتسمان. ستمسكُ لورنثو من رقبته؛ سيتظاهر الفتى بتوجيه ضربة إلى معدتك؛ ستنكُش أنت شعره، ضاحكاً؛ ستتعانقان في صراع زائف لكنه قوى، مُطلق العنان، لاهثٍ، حتى تسقُطا مستسلمين فوق العشب، ضاحكين،

مختنقين، ضاحكين..." يا إلهى، لماذا أسألك عن هذا؟ ليس لى الحق، فعلاً ليس لى الحق... لا أدرى، في امتحان الرجال القديسين... امتحان الشهداء الحقيقيين... هل تعتقد أنه يمكن أن ينجح؟ ... لا أدرى لماذا أسألك..." سيعود الحصانان، مُتعَبَين مثلكما وستسيران، ممسكين بعنانيهما، على طول الجسر الرملى المؤدَّى إلى البحر، إلى البحر المفتوح، لورنثو، وأرتيميو، إلى البحر المفتوح، إلى حيث سيجرى لورنثو، متوثباً، نحو الأمواج التى ترتطم بخصره، إلى البحر الإستوائى الأخضر الذى سيبلِّل بنطلونه، البحر الذى يحرسه طيران النوارس المنخفض، البحر الذى يقنع بإخراج لسانه المتعَب فوق الشاطئ، البحر الذى ستتناوله أنت، بدافعٍ تلقائى، في راحة يدك وترفعه إلى شفتيك: البحر الذى له طعم بيرةٍ مُرَّة، ويفوح برائحة الشمَّام، والجوانابانا*، والجوافة، والسفرجل، والتوت: سيجذب الصيادون شباكهم الثقيلة نحو الرمل، ستقتربان، ستكسران معهم صدفات القواقع، ستأكلان معهم الكابوريا والجمبرى وكاتالينا، وحيدةً، ستحاول أن تغمض عينيها وتنام، ستنتظر عودة الصبى الذى لم تره منذ عامين، منذ أن أكمل الخامسة عشر ولورنثو، وهو يمزِّق الغلاف الوردى للجمبرى ويشكر الصيادين على شريحة الليمون التى يناولونه إياها، سيسألك إن كنت لا تفكِّر أبداً فيما يوجد على الجانب الآخر من البحر، لأنه يعتقد أن الأرض كلها تُشبه بعضها، والبحر وحده هو المختلف. ستقول له أن ثمة جُزُر. سيقول لورنثو أن أشياء كثيرة تحدث في البحر، وكأن علينا أن نكون أضخم، أكمل حين نعيش في البحر. وتودُّ أنت فقط، وأنت تتمدَّد على الرمل وتستمع إلى القيثارة المحلية لصيادى بيراكروث، تودُّ فقط أن تشرح له أنه في

* guánabana : ثمرة خشنة من الخارج ذات نواة بيضاء. شهية قد يبلغ وزنها كيلو جرامين. تنمو في المناطق الاستوائية من أمريكا-م.

السنوات المنصرمة، منذ أربعين سنة، إنكسر شئٌ هنا، كى يبدأ شئٌ أو كى لا يبدأ أبداً شئ، أكثر جدَّةً. تحت شمس الفجر الغائمة، في شمس الظهيرة القوية والمصهورَة، على الدروب السوداء وبجانب هذا البحر، هذا، الهادئ الآن، الكثيف، الأخضر، وُجِدَ بالنسبة لك طيفٌ، ليس واقعياً رغم أنه حقيقى، كان يمكنه... لم يكن ذلك ـ نفس حقيقة تلك الإمكانات الضائعة ـ هو ما أزعجك إلى هذا الحد، ما دفعك للعودة إلى كوكويا ولورنثو في يدك، بل شيئاً أشدَّ صعوبة ـ ستقول ذلك بعينيك المغمضتين، بطعم الجمبرى في فمك، باللحن البيراكروثى في مسامعك، ضائعاً في إتساع هذا الأصيل ـ في التعبير عنه، في التفكير فيه وأنت وحيد؛ ورغم أنك تودُّ أن تقوله لإبنك، فلن تجرؤ: يجب أن يفهم من تلقاء ذاته: تسمعهُ يتمدَّد، يقرفص، ووجهه بإتجاه البحر المفتوح، وأصابعه العشرة مفتوحة، تحت السماء الغائمة، الداكنة على حين غرة: "ستبحر سفنية خلال عشرة أيام. وقد حجزت تذكرة" : السماء ويد لورنثو التى تمتد لتتلقى أولى قطرات المطر، كأنها تتسوّلها:" ألم تكن أنت لتفعل نفس الشئ، يا بابا؟ أنت لم تبق في دارك. الإيمان؟ لا أدرى. أنت أتيت بى إلى هنا، وعلَّمتنى كل هذه الأشياء. كأننى عدتُ لأحيا حياتك، أتفهمنى؟" "نـعـم". الآن هناك تلك الجبهة. أعتقد أنها الوحيدة الباقية. وسأذهب"... أوه، هذا الألم، أى هذه الوخزة، آى، كم ستودُّ أن تنهض، وتجرى، وتنسى الألم وأنت تسير، تعمل، تصيح، تُنظِّم: ولن يتركوك، سيأخذونك من ذراعيك، سيجبرونك على أن تظل هادئاً، سيجبرونك، جسمانياً، على مواصلة التذكُّر، ولن تريد، تريد، آى، لا تريد: ستكون فقط قد حلمت بأيام تخصُّك: لا تريد أن تعرف شيئاً عن يوم يخصُّك أكثر من أى يوم آخرً، لأنه سيكون اليوم الوحيد الذى يحياه شَخص آخر من أجلك، الوحيد الذى ستستطيع تذكره بإسم

شخص آخر؛ يومٌ قصير، رعب، يومٌ أشجار حور بيضاء، يا أرتيميو، إنه يومُك أيضا، إنها حياتك أيضاً... آى.

(١٩٣٩: ٣ فبراير)

هو من كان فوق السقيفة، وبين يديه بندقية، وتذكر حين كان الإثنان يخرجان للصيد إلى البحيرة. لكن هذه بندقيةٌ صدئة، لا تُفيد في الصيد. من السقيفة، ظهرت واجهة الأسقُفية. لم تبق سوى الواجهة، مثل قشرةٍ دون طوابق ولا أسقف. خلف الواجهة، كانت القنابلٍ قد هدمت كلَّ شئ. ظهرت بعض قطع الأثاث القديمة. مدفونةً؛ وفي الشارع كان يسير في صفٍ واحدٍ رجلٌ له عنق دجاجة وأمرآتان تلبسان السواد. زَرَّروا أعينهم وهم يحملون بين أيديهم بعض الصُّرر ويمشون بخطو ذاهل بجانب الواجهة. كان يكفى النظر إليهم للتعرُّف على الأعداء.

- هيه، إلى الرصيف الآخر!

صاح فيهم من ذلك الموقع المرتفع فوق السقيفة فرفع الرجل وجهه وأعشت الشمس عويناته. هز ذراعه ليشير لهم أن يعبروا الشارع ويتجنبوا خطر الواجهة التى بدت على وشك الانهيار. عبروا الشارع وعلى البعد دوّت طلقات مدفعية الفاشيين - كانت ترن جوفاءً حين تسقط فى تجاويفٍ الجبل وحادةً حين تصفر في الهواء- بعدها

جلس على كيس رمل. إلى جواره كان ميجيل. لم يكن شئٌ ليفصله عن المدفع الرشاش. رأيا من السقيفة شوارع القرية المهجورة. كانت في الشوارع حُفر، وأعمدة تلغراف مكسورة وكابلات متشابكة - وذلك الدوى الذى لا ينتهى لطلقات المدفعية والـ تاك - تاك - تاك لبعض البنادق، وألواح القرميد الجافة والباردة -: وحدها واجهة الأسقفية القديمة ظلت واقفةً في ذلك الشارع.

- لم يبق لدينا سوى شريطٍ واحد من طلقات الرشاش - قال لميجيل فأجاب ميجيل: - سننتظر حتى الغروب. وبعدها...

إستندا على الجدار وأشعلا سيجارتين. لفّ ميجيل كوفيته حتى أخفت لحيته الشقراء. هنالك على البعد، كانت الجبال مغطّاةً بالجليد؛ كان الجليد قد تساقط كثيراً، رغم أن الشمس تلمع. في الصباح، كانت الجبال ترتسم ويبدو أنها تتقدم نحوهم. ثم ستتراجع، عند الغروب؛ ولن تعود تُرى الدروب وصنوبرات السفوح. وعند نهاية النهار، لن تعود سوى كتلة نائية وبنفسجية.

لكن في تلك الظهيرة، نظر ميجيل إلى الشمس وزرّ عينيه وقال له: - لو لم تكن المدافع وتكتكة الطلقات، لحَسِب المرء أننا في سلام. جميلة أيام الشتاء هذه، إنظر إلى أين هبط الجليد.

نظر إلى التجاعيد البيضاء والعميقة التى تسرى من جفون ميجيل إلى خده الملتحى؛ كانت تلك التجاعيد مثل الجليد لوجهه. لن ينساها، لأنه تعلَّم أن يرى فيها المأساة، والشجاعة، والسخط، والهدوء. أحياناً كانوا قد كسبوا في المعارك، قبل أن يدفعوهم من جديد إلى الوراء. وأحياناً كانوا يخسرون فقط. لكن قبل الكسب والخسارة، كانت خطوط وجه ميجيل تحمل التعبير الذى يجب أن يرتسم فيها. تعلَّم

الكثير من وجه ميجيل. ولم يكن ينقصه سوى أن يراه يبكى.

أطفأ السيجارة على الأرضية فامتد طرفها مثل خيطٍ من الشرر وسأل ميجيل لماذا أخذوا يخسرون فأشار إلى جبال الحدود وقال: ـ لأن مدافعنا الرشاشة لم تمرَّ من هناك.

أطفأ ميجيل السيجارة هو الآخر وبدأ يدندن:

الجنرالات الأربعة، الجنرالات الأربعة،
الجنرالات الأربعة، يا أماه،
الذين تمرَّدوا...

فأجابه هو، مستنداً بدوره على أكياس الرمل:
مع حلول عيد الميلاد، يا أماه،
سيكونوا قد شُنقوا، سيكونوا قد شُنقوا...

أنشدا كثيراً، لقتل الوقت. كان ثمة ساعات كثيرة مثل هذه، يتوليان فيها الحراسة ولا يحدث شىء فينشدان. لم يكونا يعلنان أنهما سينشدان. كذلك لم يكونا يشعران بالخجل من الغناء بصوتٍ عالٍ أمام الآخرين. تماماً مثلما كانا يضحكان دون سبب ويلعبان أنهما يتصارعان وينشدان كذلك على الشاطئ قُرب كوكويا، مع صيادى السمك. لكنهما الآن ينشدان لتقوية عزيمتهما، رغم أن كلمات النشيد لابد أنها تبدو كسخريةٍ، لأن الجنرالات الأربعة لم يُشنقوا، بل قطعوا عليهم خط الرجعة في هذه القرية وأمامهم كانت الحدود الجبلية. ولم يعد أمامهم مكان يذهبون إليه.

بدأت الشمس في الإختفاء مبكراً، حوالى الرابعة بعد الظهر، وربَّت هو على بندقيته العتيقة المائلة إلى اللون البرتقالى، بمقبضها

الملوَّن بالأصفر، ووضع قلنسوته. لفّ كوفيته، تماماً مثل ميجيل. منذ عدة أيام، أراد أن يقترح عليه أمراً. كان حذاؤه متهالكاً، لكنه مازال يتحمَّل. وبالمقابل، كان ميجيل يمشى بخُف قماشى قديم، ملفوف في خرق قماش ومربوط بخيوط. كان يريد أن يقول له أنهما يمكن أن يتناوبا الحذاء: يومٌ يرتديه هو ويومٌ أرتديه أنا. لكنه لم يجرؤ. كانت تجاعيد الوجه تقول له أنه لا يجب أن يفعل ذلك. الآن أخذا ينفخان في أيديهما، لأنهما يعرفان ما يعنيه قضاء ليلة شتوية فوق السقيفة. عندئذ، من عمق الشارع، ظهر يجرى، وكأنه خرج من أحدى تلك الحُفر، جندىٌ من رجالنا، جمهورى. لوّح بذراعيه وسقط أخيراً، على وجهه. وخلفه، كان عدَّة جنود جمهوريون يضربون بأحذيتهم الأرصفة المقصوفة بالقنابل. فذلك القصف المدفعى، الذى بدا نائياً جداً، إقترب دفعةً واحدة ومن الشارع صاح أحد الجنود:

ـ سلاح، من فضلكم، سلاح!

ـ لا تتوقفوا! ـ صرخ الرجل الذى كان في مقدمة جنودنا ـ. لا تكونوا هدفاً سهلاً!.

مروا جرياً أسفلهما فصوّبا المدفع الرشاش نحو مؤخرة رفاقهما: إعتقدا أنهم يطاردونهم.

ـ لابد أنهم أصبحو على مقربة ـ قال لميجيل.

ـ صوِّب، يا مكسيكى، صوِّب جيداً ـ قال له ميجيل وتناول بين راحتيه آخر شريط طلقات بقى لديهم.

لكن رشاشاً آخر سبقهما، على مسافة ناصيتين أو ثلاث، كان وكر رشاش متمرس آخر، لكنه تابعٌ للفاشيين، قد إنتظر لحظة إنسحابنا والآن يرشق الرشَّاش الشارع ويقتل جنودنا.

لكن ليس قائدهم، الذى إنبطح على وجهه وصاح:

ـ إنبطحوا على بطونكم! لن تتعلموا أبداً!

حوِّل هو وضع الرشاش ليطلق النار على وكر الرشاش المتمرس ذاك وغابت الشمس خلف الجبال. نيران الرشاش بين يديه هزّت جسده وغمغم ميجيل: ـ العزيمة وحدها لا تكفى. المغاربة* الشُّقر مجهزون تجهيزاً أفضل.

فقد أصدرت المحركات أزيزاً فوق رأسيهما.

ـ ها قد وصلت طائرات كاپرونى.

كان يقاتلان جنباً إلى جنب، لكنهما لم يعودا يريان بعضهما في الظلام، مدّ ميجيل ذراعه ولمس كتفه. للمرة الثانية هذا اليوم، يقصف الطيران الإيطالى القرية.

ـ هيا بنا، يا لورنثو. ها قد عادت طائرات كاپرونى.

ـ إلى أين نذهب؟ ماذا؟ هل نترك الرشاش؟

ـ لم يعد يفيد. ليس لدينا طلقات.

كان الرشاش المعادى قد سكت أيضاً. وتحتهما، في الشارع، مرَّت جماعةٌ من النساء. تبيَّناهن لأنهن كن ينشدن، رغم كل شئٍ، بأصوات مرتفعة.

مع ليستر وكامپسينو
مع جالان ومع مودِستو،
مع القومندان كارلوس،
لا يعرف جنود الميليشيا الخوف...

كانت أصواتاً غريبة، بين كل ضجيج القنابل، لكنها أقوى من القنابل، لأن هذه كانت تتساقط بين الحين والحين بينما تُنشد

---

* moros : تقال - تحقيراً للمغاربة الذين حاربوا في صفوف فرانكو. والشُقر تجعل الإشارة إلى الاسبان الفاشيين مع التحقير الموَجَّه للمغاربة-م.

الأصـــوات طوال الوقت. "ولم تكن أصـواتاً عـسكرية جـداً، يابابا، بل أصوات نسـاء عـاشـقـات. كنَّ ينشـدن لمقـاتلى الجـمـهـورية كـمـا ينشـدن لأحـبـائهن وهنًـاك في أعلى، وقـبـل أن نتـخلّى عن الـرشـاش، تلامـسـت بالصـدفـة يدانا أنا ومـيـجيل وفكّرنا في نفس الشئ. أنهن تنشـدن لنا، لميجيل ولورنثو وأنهن يحببننا..."

عندئد إنهـارت واجـهـة الأسـقـفـيـة فـانبطحـا علـى الأرض، يغطّيهمـا الغـبـار، وفكَّر هـو في مـدريد، حين وصل، في المقـاهـى الغـاصـّة بالناس حتـى الثـانيـة أو الثـالثـة فـجـراً، حين لم يكونوا يتكلمـون إلاّ عن الحـرب ويشـعـرون بنشـوةٍ هـائلة، بيـقين هـائل بأنهم سـينتـصـرون وفكّر في أن مـدريد سـتظل تقـاوم وفي أنٍ نسـاء مـدريد صنعن من القـنابل فتّـاحـات زجاجـات... زحفـاً حتـى السلَّم. كان ميـجيل سـاكناً. ومـضـى هـو يجـرجـر بندقيتـه البـرتقـالية. كان يعـرف أن لديهم بندقـيـة واحـدة لكل خـمـسـة محاربين. وقرر ألا يُفلت بندقيته.

هبطا السلَّم الحلزونى.

"أظن أن طفـلاً كان يبكى فـي إحدى الغُـرف، لا أدرى، لأننى ربما خلطت بين البـكاء وبين صفّارات الإنذار الجوى".

لكنه تخيله هناك، وقـد هـجره ذووه. هـبطـا مُتحـسـسـين طريقـهـمـا، في الظلام. كـانت الظلمة مـن الكثافـة بحيث أنهـمـا عند خروجـهـمـا إلى الشـارع بدا لهـمـا أن الوقت نهـار. قـال ميـجيل: "لـن يمـروا"* فـأجـابتـه النسـاء: "لـن يمـروا!" أعشـاهـمـا الليل ولابد أنهـمـا سـارا قليلا فـاقدى الاتجاه، لأن إحدى النسـاء جرت نحـوهم وقـالت: ـ ليس من هنا. تعـالوا معنا.

حين تعودوا على ضوء الليل، كانوا جميعاً منبطحين على وجوههم

---

* no pasarán : شعار الجمهوريين، أطلقته دولوريس إيبارورى، الزعيمة الشيوعية، أثناء حصار مدريد، دلالة على الإصرار على عدم ترك الفاشيين يمرّون-م

على الرصيف. عزلهم الانهيار عن الرشاشات المعادية: كان الشارع مقطوعاً؛ استنشق هو الغبار، وكذلك عرق الفتيات المستلقيات إلى جواره. حاول أن يرى وجوههن. ولم ير سوى كاسكيت، سوى پيريه من الصوف، حتى رفعت الفتاة المُمددَّة إلى جواره وجهها فرأى شعرًا المفكوك، الكستنائى، الذى أبيضَّ بفعل جير الانهيار وقالت هى:

- أنا دولورس

- لورنثو. وهذا ميجيل.

- أنا ميجيل.

- فقدنا جماعتنا.

-كنا من الفرقة الرابعة.

- كيف نخرج من هنا؟

- يجب الإلتفاف وعبور الجسر

- هل تعرفان المكان؟

- ميجيل يعرفه.

- نعم، أنا أعرفه.

- من أين أنت؟

- أنا مكسيكى.

- آه، إذن لن يكون التفاهم صعباً.

إبتعدت الطائرات ونهض الجميع على أقدامهم. ذكرت نورى ذات الكاسكيت وماريّا ذات البيريه الصوف إسميهما فكرَّرا هما إسميهما. كانت دولورس ترتدى بنطلوناً وچاكته والإثنتان الأخريان معطفين وحقيبتى ظهر. تقدموا في طابور عبر الشارع المهجور، قريباً جداً من جدران المنازل العالية، تحت الشرفات الداكنة بنوافذها المفتوحة، كأن اليوم صيف. سمعوا صوت الطلقات الذى لا ينتهى، لكنهم لم يعرفوا من أين تأتى. أحياناً، كانوا يدوسون الزجاج المكسور أو كان ميجيل،

الذى يمضى في مقدمة الطابور، يقول لهم أن يحذروا أحد الكابلات. نبح فيهم كلبٌ من مدخل أحد الشوارع فقذفه ميجيل بحجر. في إحدى الشرفات كان يجلس عجوزٌ على كرسيه الهزَّاز وكوفيَّته ملفوفة حول رأسه. لم ينظر إليهم حين مرّوا ولم يفهموا ماذا يفعل هناك: هل ينتظر عودة أحد أم ينتظر بزوغ الشمس. لم ينظر إليهم.

أخذ هو نفسا عميقاً. تركوا القرية وراءهم وبلغوا حقل أشجار حور عارية. ذلك الخريف، لم يجمع أحدٌ الأوراق الجافة التى أخذت تخشًخش تحت أقدامهم، وقد إسودّت من الرطوبة. نظر إلى الخرق المبلَّلة التى تلفُّ قدمى ميجيل وأراد، مرةً أخرى، أن يُقدم له حذاءه، لكن الرفيق كان يسير بثباتٍ بالغ، تحمله ساقان قويتان ورشيقتان جداً، بحيث إنتبه إلى لا جدوىً أن يُقدم له ما لا يحتاجه. وعلى البعد، كانت تنتظرهم جوانب الجبال الداكنة. ربما، سيحتاج الحذاء عندما يبلغونها. أما الآن فلا. الآن كان هناك الجسر وتحته يجرى نهرٌ موَّارٌ وعميق توقف الجميع لينظروا إليه.

ـ ظننته سيكون متجمداً ـ أومأ هو إيماءةَ ضيق.

ـ أنهار إسبانيا لا تتجمدُّ أبداً ـ غمغم ميجيل ـً تجرى دوماً.

ـ لماذا؟ ـ وجهت دولورس سؤالها إليه هو.

ـ لأننا على هذا النحو يمكننا أن نتجنب الجسر.

ـ لماذا؟ ـ قالت الآن ماريّا وكان الثلاثة الأخرون، بنظراتهم المتسائلة، مثل أطفال فضوليين.

قال ميجيل: ـ لأن الجسور ملغومة عموماً.

لم تتحرك المجموعة الصغيرة. مَسمَرهم النهر السريع الأبيض الذى يجرى تحت أقدامهم. لم يتحركوا. حتى رفع ميجيل وجهه ونظر نحو الجبل وقال:

ـ لو عبرنا الجسر، لأمكننا الوصول إلى الجبل ومن هناك إلى

الحدود. ولو لم نعبره، سيعدموننا بالرصاص...

- إذن؟ - قالت ماريّا بشهقةٍ مكتومة وللمرة الأولى رأى الرجلان نظرتها الزجاجية والمتعبة.

- لقد خسرنا! - صرخ ميجيل وضم قبضتيه الفارغتين وتحرك هكذا، كأنه يبحث في الأرض المغطاة بالأوراق السوداء عن بندقية - ما من عودةٍ إلى الوراء! فلم يعد لدينا لا طيران، ولا مدفعية، ولا أى شئ! لم يتحرك هو. ظل ناظراً إلى ميجيل حتى أمسكت دولورس، اليدُ الدافئة لدولورس، الأصابعُ الخمسة التى سحبتها لتوِّها من إبطها، بالأصابع الخمسة للفتى وفهم هو. بحثت عن عينيه ورأى هو، للمرة الأولى كذلك، عينيها، رَمَش ورأهما خضراوين، تماماً مثل البحر قرب أرضنا. رأها منكوشة الشعر ودون أصباغ، وخدّاها محمرَّان من البرد وشفتاها ممتلئتان وجافّتان. لم يلتفت إليهما الثلاثة الآخرون. سارا، هى وهو، متشابكى اليدين وداسا فوق الجسر. تشكك هو للحظة. لكنها لم تتشكك. منحتهما الأصابع العشرة دفئاً، هو الدفء الوحيد الذى شعر هو به خلال كل هذه الشهور.

"... الدفء الوحيد الذى شعرتُ به خلال كل تلك الشهور من التراجع البطئ نحو قطالونيا وجبال البرانس..."

استمعا إلى خرير النهر تحتهما وإلى طقطقة ألواح خشب الجسر. وإذا كان ميجيل والفتاتان قد صاحا عليهما من الضفة الأخرى، فإنهما لم يسمعا. فقد إستطال الجسر، بدا كأنه يعبر محيطاً وليس هذا النهر المندفع.

"دق قلبى بسرعة. ولابد أن النبض كان محسوساً في يدى، لأنها رفعتها ووضعتها على صدرها وأحسستُ هناك بقوة قلبها..."

عندئذ سارا جنباً إلى جنب دون خوف وقَصُرَ الجسر.

من الجانب الآخر للنهر، انبثق ما لم يكونا قد رأياه. شجرة دردارٍ

ضخمة بلا أوراق، ضخمة، وجميلة، وبيضاء. لم يكن الجليد يغطيها، بل ثلج لامع. التمعت مثل جوهرة، من فرط بياضها، في الليل. أحسَّ هو بثقل بندقيته فوق كتفه، بثقل ساقيه، وقدميه الرصاصيتين فوق خشب الجسر: بكل تلك الخفة، والالتماع، والبياض بدت له شجرة الدردار تلك التى تنتظرهما. تشبَّث بأصابع دولورس. أعمته الريح الثلجية. فأغمض عينيه.

"أغمضت عينى، يابابا، وفتحتهما، خائفاً ألاّ تعود الشجرة هناك..."

عندئذ أحست الأقدام بالأرض، توقفا، لم ينظرا إلى الوراء، جَرَيا كلاهما نحو شجرة الدردار، دون أن يعيرا إلتفاتاً لصرخات ميجيل والفتاتين، ودون أن ينصتا للمسيرة الجديدة لرفاقهما فوق الجسر، جَرَيا وإحتضنا الجذع العارى، الأبيض المكسوَّ بالثلج، إهتزّا ملتصقين به بينما تتساقط تلك اللآلئ من البرد فوق رأسيهما، تلامسا بأيديهما وهما يعانقانه ثم انفصلا بعنفٍ عن شجرتهما ليتعانقا دولورس وهو، ليربِّت هو على جبهتها وتربِّت هى على عنقه؛ تباعدت هى حتى يرى بشكل أفضل عينيها الخضراوين، النديتين، وفمها المنفرج قبل أن تدفن رأسها في صدر الفتى وترفع وجهها وتمنحه شفتيها، قبل أن يحيط بهما الرفاق، لكن دون أن يعانقوا الشجرة كما فعلا...

"يالدفئك، يالولا، ما أدفأك وكم صرتُ أحبك!"

عسكروا فى نتوءات سلسلة الجبال. تحت تاج الجليد. بحث ميجيل والشاب عن أغصان وأشعلا ناراً. جلس هو بجوار لولا وعاد ليمسك بيدها. أخرجت ماريًا من حقيبة ظهرها إناءً مكسوراً وملأته بالجليد وأذابته فوق النار كما أخرجت قطعة من جبن الماعز.. وبعدها، ضاحكةً، أخرجت نورى من صدرها بعض الأكياس المجعّدة من شاى ليبتون وضحكوا جميعاً من وجه قبطان اليخت الإنجليزى

ذاك الذى يزيِّن أكياس الشاى.

حكت نورى أنه قبل سقوط برشلونه كانت قد وصلت علب تبغ، وشاى ولبن مجفف بعث بها الأمريكيون. كانت نورى مائلة إلى البدانة ومرحة وعملت قبل الحرب في مصنع منسوجات، لكن ماريا تحدثت وتذكرت أيام أن كانت تدرس في مدريد وتعيش في نُزُل الطلبة وتخرج إلى الإضرابات ضد بريمو - دى ريبيرا* وتبكى في حفلات افتتاح مسرحيات لوركا.

"أكتب لك، وأنا أسند الورق على ركبتىّ، وأسمعهن يتحدثن وأحاول أن أقول لهن كم أحبُّ إسبانيا ولا يخطر ببالى سوى الحديث عن زيارتى الأولى إلى توليدو، وهى مدينة كنت أتخيلها كما رسمها إلجريكو، ملتفةً بإعصار من البروق والسحب المخضرَّة، مشيدةً فوق نهر التاخو الضيق، مدينة، كيف أقول لك؟ كانت في حرب ضد نفسها. ووجدتُ مدينة تستحم في الشمس، مدينةً للشمس والصمت وقصر مقصوف، لأن لوحة إلجريكو - أحاول أن أقول لهن - هى كل إسبانيا وإذا كان تاخو** توليدو أشد ضيقاً، فإن جرح إسبانيا يمتد من البحر إلى البحر. رأيت هذا هنا، يا بابا. هذا ما أحاول أن أقول لهن..."

هذا ما قاله لهن، قبل أن يبدأ ميجيل في حكى كيف انضم إلى لواء المقدِّم أسنثيو وكم كلّفه أن يتعلم القتال. قال لهم أن كلَّ مقاتلى الجيش الشعبى بالغو الشجاعة، لكن ذلك لا يكفى للأنتصار. فلابد

* الدكتاتور ميجيل/بريمودى ريبيرا اى أوربانيخا (١٨٧٠-١٩٣٠) عسكرى وسياسى إسبانى تمرد عام ١٩٢٣ وأقام دكتاتورية عسكرية. وفي ١٩٢٧ أقام بوحى من الفاشية الإيطالية حزباً قومياً وبرلمانيا استشاريا. عزل عام ١٩٣٠-م

** tajo : النهر الذى يمر بتوليدو (طليطلة) وتعنى الكلمة (بحروف صغيرة) جرحاً أو قطعاً بالسيف أو جرحاً غائراً. وهو يلعب على المعنيين-م

من تعلُّم القتال. والجنود المرتجلون يستغرقون وقتاً طويلاً في فهم أن ثمة قواعد للأمان وأن من الأفضل أن يواصلوا البقاء أحياءً كي يواصلوا القتال. علاوة على ذلك، فإنهم حين يكونون قد تعلموا الدفاع عن أنفسهم يكون مازال ينقصهم تعلّم كيف يهاجمون. وحين يكونون قد تعلّموا كلّ هذا، يكون مازال ينقصهم أصعب شئ، أن يحرزوا أصعب انتصار، الذى هو الانتصار على أنفسهم، على عاداتهم وأوجه راحتهم. تحدث بسوءٍ عن الفوضويين، الذين هم، وفقاً لما يقوله ميجيل، انهزاميون وتحدث بسوء عن تجار السلاح الذين وعدوا الجمهورية بأسلحة كانوا قد باعوها لفرانكو. قال أن أكبر آلامه، ذلك الذي سيحمله معه إلى القبر، هى عدم فهمه للسبب في أن عمّال العالم لم ينتفضوا حاملين السلاح ليدافعوا عنا في إسبانيا، لأن إسبانيا إذا خسرت فسوف يعنى ذلك أنهم جميعاً خسروا. قال هذا وقسم سيجارةً وأعطى نصفها للمكسيكى ودّخن الإثنان، هو بجوار دولورس ومرَّر لها العُقب لتدخن هى أيضاً.

سمعوا قصفاً عنيفاً، من بعيد. ومن المعسكر، ظهر وميض مائل للصُفرة، مروحةٌ من الغبار في الليل- إنها فيجيراس - قال ميجيل - إنهم يقصفون فيجيراس.

نظروا صوب فيجيراس. كانت لولا قريبة منه. لم تكن تتحدث إلى الجميع. كانت تتحدث إليه وحده، بصوت خفيض، بينما ينظرون لذلك الغبار وتلك الضجة النائيين. قالت إنها في الثانية والعشرين، أكبر منه بثلاث سنوات، وزاد هو من عمره وقال أنه قد أكمل الرابعة والعشرين. قالت أنها من الباثيتى وأنها قد ذهبت إلى الحرب لتتبع خطيبها. فقد درس الإثنان سوياً - درسا الكيمياء - وتبعته هى، لكن المغاربة أعدموه فى أوبييدو. حكى هو لها أنه قدم من المكسيك وأنه كان يحيا هناك في موضع حارٍ، قريب من البحر، ملئ بالفاكهة. طلبت

هى منه أن يحدثها عن الفواكه الاستوائية وأضحكتها الأسماء التي لم تكن قد سمعتها قط وقالت له أن ماميى* mamey يبدو كأنه إسمٌ لسّم وجوانابانا guanabana إسمٌ لطائر. قال لها أنه يحب الخيول وأنه حين وصل كان في سلاح الفرسان، لكن لا توجد الآن خيول ولا أى شئ. قالت له أنها لم تركب خيلاً أبداً؛ وحاول هوّ أن يشرح لها البهجة التى يمنحها ركوب الخيل، خصوصاً على الشاطئ عند الفجر، حين تخفُّ الريح الشمالية لكن مطراً خفيفاً مازال يسقط ويختلط الزبد الذى تثيره الحوافر بالمطر الخفيف ويمضى المرء بصدر عار وشفتين مليئتين بالملح. أعجبها هذا. قالت أنه ربما لازال باقياً لديه تذكارٌ من الملح في فمه وقبّلته. كان الآخرون قد ناموا بجوار النار وكانت النار تخمد. نهض ليقلّبها، ومازال طعم لولا ذاك في فمه. رأى أنهم قد ناموا جميعاً بالفعل، متعانقين ليتدفأوا وعاد إلى جانب لولا. فتحت له الچاكته المبطّنَة بصوف الخراف فشبك يديه على ظهر الفتاة وبلوزتها القطنية وغطت هى ظهره بالچاكته. همست في أذنه أنهما يجب أن يحدِّدا مكاناً يعاودان الإلتقاء فيه، إذا ما إنفصلا. فقال أنهما يمكن أن يلتقيا في مقهى يعرفه بالقرب من تمثال La Cibeles ، حين نحرِّر مدريد فردَّت هى أنهما يمكن أن يتقابلا في المكسيك فقال نعم، في ميدان ميناء بيراكروث، تحت البواكى، في مقهى لا پارّوكيا. سيتناولان قهوة ويأكلان كابوريا.

إبتسمت هى وابتسم هو أيضاً وقال لها أنه يودّ أن ينكش شعرها ويقبِّلها فسبقته ونزعت قلنسوته ونكشت شعره بينما وضع يده تحت بلوزتها القطنية، وربَّت على ظهرها، وبحث عن نهديها الطليقين وعندها لم يعد يفكر في شىء ولا هى أيضاً. بالتأكيد، لأن صوتها لم

* فاكهة إستوائية أمريكية لذيذة-م

يكن ينطق كلمات بل يُفرغُ كل ما تفكّرُ فيه في تلك الغمغمة المتصلة التى هى في آن واحدٍ شكراً أحبك لا تتسنى تعال...

أخذوا يخترقون الجبل ولأول مرة أخذ ميجيل يسير بصعوبة وليس بسبب الصعود، الذى كان شاقاً. فقد إخترق البرد قدميه، بردٌ بأسنان كان الجميع يحسّونه على وجوههم. استندت دولورس على ذراع حبيبها وإذا نظر إليها خلسة رآها مهمومة، لكنه إذا نظر إليها مباشرةً تبتسم. إنه يرجو فقط ـ ويرجون جميعا ـ ألا يَهُبَّ إعصار. هو الوحيد الذى يحمل بندقية وليس في بندقيته سوى طلقتين. قال لهم ميجيل أنهم لا يجب أن يخافوا.

"أنا لا أخاف. فالحدود على الجانب الآخر وسنعبر هذه الليلة إلى فرنسا، في فراش، يُظلِّه سقف. سنتعشى جيداً. أتذكرك وأفكر أنك لن تشعر بالخجلِ منى، أنك كنت ستفعل نفس ما فعلتُ. أنت أيضاً ناضلت، وسيسُّرك أن تعرف أن ثمة دائماً شخصٌ يواصل النضال. أعرف أن هذا سيسرُّك. لكن هذا النضال سينتهى الآن. فور عبورنا الحدود سيكون قد إنتهى العضوُ الشارد في الألوية الدولية وسيبدأ شىء آخر. لن أنسى أبداً هذه الحياة، يابابا، ففيها تعلّمتُ كلَّ ما أعرف. الأمر بسيطٌ جداً. سأقصه عليك حين أعود. الآن لا تواتينى الكلمات".

لَمَس بإصبع الخطاب الذى يحمله في جيب قميصه. لم يكن يستطيع فتح فمَه في هذا البرد. تنفَّس لاهثاً. نفث من بين أسنانه المطبَقَة بخاراً أبيض. مضوا ببطء بالغ. كان طابور اللاجئين هائلاً؛ إمتد حتى مرمى البصر. مضت أمامهم العربات المحمَّلة بالقمح والمقانق التى يحملها الفلاحون إلى فرنسا؛ ومضت النساءُ حاملات المراتب والملاءات، وآخرون حاملين صوراً وكراسى، جراراً ومرايا. قال الفلاحون أنهم سيواصلون البِذار في فرنسا. تقدموا ببطءٍ شديد.

ومضى معهم أطفال أيضاً، بعضهم رُضَّعٌ. كانت أرض الجبل جافة، قاسية، شائكة، مليئة بالأجَمَات. مضوا يخترقون الجبل. أحس بقبضة دولورس المختبئة في جنبه وأحس كذلك بأنه يجب أن ينقذها ويحميها. كان يحبها أكثر من الليلة الماضية. وعرف أنه في الغد سيحبها أكثر من اليوم. وستحبه هى أيضاً. لم يكن ثمة حاجة لقول ذلك. كانا يروقان بعضهما. هذا هو الأمر. كنا نروق بعضنا. أصبحا يعرفان كيف يضحكان معاً. وكان لديهما ما يقصّانه.

إنفصلت دولورس عنه وجرت نحو ماريّا. كانت جندية المليشيا قد توقفت بجانب صخرة، وإحدى يديها فوق جبهتها. قالت أن هذا لا شئ. أنها تحس بالإرهاق الشديد. كان عليهم أن يتنحّوا جانباً كى تمر الوجوه المحمرَّة، والأيدى المتجمِّدة، والعربات الثقيلة. عادت ماريّا لتقول أنها تشعر ببعض الدُوار. أخذتها لولا من ذراعها وواصلوا طريقهم وعندها، نعم عندها شعروا بضجيج المحرِّك قريباً منهم وتوقفوا. لم تظهر الطائرة. فتشوا عنها جميعاً، لكن السماء كانت ملبَّدةً. كان ميجيل أول من تبيَّن الأجنحة السوداء، والصليب المعقوف وأول من صرخ في الجميع ـ إنبطحوا! على وجوهكم!.

على وجوههم جميعاً، بين الصخور، وتحت العربات جميعاً، ما عدا تلك البندقية التى مازالت فيها طلقتان. ولا تُطلقُ النار، بندقيه الـ ٨ ملليمتر اللعينة، المقشة اللعينة الصدئة، لا تطلق النار مهما ضغط على الزناد، واقفاً، حتى يمر الضجيج فوق الرؤوس، ويملؤها بذلك الظل السريع وبمدفع رشاش يرشق الأرض ويُدوِّى على الأحجار...

"ـإنبطح يا لورنثو، إنبطِّح، أيها المكسيكى!"

إنبطح، إنبطح، إنبطح، يا لورنثو، وهذا الحذاء الجديد فوق الأرض الجافة، يا لورنثو، وبندقيتك على الأرض، يا مكسيكى، ومَدٌّ في معدتك، كأنك تحملُ المحيط في أحشائك وها قد أصبح وجهك على

الأرض بعينيك الخضراوين والمفتوحتين وما يُشبه الحلم، بين الشمس والليل، بينما تصرخ هى وتعرفُ أنت أن الحذاء سيفيد في النهاية ميجيل المسكين بلحيته الشقراء وتجاعيده البيضاء وخلال دقيقة واحدة ستلقى دولورس نفسها فوقك، يا لورنثو، وسيقول لها ميجيل أنه لا فائدة، باكياً لأول مرة، أنهم يجب أن يواصلوا طريقهم، أن الحياة على الجانب الآخر من الجبال، الحياة والحرية، لأن تلك، نعم، كانت الكلمات التى كتبها: أخذوا هذا الخطاب، أخرجوه من القميص الملطّخ، ضغطت هى عليه بين يديها، ما أدفأه!، لو سقط الجليد لدفنه، حين قبّلته مرةً أخرى، يا دولورس، منطرحةً فوق جسده وودَّ هو أن يحملك إلى البحر، على صهوة الجياد، قبل أن تلمسى دمه وينام معكِ في عينيه... ما أشدّ خضرتهما... لا تنسى...

أنا كنت سأقول لنفسى الحقيقة، لو لم أكن أحسُّ بشفتىّ البيضاوين لو لم أنثن مطوياً، عاجزاً عن السيطرة على نفسى، لو إحتملتُ ثِقل الملاءات، لو لم أعاود الإستلقاء، مُتقلِّصاً، ووجهى إلى أسفل، لأتقيأ هذا المخاط، هذه العصارة المرارية: كنت سأقول لنفسى أنه لا يكفى ترديدُ الزمن والمكان، البقاء الخالص؛ كنت سأقول لنفسى شيئاً أكثر من ذلك، رغبَةً لم أعَبِّر عنها أبداً، هى التى أجبرتنى على

أن أقوده ـ آى، لا أدرى لا أنتبه ـ نعم، على أن أُجبره على العثور على طرف الخيط الذى قطعتهُ أنا، على مواصلة حياتى، على إكمالِ مصيرى الآخر، الجزء الثانى الذى لم أستطع أنا إكماله، ولا تفعل هى سوى أن تسألنى جالسةً بجوار رأس فراشى:

ـ لماذا جرى الأمر على هذا النحو؟ قل لى: لماذا؟ وأنا رَبَّيتُهُ من أجل شئٍ آخر. لماذا إنتزعته؟

ـ ألم يُرسل إلى الموت إبنه المُدَلَّل ذاته؟ ألم يفصله عنك وعنىٍّ كى يشوِّهه؟ أليس هذا صحيحاً؟

ـ تيريسا، أبوك لا يسمَعُكِ...

ـ إنه يتظاهر. يغمض عينيه ويتظاهر.

ـ إسكتى.

ـ إسكتى.

أنا لم أعد أدرى. لكننى أراهم. لقد دخلوا. ينفتح وينغلق البابُ الماهوجنى ولا تُصدرُ الخطوات صوتاً فوق السجادة السميكة. أغلقوا النوافذ. أسدلوا، بهسيسٍ، الستائر الرمادية. دخلوا.

ـ أنا ... أنا جلوريا...

الخشخشة المنعشة والعذبة لأوراق البنكنوت والسندات الجديدة حين تتناولها يدُ رجل مثلى. الإندفاع السلس لسيارةٍ فاخرة، مصنوعةٍ خصيصاً، بتكييف هواء، وبار، وتليفون، ووسائدُ للظهر ومساند للأقدام، إيه، ياقسيس، إيه؟ هل هناك مثلها في السماء، هيه؟

ـ أريد أن أعود إلى هناك، إلى الأرض...

ـ لماذا جرى الأمر على هذا النحو؟ قل لى: لماذا؟ وأنا ربَّيتهُ من أجل شئ آخر. لماذا انتزعته؟

ولا تنتبه إلى أن ثمة شيئاً أشدّ إيلاماً من الجثّة المهجورة، من الثلج والشمس اللذين دفناها، من العينين المفتوحتين إلى الأبد، اللتين

إلتهمتهما الطيور: تكف كاتالينا عن فرك القطن على صدغىّ وتبتعد ولا أدرى إن كانت تبكى: أحاول أن أرفع يدى لأجدها: يسرى فيَّ المجهود في طعنات متقطعةٍ من الذراع حتى الصدر ومن الصدر حتى البطن: فعلى الرغمً من الجثَّة المهجورة، على الرغم من الثلج والشمس اللذين دفناها، على الرغم من العينين المفتوحتين إلى الأبد، اللتين إلتهمتهما الطيور، ثمة ما هو أسوأ: هذا القئ الذى لا سبيل إلى إيقافه، هذه الرغبة التى لا سبيل إلى إيقافها في التبرز دون أن أستطيع، دون أن أنجح في جعل الغازات تخرج من هذه البطن المنتفخة، دون قدرةٍ على وقف هذا الألم المنتشر، دون قدرةٍ على العثور على النبض في المعصم، دون قدرةٍ على الإحساس بالساقين، شاعراً بأن الدم ينبجسُ منىّ. ينسكب داخلى، نعم، داخلى، أنا أعرف ذلك وهم لا يعرفون ولا أستطيع إقناعهم، فهم لا يرونه يقطُر من شفتىّ، وبين ساقىَّ: لا يصدقونه، يقولون فقط أننى لم تعد لدىّ حرارة، آه حرارة، فقط يقولون إنهيار، إنهيار،فقط يُخمنون تورُّماً، تورُّماً لحوافٍ سائلة، هذا ما يقولونه بينما يمسكون بى، يتحسسوننى، يتحدثون عن قطع رخام، نعم، أسمعهم، قطع رخام بنفسجية في أحشائى التى لم أعد أحسٌّ بها، لم أعد أراها: على الرٌغم من الجثة المهجورة، على الرغم من الثلج والشمس اللذين دفناها، على الرغم من العينين المفتوحتين إلى الأبد، اللتين التهمتهما الطيور، ثمة ما هو أسوأ: ألاّ أستطيع أن أتذكره، ألاّ أستطيع أن أتذكره إلاّ عن طريق تلك الصور الشخصية، تلك الأشياء المتروكة في المخدع، تلك الكتب بالملاحظات على هوامشها: لكن ما هى رائحة عرقه؟،

لاشئَ يُكرِّر لون جلده: أننى لا أستطيع التفكير فيه حين لا أعود أستطيعُ رؤيته والإحساس به؛

مضى على صهوة الحصان، ذاك الصباح؛

هذا أتذكّرُه: تلقيت خطاباً بطوابع أجنبية لكن التفكير فيه

آه، حلمتُ، تخيَّلتُ، عرفتُ تلك الأسماء، تذكرتُ تلك الأناشيد، آه شكراً، لكن المعرفة، كيف يمكنني أن أعرف؟؛ لا أدرى، لا أدرى كيف كانت تلك الحرب، مع من تحدَّث قبل أن يموت، ماذا كانت أسماء الرجال والنساء الذى مضوا بصحبته إلى الموت، ما قاله، ما فكَّر فيه، ماذا كان يرتدى، ماذا أكل ذلك اليوم، لا أدرى: أخترعُ مشاهد طبيعية، أخترعُ مُدُناً، أخترعُ أسماءً وها لم أعُد أتذكرُها: ميجيل، خوسيه، فيديريكو، لويس؟ كونسويلو، دولورس، ماريّا، إسپيرانثا، مرثيدس، نورى، جوادالوپى، إستيبان، مانويل، آورورا؟ جوادارّاما، البرانس، فيجيراس، توليدو، تيرويل، إبرو، جيرنيكا، جوادالاخارا؟: الجثة المهجورة، الثلج والشمس اللذين دفناها، العينين المفتوحتين إلى الأبد، اللتين إلتهمتهما الطيور.

آى، شكراً، على أنك علّمتنى ما كان يمكن أن تكونه حياتى،

آى، شكراً، لأنك عشت ذلك اليوم بدلاً منى،

فثمة شئٌ أشدُّ إيلاماً:

إيه، إيه؟ هذا موجودٌ فعلاً، هذا يخصُّنى فعلاً. هذا هو حقاً كونُ المرأ إلهاً، إيه؟، أن يكون مرهوباً ومكروهاً أو ما شئت، هذا هو حقاً كونُ المرء إلهاً، فعلاً، إيه؟ قل لى كيف أنقذُ كلَّ هذا، أيها القسيس، وسأتركك تُكملُ كلَّ طقوسك، أضربُ صدرى، وأمشى على ركبتيَّ حتى مزار مقدس وأشرب الخلَّ وأُتوِّجُ نفسى بالأشواك. قل لى كيف أُنقذُ كلَّ هذا، لأن روح...

- ... الإبن، والروح القُدُس، آمين...

ثمة شئٌ أشدُّ إيلاماً:

- لا، في هذه الحالة، لابد أن هناك ورم طرى، نعم، لكن هناك كذلك إزاحة أو خروج جزئى لإحدى الأمعاء...

ـ أكـرِّرُ: إنهـا التـواءات مـعـوية. هذا الألم لا يسـبّبـه سـوى إلتـواء الطيَّات المعوية، ومن هنا الإنسداد...

ـ في هذه الحالة، يجب إجراء عملية..

ـ ربما تتطور الغرغرينا، دون أن نتجنبها...

ـ الإزرقاق قد صار واضحاً...

ـ السحنة...

ـ إنخفاض في الحرارة...

ـ غيبوبة...

إسكتوا...إسكتوا!

ـ إفتحوا النوافذ

لا أستطيع أن أتحرك؛ لا أعرف إلى أين أنظرُ، إلى أين أتوجَّه؛ لا أحس بالحرارة، فقط بالبرودة التى تأتى وتروح في الساقين، لكن ليس برودة وحرارة كل ما عداهما، كل ما هو محفوظ، وما لم آره أبداً...

ـ المسكينة... لقد تأثَّرَت...

... إسكتـوا...، أخـمِّن شَـبَـهـى، لا تقـولوه...أعـرف أن أظافـرى مسودَّةٌ، وجلدى مُزرقٌ... إسكتوا...

ـ إلتهاب الزائدة الدودية؟

ـ يجب أن نجرى عملية.

ـ إنها مخاطرة.

ـ أكرّر: مغص كلوى. إثنين سنتيجرام من المورفين ويهدأ.

ـ إنها مخاطرة.

ـ لا يوجد نزيف.

شكراً. كـان يمكن أن أمـوت في بيـرالس. كـان يمكن أن أمـوت مع ذلك الجندى. كـان يمكن أن أمـوت في تلك الغـرفـة العـارية، أمـام ذلك الرجل البدين. أنا نجوتُ. وأنت متَّ. شكراً.

ـ أمسكوه. المبولة.

ـ أرأيت كيف إنتهى به الأمر؟ أرأيت، أرأيت؟ تماماً مثل أخى. هكذا إنتهى.

ـ أمسكوه. المبولة.

أمسكوه. إنه يمضى. أمسكوه. يتقيأ. يتقيأ ذلك الطعم الذى كان يشمه فقط. لم يعد يستطيع الإنحناء. يتقيأ وفمه إلى أعلى. يتقيأ برازه. يسيل من شفتيه، على خديه. نفاياته. تصرخن. تصرخن. لا أسمعهن، لكن لابد من الصراخ. لا يحدث. لا يحدث. هذا لا يحدث. لابد من الصراخ كى لا يحدث هذا. يمسكوننى، يضغطوننى. إنتهى الأمر. إنه يمضى. إنه يمضى دون أى شئ، عارياً. دون أشيائه. أمسكوه. إنه يمضى.

أنت ستقرأ ذلك الخطاب، المؤرَّخ في معسكر إعتقال، المختوم بأختام بلدٍ أجنبى، الموقَّع باسم ميجيل، الذى سيضم الخطاب الآخر، المكتوب بسرعة، والموقَّع باسم لورنثو: ستتلقى ذلك الخطاب، ستقرأ: "أنا لا أخاف... أتذكرك... لن تشعر بالخجل... لن أنسى أبداً هذه الحياة، يا بابا، ففيها تعلَّمتُ كلَّ ما أعرف... سأقصه عليك حين أعود": ستقرأ وستختار مرةً أخرى: ستختار حياةً أخرى.

ستختار أن تتركه في رعاية كاتالينا، لن تحمله إلى تلك الأرض، لن تضعه على حافة إختياره الخاص: لن تدفعه إلى ذلك المصير القاتل، الذى كان يمكن أن يكون مصيرك: لن تُجبره على فعل ما لم تفعله أنت، على إنقاذ حياتك الضائعة: لن تسمح، هذه المرة، بأن تموت أنت في درب صخري وتنجو هى:

ستختاراً أن تعانق ذلك الجندى الجريح الذى يدخل الغابة الصغيرة الرائعة، أن تُمدِّده، وتنظِّف له ذراعه التى حطَّمها الرشاش بمياه ذلك الجدول الضئيل، الذى تحرقه الصحراء، أن تضمِّد جراحه، أن تبقى معه، أن تحافظ على أنفاسه بأنفاسك، أن تنتظر، تنتظر حتى يكتشفونكما، ويقبضون عليكما، ويعدومونكما بالرصاص في قريةٍ ذات إسم منسى، مثل تلك القرية الترابية، مثل تلك القرية المبنية كلها بالطوب الَنئ وأوراق الشجر: أن يعدموا الجندى ويعدموك، أن يُعدموا رجلين بلا إسم، عاريين، مدفونين في القبر الجماعى للمحكوم عليهم، دون شاهد قبر: ميتاً في سن الرابعة والعشرين، دون مزيدٍ من الدروب، دون مزيدٍ من المتاهات، دون مزيدٍ من الاختيارات: ميتاً ممسكاً بيد جندى بلا إسم أنقذته أنت: ميتاً:

ستقول للاورا: نعم

ستقول لذلك الرجل البدين في تلك الغرفة العارية، المطلية بالأزرق: لا

ستختار البقاء هناك مع برنال وتوبيّاس، أن تتبع قدرك، ألاّ تصل إلى ذلك الفناء الدامى لتُبرِّر نفسك، لتفكِّر أنك بموت ثاجال قد غسلت موت رفيقيك.

لن تزور جماليل العجوز في بويبلا

لن تمتلك ليليا حين تعود تلك الليلة، لن تفكِّر أنك لن تستطيع أبداً، بعد ذلك، إمتلاك إمرأةٍ أخرى.

ستكسر الصمت تلك الليلة، ستتحدث مع كاتالينا، سترجو منها أن تغفر لك، ستحدثها عن الذين ماتوا من أجلك، سترجوها أن تقبلك هكذا، بتلك الذنوب، سترجوها ألاّ تكرهك، أن تقبلك هكذا.

ستبقى مع لونيرو في الضعية، لن تهجر أبداً ذلك المكان

ستظل بجانب المعلِّم سباستيان ـ كيف كان، كيف كان ـ، ولن تذهب للإنضمام إلى الثورة في الشمال،

ستكون أجيراً

ستكون حدَّاداً

ستبقى بعيداً، مع الذين بقوا بعيداً

لن تكون أرتيميو كروث، لن يكون عمرك واحداً وسبعين عاماً، لن تزن تسعة وسبعين كيلو جراماً، لن يكون طولك متراً وإثنين وثمانين سنتيمتراً، لن تستخدم أسناناً صناعية، لن تدخن سجائر تبغ أسود، لن تستخدم قمصاناً حريرية إيطالية، لن تجمع أزرار القمصان، لن تعهد بأربطة عنقك إلى دار أزياء نيويوركية، لن ترتدى تلك البذلات الزرقاء ذات الأزرار الثلاثة، لن تُفضِّل الكشمير الأيرلندى، لن تشرب چين مع تونيك، لن تكون لديك سيارةڤولڤو، وسيارة كاديلاك، وسيارة كاميون رامبلر، لن تتذكر وتحب تلك اللوحة لرينوار، لن تفطر بيضاً مسلوقاً وخبزاً مُحمَّصاً بمربى ماركة **بلاكويل**، لن تقرأ كل صباح صحيفة تملُكها، لن تتصفح مجلتى **لايف وبارى ماتش** في بعض الليالى، لن تسمع تلك التعويذة إلى جوارك، تلك الجوقة، تلك الكراهية التى تودُّ إنتزاع حياتك قبل الأوان، التى تستحضر، تستحضر، تستحضر، تستحضر ما كان باستطاعتك أن تتخيله، مبتسماً، منذ قليل والآن لن تتحمَّله:

De profundis clamavi
De profundis clamavi

إنظر إلىّ، إستمع إلىّ، أضئ عينىّ، لا تجعلنى أرقد ميتاً / لأنك يوم تأكلٍ منها ستموتُ موتاً/ لا تفرح لموت أحدٍ، تذكَّر أننا جميعاً نموت/ ألقى الموت والجحيم في بركة النار وكان هذا هو الموت الثانى/ ما أخشاه، هو ما يحدث لى، وما يفزعنى، هو ما يتملّكنى/ ما أشدّ مرارة ذكراك للرجل الذى يشعر بالرضى بثرواته/ هل فُتحت لك أبواب الموت؟ / بالمرأة بدأت الخطيئة وبالمرأة نموت جميعاً/ هل رأيت أبواب المنطقة المظلمة؟/ جيّد هو حُكْمُك للمعُوز ومن نضبت قواه/ وأىٌّ ثمار نالوا حينئذ؟ إنها تلك التى يخجلون منها الآن، لأن نهايتها هى الموت/ لأن شَهيَّة الجسد هى الموت:

كلمة الرب، حياة، ونذرٌ بالموت،

de profundis clamavi, domine,
omnes eodem cogimur, omnium versatur urna
quae quasi saxum Tantalum semper impendet
quid quisque vitet, nunquam homini satis cautum est
in horas
mors tanem inclusum protrahet inde caput
nascentes morimur, finisque ab origine pendet
atque in se sua per vestigia volvitur annus
omnia te vita perfuncta sequentur

جوقة، قبر؛ أصوات، محرقة؛ ستتخيَّل، في المنطقة إنسَ وعيك، وتلك الطقوس، وتلك الإحتفالات، وتلك الأفولات: دفنٌ، حرقُ جثمانٍ، بلسم: مكشوفاً في أعلى برج، حتى لا تُحلِّلك الأرض، بل الهواء: حبيساً في القبر مع عبيدك الميتين؛ تبكيكَ نائحاتٌ مُستأجراتٌ؛ مدفوناً مع أعزّ ممتلكاتك، مع صحبتك، مع لألئك السوداء: شمعة، سَهَر،

requiem aeternam, dona eis Domine
de profundis clamavi, Domine

صوت لاورا، التى كانت تتحدث عن هذه الأشياء، جالسةً على

الأرض، وركبتاها مثنيَّتان، والكتاب الصغير المُجلَّد بين يديها... يقول أن كلَّ شيء يمكن أن يكون قاتلاً لنا، حتى ما يمنحنا الحياة... يقول أننا مادمنا لا نستطيع شفاء الموت، والبؤس، والجهل، فإننا نُحسنُ صنعاً، كي نكون سعداء، بألاّ نفكر فيها... يقول أن الموت المباغت هو وحده ما يجب الخوف منه؛ لهذا يحيا كهنة الإعتراف في بيوت الأقوياء... يقول كُن رجلاً؛ إخش الموت خارج الخطر، وليس في الخطر... يقول أن تبصُّر الموت هو تبصُّر للحرية... يقول ياله من خطوات بكماء تحملُك، آه أيها الموت البارد... يقول لن تستطيع أن تغفر لك الساعاتُ؛ الساعاتُ التى تلعقُ الأيام... يقول مُظهراً لى العقدة الضيقة مقطوعةً... يقول، أليس بابى مصنوعاً من معادن مزدوجة؟ ... يقول سأعانى ألف موت، فأنا أنتظر حياتى ذاتها... يقول إن الإنسان يريد أن يحيا بينما يُريده الربُّ أن يموت... يقول، فيم تُفيد الكنوز، والأتباع، والخدم...؟

فيم؟ فيم؟ فليغنّوا، فلينشدوا، فلينوحوا: فلن يلمسوا المنحوتات الباذخة، الترصيعات الوافرة، المصبوبات من الجص والذهب، الصناديق المُطعَّمة بالعظم والصدف، الأقفال والمزاليج، الخزائن ذات المصاريع وفتحات المفاتيح الحديدية، المقاعد الفوَّاحة من الصنوبر المكسيكى، كراسى الجوقة، الحِليات العليا والأفاريز السفلى الباروكية مساند المقاعد المنحنية، الدعامات المخروطة، الأقنعة المتعدِّدة الألوان، المسامير البرونزية، الجلود المنقوشة، أقدام الموبيليا ذات المخالب والكُرات، عباءات الكهنة ذات الخيوط الفضية، المقاعد المكسوة بالدمقس، الأرائك المخملية، موائد قاعات الطعام، الأوانى والجرار، أسطح الموائد المشطوفة الحافة، الأسرَّة ذات المظلاّت والطنافس، الأعمدة المُحَزَّزة، شعارات النبالة والحوافِ المنقوشة، الأبسطة الصوفية، المفاتيح الحديدية، اللوحات الزيتية المُتشقِّقة، أقمشة الحرير

والكشمير ، الأصواف والتافتاه، آنية الكريستال والقناديل، الأطباق المرسومة يدوياً، دعامات السقف الدافئة، هذا لن يمسُّوه: هذا سيكون ملكِك:

ستمدُّ يدك:

ذات يوم عادى، لكنه سيكون رغم ذلك يوماً إستثنائياً؛ منذ ثلاث، أو أربع سنواتٌ؛ لن تتذكر؛ ستتذكر من أجل التذكر؛ لا، ستتذكر لأن أول ما تتذكره، حين تحاول التذكُّر، هو يومٌ على حدةٍ، يومُ إحتفالٍ طقسى، يومٌ ينفصل عن سواه بفعل الأرقام الحمراء؛ وسيكون هذا هو اليوم ـ أنت نفسك ستفكر في ذلك حينها ـ الذى تختمرُ فيه كلُّ أسماء، وأشخاص، وكلمات، وأفعالِ دورة* وتجعل قشرة الأرض تطقطقَ؛ ستكونُ ليلةً ستحتفلُ فيهاَ أنتَ بالعام الجديد؛ أصابعك المصابة بالتهاب المفاصل ستمسك بالدرابزين الحديدى بصعوبة؛ وستدُسُّ اليد الأخرى في قاع جيب الچاكته وستهبطُ بتثاقل:

ستمدُّ يدك:

---

* «إحتفال كويوا كان هو طقس سيكون فيه أرتيميو نفسه ـــ محكياً بضمير المفرد الغائب ـــ هو المحتفل. ويتم الطقس في تاريخ أسطورى، في يوم من أيام التقويم المقدَّس، تحدده الأرقام الحمراء، يشيرُ إلى وداع عام وقدوم العام الجديد. نعرف أن أرتيميو قد إحتفل لأعوامٍ عديدة بنفس الاحتفال دون أن يكون له معنى خاص. ومن ثم تنتابنا الشكوك.

عمر أرتيميو ستةٌ وستون عاماً. في الرابعة عشرة ينفصل عن لونيرو، وبذلك، فإنه يُكمل أنثين وخمسين عاماً من الحياة العامة. وحين يُكمل كلُّ عام يومه الأخير، كان المكسيكيون القدماء يقيمون إحتفال النار، لكن هذا الاحتفال كانت له دلالة خاصة حين تكتمل دورة من إثنين وخمسين عاماً. وهنا يكمن السبب الذى يوضح الشحنة الدلالية الغريبة لـــ «يوم الإحتفال» هذا. إنه تاريخ تجتمع فيه الأسماء، والأشخاص، والكلمات، والأفعال لتُصوِّر الحدث الجوهرى: إكتمال الدورة. إنه اللحظة التى نجد

(٣١ : ١٩٥٥ ديسمبر)

هــو من أمسك بالدرابزين الحديدى بصعوبة. دسَّ اليد الأخرى في قاع جيب الجاكته المنزلية وهبط بتثاقُل، دون أن ينظر إلى الكوى المُخصَّصة لتماثيل العذراء المكسيكية. عذراء جوادلوبى، وثاپوپان، وريميديوس. الشمسُ الغاربة، عند دخولها من نوافذِ الزجاج الملوَّن، ذهَّبت الأثواب المحشُوَّة الدافئة، والتنورات الواسعة الشبيهة بأغشيةٍ فضيِّة؛ وصبغت بالحُمرة خشب العوارض المحروق: وأضاءت نصفَ وجه الرجل. كان مرتدياً البنطلون، والقميص ورباط العنق السموكنج: مكسوَّاً بالروب المنزلى الأحمر، بدا مشعوذاً عجوزاً ومُتعباً: تخيَّل التكرارَ، المتوقَّع تلك الليلة، للأفعال التى أمكنها ذات مرةٍ أن تتبدّى

فيها أن كل الظروف التى تكوِّنها «تختمر وتجعل قشرة الأرض تطقطق»، تاريخ مُثقل بقوى فائقة للطبيعة، حتمية، لا يمكن تجنُّبها، تُجسِّدُ في مواضع بعينها: منزل كويوا كان، ذكرى الإبن الميت، الإنفصال عن كاتالينا، ليليا، الإنطلاق الإنحلالى والباذخ للثروة. والهتيكة: خايمى ثيبايوس، إلخ..

ولهب المدفأة، والألعاب النارية لابد أنها تُذكِّرُ بانقضاء الزمن القديم الذى يمثّله أرتيميو. لهذا فإن الراوى يؤكد على تعثّره، والتهاب مفاصله، وتضاؤل كبريائه. ولابد أن الزمن الجديد سيقوم على أنقاضه».

نقلا عن مقال الناقد Réné Jara C.

بعنوان El mito y la nueva novela hispanoamericana.

A propósito de "La muerte de Artemio Cruz"

مُشبَّعةً بمسرَّة فريدة؛ أما اليوم، فسوف يتعرَّفُ بضيق على نفس الوجوه، ونفس العبارات التى أضفت رنينها عاماً بعد عام علَى إحتفال سان سيلبسترى في مقر الإقامة الضخم في كويواكان.

رنت الخطوات جوفاء فوق الأرضية الحجرية. والقدمان، المضغوطتان بخفة داخل الخُفِّ القماشى الأسود، تجرجرتا بذلك الثِقل المرتجفِ الذى لم يعد يستطيع السيطرة عليه، طويلاً، ومتأرجحاً علَى عقبيه غير الثابتين، وصدره عريض ويدان متدليتان، عصبيَّتان، تتخللهما هما أيضاً عروقٌ نافرة، قطع ببطء الممرات المطلية بالأبيض، وهو يطأ الأبسطة الصوفية السميكة، وينظر إلى نفسه في المرايا العتيقة وفي قطع الكريستال المتفرِّقة للأثاثات الكولونيالية، مُمسِّداً بأصابعه الأقفال والمزاليج، والخزائن ذات المصاريع وفتحات المفاتيح الحديدية، والمقاعد الفوَّاحة من الصنوبر المكسيكي، والترصيعات الوافرة. فتح له أحدُ الخدم باب الصالون الكبير؛ توقَّف العجوز لآخر مرة أمام مرآة وسوى ربطة عنقه الناعمة. سوّى، براحة يده، الشعرات الرمادية القليلة، المتماوجة، التى تحيط بجبهته المرتفعة. ضغط فكَّه لتستقر أسنانه الصناعية فى موضعها ودخل الصالون ذا الأرضية الملَّمعة، ذلك الإتساع الفسيح من ألواح الأرز اللامعة التى أُزيحت عنها الأبسطة لإتاحة الرقص، المفتوح على العشب الناعم وشرفات القرميد، المزيَّن بلوحات العصر الاستعمارى: سان سباستيان، سانتا لوثيّا، سان خيرونيمو، سان ميجيل.

في آخر الصالون، كان بانتظاره المصوِّرون، مجتمعين حول مقعد الدمقس الأخضر، تحت النجفة ذات الخمسين ضوءاً والمعلَّقة من السقف. دقَّت الساعة السادسة في الساعة الموضوعة فوق المدفأة المفتوحة بجوار المقاعد الجلدية المتناثرة حول النار المشتعلة خلال تلك الأيام الباردة. حيّاهم برأسه وجلس على المقعد، مُسوِّياً الصديرى

المنشىَّ وأساور القميص القطنية. إقترب خادمٌ آخر بكلبى الحراسة الرماديين، بخطميهما الورديين وعيونهما الحزينة ووضع الطوقين الخشنين بين يدى السيد. لمع طوقا الكلبين، المزينان بالبرونز، بأضواءٍ متباينة. رفع رأسه وضغط على أسنانه من جديد. أضاءت الومضاتُ الرأسَ الرمادية بدرجات ضوء جيرية. وكلما طلبوا منه أوضاعاً جديدة، كان يُصرُّ على تسوية شَعره والمرور بأصابعه على الكيسين الثقيلين اللذين يتدليان من منخاريه وينتهيان عند عنقه. وحدهما الوجنتان العاليتان كانتا تحتفظان بصلابتهما المعهودة، رغم الشبكات الدقيقة من التجاعيد التى تتخللهما بدءاً من الجفنين وتزداد عمقاً كل يوم، كأنها تريد حماية تلك النظرة التى تبدو مرحةً ومرةً فى آن واحد، وتلكما الحدقتين الخضراوين المختفيتين بين طيات اللحم المتهدل.

نبح أحد الكلبين وأراد الإنفلات من قيده. إنطلق وميضٌ في نفس اللحظة التى إنجذب هو فيها بعنف من مقعده، وعلى وجهه تعبيرٌ عن الحيرة المتصلبة، بفعل قوة جذب الكلب. نظر بقية المصورين بقسوة لمن التقط الصورة. نزع المسئولُ المربعَ الأسودَ من الكاميرا وسلّمها، في صمتٍ، إلى مُصوِّر آخر.

حين خرج المصوِّرون، مدّ هو يده المرتعشة وتناول سيجارة بفلتر من الصندوق الفضى الموضوع فوق المنضدة الريفية الطراز. أشعل لهب الولاّعة بصعوبة وتفقّد ببطء، هازاً رأسه بإيماءه موافقة، لوحات سِيَر القديسين العتيقة، المدهونةً بالورنيش، تُبقِّعُها مساحات كبيرةٌ ميتة من الضوء المباشر تخفى التفاصيل المركزية للأعمال لكنها، بالمقابل، تضفى بروزاً داكناً على الأركان ذات الدرجات الصفراء والظلال المائلة إلى الحمرة. ربّت على الدمقس واستنشق الدخان عبر الفلتر. إقترب الخادم دون أن يُصدر صوتاً وسأله إن كان يقدِّم له شيئاً. أومأ موافقاً وطلب مارتينى مركزٍ جداً. فتح الخادم ضلفتين من

خشب الأرز المشغول ليظهر التجويفُ المبطَّنُ بالمرايا، واجهةُ بطاقات الماركات الملونة والسوائل الموضوعة في زجاجات: أوپال أخضر زمردى، أحمر، أبيض بللورى: شارتروز، پيپرمينت، أكوافيت، ڤيرموت، كورڤوازييه، لونج چون، كالڤادوس، آرمانياك، بيهيروفكا، پيرنوه وصفوف الكؤووس الكريستال، ثقيلة وقصيرة، رشيقة ومُخشخشة. تلقى مشروبه. أشار للخادم أن يمضى إلى القبو ليختار الماركات الثلاث لمشروبات العشاء. مدَّ ساقيه وفكر في التدقيق الذى كان قد راعاه عند بناء وتوفير وجوه الراحة لهذا المنزل، منزله الحقيقى. كان يمكن لكاتالينا أن تعيش في الدار الضخمة في حىّ لاس لوماس، العديمة الشخصية، المماثلة لكل مقار إقامة أصحاب الملايين. أما هو فكان يفضل أن يجد هذه الجدران العتيقة، التى تحمل قرنين من الأحجار والصخر البركانى، والتى تُقرِّبه بطريقةٍ غامضة من فصول الماضى، من صورةٍ للأرض لم يكن يريد أن يفقدها تماماً. نعم، كان واعياً بأن ذلك كله كان ينطوى على إستبدال، على فعل سحرى. ورغم ذلك كانت الأخشاب، والأحجار، والقضبان الحديدية، والمنحوتات، والموائد الضخمة، وأشغال النجارة، وعتبات النوافذ والفُرجات بين الأعمدة، وخراطة الكراسى تتآمر لتُعيد إليه حقا، بعطر حنينٍ خفيف، مناظر، وأجواء، ومشاعر محسوسةٍ من شبابه.

كانت ليليا تتذمَّر؛ لكن ليليا لن تفهم أبداً. ماذا يمكن أن يوحى لهذه الفتاة سقفٌ ذو عوارض عتيقة؟ وماذا، نافذةٌ ذات قضبان بها مساحاتٌ داكنة من الصدأ؟ وماذا، الملمسُ الباذخ للعباءة فوق المدخنة، بقشور ذهبية، وموشاة بخيوط الفضة؟ وماذا، رائحة الصنوبر المكسيكىِّ للخزانات؟ وماذا، البريق المغسول للمطبخ ذى القيشانى الريفى؟ وماذا، الكراسى الأسقفية لحجرة الطعام؟ ثرياً، حسِّياً، باذخاً كان إمتلاك هذه الأشياء مثل إمتلاك النقود وعلامات الوفرة الأكثر

بداهةً. آه، نعم، ياله من ذوق مكتمل، يالحسِّية الأشياء غير الحية، ياللذَّة، ياللمتعة الموضوعة على حِدة... ومرةً واحدةً في العام يتقاسم هذا كله المدعوون إلى حفل إستقبال سان سيلبستري الشهير... إنه يوم مُتَع مضاعفة: لأن المدعوين عليهم أن يقبلوا هذا المنزل بإعتباره منزله الحقيقى ويفكروا في كاتالينا المستوحدة التى، مجتمعةً معهما، مع تيريسا وخيراردو، تتناول العشاء في تلك الساعات في مقر لاس لوماس... بينما يقدِّم هو للمدعوين ليليا ويفتح أبواب قاعة طعام زرقاء، أواني طعام زرقاء، ومفارش زرقاء، وحيطان زرقاء... حيث تسيل الخمور وتجِئ الأطباق الضخمة ممتلئةً باللحوم النادرة، والأسماك الوردية والاستاكوزا الفوَّاحة، والأعشاب السرِّية، وأنواع الحلوى المكوَّمة...

هل كان من الضرورى مقاطعة إسترخائه؟ الترنحُّ اللامبالى لليليا فوق الأرضية. أظافرها دون ألوان فوق باب الصالون. وجهها ملطخٌ بالدهن. تريد أن تعرف إن كان الفسًتان الوردى يناسبها لحفل الليلة. لا تريد أن تبدو نشازاً مثل العام الماضى، وتثير ذلك الضيق المزدرى. آه، لقد بدأ يشرب! لماذا لا يدعوها إلى كأس؟ يرهقها إنعدام الثقة هذا، هذا البار المغلق بالقفل، هذا الخادم الوقح الذى ينكر عليها الحق في الدخول إلى القبو. هل يصيبها السأم؟ كأنه لم يكن يعرف. تودّ لو تكون عجوزاً، قبيحة، حتى يطردها مرة وإلى الأبد ويتركها تحيا كما يروق لها. لا أحد يوقفها؟ وماذا عن النقود، والرفاهية، والدار الكبيرة؟ نقود كثيرة، ورفاهية كثيرة، لكن دون بهجة، دون تسليات، دون الحق حتى في شرُب كأس. طبعاً، تحبه جداً. قالت ذلك ألف مرة. النساء تتعوَّدن على كل شيء؛ الأمر يتوقف على المحبة التى تتلنها. يمكنهن أن يتعودن على حب شاب مثلماً على حب أبوى.

طبعاً تكنُّ لَه إعزازاً أكيد... إنقضَت ثمانى سنوات تقريباً وهما

يعيشان معاً ولم يتشاجر معها، لم يُوَبِّخها... لم يفعل سوى أن أجبرها... لكن كم يسعدها أن تتسلىّ قليلاً!... ماذا؟ هل تخيلها بهذه الحماقة؟... خلاص، خلاص، إنه لم يعرف أبداً كيف يحتمل دعابةً. طبعاً، لكنه ينتبه للأمور... لا أحد يبقى للأبد... تجاعيد كقدم الديك حول العينين... الجسدان... إلاّ أنه هو أيضاً معتادٌ عليها، أليس كذلك؟ في سنه سيكون شاقاً عليه أن يبدأ من جديد. بكل هذه الملايين... يتكلّفُ المرءُ عناءً ووقتاً طويلاً في البحث عن إمرأة... الملعونات... يعرفن ألاعيب كثيرة، ويروق لهن التملُّص... إطالة اللحظات الأولية... الرفض، الشك، الإنتظار، الإغواء، آى، كلُّ هذا!... ويجعلن العجائز حمقى... طبعاً هى مريحةٌ أكثر... وهى لا تشكو، لا، طبعاً لا. بل ويُرضى خيلاءها أن يأتوا لتحيتها كلَّ عام جديد... وهى تحبه، نعم، إنه يُقسم على ذلك، لقد أصبحت مفرطةً في إعتيادها له... لكن كم يصيبها السأم!... لنرى، ما العيب في أن تكون لها بضع صديقات حميمات، في أن تخرج لتتسلى بين الحين والحين، في... في أن تتناول كأساً في مكان ما كل أسبوع...؟

ظلَّ ساكناً. لم يكنُ يُسلِّم لها بهذا الحق في مضايقته ورغم ذلك... فإن تهاوناً فاتراً ومتراخياً... غريباً تماماً على طبعه... أجبره على البقاء هناك... والمارتينى بين أصابعه المتصلِّبة... يستمع إلى سخافات هذه المرأة التى تزداد سوقيةً كل يوم و... و... لا، إنها مازالت مقبولة... رغم أنها لا تُحتمل... كيف كان يمكنه أن يسيطر عليها؟... كل ما كان يسيطر عليه كان يطيعه، الآن، بمجرد إمتدادٍ معين مُفترض، خامل... لقوة سنوات شبابه... يمكن لليليا أن تهجره... عصر ذلك قلبه... لا يقوى على تجنُّب ذلك... ذلك الخوف... ربما لن تكون ثمة فرصةٌ أخرى... أن يبقى وحيداً... حرَّك بصعوبةٍ أصابعه، رُسغه، مرفقه وسقطت الطفاية على السجادة وبعثرت الأعقاب المبتلّة

والصفراء في قوس، تراب ، غلاف أبيض، وقشرة رمادية، وقلب أسود.
إنحنى، متنفساً بصعوبة.

ـ لا تنحن. حالاً سأنادى على سيرافين

ـ نعم

ربما... سأم. لكن قرف، نفور... دائماً، يتخيَّلُ بفعل الشك... جعلته رقةٌ لا إرادية يدير وجهه لينظر إليها...

راقبها، عند إطار الباب... حانقة، عذبة... الشعر مصبوغ بلون كستنائى وذلك الجلد الأسمر... هى أيضاً لم يكن باستطاعتها الرجوع... فلن تستعيده أبداً وهذا يجعلهما متعادلين... مهما فصل بينهما السن أو الطبع... مشاجرات، لماذا؟... شعر بالإرهاق. لا أكثر... الإرادة والقدر قرَّرا... لا أكثر... لا أشياء أكثر، لا ذكريات، ولا أسماء أكثر من تلك المعروفة... عاود التربيت على الدمقس... الأعقاب، والرماد المتناثر لم تكن رائحتها طيبة. وليليا، واقفةٌ هناك ووجهها ملطخ بالدهن.

هى عند المدخل. وهو جالس في مقعد الدمقس.

عندئذ تنَّهدت هى ومضت مترنحةً إلى المخدع

وانتظر هو جالساً، دون أن يفكر في أى شئ، حتى فاجأته الظلمة حين رأى نفسه منعكساً بدقةٍ بالغة في الأبواب الزجاجية المؤدية إلى الحديقة. دخل الخادم ومعه الچاكت، ومنديل، وزجاجة ماء كولونيا، واقفا، سمح العجوزُ بإلباسه الچاكت ثم فرد المنديل لينثر عليه الخادم بضع قطرات من اللوسيون. حين وضع المنديل في جيب الصدر، تبادل نظرةً مع الخادم. خفض الخادم عينيه. لا. لماذا سيفكر فيما يمكن أن يشعر به هذا الرجل؟

ـ سيرافين، الأعقاب بسرعة...

نهض مستنداً بكلتا يديه على ذراعى المقعد. سار بضع خطوات

نحو المدفأة وربَّت على حديد توليدو المشغول وأحسّ بلفح النار على وجهه ويديه. تقدَّم عندما سمع همهمات الأصوات الأولى ـ المسرورة، المعجَبة ـ في ردهة المنزل. إنتهى سيرافين من إلتقاط الأعقاب.

أمر بتقليب النار ودخل آل ريجولس بينما الخادم يُحرّك ملاقط الحديد ويتصاعد لهب ضخم في المدخنة. من الباب المؤدى إلى قاعة الطعام تقدَّم خادم آخر بين يديه صينية. أخذ روبرتو ريجولس كأساً بينما كان الزوجان الشابان ـ بتينا وزوجها، ثيبايّوس الشاب ـ مشتبكى الأيدى، يذرعان الصالون ويمتدحان اللوحات العتيقة، ومصبوبات الجص والذهب، والترصيعات الوافرة، والحليات العليا والأفاريز السفلى الباروكية، والدعامات المخروطة، والأقنعة المتعدِّدة الألوان. كان يدير ظهره إلى الباب حين إرتطم الكأس بالأرضية بإيقاع جرس مكسور وصاح صوتُ ليليا بشئ في لهجة سخرية. رأى العجوزُ والمدعوون وجه تلك المرأة دون مساحيق وهى تظهر مستندةً على مقبض الباب: ـ ترللاّ، ترللاّ! عام جديد سعيد!... لا تقلق، أيها العجوز، فسوف أفيق خلال ساعة واحدة... وأهبطُ كأن شيئاً لم يكن... أردت فقط أن أقول لك أننى قرَّرت قضاء عامٍ هادئ جداً... هادئ تمام الهدوء!...

أَتجه نحوها بخطوه المرتعش الصعب وصاحت هى: ـ لقد مللتُ من مشاهدة برامج التليفزيون طوال النهار... أيها العجوز!

مع كل خطوة من خطوات العجوز، كان صوت ليليا يسرسع أكثر.

ـ صرتُ أعرف كلَّ حكايات رعاة البقر... بومبوم... مارشال أريزونا... معسكر الهنود الحمر... بومبوم... صرتُ أحلم بتلك الأصوات... أيها العجوز... إشرب بيبسى... لا أكثر... أيها العجوز... أمنٌ مع راحة؛ بوليصات تأمين...

صفعت اليد المصابة بالتهاب المفاصل الوجه المجرَّد من المساحيق

وسقطت الخصلات المصبوغة على عينى ليليا. كفَّت عن التنفس. أدارت ظهرها ومضت، ببطءٍ، وهى تلمس خدَّها. عاد هو إلى جماعة آل ريجولس وخايمى ثيبايّوس. حدَّق بصره فيهم، في كل واحدٍ منهم، خلال عدة ثوان، ورأسه مرتفع. رشف ريجولس الويسكى؛ وخبأ نظرته خلف الكأس. إبتّسمت بتينا واقتربت من المضيف بسيجارةٍ بين يديها، كأنها تطلب لهباً.

- أين وجدت هذه الخزانة؟

إبتعد العجوز وأشعل الخادم سيرافين عود ثقاب قرب وجه الفتاة وكان عليها أن تبعد وجهها عن قامة العجوز وتدير له ظهرها. في عمق الردهة، خلف ليليا، دخل الموسيقيون متلفّعين بكوفياتهم، تصطك أسنانهم من البرد. طرقع خايمى ثيبايّوس بأصابعه ودار حول عقبيه مثل راقص فلامنكو.

فوق المائدة ذات أرجل الدولفين، تحت النجفات البرونزية، طيور حجَل في صلصلة شحم خنزير ونبيذ حامض، وأسمال قُدّ ملفوفة بأوراقٍ خردل من تارّاجونا، وبطّات برية مكسوَّة بقشور برتقال، وأسماك شبُّوط تحيطها بطارخ محار، وحساء سمك قطالونى كثيف برائحة الزيتون، وديك بالنبيذ مطهو على اللهب يسبح في نبيذ ماكون، وحمام محشو بمسحوق الخرشوف، وأطباق سمكٍ ضخمة فوق كتل الثلج،وأسياخ إستاكوزا وردية في حلقات من الليمون، وفطر مع شرائح طماطم، وچامبو من بايونا، وحساء لحم بقر مطهو بنبيذ أرمانياك، ورقاب إوز محشوة بمسحوق لحم الخنزير، وعجينة قسطل مع قشور تفاح مقليةً في الجوز، وصلصات بصل وبرتقال، وثوم وفستق، ولوز وقواقع: في عينى العجوز، حين فُتح الباب المشغول بنقوش قرون الوفرة والملائكة ذات الأفخاذ، المطلية بألوان متعددة في دير كيريتارو، لمعت تلك النقطةُ العصيّةُ البلوغ: فتح الأبواب على مصراعيها وابتسم

إبتسامةً جافةً، خشنة، كلما قدَّم أحد الخدم طبقاً من أطباق درسدن إلى أحد المدعوين المائة، مصحوباً بطقطقة أدوات المائدة على الأطباق الزرقاء؛ إمتدت كؤوس الكريستال نحو الزجاجات التى يقدَّمها الخدم وأمر هو بإزاحة الستائر التى تحجب الواجهة الزجاجية المفتوحة على الحديقة التى تظلِّلها أشجار الكرز، والبرقوق العارية، الهشَّة، والتماثيل النظيفة من أحجار الأديرة: أسود، وملائكة، ورهبان مهاجرون من قصور وأديرة عصر نائب الملك؛ إنطلقت صواريخ الألعاب النارية، القلاع الضخمة من الأضواء الواهنة المنطلقة صوب مركز قبة السماء الشتوية، الصافية والبعيدة: إشارة بيضاء ومُطقطقة يقطعها التحليق الأحمر لمروحةٍ تتخللها الألوان الصفراء: نافورة لندوب الليل المفتوحة، ملوك محتفلون تبرق أوسمتهم الذهبية فوق قماش الليل الأسود، عرباتٌ من الضوء تسير صوب نجوم الليل المتلفِّعة بالحداد. خلف شفتيه المُطبقتين، ضحك تلك الضحكة المُغمغمة. تم إستبدال الأطباق الضخمة الفارغة بمزيد من الطيور، بمزيد من المحار، بمزيد من اللحم الدامى. دارت الأذرع العارية حول العجوز الجالس بتثاقل في كوةٍ من مقاعد الجوقة العتيقة، المطعَّمة، المنقوشة ببذخ، بحلياتٍ عليا وأفاريز سفلى مغناجة. استنشق، ونظر إلى عطور النساء، إلى استدارات النحور، إلى السرّ المحلوق في الآباط، إلى شحمات الآذان المحمّلة بالجواهر، إلى الأعناق البيضاء والخصور الضامرة التى ينطلق منها تحليق التافتاه، والحرير، وشباك الذهب؛ إستنشق تلك الرائحة لماء اللافاندر والسجائر المشتعلة، لطلاء الشفاه وظلال الجفون، للأحذية النسائية والكونياك المسكوب، لثقل الهضم وطلاء الأظافر. رفع كأسه ونهض هو نفسه على قدميه؛ وضع الخادم بين يديه أطواق الكلبين اللذين سيرافقانه خلال ساعات الليل المتبقِّية؛ إنطلقت صيحات العام الجديد: إرتطمت الكؤوس بالأرضية وربَّتت الأذرع،

وضغطت، وارتفعت للإحتفال بعيد الزمن هذا، بهذه الجنازة، بمحرقة الذاكرة هذه، بهذا الإنبعاث المختمر لكلّ الأفعال، بينما تعزف الأوركسترا لحن Las golondrinas ، لكل الأفعال، والكلمات، والأشياء الميِّتة لتلك الدورة، للاحتفال بتأجيل هذه الحيوات المائة التى علَّقت أسئلتها، رجالاً ونساءً، لتقول لنفسها، بنظرةٍ ندية أحياناً، أنه ما من زمن سوى هذا، الذى يُعاش وتجرى إطالته خلالً هذه اللحظات التى يمدَّها إصطناعياً إنفجار الصواريخ والأجراس المدوِّية: ربّتت ليليا عنقه كأنها تطلب منه الصفح: كان هو يعرف، ربما، أن أشياء كثيرة، رغباتٍ ضئيلةٍ كثيرة يجب كبتها حتى يمكن، في لحظة إمتلاءٍ واحدة، الاستمتاعُ تماماً، دون جهدٍ مسبق، ولابد أنها ممتنة له لذلك: قال لها ذلك بغمغمة. وحين عاودت الكمنجات، في الصالة، عزف لحن **بؤساء باريس**، تناولت هى، بدلال معروف، ذراعه لكنه رفض بإيماءة من رأسه البيضاء وسار يسبقه الكلبان إلى المقعد الذى سيشغله بقيةِ الليل، في مواجهة أزواج الراقصين... سيتسلى برؤية الوجوه، المتكلَّفة، العذبة، الماجنة، الشريرة، الغبيَّة، الذكيَّة، مفكراً في الحظ، في الحظ الذى ناله الجميع، هم وهو... وجوهٌ، أجسادٌ، رقصاتُ كائناتٍ حرَّةٍ، مثله... كانت تبعث فيه الثقة، تبعث فيه الأمان وهو ينتقل بخفة فوق الأرضية المدهونة بالشمع، تحت شبكة العنكبوت المضيئة... وهو يحرِّرُ ذكرياته، بجعلها قاتمةً... كانت تجبره، بطريقة شاذة، على الإستمتاع أكثر بهذه الهويَّة... بهذه الحرية والسلطة... لم يكن وحيداً... فهؤلاء الراقصون يرافقونه... هذا ما قالته له حرارة بطنة، رضا أحشائه... الرفقة السوداء، الكرنفالية، للشيخوخة ذات السلطة، للحضور المشوب بالشيب، بالتهاب المفاصل، الثقيل... صدى الابتسامة المتصلة، الخشنة، المنعكسة في حركة العينين الخضراوين... سلالات نبيلة حديثة العهد، مثله... وأحيانا أحدث عهداً... كانت تدور، تدور...

يعرفهم... صناعيون... تجار... ذئاب... أطفال مؤدَّبون... مرابون... وزراء... نوّاب... صحفيون... زوجات... خطيبات... قوّادات... عشاق... دارت الكلمات المبتورة لمن كانوا يمرُّون راقصين أمامه...

ـ نعم... ـ سنذهب بعد ذلك... ـ لكن أبى... ـ ... أحبك... ـ ... حر...؟ ـ هذا ما حكوه لى ... ـ ... أمامنا وقتٌ كافٍ... ـ إذن... ـ ... هكذا... ـ ... يسرنى هذا... ـ أين؟ ـ ... قل لى... ـ ... لن أعود أبداً... ـ ... هل أعجبك؟... ـ ... صعب... ـ ضاع ذلك... ـ حلوة... ـ ... شهى المذاق... ـ ... إنهار... ـ ... عن جدارة... ـ ... هممم...

هممم! كان بمقدروه أن يخمِّن من عيونهم، من حركات شفاههم، وأكتافهم... كان بمقدوره أن يقول لهم في صمت ما يفكرُ فيه... كان بمقدوره أن يقول لهم من هم... كان بمقدوره أن يذكّرهم بأسمائهم الحقيقية... بالافلاسات المزيَّفة... بتخفيضات العُملة المكشوفة مسبقاً... بالمضاربات على الأسعار... بالرهونات المصرفية... بالإقطاعات الجديدة... بالتحقيقات الصحفية بسعرٍ محدَّد لكل سطر... بعقود الأشغال العامة المتضخِّمة القيمةً... بالجولات الإنتخابية لحساب الكبار... بتبديد ثروات الآباء... باستغلال النفوذ في وزارات الدولة... بالأسماء الزائفة: أرتورو كاپدبيلا. خوان فيليبى كووتو، سباستيان إيبارجوين، بيثتى كاستانييدا، پدرو كاسو، خينارو أرّياجا، خايمى ثيبايّوس، پيپيتو إيبارجوين، روبرتو ريجولس... وعزفت الكمنجات وتطايرت الجونلات وذيول الفراك... لن يتحدثوا عن هذا كله... سيتحدثون عن رحلات وغراميات، عن منازل وسيارات، عن إجازات وإحتفالات عن مجوهرات وخدم، عن أمراض وقساوسة... لكنهم موجودون هناك، هناك، في البلاط... أمام أوفرهم سُلطةً... يدمرهم أو يتملقهم بخبر في الصحيفة... يفرض عليهم حضور ليليا... يحفزهم، بصوتٍ خفى، على الرقص، على الأكل، والشراب...

يحس بهم حين يقتربون...

ـ كان عليّ أن أحضره، لمجرد أن يرى هذه اللوحة لرئيس الملائكة، هذه، رائعة...

ـ قلت هذا دائماً: وحده ذوق دون أرتيميو...

ـ كيف يمكن أن نعبِّر عن شكرنا لك؟

ـ كان كلَّ شئ رائعاً حتى أننى ظللت مبهورةً، مبهورة، مبهورة، يا دون أرتيميو؛ يالها مِن أنبذة! وتلك البطَّات بتلك الأشياء الرائعة!

... أن يُشيح بوجهه ويتجاهل... كانت تكفيه الشائعات... لم يُردْ أن يثبِّت إنتباهه في شئ... كانت الحواس تتمتع بمجرد همهمات ما يحيطه... ملامس، روائح، طعوم، صور... فليسمُّوه، بين الضحكات والوشوشات، مومياء كويواكان... فليسخروا من ليليا بابتسامات سرِّية... فهاهم هناك، يرقصون تحت بصره...

رفع ذراعاً: إشارة إلى قائد الأوركسترا: توقفت الموسيقى في منتصف المعزوفة وكفّ الجميع عن الرقص: اللحن الشرقى الخليط ينبعث من الأوتار، الممر المفتوح وسط الناس، المرأه شبه العارية التى تقدَّمت من الباب، مؤرجحةً ذراعيها ومؤخرتها حتى إحتلت مركز الصالون: صرخة مرحة: الراقصة المنحنية أمام إيقاع الطبول الذى يسيطر على خصرها: جسدٌ ملطخٌ بالزيت، شفاه برتقالية، جفون بيضاء وحواجب زرقاء: على قدميها، راقصةً حول الدائرة، محركةً بطنها في إرتجافات تتزايد سرعةً: إختارت إيبارجوين العجوز وجرّته من ذراعه إلى مركز حلقة الرقص، أجلسته على الأرض، ووضعت ذراعيه في وضع الإله فيشنو، تراقصت حوله وحاول هو تقليد تماوجاتها: إبتسم الجميع: إقتربت من كابديبيلا، أجبرته على نزع الجاكت، وعلى الرقص حول إيبارجوين: ضحك المُضيف، غاطساً في كرسيه الدمقسى، مُربِّتاً على أطواق الكلبين؛ إمتطت الراقصة ظهر

كووتو وشجعت عدَّة نساءٍ على تقليدها: ضحكوا جميعاً: دمَّرت الإمتطاءات، بين القهقهات، تسريحات الشعر ولطخت بالعرق وجوه الأمازونات المنتفخة: تكرمشت الجونلات، وقد رُفعت إلى ما فوق الركبة: فرد بعض الشبان، بين ضحكاتٍ حادة، سيقانهم لكعبلة خيول السباق المرتجفة الذين كانوا يتقاتلون بين العجوزين الراقصين والمرأة ذات الفخذين المفتوحين.

رفع بصره، كأنه يطفو من غطس بفعل ثِقل حجرى: فوق الرؤوس المشعثة والأذرع المتماوجة، والسماء الصافية ذاتَ العوارض والحيطان البيضاء، واللوحات الزيتية للقرن السابع عشر والثياب السميكة الملائكية... وفي السمع المنتبه، العملُ الخفى للجرذان الهائلة - ظهورٌ سوداء، وأسنانٌ حادة - التى تسكن سقوف ومِلاط هذا الدير القديم التابع للقديس خيرونيمو، والتى تنزلق أحياناً دون حياء من أركان الصالة وفي الظلام، بالآلاف، وفوق وتحت المحتفلين المرحين، كانت تنتظر... ربما... فرصة مباغتتهم جميعاً... لتعديهم بالحمى والصداع... بالدوار والرجفة الباردة... بالانتفاخ الصلب والمؤلم بين الساقين والإبطين... إذا رفع ذراعه من جديد... حتى يغلق الخدمُ المداخل بعوارض حديدية... مخارج هذا المنزل ذى الأوانى والجرار... واللوحات الزيتية المتشقِّقة... والأسِرَّة ذات المظلات والطنافس... والمفاتيح الحديدية... والمصاريع والكراسى... والأبواب المصنوعة من معادن مزدوجة... وتماثيل الرهبان والأسود... ووجدت جماعة الكومبارس نفسها مضطرةً للبقاء هنا... وعدم مغادرة السفينة... لفرك أجسادها بالخل... وإشعال حرائق بالخشب العطرى... وتعليق مسابح من الصعتر حول أعناقهم... وهش الذبابات الخضراء والطنَّانة بتراخ... بينما يأمرهم هو بالرقص، بالحياة، بالشراب... بحث عن ليليا فًي بحر الناس المتصايحين: كانت تشرب وحيدةً وصامتة في

ناصية، وعلى شفتيها إبتسامةٌ بريئة، مديرةً ظهرها للرقصات والمعارك المُفتعلة... كان بعض الرجال يخرجون للتبوُّل... وأيديهم فوق سراويلهم... وبعض النساء يخرجن لوضع البودرة... وهن يفتحن حقيبة أدوات الزينة... إبتسم بقسوة... الشئ الوحيد الذى يثير إنطلاق البهجة والسخاء: كَركَر في صمت... تخيلهم... جميعاً، وكل واحد فيهم، واقفين صفاً أمام مرحاضى الدور الأرضى... كلهن يتبولون ومثانتهم ممتلئة بسوائل رائعة... كلهم يتبرزون بقايا الطعام المُعدِّ خلال يومين بتدقيق، وذوق، وأنتقاء... غريبين في كل شئ عن هذا المصير النهائى للبط والقواقع، للمعاجين والصلصات... آه نَعم، أكبر مُتع الليلة كلها.

تعبوا سريعاً. إنتهت الراقصة من الرقص وبقيت تحيطها اللامبالاه. عاود القوم الحديث، وطلب المزيد من الشمپانيا، والجلوس على الأرائك العميقة؛ وعاد البعض من جولتهم، يُزرِّرون البنطلون، وتحفظن علبة البودرة في حقيبة أدوات الزينة. إستُنفدت. العربدةُ القصيرة المتوقِّعة... التسامى الدقيق المبرمج... عادت الأصوات إلى نغمتها الهادئة المتماوجة... إلى تكتُّم الهضبة المكسيكية... وعادت تلك الهموم... كأنها تريد الإنتقام من اللحظة الماضية، من اللحظة العابرة...

- ... لا، لأن الكورتيزون يسبِّب لى الفُواق...
- ... لا تعرفين التدريبات الروحية التى يُعلِّمها الأب مارتينث...
- إنظرى إليها: من يمكن أن يقول ذلك؛ يقال أنهما...
- ... إضطررت لطردها...
- ... لويس يصل متعباً لدرجة أنه لا يريد سوى...
- ... لا، خايمى، لا يحب...
- ... أصبحت منطلقة جداً...

ـ ... لمشاهدة التليفزيون لبعض الوقت...

ـ ... خادمات اليوم لم يعد يمكن إحتمالهن...

ـ ... عاشقان منذ نحو عشرين عاماً...

ـ ... كيف سيمنحون حق الانتخاب لهذه الحفنة من الهنود؟

ـ ... والمرأة وحيدة في بيتها؛ أبداً...

ـ ... إنها مسائل سياسة عليا؛ نحن نتلقى...

ـ ... ليظل الحزب الثورى الدستورى يختار برفع الأصابع وبس...

ـ ... تعليمات السيد الرئيس في البرلمان...

ـ ... أنا أتجاسر حقاً...

ـ ... لاورا؛ أعتقدت إن إسمها لاورا...

ـ ... نحن نعمل بضعة أفراد...

ـ ... إذا عادوا لذكر الـ income tax ...

ـ ... من أجل ثلاثين مليوناً من الكسالى...

ـ ... أنا بصراحة سأحمل مدخراتى إلى سويسرا...

ـ ... الشيوعون لا يفهمون سوى...

ـ ... لا خايمى، لا يجب أن يضايقه أحد...

ـ ... ستكون صفقة رائعة...

ـ ... بالهراوات...

ـ ... تُستثمر فيها مائة مليون...

ـ ... إنها لوحة رائعة لدالى...

ـ ... ونستعيدها خلال عامين...

ـ ... أرسلها إلىَّ وسطاءُ قاعة عرضى...

ـ ... أو أقل...

ـ ... في نيويورك...

ـ ... عاشت سنوات طويلة في فرنسا؛ تغريرات...، يقال...

- ... سنجتمع نحن السيدات فقط...
- ... باريس هى مدينة النور بمجرد إسمها...
- ... حتى نتسلّى وحدنا...
- ... إذا أردت، نخرج غداً إلى أكاپولكو...
- ... مضحك؛ عجلات الصناعة السويسرة...
- ... استدعانى السفير الأمريكى ليحذرنى...
- ... تتحرك بفضل العشرة آلاف مليون دولار...
- ... لاورا؛ لاورا ريڤيير؛ عادت لتتزوَّج هناك...
- ... في الطائرة...
- ... التى هى ودائعنا نحن الأمريكيين اللاتين...
- ... ما من بلد بمنجى من التخريب...
- ... كيف لا، لقد قرأت ذلك في الـ Excélsior ...
- ... أقول لك: ترقص رقصاً رائعاً...
- ... روما هى المدينة الأبدية بإمتياز...
- ... لكنه لا يملك فلساً واحداً...
- ... كوّنتُ ثروتى بصعوبة شديدة...
- ... آه منك، أنك تشعرين بأنك قديسة ملفوفة في بيضة...
- ... لماذا أدفع ضرائب لحكومة من اللصوص...؟
- ... يسمونه المومياء، مومياء كويواكان...
- ... دارلنج، إنه مصمم أزياء رائع...
- ... قروض للزراعة؟...
- ... أقول لك أنه يفشل دائماً في الـ put ...
- ... مسكينة كاتالينا...
- ... ومن عندئذ سيتحكم في نوبات الجفاف والجليد؟...
- ... لا مفر من ذلك: فدون استثمارات أمريكية...

ـ ... يقولون أنها حبه الكبير، لكن...
ـ ... مدريد، جميلة؛ أشبيلية، رائعة...
ـ ... لن نخرج أبداً من الحفرة...
ـ ... لكن مثل المكسيك...
ـ ... تغلّبت المصالح، واخده بالك؟...
ـ ... سيدة المنزل؛ لو لم تكن...
ـ ... أكسب أربعين سنتابو من كل بيسو...
ـ ... إنهم يعطونا أموالهم والـ know-how ...
ـ ... منذ قبل إقراضها...
ـ ... ومازلنا نشكو...
ـ ... كان ذلك منذ بضع وعشرين عاماً...
ـ ... موافق: زعماء محليون، وقادة قابلون للشراء، وكل ما تريد...
ـ ... صنع لى ديكور كل شىء بالأبيض والذهبى، مهول!
ـ ... لكن السياسى الجيد لا يحاول إصلاح الواقع...
ـ ... السيد الرئيس يشرّفنى بصداقته...
ـ ... بل بالاستفادة منها والعمل معها...
ـ ... عن طريق الصفقات التى يعقدها مع خوان فيليبى، من الواضح...
ـ ... إنه يقوم بآلآف الأعمال الخيرية، لكنه لا يتحدث عنها أبداً...
ـ ... قلت له فقط: لا داعى لأن...
ـ ... ندين لبعضنا جميعاً بخدمات، أليس كذلك؟
ـ ... أُعطى أى شىء للتخلص منه!...
ـ ... قاطعنى بوضوح، مسكينة كاتالينا!...

ـ ... ساومهم لكن على أقل من عشرة آلاف دولار...

ـ ... لاورا؛ أعتقد أنهم كانوا يدعونها لاورا؛ أظنها كانت جميلة جداً...

ـ ... لكن ماذا تريدين، الواحدة منا ضعيفة هكذا...

كان يباعدهم، ويُقرِّبهم دُوار الرقص والمحادثات. والآن فقط، جلس هذا الشاب ذو الإبتسامة الواسعة والشعر الأشقر متربعاً بجوار العجوز، وازن كأس الشمبانيا بيدٍ، وأمسك ذراع المقعد بالأخرى... سأله الشاب إن كان يضايقه فقال العجوز: ـ لم تفعل سوى هذا طوال الليلة، يا سنيور ثيبايّوس... ولم ينظر إلى الشاب... ظل مُثبِّتاً نظرته في مركز الصخب... ثمة قاعدة غير مكتوبة... لا يجب أن يقترب منه المدعوون، إلاّ كي يمتدحوا المنزل والعشاء بتعجُّل... يجب أن يحترموا المسافة التى يفرضها... دون حساب... أن يشكروا ضيافته مع التسلية... المنظر والجلسة... إنه لا يعرف... واضح أن ثيبايّوس الشاب لا يعرف... ـ أتعرف؟ أنا معجبٌ بك... بحث هو في جيب الچاكت وأخرج علبة سجائر مجعَّدة... أشعل سيجارةً ببطء... دون أن ينظر إلى الشاب... الذى كان يقول أن ملكاً فقط هو الذى يمكن أن ينظر بالإحتقار الذى نظر هو به إليهم عندما... فسأله هو إن كانت المرة الأولى التى يحضر فيها... فأجاب الشاب أن نعم... ـ وحموك ألم...؟ ... ـ وكيف لا ... ـ إذن... ـ هذه القواعد وُضعت دون استشارتى، دون أرتيميو... لم يقاوم... بعينيه الناعستين... ودوائر الدخان... أدار وجهه إلى خايمى فنظر إليه الشاب دون أن يطرف له بصر... شقاوةٌ في نظرته... حركة الشفتين والفكين... للعجوز... للشاب... تعرَّف على نفسه، آه... أربكه، آه... ـ بأى شئ، سنيور ثيبايّوس؟... بأى شىء ضحيِّت... ـ لا أفهمك... لم يفهمه، قال أنه لم يفهمه... استنشق ضحكةً من منخاره... ـ الجرح الذى تسبِّبه خيانتنا

لأنفسنا، ياصديقى... مع من يظن أنه يتحدث؟ يظن أننى أخدع نفسى...؟ قرب منه خايمى الطفاية... آه، عبرا النهر على صهوة الجياد، ذلك الصباح... ـ ... هل هذا تبرير...؟ راقبت دون أن أكون مُراقباً... ـ مؤكدٌ أن حماك والأشخاص الآخرين الذين تتعامل معهم... عبروا النهر، ذلك الصباح... ـ ... ثروتنا مُبرَّرة، فقد عملنا لنصل إليها... ـ ... مكافأتنا، هيه؟... سأله إن كانا سيمضيان سوياً، حتى البحر... ـ هل تعرف لماذا أنا فوق كل هؤلاء الناس... وأسيطر عليهم؟... قرَّب منه خايمى الطفاية؛ أومأ بالسيجارة المنتهية... خرج من المخاضة وصدره عار... ـ آه، أنت إقتربت، ولم أنادِك أنا... أغمض خايمى عينيه نصف إغْماضة ورشف من الكأس... ـ هل تفقد أوهامك؟... كانت هى تردِّد، "يا إلهى، أنا لا أستحق هذا"، رافعة مرآتها، متسائلةً هل هذا ما سيراه حين يعود... ـ كاتالينا المسكينة... ـ لأننى لا أخدع نفسى... سيتبيَّنون في الضفة الأخرى شبح أرض، شبحاً، نعم... ـ ما رأيك في هذا الحفل؟... ترنح، ياله من ترنحٍ رائع، تشا تشا تشا... كوكويا. كانت تفرح برائحة الموز... ـ لا يهمنى... ضغط هو على المهمازين؛ آدار وجهه وابتسم... ـ ... لوحاتى، وأنبذتى، وخزاناتى وأنا أسيطرُ عليها تماماً كما أسيطر عليكم... ـ أتظن...؟ ... تذكرت شبابك بسببه وبسبب هذه الأماكن... ـ السلطة تصلُح في ذاتها، هذا ما أعرفه، ولنيلها يجب عمل كل شئ... لكنك لم تشأ أن تقول له كم كان يعنى بالنسبة لك لأنك قد تنتزع بذلك تعاطفه... ـ كما فعلت أنا وحموك وكل هؤلاء الذين يرقصون أمامك... إنتظرتك ذاك الصباح بابتهاج... ـ كما سيتوجب عليك أن تفعل، إذا شئت ... ـ أن أتعاون معك، دون أرتيميو، أن أرى إن كنت تستطيع، في واحدةٍ من شركاتك... أشار ذراع الفتى المرفوع صوب الشرق، حيث تشرق الشمس، نحو البحيرة... ـ عموماً، يتم ترتيب هذا بطريقةٍ أخرى...

جرى الحصانان ببطء، وهما ينتزعان العشب بحوافرهما، ويهزان عرفيهما، مثيرين رذاذاً متناثراً... ـ ... يطلبنى حموك ويلمح إلى أن زوج إبنته... نظرا في عيون بعضهما، وإبتسما... ـ لكنك ترى، لدىّ مُثل مختلفة... إلى البحر الحر، إلى البحر المفتوح، إلى حيث جرى لورنثو، متوقداً، نحو الأمواج التى إرتطمت حول خصره... ـ قبل الأشياء كما هى؛ صار واقعياً... ـ نعم، هذا هو الأمر. مثلك تماماً، دون أرتيميو... سأله إن كان لم يفكر أبداً فيما هو على الجانب الآخر من البحر؛ الأرض كلها تشبه بعضها، البحر وحده مختلف... ـ مثلى تماماً!... قال له أن ثمة جُزرٌ... ـ ناضل في الثورة، خاطر بحياته، كان على وشك أن يُعدَم رمياً بالرصاص؟.. كان البحر له طعم البيرة المرّة، ورائحة الشمّام، والسفرجل، والتوت... ـ هه؟... ـ لا... لا... ـ ستبحر سفينة خلال عشرة أيام. حجزتُ تذكرة... ـ لقد وصلتَ إلى نهاية المأدبة، يا صديقى. سارع بجمع الفُتات... ـ ألم تكن لتفعل نفس الشئ، يا بابا؟... ـ ... إلى العُلا طوال أربعين عاماً لأننا عُمِّدنا بمجد تلك... ـ نعم... ـ ... لكن، أنت؟ أتعتقدُ أن هذا يُورَّث؟ كيف ستطيلون بقاءكم...؟ ـ الآن هناك تلك الجبهة. أعتقد أنها الوحيدة المتبقِّية... ـ نعم... ـ سلطتنا؟... ـ سأذهب... ـ أنتم علّمتمونا كيف... ـ أوف! وصلت متأخراً، أقول لك... إنتظرتك ببهجة، ذلك الصباح... ـ فليحاول الآخرون خداعك؛ أنا لم أخدع نفسى قط؛ لهذا أنا هنا... عبرا النهر، على صهوة الجياد... ـ تعجَّل... توقَّف... لأنك تترك نفسك تنساق... سأله إن كانا سيذهبان سوياً، حتى البحر... ـ وماذا يهمنى أنا... البحر الذى يحرسه تحليق النوارس المنخفض... ـ سأموت وسيُضحكنى ذلك... البحر الذى أظهَرَ فقط لسانه المتعَب فوق الشاطئ... ـ ... وسيُضحكنى أن أفكر... صوب الأمواج التى إرتطمت حول خصره... ... الإبقاء حياً على عالمٍ لا يعرفون

حجمه... قرِّب العجوز رأسه من مسامع ثيبايّوس... البحر الذى له طعم بيرة مُرَّةٍ... ـ هل تريد أن أعترف لك بشئ؟ ... البحر الذى له رائحة الشمام والجوافة... نقر بقوةٍ بسبابته على كأس الشاب... الصيادون الذين يسحبون شباكهم نحو الرمال... ـ ... السلطة الحقيقية تولد دائماً من التمرُّد... ـ الإيمان؟ لا أدرى. أنت أحضرتنى إلى هنا، وعلَّمتنى كل هذه الأشياء... ـ وأنت ... أنتم... بالأصابع العشرة مفرودةً، تحت السماء الغائمة، والوجه نحو البحر المفتوح... ـ ... وأنتم... لم يعد لديكم ما هو ضرورى...

عاود النظر نحو الصالون.

ـ إذن ـ غمغم خايمى ـ، هل يمكننى أن أمر لأراك... يوماً من الأيام القادمة؟

ـ تحدَّث مع باديبا. ليلة سعيدة.

دقت ساعة الصالون ثلاث مرات. تنهد العجوز وهز مِقودىّ الكلبين الناعسين، اللذين طرطقا آذانهما ونهضا بينما نهض هو بصعوبةٍ، مستنداً إلى ذراعى المقعد وتوقفت الموسيقى.

عبر الصالون بين همهمات الإمتنان ورؤوس المدعوين المائلة. شقت ليليا طريقاً،

ـ بعد إذنكم...

وتناولت الذراع المتصلِّب. هو برأسه مرتفعةً (لاورا، لاورا)؛ وهى بنظرتها منخفضةً وحذرةً، قطعاً المسار المفتوح بين المدعوين، بين المنحوتات الباذخة، والترصيعات الوافرة، والمصبوبات من الجص والذهب، والصناديق المطعَّمة بالعظم والصدَف، والأقفال والمزاليج، والخزائن ذات المصاريع وفتحات المفاتيح الحديدية، والمقاعد الفوَّاحة من الصنوبر المكسيكى، وكراسى الجوقة ، والحليات العليا والأفاريز السفلى الباروكية، ومساند المقاعد المنحنية، والدعامات المخروطة،

والأقنعة المتعدِّدة الألوان، والمسامير البرونزية، والجلود المنقوشة، وأقدام الموبيليا ذات المخالب والكُرات، وعباءات الكهنة ذات الخيوط الفضيّة، والمقاعد المكسوّة بالدمقس، والأرائك المخملية، والأوانى والجرار، وأسطح الموائد المشطوفة الحافة، والأبسطة الصوفية، واللوحات الزيتية المتشقِّقة، تحت كريستال النجف، ودعامات السقف الدافئة، حتى وصلا إلى أولى درجات السلَّم. عندها ربِّت هو على يد ليليا وعاونته المرأة على الصعود، ممسكةً بمرفقه، مُتشبِّثة به حتى تسنده بشكل أفضل.

إبتسمتْ:

ـ ألم ترهق نفسك كثيراً؟

نفى برأسه وعاود تربيت يدها.

أنا قد استيقظتُ... مرةً أخرى... لكننى هذه المرة... نعم... في هذه السيارة... في هذه العربة... لا... لا أدرى... تجرى دون ضجيج... هذا لا يمكن أن يكون هو الوعى الحقيقى بعدُ... مهما فتحتُ عينىّ لا أستطيع تمييزهم...الأشياء، الأشخاص... بيضتان بيضاوان وملتمعتان تدوران أمام عينىّ... حائط من الحليب يفصلنى عن العالم... عن الأشياء التى يمكن لمسُها وعن الأصوات الغريبة... أنا منفصل... أموت... أنفصل... لا، إنها نوبة... نوبةٌ يمكن أن تُصيب عجوزا في سنىّ... موتٌ لا، إنفصالٌ لا... لا أريد قول هذا... أريد أن

أسأل عنه... لكننى أقوله... لو بذلت جهداً... نعم... ها أنا أسمع الضجيج الإضافى للصفارة... إنها عربة الإسعاف... من صفارة حنجرتى ذاتها... حنجرتى الضيِّقة والمسدودة... تتساقط قطرات اللعاب... نحو بئر بلا قرار... الإنفصال... الوصية؟... آه، لا تشغلوا بالكم... توجد ورقة مكتوبة، ومختومة، ومسجَّلة أمام مُوَثِّق... أنا لا أنسى أحداً... لماذا أنساكم، لماذا أكرهكم...؟ ألن يسعدكم التفكير في أننى حتى اللحظة الأخيرة فكَّرت فيكم لأسخر من نفسى؟... آه، يااللضحك، آه، ياللسخرية... لا... أنا أذكركم بلا مبالاة إجراءٍ باردٍ... أوزِّع عليكم هذه الثروة التى ستنسبونها علناً إلى مجهودى... إلى دأبى... إلى إحساسى بالمسئولية... إلى مميزاتى الشخصية... إفعلوا ذلك... إجلسوا هادئين... إنسوا أننى كسبت هذه الثروة، خاطرت بها، كسبتها... منحُ كلِّ شئ مقابل لا شئ...أليس هذا حقاً؟... كيف سنُسمِّى منحَ كلِّ شئ مقَابل كلِّ شئ؟... ضعوا له الإسم الذى تشاؤون... عادوا، لم يُسلِّموا بالهزيمة...ً نعم، أفكرُ في هذا وأبتسم... أسخرُ من نفسى، أسخرُ منكم... أسخرُ من حياتى... أليس هذا إمتيازى؟... أليست هذه هى اللحظة الوحيدة لعمل ذلك؟... لم أكن أستطيع السخرية من نفسى بينما كنت أحيا... الآن نعم... إنه إمتيازى... سأترك لكم الوصية... سأورثكم تلك الأسماء الميتة...ريخينا... توبيّاس... بايث... جونثالو... ثاجال... لاورا، لاورا... لورنثو... حتى لا تنسونى... منفصلاً... أستطيع أن أفكر في هذا وأسائل نفسى... دون أن أدرىٍ... لأن هذه الأفكار الأخيرة... أعرف هذا... أفكر، أتظاهر... تطرأ غريبة عن إرادتى، آه، نعم... كأن المخ، المخ... يسأل... تصل إلىَّ الإجابة قبل السؤال... ربما... الإثنان هما نفس الشئ... العيشُ هو إنفصالٌ آخر... مع ذلك الخلاسى، بجانب الكُوخ والنهر... مع كاتالينا، لو كنا

قد تحدثنا... في ذلك السجن، ذاك الفجر... لا تعبر البحر، ما من جُزُر، ليس حقيقياً، لقد خدعتُكَ... مع المعلِّم... إستيبان؟... سباستيان؟... لا أتذكر... علَّمنى الكثير من الأشياء... لا أتذكَّر... تركتُه ومضيتُ إلى الشمال... آه، نعم... نعم... نعم... نعم، كان يمكن أن تكون الحياةُ مختلفةً... لكن هذا فقط... مختلفة... ليس حياة هذا الرجل المحتضر... لا، محتضر لا... أقول لكم لا لا لا... إنها نوبة... عجوز، نوبة... نقاهة، هى هذا... بل أخرى... تخصُّ شخصاً آخر... مختلفة... لكنها أيضاً منفصلة... آى من الخداع... لا حياة ولا موت... آى من الخداع... في أرض الإنسان... حياةٌ مخبوءة... موتٌ مخبوءٌ... مهلةٌ قاتلة... بلا معنى... يا إلهى... آه، هذه قد تكون آخر صفقة... من الذى يضع يديه على كتفيَّ؟... الإيمان بالرب... نعم، إستثمارٌ جيِّد، كيف لا... من الذى يجبرنى على الإنطراح، كأنما أردتُ أن أنهض من هنا؟... هل ثمة إمكانية أخرى للإيمان تظل قائمةً حتى بعد أن لا يعود المرءُ يؤمن بها؟... الرب الرب الرب... يكفى ترديد كلمةٍ ألف مرةٍ حتى تفقد كلَّ معنى ولا تعود سوى تسبيحةٍ... من المقاطعٍ... الجوفاء... الرب الرب... ما أشد جفاف شفتىّ... الرب الرب... أضئ بصيرة من يبقون... إجعلهم يفكرون فيَّ من حين... إلى حين... إجعل ذكراى... لا تضيع... أفكر... لكنى لا أراهم جيداً... لا أراهم... رجال ونساء يرتدون الحِداد... تنكسر تلك البيضة السوداء... لنظرتى وأرى... أنهم يواصلون الحياة... يعودون إلى أعمالهم... إلى أوقات فراغهم... ومؤامراتهم... دون أن يتذكروا... الميِّت المسكين... الذى يُنصتُ إلى رفوش التراب... الرطبة... فوق وجهه... إلى التقدم المتماوج... المتماوج... المتماوج... نعم... الباذخ... لتلك الديدان... حنجرتى... تتساقط منها القطرات مثل بحر... صوتٌ ضائع....

يريد الإنبعاث... الإنبعاث... الإستمرار حياً... إكمال الحياة حيث قطعها الآخر... الموت... لا... العودَ إلى البدء من البداية... الإنبعاث... الميلاد من جديد... الإنبعاث... إتخاذ القرار من جديد... الإنبعاث... الإختيار من جديد... لا... ياللثلج في صدرى... ياللأظافر... الزرقاء... ياللمعدة... المنتفخة... ياللغثيانات... الخرائية... لا تمت دون سبب... لا لا... آه أيتها العجوزان... العجوزان العاجزتان... اللتان نالتا كل... أشياء الثروة... ورأس... التفاهة... لو كنتما على الأقل... فهمتما فيم تفيد... كيف تُستخدم... هذه الأشياء... ولا هذا... بينما نلتُ أنا كل شئ... أتسمعانى؟... كلَّ شىء... ما يُشترى و... كلَّ ما لا يُشترى... نلت ريخينا... أتسمعانى؟... أحببتُ ريخينا... كان اسمها ريخينا... وأحبّتنى... أحبتنى دون نقود... تبعتنى... وهبتنى حياتها... هناك إلى أسفل... ريخينا، ريخينا... كم أحبُّك... كم أحبُّك اليوم... دون ضرورة لان تكونى قريبة منى... كم تفعمين صدرى بهذا الرضا... الدافئ... كم... تغرقيننى... بعطرك القديم... المنسى، ريخينا... تذكرتُك... أرأيتِ؟... أنظرى جيداً... تذكرتكِ من قبل... إستطعتُ تذكرك... كما كنتِ... كما تحبِّيننى... كما أحببتُك في العالم... لا يستطيع أحدٌ أن ينتزع منا... يا ريخينا، أنتِ وأنا... ما أجلبُه وأحتفظ به... حامياً إياه بكلتا يدىَّ... كما... لو كان لهباً... صغيراً وحياً... أهديته أنتِ إلىَّ... منحتنى إياه... منحتنى إياه... أنا كنتُ سأنتزعُ... لكننى منحتُك أنتِ... أى، أيتها العيون السوداء؛ آى، أيها الجسد الداكن والفوّاح، آى أيتها الشفاه السوداء، أى أيها الحب الداكن الذى لا أستطيع أن ألمسهُ، أو أُسمِّيه، أو أكّرره: آه يداكِ يا ريخينا... يداك فوق عنقى و... نسيانُ لقاءاتِك... نسيانُ كلِّ ما وُجِدَ... خارجك وخارجى... آى ريخينا... دون تفكير... دون

حديث... لأنه في الفخذين الداكنين... للوفرةِ خارجِ الزمن... آي لكبريائى الذى لا يتكرَّر... كبرياء أن أكون قد أحببتُك... الطقسُ دون جواب... ماذا يمكن للعالم أن يقول لنا... يا ريخينا... ماذا كان يمكنه أن يُضيف إلى هذا... أى عقل كان يمكنه أن يتحدث... إلى جنون... محبَّتنا؟... ماذا؟... أيتها الحمامة، القرنفل، اللبلاب، الزَبَد، البرسيم، المفتاح، السفينة، النجمة، الشبح، الجسد: كيف سأسمِّيك... يا حبىّ... كيف سأقرِّبك... من جديد... من أنفاسى... كيف سأتضرع إليك... أن تسلمينى نفسك... كيف سأربِّتُ... خدَّيكِ... كيف سأقبلُ... شحمتى أذنيكِ... كيف سأستنشق... ما بين ساقيكِ... كيف سأقول ... عينيك... كيف سألمس... طعمَكِ... كيف سأهجر... وحدتى... أنا نفسى... لأضيع في... وحدة... كلينا... كيف سأردِّدُ... أننى أحبكِ... كيف سأنبش... ذكراكِ إنتظاراً لرجوعك؟... ريخينا ريخينا... هذه الطعنة تعود، يا ريخينا، أنا أستيقظ... من شبه النوم ذاك الذى دفعنى إليه المُهدِّئ... أنا أستيقظ... بالألم... في مركز... أحشائى، ريخينا، أعطنى يدكِ، لا تتركينى، لا أودُّ الاستيقاظ دون أن أجدك بجانبى، يا حبىّ، لاورا، يا إمرأتى المعبودة، يا ذكراى المخلِّصة، يا تنورتى القطنية، ريخينا، تؤلمنى، رقتى التى لا تتكرَّر، أنفىَ الناتئة، تؤلمنى، يا ريخينا، أنتبه إلى أنها تؤلمنى: ريخينا، تعالى حتى أنجو مرةً أخرى؛ ريخينا، بادلى مرةً أخرى حياتك بحياتى؛ ريخينا، موتى من جديد حتى أحيا أنا؛ ريخينا. أيها الجندى. ريخينا. أحتضنونى. لورنثو. ليليا، لاورا. كاتالينا. احتضنونى. لا. ياللثلج في صدرى... أيها المخ، لا تمت... أيها العقل... أودُّ أن أعثر عليها... أودُّ ... أودُّ... أيتها الأرض... إيها البلد... أحببتُك... أردت الرجوع... يا عقل اللاعقل... أردتُ أن أتأمَّل من موضعٍ شاهقٍ الحياة المعاشة ولا أرى شيئاً... وإذا كنتُ لا

أرى شيئاً... فلماذا أموت... لماذا أموت مُتعذّباً.. لماذا لا أواصل الحياة... الحياة الميِّتة... لماذا أنتقل... من العدم الحيّ إلى العدم الميِّت... يُستَنْفَدُ... يُستنفدُ لاهثاً... نباحُ الصفارة... حفنةُ كلاب... تتوقف سيارة الإسعاف... أنا مُتعَب... لا يمكن أن أكون أشدَّ تعباً... أرض... يدخل ضوءٌ آخر إلى عينيَّ... صوتٌ آخر...

- يُجرى الجراحة الدكتور سابينس.

عقل؟ عقل؟

تجرى النقّالة على القضبان، خارج سيارة الإسعاف. عقل؟ من يحيا؟ من يحيا؟

أنت لن يمكنك أن تكون أشدَّ تعباً؛ أشدّ تعباً لا يمكن؛ لأنك ستكون قد سرت كثيراً، على صهوة حصان، وعلى الأقدام، وفي القطارات القديمة والبلد لا ينتهى أبداً. هل ستتذكرُ البلد؟ ستتذكره وليس بلداً واحداً؛ إنه ألف بلد بإسم واحد. ستعرف هذا. ستجلبُ الصحراوات الحمراء، سهوبَ التينِ الشوكى والصبّار، عالم التين الشوكى، حزام الرواسب البركانية والأخاديد الثلجية، الجدران ذات القمم المُذهبة والكُوَى الحجرية، المدن المتينة البنيان، مدن الصخور البركانية، قُرى الطين النئ، ونجوع القصب، دروب الطين الأسود، وطُرُق الجفاف، شفاه البحر، الشواطئ الكثيفة والمنسيَّة، وديان القمح والذُرة العذبة، المراعى الشمالية، بحيرات الأراضى

المنخفضة، الغابات النحيلة والسامقة، الأغصان المُحملة بالقش، القمم البيضاء، سهول الأسفلت، موانى الملاريا وبيوت الدعارة، القشرة المتكلِّسة للصبّار، الأنهار الضائعة، المنحدرة، حفائر الذهب والفضة، الهنود دون لغة مشتركة، لغة الكورا، لغة الياكى، لغة الهويتشول، لغة البيما، لغة السيرى، لغة التشونتال، لغة التيپيهوانا، لغة الهواستيكا، لغة التوتوناكا، لغة الناهوا، لغة المايا، موسيقى الناى والطبلة، الرقصات المتقاطعة، الجيتار والماندولين، الريش، العظام النحيلة لإقليم ميتشواكان، اللحم الممتلئ لإقليم تلاكسكالا، العيون الصافية لسينالوا، الأسنان البيضاء لتشياپاس، صدريات النساء، أمشاط بيراكروث، ضفائر هنود الميكستيكا، أحزمة هنود التثوتثيل، دثارات سانتا ماريّا، صناعات الجلود القروية، زجاج خاليسكو؛ يُشب واكساكا، أطلال الأفعى، أطلال الرأس السوداء، أطلال الأنف الكبيرة، الصوامع والمحاريب، الألوان والنقوش البارزة، العقيدة الوثنية لتونانتثينتلا وتلاكوتشاجوايا، الأسماء العتيقة لتيوتيهواكان وپاپانتلا، وتولا وأوكسمال: تجلبُها وتُثقل عليك، إنها أحجارٌ مفرطة الثقل على رجل واحد: لا تتحرك أبداً وتحملها أنت مربوطةً في عنقك: تُثقل عليك وألقت بثقلها في أحشائك... إنها بكتيرياك العَضَوية، وطفيلياتك، وأميباك...

أرضك

ستفكرُ في أن ثمة إكتشافاً ثانياً للأرض في هذه المسيرة الحربية، في أن قدماً تطأ للمرة الأولى جبالاً وأخاديد هى بمثابة قبضةٍ مُتحدِّية للتقدُّم اليائس والبطئ للطريق، للسدِّ، لشريط السكك الحديدية وعمود التلغراف: هذه الطبيعة التى تستعصى على الاقتسام أو السيطرة، التى تريد أن تواصل الوجود في وحدة قاطعة ولم تمنح البَشَر سوى بضعة وديان، وبضعة أنهار، حتى يتسلوا فيها

أو على ضفافها؛ تظل هى المالكة العدائية للقمم الملساء والعصيَّة البلوغ، للصحراء المنبسطة، للغابات وللشواطئ المهجورة؛ والبشر، المبهورون بتلك القوة المتغطرسة، ستظل عيونهم مُحدِّقة فيها: إذا كانت الطبيعة النافرة تدير ظهرها للإنسان، فإن الإنسان يدير ظهره للبحر الواسع المنسيّ، الذى يتعفّن في وحشيته الدافئة، ويفور بثرواتٍ ضائعة.

ستُورث الأرض

لن تَرىَ مرةً أخرى تلك الوجوه التى عرفتها في سونورا وفي تشيهواهوا، التى رأيتها يوماً نائمةً، تتحمَّل، وفي اليوم التالى حانقة، ملقيةً بنفسها في ذلك الصراع دون أسباب ودون شروط مُخفِّفَةً، في ذلك العناق من رجال لرجال فصلهم رجالٌ آخرون، في ذلك القول بأننى هنا وموجودٌ معكَ أنتَ وأنتَ وأنتَ أيضاً، بكلِّ الأيدى وكلِّ الوجوه المُغمَّاه: في الحب، الحب المشترك الغريب الذى يستنفد ذاته: ستقول هذا لنفسك، لأنك عشته ولم تفهمه وأنت تعيشه: وعند موتك فقط ستقبله وستقول دون مواربةٍ أنك دون حتى أن تفهمه خشيتَه خلال كلِّ يوم من أيام سُلطتك: ستخشى أن يتفجَّر من جديد ذلك الإلتقاءُ العاشق؛ والآن ستموتُ ولن تعود تخشاه لأنك لن تراه؛ لكنك ستقول للآخرين أن يخشوه: أن يخشوا الهدوءَ الزائف الذى تورثهم إياه، أن يخشوا التآلف الوهمى، الكلماتِ السحرية، الجشع المعترَفِ به: أن يخشوا هذا الجور الذى لا يدرى حتى أنه كذلك:

سيقبلون وصيتك: الاحتشام الذى إنتزعته من أجلهم، الاحتشام: سيزجُون الشكر للأزعر أرتيميو كروث لأنه جعل منهم قوماً محترمين؛ سيزّجُون له الشكر لأنه لم يقنع بأن يعيش ويموت في كوخ زنوج؛ سيزجون له الشكر لأنه خرج مخاطراً بحياته: سيبرِّرون مسلكك لأنهم لن تعود لديهم مبرراتك: لن يستطيعوا إستحضار المعارك والزعماء،

مثلك، والإحتماء خلفهم لتبرير السرقة باسم الثورة وتعظيم الذات باسم تعظيم الثورة: ستفكر وستندهش: أيَّ تبرير سيجدونه هم؟ أيَّ عائق سيواجهونه؟: لن يفكروا في ذلك، سيستمتعون بما تتركه لهم طالما إستطاعوا؛ سيحيون سعداء، سيُظهرون أنهم متألمون ومُمتنّون - في العلن، لن تطلبَ أكثر من ذلك - بينما تنتظرُ أنت ومترٌ من التراب فوق جسدك؛ تنتظر، حتى تحسَّ من جديدٍ بحشدٍ الأقدام فوق وجهك الميِّت وستقول حينئذ

- لقد عادوا. لمْ يُسلِّموا بالهزيمة

وستبتسم: ستسخر منهم، ستسخر من نفسك: إنه إمتيازك: سيُغريك الحنين: سيكون هو وسيلة تجميل الماضى: ولن تفعل ذلك:

ستورثُ الميتات اللامجدية، والأسماء الميِّتة، أسماءَ من سقطوا موتى حتى يعيش إسمك؛ أسماء الرجال الذين جُرِّدوا من ممتلكاتهم حتى يمتلك إسمُك: أسماء الرجال المنسيِّين حتى لا يُنسى إسمك أبداً:

ستورثُ هذا البلد؛ ستورثُ صحيفتك، اللمزَ والتملُّق، الضمير الذى نوَّمته الخُطبُ الزائفة لرجال تافهين؛ ستورثُ الرهونات، ستورثُ طبقةً منبوذةً، سلطةً بلا عَظَمة، حماقةً مُكرَّسةً، طموحاً قزماً، تسويةً هزليةً، بلاغةً متعفِّنةً، جُبناً دستورياً، أنانيةً مبتذلة؛

ستورثهم زعماءهم اللصوص، ونقاباتهم الخاضعة، وأقطاعياتهم الجديدة، واستثماراتهم الأمريكية، وعمَّالهم المسجونين، ومحتكريهم وصحافتهم الضخمة، وأجراءهم، وجنودهم، وعملاءهم السرِّيين، وودائعهم في الخارج، ومُرابيهم المدهونى الشعْر، ونوَّابهم الخانعين، ووزراءهم المُتملِّقين، وقِطع أراضيهم السكنية الأنيقة، وإحتفالاتهم السنوية والتذكارية، وبراغيثهم وقطع عجَّة الذرة المليئة بالديدان، وهنودهم الأميِّين، وعُمَّالهم العاطلين عن العمل، وجبالهم التى جُرِّدت

من غاباتها، ورجالهم البدينين المُسلَّحين بأنابيب الأوكسچين والسندات، ورجالهم النحيلين المسلَّحين بالأظافر: خذوا مكسيككم: خذوا ميراثكم:

ستورِّثُ الوجوه، العذبة، الغريبة، بلا غدٍ لأنها تفعل كلَّ شئ اليوم، وتقوله اليوم، هى الحاضر وهى في الحاضر: تقول "غداً" لأنَّها لا يهمها الغد: ستكونُ أنت المستقبل دون أن تكونه، ستستنفدُ أنت نفسك اليوم وأنت تفكر في الغد: وهم سيكونون الغدَّ لأنهم لا يحيون إلاّ اليوم:

شعبك

موتك: حيواناً تستشرفُ موتك، تُنشدُ موتك، تقولُه، ترقصُه، ترسمه، تتذكره قبل أن تموت موتك:

أرضك

لن تموتَ دون أن تعود:

هذا النجع عند قدم الجبل؛ الذى يسكنه ثلاثمائة شخص والذي يظهر بالكاد من خلال بضع بقع من القرميد بين الأغصان التى، بقدر ما يغرس صخر الجبل جذوره، تبرز خشنةً على السفح الناعم الذى يرافق النهر في مساره حتى البحر القريب: مثل هلالٍ أخضر، سيلتهم قوسُ تامياهوا وكواتثاكوالكوس الوجهَ الأبيض للبحرِ في محاولةٍ عبثية ـ تلتهمه فيها، بدوره، القمة الضبابية لسلسلة الجبال، مستقرٍ وحدٍّ الهضبة الهندية ـ للاتصال بالأرخبيلِ الإستوائى ذى التماوجات الرشيقة والأجساد المحطَّمة: بكونه يداً كسولة للمكسيك الجاف، غير القابل للتحوُّل، الحزين، لعزلة الصخر والتراب الحبيسة في هضبة الألتيپلانو، سيكون لهلال بيراكروث تاريخٌ آخر، مربوطٌ بخيوط ذهبيةٍ بجزر الأنتيل، وبالمحيط، وإلى مدى أبعد، بالبحر المتوسط الذى لن تهزمه حقاً سوى دعامات

أكتاف سلسلة جبال سييرا مادرى الشرقية: حيث تتتالى البراكين وترتفع الشارات الصامته للصبّار الأمريكى، سيموتُ عالمٌ يُرسلُ في موجاتٍ متتابعةٍ زبَده الحسىّ من مضيق البوسفور ونهود بحر إيجة، ورذاذه من العناقيد والدرافيل من سرقسطه وتونس، وصيحات العرفان العميقة من الأندلس وأبواب جبل طارق، والتحيات المتملّقة للزنوج رجال البلاط ذوى الباروكات من هايتى وچامايكا، وفرق الراقصين وضاربى الطبول وأشجار الثيّبا* ceibas والقراصنة والغزاة من كوبا: الأرض السوداء تمتصُّ موجات المدّ: في شرفات الحديد المشغول وفي بوابات مزارع البُنّ ستستقرُّ الموجاتُ البعيدة: في الأعمدة البيضاء للبوابات الريفية وفي النبرات الشبقية للأجساد والأصوات ستموت تضوُّعات الروائح: هنا ستكون ثمة حدود: بعدها ستنتصب القاعدة الجهمة للنسور والصوَّان: حدودٌ لن يهزمها أحدٌ: لا رجال إكستريمادورا وقشتالة الذين نضبت طاقتهم في التأسيس الأول ثم أخذوا ينهزمون دون أن يدروا خلال الصعود إلى الهضبة المحظورة التى تركتهم يدمِّرون ويشوِّهون مظاهرها الخارجية فقط: ضحايا، في النهاية، للجوع المركَّز لتماثيل التراب، للإمتصاص الأعمى للبحيرة التى إبتلعت ذهبَ، وأصول، ووجوه كلِّ الغزاة اللذين إنتهكوها؛ ولا القراصنة الذين كدَّسوا سفنهم الشراعية بالدروع التى أُلقيت من قمة جبل الهنود بضحكة مُرَّة؛ ولا الرهبان الذين عبروا مسار لا مالينتشى** ليمنحوا هيئاتٍ تنكريةٍ جديدة لآلهةٍ لا يمكن إثارة مشاعرها، تتجسد في صخورٍ قابلة للتدمير لكنها تسكن الهواء؛ ولا الزنوج المجلوبين إلى المزارع الإستوائية

* شجرة أمريكية إستوائية ضخمة-م

** لا مالنتشى: عشيقة ومترجمة الفاتح هرنان كورتيس. رافقته أثناء فتح المكسيك

والذين أنهكتهم الهنديات اللائى جئن للقائهم وقدّمن فروجهن المرداء كمنفذٍ للإنتصار على الجنس الأجعد الشعر، ولا الأمراء الذين هبطوا من سفنهم الشراعية الإمبراطورية وإستسلموا للإنخداع بالمنظر اللطيف لأشجار النخيل الملكى والثمار المفردة النواة وصعدوا بمتاعهم المُثقل بالمخرّمات واللافندر إلى الهضبة ذات جدران الإعدام المثقوبة بالرصاص؛ ولا حتى الزعماء المحليين ذوى القبّعات المثلثة الأركان والكتفيات الذين لقوا، في نهاية المطاف، في الدكنة الصامتة لهضبة الألتيپلانو، الهزيمة الباعثة على اليأس نتيجةً للتكتم، والسخرية الصماء، واللامبالاه:

ستكونُ أنت ذلك الطفل الذى يخرج إلى الأرض، ليلاقى الأرض، يخرج من أصله، ليلاقى مصيره، اليوم حيث يُساوى الموتُ بين الأصل والمصير ويغرس بين الإثنين، رغم كلِّ شئٍ، نصلَ الحرية:

(١٩٠٣: ١٨ يناير)

هــو من استيقظ عند سماعه غمغمة الخلاسى لونيرو- آه سكران، آه سكرن - حين بدأت كلُّ الديكة (وهى طيورٌ في حالة حِدادٍ كانت قد سقطت في عبودية الغابة، بعد التخلىّ عن حظائر الدواجن التى كانت في حقبةٍ أخرى فخرَ هذه الضيعة لأنها كانت تتنافس مع ديكة القتال لدى سيدِ الأقليم الكبير، منذ أكثر من نصف قرن) في إعلان الصباحِ الإستوائى العاجل، الذى يُعدُّ بمثابة نهاية الليلة

بالنسبة للسنيور پدريتو، المنغمس في عربدةٍ منفردةٍ أخرى، هناك في شرفة البلاطات الملوَّنة لحدود المنزل القديمة الضائعة: بلغَ الغناءُ الثمل للسيد سقف سعف النخيل الذى كان لونيرو تحته على قدميه، يرشُّ الأرض الترابية بحفنات من الماء من الطاسة، المجلوبةِ من مكان آخر، والتى كانت بطاّتها وزهراتها المرسومة تلتمع بطلاءٍ برّاق، في زمن آخر. أشعل لونيرو الموقد على الفور لتسخين إدام السمك الصغير المفتَّت، بقية طعام اليوم السابق؛ وبحث في سلَّة الفاكهة، مُزرِّراً عينيه، عن الثمرات ذات القشور الأكثر إسوداداً حتى تؤكَلَ على الفور، قبل أن تطرى وتمتلئ بالديدان بفعل التحلُّل التام، شقيق الخصوبة. بعدها، بعد أن انتهى دخانُ اللوح الصفيح من طرد النعاس من عيون الطفل، توقف الغناءُ البلغمىُ لكن ظلّت تُسمع تعثُّرات السكِّير، وهى تتباعدُ شيئاً فشيئاً وبعدها إغلاقةُ الباب الأخيرة، فاتحةً صباح الأرق الطويل: على بطنه فوق الحَشيَّة العارية والملطَّخة لسرير الماهوجنى الضخم، مشتبكاً في أحبولة الناموسية، في الفراش ذى القبة دون ملاءات، يائساً لأن إحتياطى الروم قد نفد. من قبل - تذكَّر لونيرو، حين كان يُربِّتُ الرأس الشعثاء للطفل الذى أقترب من النار بقميص النوم القصير، مُبدياً أولى ظلال البلوغ -، حين كانت الأرض ضخمة، كانت الأكواخ بعيدةً عن المنزل ولم يكن يُعرَف ما يدور فيه، حيث أن الطبّاخات البدينات والشابّات الخلاسيات* اللواتى كنَّ يكنسن بالمقشّات وتُنشِّين القمصان لم يكنَّ يحملن حكاياتهن إلى العالم الآخر للرجال الذين حمّصتهم الشمس في حقول التبغ. والآن، صار كل شئ قريباً في الضيعة التى خنقها المرابون والأعداءُ السياسيون للسيِّد القديم الميت، ولم يبق سوى

* cambujas نتاجُ تهجين صينىٍ وهنديةٍ حمراء أو العكس – م

المنزل الذى بلا زجاج وكُوخ لونيرو؛ وفي الأول لم يعد ثمة سوى ذكرى الخدم، التى تُبقى عليها النحيلة باراكوا التى واصلت العناية بالجدَّة المحبوسة في الغرفة الزرقاء في عمق المنزل؛ وفي الثانى لم يكن يحيا سوى لونيرو والطفل وكانا هما العاملين الوحيدين.

جلس الخلاسيُّ فوق الأرض التى جرت تسويتها وقسم طبق السمك، مُفرغاً نصفه في القدر الفخارى و مبقياً النصف الآخر فوق لوح الصفيح. قدم ثمرة مانجو للطفل وقشَّر هو موزةً وأكل الإثنان في صمت. وحين إنطفأت كومة الرماد الصغيرة، دخلت من الفتحة الوحيدة - التى هى بابٌ، ونافذة، وعتبة للكلاب المتشمِّمَة، وحَدٌ للنمل الأحمر الذى يمنعه من الدخول خطٌ مرسومٌ بالجير- السحابة الثقيلة للبلابة التى زرعها لونيرو منذ سنواتٍ لإخفاء طوب اللِّبن الكالح في الجدران ولإحاطة الكوخ بشبكة هذه النضارة الليلية لأزهارٍ أنبوبيةٍ. لم يتكلّما. لكن الخلاسى والطفل كان يشعران بنفس ذلك الإمتنان البهيج لوجودهما معاً بحيث أنهما ما كانا ليقولاه أبداً، ولا حتى يعبّرا عنه، أبداً، بابتسامة مشتركة، لأنهما هناك لا ليقولا أو ليبتسما، بل ليأكلا ويناما معاً وليخرجا معاً كل فجرٍ، ساكن بلا إستثناء، ومُحمَّل بالرطوبة الاستوائية ولينجزا معاً الأعمال الضرورية لقضاءِ الأيامٍ وليسلما للهندية باراكوا قطع النقود التى تشترى كلَّ سبت طعام الجَدَّة ودمجانات السنيور بدريتو. كانت جميلة تلك الزجاجات الضخمة العريضة الزرقاء التى تحجب عنها الحرارة السلَّةُ المنسوجة من القصب واليد الجلدية: وهى حلقة، ذات إستدارة قصيرة وضيِّقة. كان السنيور بدريتو يضعها على مدخل المنزل وكل شهر كان لونيرو يصل إلى النجع عند قدم سلسلة الجبال بالعصا الغليظة التى يستعملها في الضيعة لنقل دلاء الماء ويعود واضعاً إياها على كتفيه والدمجانات مربوطة فيها وتتأرجح، لأن البغلة التى كانت موجودةً من قبل قد

ماتت. كان هذا النجع عند قدم الجبل هو الجوار الوحيد. يسكنه ثلاثمائة شخص ويظهر بالكاد من خلال بضع بُقع من القرميد بين الأغصان التى، بقدر ما يغرس صخرُ الجبل جذوره، تبرزُ خشنةً على السفح الناعم الذى يُرافقُ النهرَ في مساره حتى البحر القريب.

خرج الطفل من الكوخ وجرى عبر درب الأعشاب البرِّية التى تحيط بالجذوع الرمادية الناعمة لأشجار المانجو؛ وقاده المنحدر الطينى، تحت السماء التى تخفيها الزهور الحمراء والثمار الصفراء، إلى ضفة النهر حيث كان لونيرو يفتح، بضربات الساطور، فرجةً بجوار النهر ـ الذى يبدأ في الإتساع هنا، ومازال متلاطماً ـ من أجل العمل اليومى. وصل الخلاسىُ ذو الذراعين الطويلتين وهو يحزم بنطلونه الخفيف، المتسع الفتحات من طرفيه، مُذكِّراً بموضه بحريةٍ ضائعة ما. تناول الطفل السروال القصير الأزرق الذى قضى الليل، وهو يجفُّ على مهل، على حلقة الحديد المشغول الصدئة التى يقترب منها الآن لونيرو. كانت بعض قطع لحاء المنجروف ترقد، مفتوحةً ومُصنفرة، وفتحاتها داخل الماء. توقف لونيرو برهةً، وقدماه غائصتان في السَبَخ. باتجاه البحر، كان النهر يوسِّعُ تنفُّسَه ويهدهد كتلاً متزايدةً من الأعشاب البرِّية ونباتات الموز. كانت أعواد الغاب تبدو أعلى من السماء، لأن هذه كانت مستويةً، نابضةً، واطئة. كان الإثنان يعرفان ما يجب عمله. تناول لونيرو الصنفرة وواصل تلميع قطع اللحاء، بقوةٍ جعلت أعصاب معصمه السميكة تتراقص. جذب الطفل كرسياً أعرجَ ومُسَوَّساً ووضعه داخل الحلقة الحديدية، المرتكزة على عمودٍ محورى من الخشب. من الفتحات العشر المثقوبة في الحلقة كانت تتدلى عشرً فتائل من الخيط. أدار الطفل الحلقة ثم قرفص ليشعل النار تحت الإناء: تصاعدت الفقاقيع من كثافة شمع الآس الذائب؛ دارت الحلقة؛ وأخذ الطفل يسكب الشمع في الثقوب.

ـ قريباً سيحلّ عيد التطهُّر ـ قال لونيرو وثلاثةُ مساميرٍ بين أسنانه.

ـ متى؟

أضاءت النار الصغيرة تحت الشمس عينى الطفل الخضراوين.

ـ اليوم الثانى من الشهر، أيها الطفل كروث، اليوم الثانى، عندها سنبيع المزيد من الشموع، ليس فقط للقريبين منا، بل لكل الناحية. يعرفون أن أفضل الشموع تأتى من هنا.

ـ أتذكَّرُ العام الماضى.

أحياناً، كان الشمعُ الساخن يلسعه كالسوط؛ وكان فخذا الصبى مُبَقَّعين بندوب صغيرة مستديرة.

ـ إنه اليومٌ الذى يبحث فيه حيوان المارموتا* عن ظلّه.

ـ وكيف تعرف هذا؟

ـ إنها حكاية حملها الناس من مكان آخر.

توقف لونيرو وأمسك شاكوشاً. جعَّدً جبهته الداكنة.

ـ أيها الطفل كروث، هل تعتقد أنك أصبحت تعرف كيف تصنع الزوارق الخفيفة؟

الآن كَسَت وجه الصبى إتسامةٌ واسعةٌ بيضاء. وأبرزت الإنعكاسات الخضراء للنهر ولأعواد الغاب الرطبة ذلك التشكيل الشاحبَ، العظمى للوجه. وتجعَّد الشعرُ الذى صفَّفه النهرُ، فوق الجبهة العريضة، والرقبة الداكنة. كانت الشمس قد كسته بظلال نحاسية لكن جذوره ظلت سوداء. وسرى لون الفاكهة الخضراء في كلٍّ ذراعيه النحيلتين وصدره الصلب، الذى صنعته السباحةُ ضد التيار، مع أسنانٍ لامعة في قهقهة الجسد الذى أنعشه النهرُ ذو القاع المليَ

* la marmota : أحد القوارض ذات الأرجل القصيرة والذيول القصيرة يقوم بالبيات الشتوى في حُفَر أو أوجرة. يعنى إسمه اللاتينى فأر الجبل–م

بالأعشاب والضفاف الموحلة. ـ نعم أصبحتُ أعرف. فقد رأيتُ كيف تصنعها.

خفض الخلاسى عينيه الخفيضتين من تلقاء ذاتهما، الهادئتين لكنهما يقظتان. ـ إذا ذهب لونيرو، هل ستعرف كيف تصنع كل الأشياء؟

كفَّ الطفلٍ عن إدارة الحلقة الحديدية. ـ إذا ذهب لونيرو؟

ـ إذا إضطرَّ للذهاب.

فكر الخلاسى أنه لا يجب أن يقول شيئاً؛ لن يقول شيئاً، سيمضى مثلما مضى ذووه، دون قول أى شئ، لأنه يعرف ويقبل المقدور ويشعر بهوَّةٍ من الأسباب والذكريات بين تلك المعرفة وذلك القبول وبين معرفة ورفض الرجال الآخرين؛ لأنه يعرف الحنين والتجوال. ورغم معرفته بأنه لا يجب أن يقول شيئاً، فقد كان يعرف أن الطفل ـ رفيقه الدائم ـ رأى بفضول، ورأسه مائلة، الرجلَ ذا المعطف الفراك المحبوك والمتصبِّب عرقاً الذى بحث بالأمس عن لونيرو.

ـ أنت تعرف، بيع الشمع في القرية وصنع المزيد حين يحين عيد التطهر؛ وحمل الزجاجات الفارغة كل شهر وترك الخمر للسينور پدريتو على بابه... صنع الزوارق الخفيفة والهبوط بها جميعاً مع النهر كل ثلاثة أشهر... وبالطبع، تسليم قطع النقود الذهبية إلى باراكوا، كما تعرف، مع الاحتفاظ لنفسك بقطعة منها وصيد السمك هنا في هذا المكان...

لم تعد الفرجة الضيقة بجوار النهر تنبض بخشخشة الحلقة الصدئة ولا بضربات المطارق الناعسة للخلاسى. فقد تصاعد وشيش المياه السريعة، التى تحتجزها الخضرة، والتى تحمل تفل القصب والجذوع الساقطة في العواصف الليلية والأعشاب المتموِّجة من حقول أعالى النهر. وخفقت الفراشات السوداء والصفراء، بإتجاه البحر

أيضاً. ترك الطفل ذراعيه تسقطان وساءل نظرة الخلاسى الخفيضة.

- هل ستذهب؟

- أنت لا تعرف كل حكايات هذا المكان. في زمن آخر كانت كل الأراضى، حتى الجبل، مملوكة لقوم هذا المكان. ثمَّ ضاعت. مات السيد الجدّ. وجُرح السيد أتاناسيو جرحاً بليغاً نتيجة خيانة وظلت جميع الأراضى دون زرع. أو إنتقلت إلى آخرين. لم يبق سواى وتركونى في سلام أربعة عشر عاماً. لكن كان لابد أن تحين ساعتى.

توقَّفَ لونيرو، لأنه لم يدر كيف يُكمل. شتَّتت الحوافُ المُفضَّضة للمياه إنتباهه وطالبته عضلاته بأن يواصل العمل. منذ ثلاثة عشر عاماً حين سلَّموه الطفلَ، فكَّر أن يُرسلهُ عبر النهر، ترعاه الفراشات، مثل الملك القديم في حكايات البيض، وينتظر عودته، قوياً وعظيماً. لكن موت السيد أتاناسيو أتاح له الإحتفاظ بالطفل، دون حتى أن يتشاجر مع السنيور پدريتو، الذى لم يكن قادراً على تشتيت إنتباهه ولا على الجدال، ودون أن يتشاجر مع الجدَّة التى كانت بالفعل تحيا حبيسة تلك الغرفة الزرقاء ذات الستائر المخرَّمة والنجف الذى يخشخش في الإعصار والتى لن تنتبه أبداً لنمو الصبى على بعد أمتار قليلة من جنوبها المطبق. نعم، مات السيد أتاناسيو في موعدٍ مناسبٍ جداً؛ فقد كان سيأمر بقتل الطفل؛ وقد أنقذه لونيرو. إنتقلت آخرً حقول التبغ إلى أيدى الزعيم المحلىِّ الجديد ولم يبق لهم سوى هذا النطاق من الضفة وأعواد الغاب والحدود القديمة للمنزل مثل وعاءٍ قديم مشروخ. رأى كيف إنتقل كلُّ العمال إلى أراضى السيد الجديد وكيف بدأ في الوصول رجالٌ جدد، مجلوبين من أعالى النهر للعمل في المزروعات الجديدة وكيف تم إنتزاع الرجال من القرى والضياع الأخرى وكان عليه هو، لونيرو، أن يخترع أعمال الشموع والزوارق الخفيفة تلك ليكسب بواسطتها ما يُقيم أود الجميع ويعتقد أن أحداً

لن ينتزعه من قطعة الأرض المجدبة تلك، التى هى مجرد ظِفْر بين النهر والمنزل المتهَدِّم، لأن أحداً لن يُمعن النظر فيه، وهو ضائعٌ بين الأطلال النباتية مع صبيِّه الصغير. إستغرق الزعيم المحليَّ أربعة عشر عاماً في الإنتباه إلى وجوده، لكنه كان لابد أن ينتهى ذات يوم من تفتيشه العنيد للإقليم، حتى يعثر على آخر إبرةٍ ضائعةٍ فيٍ القش. ولهذا السبب كان قد قدِم عصر الأمس، يخنقُه المعطَفُ الأسود ويتصبَّبُ العرقُ من صدغيه، ناظر زراعة الزعيم المحليَّ، ليقول للونيرو أن عليه أن يذهب في الغد بالذات - اليوم - إلى ضيعة السيِّد في جنوب الولاية، لأن عمال التبغ الجيدين قليلون ولأن لونيرو قضى أربعة عشر عاماً يكدح لرعاية رجل سكِّير وامرأة عجوز مجنونة. وهذا كله ما لم يعرف لونيرو كيفً يقصُّه على الطفل كرُوث، فقد بدا له أنه لن يفهم. الطفل الذى لم يعرف سوى العمل بجانب النهر وطزاجة الماء قبل الغداء؛ والرحلات إلى شاطئ البحر، حيث يُهدونه الكابوريا الحية من البحر والنهر وإلى القرية القريبة، قرية الهنود حيث لا يكلِّمه أحد. لكن الحقيقة أن الخلاسى كان يعرف أنه إذا بدأ في جذب خيط الحكاية، فإن النسيج كلَّه سيتفكَّك وسيكون عليه أن يصل إلى نقطة البداية ويفقد الطفل. وهو يحبه - هذا ما قاله لنفسه الآن الخلاسى ذو الذراعين الطويلتين، وهو منحن بجانب اللحاء المصنفر - ؛ أحبه منذ أن طردوا أخته إيسابيل كرُوث منهالين عليها ضرباً وسلَّموه الطفل وأطعمه لونيرو في الكوخ بحليب العنزة العجوز التى بقيت من ماشية ال منشاكا ورسم له في الطين تلك الحروف التى كان قد تعلمها في طفولته، حين كان خادماً لدى الفرنسيين في بيراكروث وعلَّمه السباحة، والتمييز بين الثمار وتذوُّقها، واستخدام الساطور، وصنع الشموع، وغناء أغنياتٍ هى التى جلبها والد لونيرو من

سانتياجو دى كوبا، حين نشبت الحرب وانتقلت العائلات مع خدمها إلى بيراكروث. وهذا كل ما كان لونيرو يريد أن يعرفه عن الطفل. وربما لم يكن ضرورياً معرفة المزيد، إلاّ أن الطفل كان هو أيضا يحب لونيرو ولا يريد العيش بدونه. كانت تلك الظلال الضائعة للعالم - السنيور پدريتو، والهندية باراكوا، والجدَّة - تتقدَّم الآن إلى الصدراة كأنها مُدية، لتفصله عن لونيرو. وكانوا هم من يمثلون الشئ الغريب، المنفصل عن الحياة المشتركة مع صديقه. وهذا كل ما كان الطفل يفكر فيه وكل ما يفهمه.

- إنتهبه لأن الشموع ستنقص وسيغضب القس - قال لونيرو.

هزَّت نسمةٌ غريبة أطراف الشموع المعلَّقة؛ وأطلق ببغاءٌ أمريكى مذعور صيحة الظهيرة.

نهض لونيرو واقفاً وخاض في النهر؛ وفي وسط التيار كانت الشبكة. غاص الخلاسيُ وطفا والشبكة الصغيرة معلقةٌ من إحدى ذراعيه. نزع الطفل سرواله وقذف نفسه في الماء. أحسّ، كما لم يحسّ مطلقاً من قبل، بالانتعاش في كل ثنايا جسده؛ غطس وفتح عينيه: كانت التماوجات البللورية السطحية، السريعة، تتدفق فوق قاع طينى أخضر. وإلى أعلى النهر، إلى الوراء - فالآن ترك التيار يحملهُ، مثلَ سهم - كان ذلك المنزل الذى لم يدخله أبداً، خلال ثلاثة عشر عاماً، وفيه ذلك الرجل الذى لا يُرى إلاّ من بعيد وتلك المرأة التى لا يعرفها إلاّ بالإسم. أخرج رأسه من الماء. كان لونيرو قد شرع فعلاً في شواء السمك وفي فتح ثمرة پاپايا* بساطوره.

وما أن إنقضت الظهيرة، حتى إنزلقت أشعة الشمس على سقف أوراق الشجر الإستوائية، وهى تضرب، بقوةٍ، منذ أخذت في

* Papaya : ثمرة تشبه الشمامة الصغيرة ذات لحم أصفر ولذيذ-م

الهبوط نحو المغيب. إنها ساعة الأغصان الثابتة، حين لا يبدو حتى أن النهر يجرى. تمدَّد الطفل عارياً تحت النخلة الوحيدة وأحسّ بحرارة الأشعة التى أخذت تُباعد أكثر فأكثر ظلَّ الجذع والسعف. بدأت الشمس مسارها النهائى؛ ورغم ذلك، بدا أن الأشعة المائلة تصعد مضيئةً، مسامَّ جسده كلِّه واحداً فواحد. أضاءت قدميه أولاً، حين إتكأ على القاعدة العارية. ثم الساقين المفتوحتين وعضوه النائم، والبطن المستوية والصدر الذى إكتسب صلابته في الماء، والعنق الطويل والفك البارز، حيث بدأ الضوء يحفر وهدتين عميقتين، ملتصقتين مثل سهمين مشدودين بالوجنتين الصلبتين اللتين تؤطِّران صفاء العينين الضائعتين، ذلك الأصيل، في القيلولة العميقة والهادئة. نام هو وكان لونيرو، على مقربة، قد استلقى على بطنه وأخذ ينقر بأصابعه على الإناء الأسود. أخذ يتملكه إيقاعٌ. لم يكن التراخى الظاهرى للجسد المستلقى سوى التوتر التأمُّلى لذراعه الراقصه، التى تنتزع نغماتٍ مُركَّزةٍ من الآنية وبدأ يغمغم، مثل كلِّ أصيل، بالذاكرة المستعادة لإيقاع يتسارع رويداً رويداً، بأغنية الطفولة والحياة التى لم يعشها، حين كان أجدادُه يُتوِّجون أنفسهم، بجوار شجرة ثيْبا* ceiba ، بقلنسواتٍ مزيَّنة بالأجراس ويفركون أذرعهم بالروم وكان ذلك الرجل جالساً على الكرسى ورأسُه مغطَّاةٌ بقماش أبيض والجميع يشربون حتى ثُمالةِ السُكَّر الأسود مزيج الذرة والنارنجِ ويُعلِّمون الأطفال أنهم لا يجب أن يُصفِّروا بالليل:

توه...

---

* شجرة أمريكية استوائية ضخمة–م

بنت يى بيه...
تحب زوج... إمرأة ثانية...
توه، بنت يى بيه، تحب زوج، إمرأة ثانية...
توهبنت يى بيه تحب.

أخذ الإيقاعُ يتملّكه. فرد ذراعيه ولمس أطراف الأرض الرطبة وظل ينقر فوقها بأصابعه ويلطِّخُ بطنه بطينها وافترَّ ثغره عن إبتسامة واسعة شققت خديه الملتصقين بالعظام العريضة: **تحبزوجامرأ ثانية**... إنصبَّت شمسُ الأصيل فوق رأسه المستديرة والجعداء ولم يستطع النهوض من وضعه، وهو يتصبَّب عرقاً من جبهته، ومن إبطيه، ومن بين فخذيه وأخذت الأغنية تزداد صمتاً وعمقاً. وكلما خَفَتَتَ كلما أحسّ بها أكثر وكلما إلتصق بالأرض أكثر، كأنه يضاجعها. **توهبنتيييه**: أخذت تتفتّح إبتسامته، وأخذ يتفتّح فيه نسيان الرجل ذى المعطف الأسود، الذى سيأتى ذلك المساء، فهو، فعلاً ذلك المساء. وكان لونيرو ضائعاً في غنائه وفي رقصه المنطرح الذى كان يذكّرُه بالقبر، يذكّرُه بالقبر الفرنسى وبالنساء المنسيّات في سجن هذا المنزل المحترق.

وإلى الوراء، كانت أوراق الشجر ومنزل الضيعة الذى يحلم به، بين أحلامه، الطفلُ الذى تغمره الشمس. تلك الجدران المسودَّة التى أُحرقت حين مر من هنا الليبراليون خلال الحملة الأخيرة ضد الإمبراطورية، بعد موت مكسيميليانو، وعثروا على العائلة التى كانت قد أعارت مخادعها للماريشال رئيس القوات الفرنسية وأقبية خمرها للقوات المحافظة. وفي ضيعة كوكويا تزوَّد جنود نابوليون الثالث ليخرجوا، بالبغال المحملة بالأطعمة المحفوظة، والفاصوليا، والتبغ، لسحق مواقع رجال عصابات خواريث في الجبل، التى كانت

تنطلق منها تلك العصابات من العصاة لتناوش المعسكرات الفرنسية في السهل وقلاع مدن بيراكروث. وبالقرب من الضيعة، وجد الزواويون* جماعات القيثار والهَآرِب الذين يُغنون **بالاخو ذهب إلى الحرب ولم يشأ أن يأخذني معه** وأبهجتهم لياليهم بجوار الهنديّات والخلاسيات اللائى مضين في تلك الأرجاء تلدن مُهجّنين شُقراً، وخلاسيين ذوى عيون صافية وجلد أسمر، حملوا ألقاب جاردونيو وآلباريث بينما كان الواجب أن يُدعَوا دوبوا وجارنييه. نعم، في نفس الأصيل الذى بطَّطته الحرارة، كانت العجوز لوديبينيا، الحبيسة إلى الأبد في مخدعها ذى النجف العبثى - نجفتان معلّقتان من السقف الواطئ المطلى بالجير، وأخرى في الركن بجانب الفراش ذى الأعمدة المحفورة - وستائر المخرَّمات المصفرَّة، تُمرّوح لها الهندية باراكوا التى فقدت إسمها الأصلى لتتلقّى هذا الإسم من سكان الضيعة شبه الزنوج، والذى لا يناسبها** بمنظر وجهها الجانبى الشبيه بالنسر وضفائرها الكثّة: كانت العجوز لوديبينيا تدندن وعيناها مفتوحتان جيداً بتلك الأغنية اللعينة التى ما كانت لتتذكرها، لو إنتبهت، لكنها رغم ذلك تريد التلذُذ بها، لأنها تسخر من الجنرال خوان نبوموثينو ألمونتى، الذى كان في البداية صديقاً للدار وزميلاً للمرحوم إرينيو منشاكا، زوج لوديبينيا، وعضواً في بلاط سانتا آنّا وبعدها، حين أراد مُخلِّص المكسيك والحامى الكبير لآل منشاكا - حامى حيواتهم وضياعهم - العودة من منفاه الألف وهبط من سفينته وعولج من نوبة دوسنتاريا، تنكّر لولاءاته القديمة، وجعل الفرنسيين يعتقلونه ويعيدونه إلى السفينة من جديد: San

* Zouaves = los zuavos : مشاه فرنسيون من أصل جزائرى ومغربى يرتدون ملابس شرقية زاهية -م

** Baracoa: يُطلق في كوبا على نوع من الغاب الطويل النحيل البالغ المرونة - م

Juan de nepomuceno, la monda . تتـذكـر لوديبـينـيـا الوجـه الداكن لخوان نبوموثينو ألمونتى، إبن النساء الألف المجدورات للقس موريلوس وتزُمُّ فمها الممصوص، الخالى من الأسنان، حين تتذكر المقطع الفاحش لتلك الأغنية الملعونة لأنصار خواريث الذين قتلوا الجنرال سانتا آنا إذلالا: ... **وماذا ستظن إذا جاء اللصوص، وسرقوا أمك وأنزلوا سروالها**...* قرقرت لوديبينيا ضاحكةً وطلبت من الهندية بإشارةٍ أن تزيد سرعة مروحة السعف. كانت الغرفة الكئيبة، المدهونة بالجير، تفوح بجوٍ إستوائى مكتومٍ، مُستبدلٍ، متنكرٍ في هيئة برد.

كانت بقع الرطوبة الضخمة على الجدران تروق للعجوز، لأنها تجعلها تفكر في مناخاتٍ أخرى، مناخات طفولتها قبل أن تتزوج من الملازم إرينيو منشاكا وتتضمَّ إلى حياة ومصير الجنرال أنطونيو لوبث دى سانتا أنا وتحصل بإرادته على الأراضى الخصبة بجوار النهر، وهى أراضٍ سوداء وشاسعة ملاصقةٌ للجبل والبحر. **هناك في فرنسا، جويرى جويرا، مات بنيتو خوارث، وانتهت الحرية**. والآن تحولت تقطيبتها إلى تكشيرة إستياءٍ شققت إلى ألف قشرةٍ مكسوَّة بالبودرة وجهها الذى ظلت توحِّده شبكةٌ دقيقة من الشعيرات الدموية الزرقاء. أبعدت مخالبُ لوديبينيا المرتجفة باراكوا بإيماءةٍ أخرى وهزت كُميها الحريريين الأسودين وقبضتيها المكسوتين بالدانتيلا الممزقة. دانتيلا وكريستال، لكن ليس ذلك فقط: فثمة مناضدٍ من البلوط المشغول بأسطح من المرمر الثقيل تستقر فوقها الساعات التى تعلوها الأجراس الزجاجية، بقوائم محنيةٍ ذات كرات؛ وكراسى هزَّازة من

---

*عبارة عن أغنية سخريةٍ من مكسميليان، الذى تولى عرش المكسيك بمساعدة سان خوان نبوموثينو المونتى، الإبن غير الشرعى لموريلوس بطل الاستقلال-م

الخيزران فوق الأرضية الطوب، تغطيها فساتين القطن الثقيلة التى لم تعد تُستخدم أبداً، وألواح مشطوفة، ومسامير من البرونز، وخزانات ذات مصاريع وفتحات مفاتيح من الحديد، وصور شخصية بيضاوية لكريوليين مجهولين، متصلّبين، مدهونين بالورنيش، لهم سوالف منفوشة وصدور عالية وأمشاطٌ من العظم، وإطارات من الصفيح للقديسين وللمسيح طفل أتوتشا، وهذا الأخير منسوخٌ على القماش السميك القديم، المتآكل، الذى لا يكاد يحتفظ بالطبقة الأولى من القشرة الذهبية، والسرير المكسوّ بطبقة من الصفيح المفضّض وله قبّة وأعمدة محفورة، مستقرُ الجسد المستنزف، عشُّ الروائح الحبيسة والملاءات المبقعة، وانبعاجات وانتفاخات القش الذى يظهر من تمزقات الحشيَّة.

لم يكن الحريق قد وصل إلى هذا المكان. ولا خير الأراضى الضائعة والإبن المقتول في كمين والطفل المولود في كوخ الزنوج: لم تصل الأخبار، لكن وصلت التوقعات المسبقة.

- أيتها الهندية، أحضرى إبريق ماء.

إنتظرت أن تخرج باراكوا ثم إنتهكت كلَّ القواعد، أزاحت الستائر وقطَّبت وجهها لتتجسس على ما يجرى هناك في الخارج. كانت قد رأت ذلك الطفل المجهول ينمو؛ تجسست عليه من النافذة، من وراء الدانتيلا. كانت قد رأت نفس العيون الخضراء وقرقرت من السرور لمعرفة أنها موجودةٌ في جسدٍ آخر فتىّ، هى التى تحمل ذاكرة قرن كامل منقوشةً في ذهنها وفي تجاعيد وجهها طبقاتٍ من الهواءٍ والأرضِ والشمس التى إختفت جميعها. لقد واصلت. لقد بقيت على قيد الحياة. أجهدها الوصول إلى النافذة؛ مشت على أربع تقريباً، وعيناها مُثبَّتتان على ركبتيها ويداها تتشبثان بفخذيها. كانت رأسها ذات الخصلات البيضاء مختفيةً بين كتفيها، اللذين يبدوان أحياناً

أعلى من جمجمتها. لكنها بقيت على قيد الحياة. ظلَّت هنا، تحاول من فراشها المشعث القيام بمهام الشابة الجميلة البيضاء التى فتحت أبواب كوكويا أمام الاستعراض الطويل للمطارنة الإسبان، والتجار الفرنسيين، والمهندسين الاسكتلنديين، والبريطانيين باعة السندات، والمرابين والقراصنة الذين مرُّوا من هنا في مسيرتهم نحو مدينة مكسيكو والفرص التى ينطوى عليها البلد الفتى، الفوضوى: بكاتدرائياته الباروكية، ومناجم ذهبه وفضته، وقصوره من الصخر البركانى والأحجار المنحوته، وإكليروسه المساومين، وكرنفاله السياسى الأبدى وحكومته الواقعه في دين دائم، وامتيازاته الجمركية السهلة للأجنبى ذى الحديث المبطّن. كـانت تلك هى الأيام المجيدة في المكسيك، حين ترك آل منشاكا الضيعة في أيدى الأبن الأكبر، أتاناسيو، حتى يصبح رجلاً من خلال التعامل مع الأجراء، واللصوص، والهنود وصعدوا إلى الهضبة ليتألقوا في البلاط الوهمى لصاحب الجلالة الملكية. كيف كان يمكن أن يحيا الجنرال سانتا آنا بدون رفيقه القديم منشاكا - الذى أصبح مُقدِّماً الآن - الذى كان خبيراً بالديكة وحَلَبات القتال وكان يمكنه قضاء الليل في الشراب وفي تذكُّر خطَّة كاساماتا، وحملة بارّاداس، وإل آلامو، وسان خاثينتو، وحرب الحلوى، وحتى الهزائم أمام جيش اليانكى الغازى، التى كان القائد العام يشير إليها بضحك كلبى، وهو يضرب الأرض بساقه الخشبية ويرفع كأسه ويربِّتُ الشعرَ الأسوَد لزهرة المكسيك، الزوجة - الطفلة التى حُملت إلى الفراش الذى مازال دافئاً من الاختلاجه الأخيرة لزوجته الأولى؟ وكانت أيام الأسى، حين تم طرد السيد من المكسيك من جانب الجماعة الليبرالية وعاد ال منشاكا إلى الضيعة ليدافعوا عما يملكون: آلاف الهكتارات التى منحها الطاغية الأعرج هاوى الديكة؛ والتى جرى تملُّكها دون استئذان الفلاحين الهنود الذى توجَّب عليهم أن يبقوا

كأجُراء أو ينسحبوا إلى سفح الجبل: والتى تمت زراعتها بواسطة العمالة الزنجية الجديدة، الرخيصة، من جزر الكاريبيّ، والتى جرى توسيعها بفضل تقاضى الرهونات المفروضة على كل المُلاَّك الصغار في الإقليم. أكوام التبغ المفروشة لتجف. والعربات المملوءة عن آخرها بالموز والمانجو، وقطعان الماعز التى ترعى على أولى مرتفعات السييرا مادري. وفي المركز المنزلُ ذو الطابق الواحد، ببرجه الملوَّن واسطبلاته التى تُدوِّى بالصهيل، ونزهاتهم في الزورق والعربة المكشوفة. وأتاناسيو، الإبن ذو العينين الخضراوين، المتَّشح بالبياض فوق الحصان الأبيض، المُهدى هو أيضا من سانتا آنا، وهو يخبُّ فوق الأراضى الخصبة والسوط في قبضته، مستعداً لفرض إرادته الحاسمة، لإشباع شهيَّته النهمة بالفلاحات الشابات، للدفاع بعصبة الزنوج المجلوبين عن سلامة الأراضى ضد الغارات المتزايدة باستمرار لأنصار خوارث. **يحيا المكسيك أولاً، تحيا أمتنا، وليَمُت الأمير الأجنبى**... والأيام الأخيرة للإمبراطورية، حين أخبروا العجوز إرينيو منشاكا أن سانتا آنا قد عاد من المنفى ليعلن جمهورية جديدة: خرج العجوز في عربته المكشوفة السوداء إلى بيراكروث حيث كان ينتظره زورقٌ في المرفأ وفوق **السفينة فيرجينيا**، بالليل، أرسل سانتا آنا وقراصنته الألمان إشاراتٍ أمام سان خوان دى أولوا دون أن يردّ عليهم أحد. كانت حامية الميناء موالية للإمبراطورية وهزأت بالطاغية المعزول الذى كان يروح ويجئ فوق سطح السفينة، تحت الأعلام المثلَّثة، يائساً، وهو يبصق الهراء من شفتيه المكتنزتين. وانتفخت الأشرعة من جديد ولعب الصديقان القديمان الورق في قمرة القبطان اليانكى: أبحروا فوق بحر ملتهب، بطئ، لا يكاد يظهر منه خط الساحل، الضائع خلف ستار من الحرارة. من الإطار المُزين للسفينة، رأت عينا الدكتاتور الحانقتين الخط الخارجى الأبيض لبلدة سيسال. وهبط الأعرج العجوز يتبعه رفيقه

القديم، وأصدر بياناً لسكان يوكاتان وعاود العيش في حلم عظمته: كان مكسيميليانو قد حُكم عليه بالموت لتوّه في كيريتارو وكان للجمهورية الحق في الإعتماد، مرةً أخرى، على الإخلاص الوطنى لزعيمها الطبيعى والأصيل، لملكها غير المتوج. حكوا هذا للوديبينيا: كيف قبض عليهم قائد سيسال، وكيف أرسلوا إلى كامبيتشى، وهناك، كيف طافوا بهم الشوارع وأيديهم في الأغلال، بين لكزات فصيل الجنود، مثل لصوص عاديين، كيف ألقوا بهم في زنزانة السجن. وكيف مات المقدّم العجوز منشاكا في ذلك الصيف دون مراحيض، المنتفخ بالمياه الملوثه، بينما أعلنت الصحف الأمريكية الشمالية أن أنصار خوارث قد أعدموا سانتا آنا، مثلما تم إعدام أمير تريبستا البرئ. لا: فجثة إرينيو منشاكا هى وحدها التى دُفنت في المقبرة المواجهة للخليج، واضعة نهاية لحياةٍ من الصُدف والمراهنات، مثل حياة البلاد ذاتها وأما سانتا آنا فقد خرج من جديد إلى المنفى، وعلى وجهه التقطيبة الدائمة لجنون مُعَد.

قال لها ذلك أتاناسيو، تذكرت العجوز لوديبينيا في هذا الأصيل الحار، ومنذ ذلك الحين لم تعد تخرج من الغرفة وحملت إليها أفضل ملابسها، وشمعدان حجرة الطعام، والصناديق المطلية. وأفضل اللوحات ورنيشاً. إنتظاراً للموت الذى قدرت رأسها الرومانسية أنه وشيك، لكنه تأخر خمسةً وثلاثين عاماً ضائعة، لا تُعَدُّ شيئاً بالنسبة لإمرأة في الثالثة والتسعين، وُلدت عام الإنتفاضة الأولى، حين تعالت قعقعة العصى والحجارة في أبرشيه دولورس ووضعتها أمها في منزلٍ أُوصدت أبوابه من الرعب. كانت تقاويمها الزمنية قد ضاعت ولم يكن هذا العام ١٩٠٣ بالنسبة لها سوى زمن مسروق من الموت العاجل نتيجة الأسى والذى كان يجب أن يتلو موتَ المقدَّمً. كذلك لم يحدث، عام ٦٨، حريق المنزل، الذى توقف عند أبواب المخدع المغلق بينما

إبناها ـ كان هناك آخر، لم يكن أتاناسيو وحده، لكنها لم تكن تحب سواه ـ يصرخان فيها أن تنجو بجلدها وهى تكوِّم الكراسى والمناضد خلف الباب وتسعل ذلك الدخان الكثيف الذى كان يتسلل من كلِّ الشقوق، لم تعد تريد أن ترى أحداً، إلاّ الهندية لإحتياجها لمن يحضر لها الطعام ويرفو لها الثياب السوداء. وبين الجدران الأربعة فقدت وعيها بكل شئ، إلاّ ما هو جوهرى: ترمُّلها، والماضى، وبغتةً، ظهر ذلك الطفل الذى يركض دائماً على البعد، وهو يدوس أذيال خلاسىٍ مجهول.

ـ أيتها الهندية، أحضرى إبريق ماء.

لكن بدل باراكوا، ظهر على الباب ذلك الشبح الأصفر. صرخت لوديبينيا في صمت وتراجعت إلى عمق الفراش: انفتحت العينان الغائرتان بفزع وبدا أن جميع قشور الوجه قد تحوَّلت إلى تراب. توقف الرجل الذى ظهر عند العتبة ومدّ يداً مرتعشةً.

ـ أنا پدرو...

لم تفهم لوديبينيا. منعها إرتجافها من الكلام لكن ذراعيها استطاعتا الإهتزاز، لطرد الأرواح الشريرة، لإخفاء نفسها في دوامة من الأقمشة السوداء. بينما تقدم الشبح الشاحب وفمه مفتوح:

ـ هه... پدرو ... هه... ـ قال وهو يحكُّ ذقنه الملطخة والقليلة الشعر. پدرو...

بتلك الحركة العصبية في جفنيه. لم تفهم العجوز المشلولة ما قاله ذلك الرجل الناعس، الذى تفرح منه رائحة العرق والكحول الرخيص: ـ هه... لم يبق شئ، أتعرفين؟... كل شئ... إلى الشيطان... والآن... ـ تمتم، بعويلٍ جاف ـ يأخذون الزنجى؛ لكنك لا تعرفين، يا ماما...

ـ أتاناسيو...

- هه... پدرو - ألقى السكير بنفسه فوق الكرسى الهزاز وباعد ما بين ساقيه، كأنه قد وصل إلى مرفأ الرحيل - يأخذون الزنجى... الذى يطعمنا... أنت وأنا...

- لا؛ خلاسىّ؛ خلاسىّ وطفل...

كانت لوديبينيا تستمع، لكنها لم تنظر إلى الشبح الذى كان قد جلس ليتحدث معها، فأى صوتٍ يُسمع داخل الكهف المحظور لا يمكن أن يكون له جسد.

- خلاسىّ، إذن، وطفل... هه؟

- أحياناً يركض هناك عن بعد. لقد رأيته. وهو يجعلنى أشعر بالرضى. إنه طفل.

- جاء ناظر العمال ليبلغنى... لينتزع منى النوم في عز حرارة الشمس... يأخذون الزنجى... ماذا سنفعل؟

- يأخذون زنجياً؟ المزرعة مليئة بالزنوج، يقول المقدِّم أنهم أرخص ويعملون أكثر. لكن إذا كنت تحبه إلى هذا الحد، إرفع ثمنه إلى ستة ريالات.

وظلاّ، تمثالين من الملح، يفكران فيما سيكونا قد أرادا قوله فيما بعد، حين سيكون قد فات الأوان، حين لن يعود الطفل بينهما. حاولت لوديبينيا أن تُقرِّب بصرها من الحضور الذى كانت تنكر وجوده: من سيكون، الرجل الذى قام عن قصدٍ، اليوم فقط، بنفض التراب عن أفضل ثيابه ليخطو الخطوة المحرَّمة؟. نعم: الصديرى الدانتيلا، الذى بقَّعه الطحلب بفعل التخزين في جو استوائى، والبنطلون الضيق، المحبوك بإفراط، المفرط الضيق عَلى الكرش الصغير لذلك الجسد المنهك. لم تكن الثياب العتيقة تتحمَّل حقيقة العرق المعتاد - التبغ والعرق - وكانت العينان الشفافتان غريبتين على كلِّ التوكيد والأناقة اللتين تفترضهما الثياب: إنهما عينا سكِّير دون

خبث، غريب عن كلٍّ تعامل منذ أكثر من خمسة عشر عاماً. آه ـ تنَّهدت لوديبينًيا، عالية فوقً فراشها المشعث، مُسلِّمةً في النهاية بأن لذلك الصوت وجه ، هذا ليس أتاناسيو ، الذى كان كأنه إمتدادٌ ذكوريٌ لأمه: هذا هو الأم نفسها، لكن بلحية وخصيتين ـ حلمت العجوز ـ وليس الأم، كما كانت ستكون في الذكورة، مثلما كان أتاناسيو؛ ولهذا السبب أحبِّت إبناً ولم تحب الآخر ـ تنهدت ـ أحبَّت الإبن الذى عاش دوماً وجذوره ضاربةٌ في المكان الذى كان من نصيبهم في الأرض ولم تحب الذى أراد، حتى في هزيمة القضية، أن يواصل الاستمتاع، هناك إلى أعلى، في القصور، بما لم يعد ملكاً لهم: ـ تيقنت ـ: بينما كان كل شيءٍ ملكهم، كان لهم الحق في فرض وجودهم على البلد بأسره: ـ تشككت ـ: حين لم يعودا يملكون شيئاً فإن مكانهم هو داخل هذه الجدران الأربعة.

تأملت الأم والإبن بعضهما، وبين الإثنين يقوم جدارٌ من الإنبعاث.

(ـ هل جئت لتقول لى أنت ما من أراض ولا عَظَمة لنا، أن آخرين قد إستغلّونا كما قمنا نحن باستغلال الأولِين، الملاّك الأصليين لكل شئ؟ هل جئت لتحكى لى ما أعرفه، في قرارة نفسى، منذ الليلة الأولى لحياتى كزوجة؟

(ـ جئت بذريعة. جئت لأننى لم أعد أريد أن أكون وحيداً.

(ـ وَددّت لو تذكرتك وأنت طفل، أحببتك عندئذ، ففى الشباب يجب على الأم أن تحب كل أبنائها. أما في شيخوختنا فنعرف الأمور أفضل. لا داعى لحب أى شخص دون سبب. والدم الطبيعى ليس سبباً. السبب الوحيد هو الدم المحبوب دون سبب.

(ـ أردتُ أن أكون قوياً، مثل أخى. لقد عاملتُ بيدٍ من حديد ذلك الخلاسى وذلك الطفل؛ حرمتُ عليهما أن يطأ المنزل الكبير. كما كان يفعل أتأناسيو، أتذكرين؟ لكن حينذاك كان هناك عمال كثيرون. واليوم

لم يبق سوى الخلاسى والطفل. والخلاسى سيذهب.

(ـ لقد صرت وحيداً. تبحث عنى كى لا تبقى وحيداً. تظننى وحيدة، أرى هذا في عينيك المتعاطفتين. أحمق، دوماً، وضعيف: لست ابنى، الذى لم يطلب تعاطفاً من أحد، بل نفس صورتى أنا وأنا زوجة شابة، الآن لا، الان لم أعد كذلك. الآن لدى حياتى برمتها لترافقنى لئلا أعود عجوزاً. العجوز هو أنت، يامن تظن أن كل شىء قد أنتهى بشيبك وسُكْرك وغياب إرادتك. آه، أنا أراك، أراك، أيها المنتَهَك! أنت نفس الشخص الذى صعد معنا إلى العاصمة؛ نفس الشخص الذى أعتقد أن سلطتنا هى ذريعة لتبديدها على النساء والشراب وليست سبباً لتعميقها وجعلها أقوى واستخدامها كسوط؛ نفس الشخص الذى إعتقد أن سلطتنا قد إنتقلت إلينا دون أن يدفع لها ثمناً ولهذا ظن أن باستطاعته البقاء هناك إلى أعلى، دون دعمنا، حين إضطررنا نحن إلى الهبوط من جديد إلى هذه الأرض الساخنة، إلى هذا النبع لكل شئ، إلى هذا الجحيم الذى صعدنا منه والذى إضطررنا إلى الوقوع فيه مرةً أخرى... إنها تفوح! ثمة رائحة أقوى من عرق الخيل ومن الفاكهة والبارود... هل توقفت لتشُمَّ مضاجعة رجل وامرأة؟ الأرض هنا تفوح بهذه الرائحة، برائحة ملاءة حُب وأنت لم تعرًف هذا أبداً... إسمع، آه، لقد ربَّتُ عليك حين وُلدت وأرضًعتك وقلت أنك لى أنا، إبنى أنا، وكنت أتذكرُ فقط اللحظة التى خلقك فيها أبوك بكل عمى حب لم يكن هدفه أن يخلقك، بل أن يمنحنى المتعة: وقد بقى هذا وتلاشًيت أنت... هيا أخرج، أتسمع...

(ـ لماذا لا تتكلمين؟ حسناً... حسناً... استمرى في صمتك، فخيرٌ لى أن آراك هناك، ناظرةً إلىّ هكذا؛ هذا خيرٌ من ذلك الفراش العارى وليالى الأرق تلك...

(ـ هل تبحث عن أحد؟ وذلك الطفل هناك في الخارج، أليس

حياً؟ أظن أننى أفهمك؛ لابد أنك تظن أننى لا أعرف أى شئ، لا أرى أى شىء من هنا... كأننى لا أستطيع أن أشعر بأن جسداً آخر ينتمى إلىَّ يجوب هنا، إمتداداً آخر لإرينيو وأتاناسيو واحداً آخر من آل منشاكا، رجلاً آخر مثلهما، هناك في الخارج، إسمع... مؤكد أنه ينتمى إلىَّ، وأنت لم تبحث عنه... الدم يفهم بعضه دون حاجةٍ إلى الإقتراب...)

ـ لونيرو ـ قال الطفل حين استيقظ من القيلولة ورأى أن الخلاسى يتمددُ، مُنهكاً، فوق الأرض الأشد رطوبة ـ. أريد أن أدخُل المنزل الكبير.

بعدها، حين سيكون كلُّ شئ قد إنتهى، ستكسر العجوز لوديبينيا صمتها وستخرج، مثل غراب بلاً أجنحة، لتصرخ عبر طرقات أعواد الغاب، وعيناها ضائعتان فيً الأعشاب ومرتفعتان، في النهاية، نحو سلسلة الجبال، لتمدَّ ذراعيها نحو الهيئة الأدمية التى تتوقع أن تصادفها، وقد أعشاها الليل الذى لم تتعود عليه في كهفها ذى الشموع المشتعلة دائماً، خلف كل غصن يسوط وجهها الذى تتخلله عروق ميته. وستشم إقتران الأرض ذاك وسَتصيح بصوتها الأصم بالأسماء المنسية وتلك التى تعلَّمتها حديثاً، وستعض بسُعار يديها الشاحبتين، لأن في صدرها شئٌ ـ السنين، الذاكرة، الماضى الذىً كانِ كلَّ حياتها ـ سيقول لها أنه سيوجد ثمة هامش للحياة خارج قرن ذكرياتها: ثمة فرصة لأن تحيا وتُحبَّ كائنا آخر من دمها: شىء لم يمت بموت إرينيو وأتاناسيو. لكن لوديبينيا الآن، في مواجهة السنيور پدريتو، في المخدع الذى لم تغادره طوال خمسة وثلاثين عاماً، ستعتقد أنها المركز الذى تلتقى فيه الذكرى والموجودات المحيطة. ربَّت السنيور پدريتو لحيته القليلة الشعر وعاود الكلام، بصوتٍ عالٍ هذه المرة:

ـ أماه، أنت لا تعرفينً...

جمَّدت نظرةُ العجوز صوت الإبن.

(ـ ماذا؟ أن شيئاً ما كان له أن يدوم؟ أن تلك القوة كانت تقوم على المظاهر الخالصة، على جور كان لابد أن يلقى حتفه على يد جور آخر؟ أن الأعداء الذين أمرنا بإعدامهم بالرصاص لنظل نحن السادة؛ أن الأعداء الذين أمر أبوك بقطع ألسنتهم أو أيديهم ليظل هو السيد؛ أن الأعداء الذين إنتزع منهم أبوك أراضيهم كى يبدأ في أن يكون هو السيد قد تحولوا ذات يوم إلى منتصرين وأضرموا النار في منزلنا؛ مرّوا ذات يوم وانتزعوا منا ما لم يكن لنا، ما إمتلكناه بفضل قوتنا وليس بفضلٍ حقنا؟ أن أخاك رغم كل شىء رفض قبول تقليص ممتلكاته والهزيمة وظل هو أتاناسيو منشاكا، ليس هناك إلى أعلى، بعيداً عن مسرح الأحداث، مثلك، بل هنا إلى أسفل، بين عبيده، مواجهاً الخطر، مغتصباً الخلاسيات والهنديات وليس مثلك، مُغوياً النساء المستعّدات؟ أن من الألف مضاجعةٍ وحشية، لاهية، متعجلة لأخيك لابد أن يبقى برهانٌ، واحد، واحد، على عبوره بأرضنا؟ أن من بين كل الأبناء الذين وضع بذرتهم أتاناسيو منشاكا على طول ممتلكاتنا، لابد أن واحداً قد وُلد على مقربة؟ أنه في نفس اليوم الذى وُلد فيه إبنه في كوخ زنوج ـ كما كان لابد أن يولد، إلى أسفل، لإظهار قوة الأب مرةً أخرى ـ كان أتاناسيو قد...)

في عينى لوديبينيا، لم يخمِّن السنيور بدريتو الكلمات. فنظرةُ العجوز، المنبعثة من الوجه البالى، حلَّقت مثل موجةٍ من المرمر فوق حرارة المخدع السائلة. لم يكن الرجل ذو الثياب المحبوكة بحاجةٍ للإستماع إلى صوت لوديبينيا.

(ـ لا تلومينى على شئ، فأنا أيضاً أبنك... ودمى كان هو نفس دم أتاناسيو... لماذا، إذن، في تلك الليلة...؟ قالوا لى فقط: "الرقيب روباينا، من قوات سانتا آنا القديمة، عثر على ما كنتم قد بحثتم عنه

طويلاً، جثة المقدم منشاكا، في مقبرة كامپيتشى. جندىٌ آخر، رأى أين دفنوا أباك دون شاهد قبر، أخبر الرقيب حين أرسلوه إلى حامية الميناء. وقام الرقيب، هازئاً من قيادته، بسرقة عظام المقدِّم منشاكا ليلاً والآن ينتهز فرصة نقله إلى خاليسكو للمرور من هنا وتسليمكم بقايا والدكم، وهو ينتظركما أنت وأخيك هذه الليلة، بعد الساعة الحادية عشرة، عند فرجة الغابة على مسافة كيلو مترين من مدخل القرية، هناك حيث كان من قبل قائم شنق الهنود المتمردين". ألم يكن هذا ماكراً جداً؟ صدّق أتاناسيو الأمر مثلى تماماً؛ امتلأت عيناه بالدموع ولم يشك أبداً في الرسالة. آى، لماذا كنت قد أتيتُ إلى كوكويا في ذلك الموسم؟ نعم، لأن النقود بدأت تنضب منى في مكسيكو ولم يكن أتاناسيو يبخل علىّ بشئ؛ بل إنه كان يفضِّلُ حتى أن أمضى بعيداً عن هنا، لأنه أراد أن يكون الوحيد من آل منشاكا في الإقليم، حارسك الوحيد. كان هناك ذلك القمر الأحمر لأشد الفترات حرارةً حين وصلنا إلى الموضع على صهوة الجياد. وهناك كان الرقيب روباينا، الذى كنا نتذكره من طفولتنا، متكئاً على جواده النورماندى. إلتمعت أسنانه مثل الأرز، مثلها مثل شواربه البيضاء. كنا نتذكره من طفولتنا. كان قد رافق دائماً الجنرال سانتا آنا وكان قد ذاع صيته كمروض للمهور؛ كان دائما ما يضحك هكذا، كأنه هو نفسه جزءٌ من نكتة هائلة. وهناك، فوق ظهر الجواد النورماندى، كان الكيس القذر الذى إنتظرناه. إحتضنه آتاناسيو فضحك الرقيب كما لم يضحك قط؛ حتى إنفجر بالضحك، وعندها خرج من بين الأعشاب الرجال الأربعة، لامعين تماماً تحت القمر، لأنهم كانوا يتشحون جميعا بالبياض. "الأرواح المباركة!" ـ صاح الرقيب بصوته الضاحك، "الأرواح المباركة من أجل من لم يرضوا بالخسارة

ويريدون إستعادة ما خسروه!" ثم تغيّر وجهه وتقدم هو أيضا نحو أتاناسيو. لم ينظر إلىَّ أحد، أقسم لك؛ تقدموا ناظرين إلى أخى وحده، كأننى غير موجود؛ ولا أدرى حتى كيف استطعتُ إمتطاء الحصان والعدو خارج تلك الدائرة المشئومة للرجال الأربعة الذين كانوا يتقدمون وسواطيرهم مُشهرة خارج أحزمتهم، بينما صاح فىّ أتاناسيو بصوتٍ يتراوح بين الحشرجة والهدوء: "عُد، يا أخى، وتذكَّر ما تحمله" وأحسستُ أنا بكعب البندقية يصطدم بركبتى، لكننى لم أستطع أن أرى كيف أخذ الرجال الأربعة يقتربون من أتاناسيو وضربوه أولاً بصفحات السواطير على ساقيه ثم مزقوه إرباً، هناك تحت القمر، حتى يتم كل شىء في سكون. أىُّ عون كنتُ سأطلبه في الضيعة، وأنا أعرف أنه قد شبع موتاً والأدهى من ذلك أنه مات بأيدى فتيان الزعيم المحلىّ الجديد الذى كان بحاجة إلى قتل أتاناسيو آجلاً أو عاجلاً حتى يصبح كذلك حقاً؟ ومنذ ذلك الحين، منذ الذى سيستطيع أن يعارضه؟ ولم أرد حتى أن أعرف شيئاً عن الحاجز الجديد الذى أقامه، في اليوم التالى، السيدُ الذى هزمنا على أرضنا. لماذا؟ وإنتقل العمال إليه دون أن ينطقوا بحرف؛ فلن يكون أسوأ من أتاناسيو. وكأنما ليقولوا لى أن أظل هادئاً، قضى الفصيل الفيدرالى أسبوعاً كاملاً هناك، دون أن يتحرك، على الحدود الجديدة. كيف كان يمكننى أن أتحرك؟ وقد كان علىّ أن أشكر لهم أنهم عفوا عنى. ولغرض ما، بعد مرور شهر، زار الجنرال بورفيريو ديّاث المنزل الكبير الجديد للإقليم. ولم يتنازلوا حتى عن السخرية. فمع الجسد المشوَّه لأتاناسيو بعثوا إلىّ بعض عظام البقر، جمجمةً ضخمة ذات قرون: ما كان الرقيب يحمله في حقيبه ظهره. ولم أفعل سوى أن علَّقتُ تلك البندقية المحشوَّة على مدخل المنزل، من يدرى؟ بمثابة تكريم لأتاناسيو المسكين. حقاً في تلك الليلة... لم

يخطر ببالى أبداً أننى كنت أحملها تحت سرجى، رغم أن كعبها كان يصطدم بركبتى، خلال ذلك العدو الطويل، يا أماه، الطويل، أقسم لك...)

- لا يجب الدخول هناك أبداً - قال لونيرو ونهض من رقصة الرعب والأسى، من وداعه الصامت في آخر أصيل بجوار الطفل؛ لابد أن الساعة هى الخامسة والنصف ولا يمكن أن يتأخَّر ناظر العمال.

- حاول أن تغوص في باطن الأرض - قال له بالأمس - حاول لأكثر. فلدينا ما هو أفضل من كلاب الصيد وأولئك هم كل الأشقياء الذين يفضلون أن يُسلِّموا أجيراً نافراً على معرفة أنّ أحداً قد نجا من مصيرهم.

لا: نحو الساحل كانت تنطلق أفكار لونيرو، الذى صار، في النهاية، سجين رعب وحنين. وكم رآه الطفل ضخماً حين نهض الخلاسى على قدميه وأخذ يراقب تيار النهر السريع صوب خليج المكسيك! وكم بدت شامخةً أعوامُه الثلاثة والثلاثون من اللحم بلون القرفة والكفين الورديين! كانت عينا لونيرو مصوبتين إلى الشاطئ وبدا جفناه ملوَّنين بالأبيض، ليس بسبب العمر الذى يزيد على هذا النحو من صفاء نظره الجنس، بل بسبب الحنين الذى هو عمرٌ آخر، أكثر قدماً، نحو الوراء. هنالك كان الحاجز الذى يقطع مخرج النهر ويصبغ ببقعة رمادية أولى حدود البحر. لكن على مسافة أبعد، كان يبدأ عالم الجُزُر وبعده يمكن الوصول إلى القارَّة حيث يمكن لواحدٍ مثله أن يضيع في الغابة ويقول أنه قد عاد. وإلى الوراء كانت سلسلة الجبال، والهنود، والهضبة. لم يشأ النظر صوب الوراء. استنشق بعمق ونظر صوب البحر كأنه ينظر صوب تعويذة للحرية والإمتلاء. نزعٌ الطفل قيود الخجل وجرى صوب الخلاسى؛ ولم يصل عناقهُ إلاّ إلى ضلوع لونيرو.

ـ لا تذهب، يا لونيرو.

ـ أيها الطفل كروث، بحق الرب؛ ماذا يمكننا أن نفعل؟

ربت الخلاسيُ المضطرب على شعر الصبى ولم يستطع تجنُّب تلك السعادة، ذلك الإمتنان، تلك اللحظة التى خشى دائما أن تكون بالغة الإيلام. رفع الطفل رأسه:

ـ يجب عليّ أن أحدَّثهم وأقول لهم أنك لا يمكنك الذهاب...

ـ هناك في الداخل؟

ـ نعم، في المنزل الكبير.

ـ إنهم لا يريدوننا هناك، أيها الطفل كروث، لا تدخلن هناك أبداً. تعال، هيا نواصل عملنا. لن أذهب طوال أيامٍ كثيرة. ومن يدرى فربما لن أذهب أبداً.

إستقبل نهر الأصيل الصاخب جسد لونيرو الذى غطس كى يتجنّب كلمات وملمس رفيقه الفتىّ، رفيق حياته كلها. عاد الصبى إلى عمل الشموع وعاود الإبتسام حين تظاهر لونيرو، وهو يسبح ضد التيار، بالترفيص مثل غريق، وانطلق مثل سهم وتشقلب في الماء، وعاود الظهور وبين أسنانه عصا وبعدها، على الضفة، نفض نفسه من الماء وأصدر أصواتاً هزلية، وفي النهاية، جلس وظهره للصبى، أمام قطع اللحاء المصنفرة، وتناول الشاكوش والمسامير. كان عليه أن يفكر في الأمر من جديد: لن يتأخر ملاحظ العمال الآن. فقد غابت الشمس خلف قمم الأشجار. قاوم لونيرو التفكير فيما يجب أن يفكَّر فيه؛ كان نصلُ المرارة يقطع سعادته، التى صارت مفقودة.

ـ أحضر مزيداً من الصنفرة من الكوخ ـ قال للصبى، متيقِّناً من أن تلك هى كلمات وداعه.

كان باستطاعته الذهاب هكذا، بقميصه وبنطلونه الدائمين. لماذا

يحمل أكثر؟ الآن وقد غابت الشمس، سيقف مراقباً عند مدخل الدرب، حتى لا يقترب الرجل ذو المعطف من الكوخ.

ـ نعم ـ قالت لوديبينيا ـ؛ باراكوا تُفهمنى كلَّ شئ. كيف نعيش على عمل الطفل والخلاسى. أتريد الإعتراف بهذا؟ أننا نأكل بفضلهما. ولا تدرى أنت ما تفعل؟

كان من الصعب فهم صوت العجوز الحقيقى؛ فمن طول إعتيادها على الغمغمة الوحيدة، كان ينبثق بصمت وثِقل نبع كبريتى.

ـ ... ما كان سيفعله أبوك وأخوك: أن تخرًج للدفاع عن ذلك الخلاسى وعن الطفل، أن تمنعهم من أخذه... وإذا لزم الأمر، أن تضحى بحياتك حتى لا يدوسونا... هل ستخرج أنت أم أخرج أنا، أيها المنتَهَك؟... أحضر الطفل إلىَّ!... أريد الحديث معه...

لكن الطفل لم يكن يميِّز الأصوات، ولا حتى الوجوه: لم يتبين سوى الظلَّين. خلف ستار الدانتيلا، الآن بينما لوديبينيا، بإيماءة نفاذ صبر، تأمر السنيور پدريتو بأن يشعل الشموع. إبتعد الطفل عن النافذةً وبحث، سائراً على أطراف أصابعه، عن واجهة المنزل الكبير، بأعمدته المكسوَّة بالسنَّاج والشرفة المنسيَّة حيث تتدلى شبكة النوم التى تُستخدم خلال الإحتفالات المستوحِدة. وثمة شئٌ آخر: فوق عارضة الباب العليا، معلقةً من حلقتين صدئتين، كانت البندقية التى حملها السنيور پدريتو تحت سرجه تلك الليلة من عام ١٨٨٩ والتى أبقاها منذ ذلك الحين مُزيَّتةً وجاهزة، بمثابة ملاذٍ أخير لجُبنه، عارفاً أنه لن يستخدمها أبداً.

كانت الماسورة المزدوجة تلمع أكثر من العتبة البيضاء. إجتازها الصبى: ما كانت من قبل صالة المنزل كانت قد فقدت الأرضية والسقف؛ كان الضوءُ الأخضر لساعات الليلِ الأولى يدخل مُنهمراً، مضيئاً أرضاً من العشب والرماد، حيث تنقٌ بعض الضفادع، وفي

الأركان، تجمَّعت مياه المطر. بعدها إنفتح الفناء الملئ بالحشائش وفي العمق أظهر بابٌ خطَّ الضوء للغرفة المسكونة. تصاعدت الأصوات الصادرة من هناك. ومن الطرف المقابل - ما تبقىٌ من المطبخ القديم - ظهرت الهندية باراكوا، بعينين غير مُصدِّقتين: أخفى الطفل وجهه في عتمة الصالة. خرج إلى الشرفة واستغَّل الطوب المكسور ليبلغ عارضة الباب العليا والبندقية. تصاعد ضجيج الأصوات. كانت تصل إليه في مزيج من الغضب الحادَّ والاعتذارات المغمغمة. وأخيراً، خرج من المخدع شبحٌ طويل: كانت أذيالُ معطف الفراك ترتطم بقوةٍ والحذاء الجلدى يُدوِّى فوق بلاط الدهليز. لم ينتظر الصبى فقد كان يعرف الطريق الذى ستسلكه هاتان القدمان؛ جرى والبندقية بين ذراعيه عبر الدرب المؤدِّى إلي الكوخ.

وكان لونيرو منتظراً، بعيداً عن المنزل الكبير وعن الكوخ، في الموضع الذى تلتقى فيه طُرُق الأرض الحمراء. لابد أنها السابعة مساءً. الآن لا يمكن أن يتأخر. تفحِّص إتجاهى الطريق الواسعة. لابد أن حصان ناظر العمال ذاك سيثير سحابة ضخمةً من الغبار. لكن ليس ذلك الدوىّ البعيد، ذلك الإنفجار المزدوج الذى سمعه لونيرو خلفه والذى منعه للحظةٍ من الحركة أوالتفكير.

لأن الصبى كان قدً ربض بين أوراق الشجر وبين يديه البندقية، خائفاً أن تبلغه الخطوات ورأى مرور الحذاء الضيِّق، والبنطلون الرصاصى وأطراف المعطف: نفس معطف الأمس: لم يعد لديه شك، خصوصاً حين دخل ذلك الرجل الذى لا وجه له الكوخ وصاح: - لونيرو! وتبين الصبىُ في صوته النافذ الصبر الإنزعاج والتهديد اللذين كان قد لاحظهما بالأمس في حركات الرجل ذى المعطف الذى بحث عن الخلاسى. من كان سيبحث عن الخلاسى، إن لم يكن لأخذه بالقوة؟ وكانت البندقية ثقيلة، بقوةٍ أطالت الحنق الصامت للطفل:

حنقٌ لأنه عرف الآن أن للحياة أعداءً ولم تعدْ ذلك الانسياب الذى لا ينقطع للنهر وللعمل؛ حنقٌ لأنه الآن إكتشف الإنفصال. خرجت من الكوخ الساقان المكسوتان بالبنطلون، والمعطف الرصاصى اللون وصوّب هو الماسورة المزدوجة إلى أعلى وضغط الزناد.

- كروث! يا بنى العزيز! - صرخ لونيرو حين إقترب من السحنة المحطَّمة للسنيور پدريتو، من الصديرى الملطخ بالأحمر، من الإبتسامة المفتَعَلَة للموت المباغت -. كروث!

والصبى، حين خرج مرتجفاً من بين الأوراق، لم يكن لديه سببٌ لتمييز ذلك الوجه المغمور بالدم والبارود، وجه رجل كان يراه دائماً عن بعد، شبه عار من الثياب، بدمجانة الخمر المرفوعة والفانلة المثقوبة فوق صدر أجردٍ وشاحب. لم يكن هذا هو ذاك، كما لم يكن هو السيد النبيل الّذى هبط من مدينة مكسيكو، أنيقاً ومهندماً: من كان لونيرو يتذكره؛ كما لم يكن هو الطفل الذى هدهدته، منذ سبعين سنة، يدا لوديبينيا منشاكا: كان مجرَّد سحنةٍ دون ملامح، وصديرى ملطخ بالدم، وتقطيبة حمقاء. وليس ثمة سوى زيز الحصاد. لم يتحرك لونيرو والطفل، لكن الخلاسى فهم. مات السيدُ على يديه. وفتحت لوديبينيا عينيها، بلَّلت سبّابتها بشفتيها وأطفأت شمعة رأس الفراش: سارت نحو النافذة، وهى تحبو تقريباً. شئٌ ما قد حدث. كانت النجفة قد عاودت الطقطقة. حدث إلي الأبد. وقد أرجفتها الطلقة المزدوجة. أنصتت إلى الأصوات الضائعة، حتى خبت وعاودت الحشراتُ الطنين. ليس ثمة سوى زيزُ الحصاد. تكوَّرت باراكوا في المطبخ؛ تركت النار تنطفئ وارتجفت وهى تفكر في أن أزمنة البارود قد عادت. كذلك لم تتحرك لوديبينيا، حتى غلبها في الصمت ذلك الغضب الحادُّ الذى لم يتسع له سجن المخدع فخرجت تتعثرَّ، ضئيلة تحت السماء الليليَّة التى تُطلُّ من كل فجوات المنزل

المحترق، دودةٍ صغيرة بيضاء ومُجعدة تمدُّ ذراعيها على أمل أن تلمس هيئةً أدمية عرفت طوال ثلاثة عشر عاماً أنها قريبة، لكنها الآن فقط تودُّ أن تلمسها وتناديها بإسمها، بدل أن تتركها تنمو في حدسها: كروث، كروث* دون اسم ولا لقب حقيقيين، عمَّدهُ الخلاسيون، بمقاطع إيسابيل كروث أو كروثٌ إيسابيل، الأم التى طردها أتاناسيو منهالاً عليها ضرباً: أول إمرأة في المكان تمنحه طفلاً. تجاهلت العجوزُ الليل؛ إرتجفت ساقاها، لكنها أصرت على السير، على جرجرة نفسها وذراعاها مفتوحتان، مستعدَّةٌ لملاقاة آخر عناق في حياتها. لكن لم يقترب سوى ضجيج الحوافر ذاك وتلك السحَّابة من الغبار. سوى ذلك الجواد المتصبِّب عرقاً والذى توقف صاهلاً حين عبرت الطريق تلك الهيئة المحدودبة للوديبينيا وصرخ ملاحظ العمال من فوق السرج:

ـ أين ذهب الطفلُ والزنجى، أيتها العجوز الماكرة؟ أين ذهبا، قبل أن أطلق عليهما الكلاب والجنود؟

ولم تعرف لوديبينيا كيف تجيب إلاّ بقبضةٍ عصبية، تهزُّها في الليل وبلعنتها الطبيعية:

ـ ـ أيها المنتَهَك ـ قالت للوجه الذى لم تستطع رؤيته، الجالس عالياً فوق سرجه ـ. أيها المنتَهَك: كرّرت وزفرات الحصان قريبةٌ من قبضتها المرفوعة.

إلتفّ السوط على ظهرها وسقطت لوديبينيا على الأرض، بينما دار الحصان حول نفسه، وغمرها بالتراب وانطلق بعيداً عن الضيعة.

---

* كـــروث Cruz : تعنى الصليب. وقد جرت العادة في التقاليد الكاثوليكية على إطلاق لقب الصليب (كروث) على من لا يُعرف له أبٌ محدَّد-م

أنا أعرف أنهم يخترقون جلدَ مرفقى بتلك الإبرة؛ أصرخ قبل أن أحسَّ بأى ألم؛ إنذار ذلك الألم يسافر إلى مخَّى قبل أن يحسَّ به جلدى... آه... كى يحذِّرنى من الألم الذى سأحسُّه... كى أتأهب حتى أنتبه... حتى أحس بالألم بقوةٍ أكبر... لأن الإنتباه... يُضعِفُ... يُحوِّلنى إلى ضحية... حين أنتبهً... للقوى التى لن تستشيرنى... لن تضعنى في الإعتبار... بعد: أجهزة الألم... الأبطأ... تهزم أجهزة رد فعلى الإنعكاسى... ألمٌ لم يَعُدْ... ألم الحقنة... بل هو ذاته... أعرف... أنهم يلمسون بطنى... بحرص... البطن المنتفخة... الطريَّة... الزرقاء... يلمسونها... لا أحتملً... يلمسونها... بتلك اليدّ المغسولة بالصابون... ذلك الإحتكاك الذى يحلق بطنى، وعانتى... لا أحتمله... أصرخ... لابد أن أصرخ... يمسكون... ذراعىَّ... كتفىَّ... أصرخ أن يتركونى... أن يتركونى أموت في سلام... لا تلمسونى... لا أحتمل أن تلمسوا... تلك المعدة الملتهبة... الحسَّاسة... مثل عين مجروحة... لا أحتمل... لا أدرى... يوقفوننى... يسندوننى... لاً تتحرك أمعائى... لا تتحرك، الآن أحسُّ بذلك، الآن أعرف ذلك... الغازات تنتفخ، لا تخرج، تشلُّ... لا تنساب... تلك السوائل التى كان يجب أن تنساب، لم تعد تنساب... تُورِّمنى... أعرف... ليست لدىّ حرارة... أعرف... لا أعرف إلى أين أتحرك، فمن أطلبُ العون، التوجيه، حتى أنهض وأمشى... أدفع... أدفع... لا يصل الدم... أعرف أنه لا يصل إلى حيث كان يجب أن يصل... كان يجب أن يخرج من فمى... من إستى... لا يخرج... لا يعرفون... يُخمنون...

يتحسَّسوننى... يتحسَّسون قلبى المتسارع... يلمسون معصمى الذى لا نبض فـيـه... أنثنى... أنثنى إلى أثنين... يمسكوننى من إبطىَّ... أنعس... يمدِّدوننى... أنثنى... أنعس... أقول لهم... لابد أن أقول لهم قبل أن أنعس... أقول لهم... لا أدرى من هم... "لنعبر النهر... على صهوة الجياد"... أشمُّ نَفَسى ذاته... العَطِن... يمُدِّدوننى... ينفتح الباب... تنفتح النوافذ... أجرى... يدفعوننى... أرى السماء... أرى الأضواء الزائغة التى تمرُّ أمام بصرى... ألمسُّ... أشمُّ... أرى... أذوق... أسمع... يحملوننى... أمرُّ بجانب... بجانب... في دهليز... مُزيَّن... يحملوننى... أمرُّ بجانب وأنا ألمس، وأشمُّ، وأذوق، وأرى ، وأشم المنحوتات الباذخة ـ الترصيعات الوافرة ـ المصبوبات من الجصّ والذهب ـ الصناديق المُطعَّمة بالعظم والصَدَف ـ الأقفال والمزاليج ـ الخزائن ذات المصاريع وفتحات المفاتيح الحديدية ـ المقاعد الفوَّاحة من الصنوبر المكسيكى ـ كراسى الجوقة ـ الحِليات العليا والأفاريز السُفلى الباروكية ـ مساند المقاعد المحنية ـ الدعامات المخروطة ـ الأقنعة المتعدِّدة الألوان ـ المسامير البرونزية ـ الجلود المنقوشة ـ أقدام الموبيليا ذات المخالب والكُرات ـ المقاعد المكسوَّة بالدمقس ـ عباءات الكهنة ذات الخيوط الفضية ـ الأرائك المخملية ـ موائد قاعات الطعام ـ الأوانى والجرار ـ أسطح الموائد المشطوفة الحافة ـ الأسرَّة ذات المظلاَّت والطنَافس ـ الأعمدة المُحزَّزة ـ شعارات النبالة والحواف المنقوشة ـ الأبسطة الصوفية ـ المفاتيح الحديدية ـ اللوحات الزيتية المتشقِّقة ـ أقمشة الحرير والكشمير ـ الأصواف والتافتاه ـ آنية الكريستال والقناديل ـ الأطباق المرسومة يدوياً ـ دعامات السقف الدافئة ـ هذا لن يمسُّوه... هذا لن يكون ملكهم... الأجفان... يجب أن أفتح أجفانى... إفتحوا النوافذ... أتدحرج... يداى ضخمتان... قدماى هائلتان... أنام... الأضواء التى تمرُّ أمام جفونى المفتوحة...

أضواء السماء... إفتحو النجوم... لا أدرى...

أنـت ستكون هناك، فوق أولى قمم الجبل الذى سيزداد وراءك إرتفاعاً وتمدُّداً... وعند قدميك، سينحدر السفح الذى مازال مُلتفّاً بالأغصان الوارفة والصرير الليلى، حتى يذوب في السهل الإستوائى، بساط الليل الأزرق الذى سيرتفع كروياً وشاملاً كلَّ شئ... ستتوقف عند أول منبسطٍ من الصخور، ضائعاً في عدم الفهم المضطرب لما قد حدث، لنهاية حياةٍ إعتقدت سراً أنها أبدية... حياة الكوخ الملتفِّ في شبكة أزهار الريف، حياة الإستحمام والصيد في النهر، حياة العمل في شمع الآس، حياة صحبة الخلاسى لونيرو... لكن في مواجهة إختلاجك الداخلى... دبوس في الذاكرة، وآخر في حدس المستقبل... سينفتح هذا العالم الجديد لليل والجبل وسيبدأ ضوؤه الداكن في شق طريقه في العينين، الجديدتين أيضا والمُصطبغتين بما كفَّ عن كونه حياةٍ ليتحول إلى ذكرى، بطفل سينتمى الآن إلى ما لا يمكن ترويضه، إلى ما هو غريب عن قواه الذاتية، عن إتساع الأرض... متحرِّراً من حتمية موضع وميلاد... مُستعبداً لمصير آخر، هو الجديد، المجهول، الذى يتبرعم خلف سلسلة الجبال التى تضيؤها النجوم. جالساً، مستعيداً أنفاسك، ستتفتح على البانوراما الشاسعة المباشرة: سيصل إليك ضوء السماء المحتشدة بالنجوم مُتصلاً ودائماً... ستدور الأرض

في مسارها المنتظم حول محور خاص بها حول شمس مُتسيِّدة... ستدور الأرض والقمر حول نفسيهما وأحدهما حول الآخر وسيدوران كلاهما حول المجال المشترك لجاذبيتهما... ستتحرك كلُّ توابع الشمس داخل حزامها الأبيض وسيتحرك سيلُ البارود السائل في مواجهة المجموعات الخارجية، حول هذه القبة الصافية للّيل الاستوائى، في الرقصة الأبدية للأصابع المتشابكة، في الحوار الكونى دون إتجاه ودون حدود... وسيواصل الضوءُ الخافق غمرك، أنت، والسهل، والجبل بإصرار غريب عن حركة النجمة وعن دوران الأرض، والكوكب، والنجم، والمجرَّةً، والسديم؛ غريب عن الإحتكاكات، والتلاحمات، والحركات المرنة التى توحِّد وتضغط قوة العالم، والصخر، ويديك المشتبكتين تلك الليلة في أول تعجُّب منذهل... ستودُّ تثبيت بصرك في نجمة واحدة فقط والتقاط كلّ ضوئها، ذلك الضوء البارد، اللامرئى مثل اللون الأرحب لضوء الشمس... لكن ذلك الضوء لا يجعل الجلد يحسّ به... ستزرُّ عينيك وفي الليل مثلما في النهار لن تستطيع رؤية اللون الحقيقى للعالم، المحظور على عيون البشر... ستتوه، شارداً، في تأمُّل الضوء الأبيض الذى سيخترق حَدَقتيك بإيقاعه الموزون والمتقطع... من كلِّ منابعه، سيبدأ كلُّ ضوء الكون سيره السريع والمنحنى، منطوياً حول الحضور العابر للأجرام النائمة للكون ذاته... عبر التركيز المتحرك لما هو ملموس، ستشتبك أقواس الضوء، وتنفصل وستخلق في دوامها السريع الإطار الكلىّ، هيكل الكون... ستحسُّ بوصول الأضواء وفي نفس الوقت... بقرب النكهات الضئيلة للجبل والسهل: الآس والپاپايا، عبق الليل والتاباتشين*، صنوبر الخشب وزنبق - الغار، الفانيليا والتيكوتيهوى**، البنفسج البرّى، الميموزا، زهرة

---

* tabachín : اسم شعبى لشجيرة تكثر في المكسيك-م

** tecotehue : نبات عطرى.

النمر... ستراها تتراجع بوضوح، وتغوص باستمرار إلى الخلفية، في إنحسار مثير للدُّوار لمدِّ الجُزُر الثلجية... أبعد باستمرار عن الإنفتاح الأول والتفجرَّ الأول... سيندفع الضوءُ نحو عينيك؛ وسيندفع في نفس الوقت نحو الحافةِ الأبعد للفضاء... ستُنشبُ يديك في المستقرِّ الصخرى وستغمضُ عينيك... ستُعاودُ سماعَ الطنين القريب لزيز الحصاد، وثُغاء قطيع شاردٍ... سيبدو أن كلَّ شئ يسير، في لحظة العيون المغمضة تلك، وفي وقت واحد، إلى الأمامً، وإلى الوراء، وإلى الأرض التى تسنده... ذلك الصقر الذى يطير مُقيَّداً بالإنجذاب إلى أعمق إنعطافات نهر إقليم بيراكروث والذى سيحُطُّ بعدها على ثبات صخرةٍ بارزة، وسرعان ما يشرع في الطيران الذى سيقطع، في موجاتٍ داكنة، الإصرار المتّصل للنجوم... وأنت لن تحسَّ بشئ... لن يبدوِ أن شيئاً يتحرك في الليل: ولا حتى الصقر سيقطع السكّون... ولن تُحسَّ بالسير، والدوران، والحراك اللإنهائى للكون في عينيك، وقدميك، وعنقك الهادئة جميعاً... ستتأمل الأرض النائمة... الأرض كلَّها: الصخور والعروق المعدنية، وكُتل الجبل، وكثافة الريف المحروث، وتيار النهر، والبشر والبيوت، والحيوانات والطيور، والطبقات المجهولة للنار تحت ـ الأرضية، ستُعارضُ الحركة غير القابلة للإنعكاس والتى لا يمكن وقفها لكن هذه الأشياء لن تقاومها... ستلعب بحصاةٍ، إنتظاراً لوصول لونيرو والبغلة: ستلقيها في المنحدر كى تُحقق دقيقةً من الحياة الخاصة بها، السريعة، الحيوية: شمساً ضئيلة تائهة، كاليدو سكوباً سريعاً من الأضواء المزدوجة... تكاد تعادلُ في سرعتها سرعة الضوء الذى يتضاد معها؛ وعلى الفور، تتحول إلى حبةٍ ضائعة عند قدم الجبل، بينما يتابع وميض النجوم سريانه من منبعهً، بالسرعة الكلِّية وغير المحسوسة... سيتوه بصرُك في تلك الهاوية الجانبية التى تدحرجت فيها الحصاة... ستسند ذقنك على كفك وسيبرز منظر

وجهك الجانبى فوق خط الأفق الليلى... ستكون أنت ذلك العنصر الجديد في المشهد والذى سرعان ما سيختفى ليبحث، على الجانب الآخر من الجبل، عن المستقبل غير الأكيد لحياته... لكن الآن، هنا، ستبدأ الحياة في أن تصبح ماسيأتى وستكف عن أن تكون مامضى... وستموت البراءة، ليس بفعل الذنب، بل بفعل الدهشة العاشقة... على كل هذا الإرتفاع، على كل هذا الإرتفاع، لم تكن أبداً... لم تكن قد رأيت أبداً تقاطعات البراح... لن يعود القُربُ المألوف للعالم الملتصق بالنهر سوى بعدٍ واحد لهذا الإتساع الهائل الذى لا يخطر على البال... ولن تشعر بالضآلة وأنت تتأملُ وتتأمل، في ذلك الإسترخاء الهادئ لعدم اليقين، حشودَ السُحُب النائية، والإنبساط المتماوج للأرض، والصعود الرأسى للسماء... ستشعر إنك أفضل... منظمٌ وبعيد... لن تعرف أنك فوق أرضٍ جديدة، بزغت من البحر خلال الساعات الأخيرة، بالكاد، لتلطُم سلسلة جبالٍ بأخرى وتتكرمش مثل رق أطبقت عليه اليدُ القويةُ للحقبة الثالثة... ستشعرُ أنك عالٍ فوقَ الجبل، متعامدٍ على الريف، موازٍ لخط الأفق... وستشعرُ أنك في الليل، في الزاوية الضائعة للشمس: في الزمن... هناك في البعيد، هل تكون تلك المجرّات، مثلما تبدو للعين المجرّدة، واحدةً بجوار الأخرى، أم يفصل بينها زمنٌ لا يُحصى؟ سيدور كوكب آخر فوق رأسك وسيكون زمن الكوكب مطابقاً لذاته: ربما يُستنفدُ الدوران الداكن والنائى في هذه اللحظة، التى هى اليومُ الوحيد للعام الوحيد، المقياسُ الزئبقى، المنفصل إلى الأبد عن أيام أعوامك... ذلك الزمن لن يكون الآن زمنك، مثلما لن يكون حاضر النجوم التى ستعاودُ أنت تأملها، مُستشرفاً الضوء المنصرم لزمن غريب، ربما كان ميتاً... فالضوء الذى ستراه عيناك لن يكون سوى شبح الضوء الذى بدأ رحلته منذ سنواتٍ عديدةٍ، منذ قرونٍ عديدةٍ بحساب أيامك: هل ستكون تلك النجمة

مازالت حية؟... ستكون حية بينما تراها عيناك... ولن تعرف أنت إلاّ أنها كانت ميتةً بينما تنظرُ إليها، إنها الليلةُ المستقبليةُ التى ينتهى فيها من الوصول إلى عينيك ذاتها - إن كان لايزال موجوداً - الضوءُ الذى أنبثق فعلاً، في حاضرِ النجمة، حين كانت عيناك تتأملان الضوء العتيق وتحسبان أنهما تُعمدانه بنظرتهما... ميتٌ في منبعه ما سيكون حياً في حواسك... ضائع، مُتكلِّسٌ، نبعُ الضوء الذى سيواصل رحلته، ولم يعد له منبعٌ، نحو عينى صبى ذات ليلة في زمن آخر... في زمن أخر... زمن سيمتلئ بالحياة، بالأفعال، بالأفكار، لكنه لن يكون أبداً فيضاً لا يلين بين أولى علامات الماضى وآخر علامات المستقبل ... زمن لن يوجد إلا في إعادة تركيب الذاكرة المعزولة، في تحليق الرغبة المعزولة، ويضيعُ فور أن تنضب فرصةُ الحياة، ويتجسَّدُ في هذا الكائن الفريد الذى هو أنت، في طفل، قد أصبح عجوزاً محتضراً، يغازلُ في إحتفال غامض، هذه الليلة، الحشرات الصغيرة التى تتسلَّق صخور المنحدر والكواكبُ الضخمة التى تدور في صمت فوق العمق اللانهائى للفضاء... لن يحدث شئٌ في الدقيقة الصامته للأرض، ولقبة السماء، ولك... ستوجد كلُّ الأشياء، ستتحرك، وستنفصل، في نهر من التحولات التى، في تلك اللحظة، ستحلِّها، وتجعلها تشيخ وتُفسدها جميعاً، دون أن يرتفع صوتُ تحذير... الشمس تحترق حية، والحديد يتهاوى إلى تراب، والطاقة التى بلا هدف تترسَّب في الفضاء، والكُتل تستنفد نفسها في الإشعاع، والأرضُ تَبرُدُ موتاً... وأنت ستنتظرُ خلاسياً وبهيمة حتى تعبر الجبل وتبدأ في الحياة، في ملء الوقت، في القيام بخطوات وحركات لعبةٍ جنائزية ستتقدم فيها الحياةُ في نفس الوقت الذى تموت فيه الحياةُ؛ في القيام بخطوات وحركات رقصة جنونيةٍ سيلتهم الزمنُ فيها الزمنَ ولن يستطيع أحدٌ أن يوقف، حياً، المسارَ الذى لا ينعكس للتلاشى... الطفل، والأرض، والكون: ذات يومٍ،

لن يكون في الثلاثة لا ضوء، ولا حرارة، ولا حياة... لن يكون ثمة سوى الوحدة الكلّية، المنسيَّة، بلا إسم وبلا إنسان يُسمِّيها: زمان ومكان ذائبين، مادة وطاقة... وسيكونُ لكُل الأشياء نفسُ الأسم... لا أسم... لكن ذلك لم يحنْ بعد... فمازال البشرُ يولدون... ومازالت ستسمع الـ... "أوووو" المطوطة للونيرو وصوت السنابك فوق الصخر... ومازال قلبك سيدق بإيقاع متسارع، واعياً في النهاية بأن المغامرة المجهولة تبدأ من اليوم، بأن العالم ينفتح ويُقدم لك زمنه... أنت موجود... أنت واقف على قدميك في الجبل... أنت تجيبُ بصفير على ترديد لونيرو... سوف تحيا... سوف تكون نقطة إلتقاء وسبب النّظام الكونى... فجسدك له سبب... وحياتك لها سبب... أنت الآن، وستكون، وكنت الكون متجسداً... من أجلك ستوقد المجرّات وستشتعل الشمس... حتى تحبَّ وتحيا وتكون... حتى تعثرُ على السرِّ وتموت دون أن تستطيع مشاركة أحد فيه، لأنك لن تملكهُ إلاّ حين تُغمضُ عيناك إلى الأبد... أنت، على قدميك، كروث، ثلاثة عشر عاماً، على حافة الحياة... أنت، العينان خضروان، الذراعان نحيلتان، الشعر كسته الشمس بلون النحاس... أنت، صديق خلاسى منسى... أنت ستكونُ إسم الخلاسى... أنت ستسمع الـ "أووو" المطُوطة لُلونيرو... أنت تستلزمُ وجود كل لوحة الكون اللانهائية، التى لا قاع لها... أنت ستسمع السنابك فوق الصخر... فيك تتلامسُ النجمةُ والأرض... أنت ستسمع طلقة البندقية خلف صرخة لونيرو... وستسقط فوق رأسك، كأنها عادت من رحلة دون بدايةٍ ودون نهايةٍ في الزمن، وعودُ الحب والوحدة، وعودُ الكراهية والجهد، وعودُ العنفً والرقة، وعودُ الصداقة وخيبة الأمل، وعودُ الزمن والنسيان، وعودُ البراءة والدهشة... أنت ستسمع صمت الليل، دون صرخة لونيرو، ودون صدى السنابك... في قلبك، المفتوح على الحياة، هذه الليلة؛ في قلبك المفتوح...

(١٨٨٩ : ٩ أبريل)

هــــو منطو على نفسه، في مركز تلك التقلُّصات، هو، برأسه الداكنة من الدم، مُتدلياً، معلقاً بأشدِّ الخيوط رقةً: مفتوحاً على الحياة، أخيراً. أمسك لونيرو بذراعى إيسابيل كروث أو كروث إيسابيل، شقيقته؛ أغمض عينيه حتى لا يرى ما يجرى بين ساقى شقيقته المفتوحتين. سألها، مُخفياً وجهه:

"ـ هل أحصيت الأيام؟" ولم تستطع هى الإجابة لأنها كانت تصرخ، تصرخ إلى الداخل، وشفتاها مضمومتين، وأسنانها مُطبقة وأحسّت أن الرأس قد ظهرت فعلاً، أنه قد جاء فعلاً بينما كان لونيرو يمسكها من كتفيها، وحده لونيرو، بإناء الماء الذى يغلى فوق النار، والمطواة واللفافات الجاهزة وكان هو يخرج من بين ساقيها، يخرج تدفعه تقلصات البطن، التى تزداد تتابعاً باستمرار وكان على لونيرو أن يُفلت كتفي كروث إيسابيل، إيسابيل كروث، ويركع بين الساقين المفتوحتين، ويتلقى تلك الرأس الرطبة، السوداء، والجسد الصغير اللزج، المربوط بكروث إيسابيل، إيسابيل كروث، الجسد الصغير المنفصل أخيراً، الذى تلقّته يدا لونيرو، الآن وقد كفَّت المرأة عن الأنين، وتنفست، أطلقت لهاثاً ثقيلاً، وجففت براحتيها البيضاوين عرق وجهها، وبحثت، بحثت عنه، مدَّت ذراعيها: قطع لونيرو الحبل السُّرِّى، وربط طرفه، وغسل جسده، ووجهه، وهدهده، وقبَّله،، وأراد أن يعطيه لشقيقته لكن

إيسابيل كروث، كروث إيسابيل كانت تئنُّ بتقلُّص جديد وكان الحذاء يقترب من الكوخ الذى تتمدد فيه المرأة فوق التربة اللينة، تحت سقف سعف النخيل، كان الحذاء يقترب ولونيرو يمسك بذلك الجسد ورأسه إلى أسفل، ويضربه براحته المفتوحة حتى يبكى، حتى يبكى بينما كان الحذاء يقترب: بكى: بكى هو وبدأ يحيا...

أنا لا أعرف... لا أعرف... هل هو أنا... هل كنت أنت هو... هل أنا ثلاثتنا... أنت... أنا أحملك داخلى وسوف تموت معى... ياإلهى... هو... حملتُه في داخلى وسوف يموت معى... ثلاثتنا... الذين تكلّموا... أنا... سأحمله في داخلى وسيموتُ معى... وحيداً...

أنت لن تعودَ تعرف: لن تتعرَّف على قلبك المفتوح، هذه الليلة، قلبك المفتوح... يقولون "مشرط، مشرط"... أنا أسمع ذلك فعلاً، أنا من أظل أعرف حين لا تعودُ أنت تعرف، وقبل أن تعرف... أنا من كنت هو، سأكون أنت... أنا أسمع، في عمق الزجاج، خلف المرآة، في العمق،

إلى أسفل، فوقك أنت وهو... "مشرط"... يفتحونك... يكوونك... يفتحون جدران بطنك... تقطعها السكين الرفيعة، الباردة، الدقيقة... يعثرون على ذلك السائل في بطنك... يقطعون تجويف حُرقُفتك... يعثرون على تلك الحزمة من الطيّات المعوية المتهيجة، المنتفخة، المتصلة بالمساريقا الصلبة والمحتقنة بالدم... يعثرون على تلك الشريحة من الغرغرينا الدائرية... المغموسة في سائل له رائحة عفنة... يقولون، يكرِّرون... "إحتشاء"... "إحتشاء في المساريقا"... ينظرون إلى أمعائك المتمددة، بلون أحمر قان، شبه أسود... يقولون... يكرِّرون..."نبض"... "درجة حرارة"... "ثقب بالإبرة"... الأكل، القضم... السائل النزيفي يطفر من بطنك المفتوحة... يقولون، يردِّدون... "لا فائدة"... "لا فائدة"... الثلاثة... ذلك التجلّط ينفصل، سينفصل عن الدم الأسود... سيسيل، سيتوقف... توقف... صمتك... عيناك المفتوحتان... بلا رؤية... أصابعك المثلَّجة... بلا ملمس... أظافرك السوداء، الزرقاء... فكاك المرتعشان... أرتيميو كروث... إسم... "لا فائدة"... "قلب"... "تدليك"... "لا فائدة"... لن تعود تعرف... حملتُك بداخلي وسأموتُ معك... ثلاثتنا... سنموت... أنت... تموتُ... أنت متَّ... سأموت.

هافانا، مايو ١٩٦٠

مكسيكو، ديسمبر ١٩٦١

LAMUERTE DE ARTEMIOCRUZ

تحتلُّ هذه الرواية مكانةً بارزةً إنتاج فوينتس الغزير والمتنوع. فقد كانت حجر الزاوية فى صرح الشهرة العالمية التى نالها عن جدارة كواحد من أهم أقطاب كوكبة تجديد الكتابة الأمريكيّة اللاتينية فى الستينات. وقد توِّجت هذه الشهرة بحصوله على جائزة ثربانتس - نوبل الآداب المكتوبة بالإسبانية - عام ١٩٨٧.

والرواية هى حوار مرايا، يديره فوينتس ببراعة تثير الإعجاب، بين جوانب شخصية تحتضرُ يتجسَّدُ فيها كل تاريخ المكسيك الحديث.

نحن هنا أمام بنية سردية محكمة وغير مسبوقة تطرح طموحاً بعيد المدى وتجريبيةً جسورة وإعادة إبتكار عميقة للغة وبذلك تكشف عن أبرز سمات مؤلفها: ولعه الذى يقارب الهوس بتاريخ المكسيك، الحاضر حضوراً طاغياً فى كل كتاباته: وبراعته التقنية الهائلة التى تمنح هذه الرواية مذاقاً شديد التفرد بين كل إبداع معاصريه.

لوحة الغلاف: للفنان محمد عبله
تصميم: عاطف عبد الحفيظ